

فصول في ثقافة العرب قبل الإسلام



د. إبراهيم عوض

مكتبة جزيرة الورد
١٤٣٧ هـ - ٢٠١٥ م

مَكْتَبَةُ
لِسَانِ الْعَرَبِ



www.lisanarb.com

فصول في ثقافة العرب قبل الإسلام

د. إبراهيم عوض

مكتبة جزيرة الورد

١٤٣٧ هـ - ٢٠١٥ م

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com

كلمة الافتتاح

يتناول الكتاب الذي بين يدي القارئ بالبحث بعضاً من جوانب الثقافة العربية قبل الإسلام. ولكن تحدد المفاهيم أود أن أوضح بادئ ذي بدء أننى أستعمل مصطلح "الثقافة" بمعنى النشاط الإنسانى المعنى وما يتمثل فيه هذا النشاط من لغة ودين وفكر وأدب وفن وقيم وسلوك وعادات وتقالييد وقوانين ونظم سياسية واجتماعية واقتصادية وتربوية... الخ. والثقافة، كما أفهمها، هى جزء من "الحضارة"، وهذه تشمل عندي "المدنية" و"الثقافة" جمياً، أي النشاط الإنسانى فى جانبيه الاثنين: الجانب المادى، والجانب المعنى. صحيح أن هناك من العلماء من يضع "الثقافة" فى مقابل "الحضارة"، ومنهم من يقسم "الثقافة" إلى "ثقافة معنوية" و"ثقافة مادية"، مما يجعلها ترافق "الحضارة" كما آخذ بتعريفها، ومنهم...، ومنهم... حتى لقد ذكرت تشارلت سيمور سميث فى معجمها: "Dictionary of Anthropology" (ضمن ما كتبه تحت عنوان "Culture") أن اثنين من الباحثين فى هذا المجال قد استطاعا أن يرصدا عام ١٩٥٢م، أي قبل أكثر من نصف قرن، نحواً من ٣٠٠ تعريف لذلك المصطلح، إلا أن لكل دارس مع ذلك الحق فى أن يأخذ بالمعنى الذى يقتنع به ويرتاح عقله إليه. والمهم أن يحدد مصطلحاته حتى لا تفرق بينه وبين قرائه السبيل.

ويطلق الباحثون على تاريخ العرب قبل الإسلام كلمة "الجاهلية"، وهذا المصطلح يحتاج هو أيضا إلى تحديد . وقد تناول مثلاً د. شوقي ضيف في أول الفصل الثاني من كتابه: "العصر الجاهلي" هذا الاسم قائلاً إن "الجاهلية" ليست مشتقة من "الجهل" الذي هو ضد "العلم" ، بل من "الجهل" الذي هو ضد "الحلْم" . أي أن الجاهلية عنده لا تعنى عدم المعرفة، بل تعنى السفه والغصب والتزق . ثم راح يستشهد على تفسيره هذا ببعض أمثلة من القرآن والحديث والشعر الجاهلي ورَدَّ فيها كلها كلمة "الجهل" بذلك المعنى . وكل هذا جميل وعلى العين والرأس، إلا أنها نستطيع أيضاً أن نجد في القرآن وال الحديث والشعر الجاهلي شواهد أخرى ورد فيها "الجهل" بمعنى عدم العلم، كقوله سبحانه عن القراء المتعففين الذين لا يعدون أيديهم بالسؤال ففيظنون من يجهل أحواهم أنهم أغبياء: "يحسِّبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْبَيَاءَ مِنَ الْعَفْفِ" . تعرَّفهم بسيماهم" ، قوله جل شأنه: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَنِيَّا فَتَبَيَّنُوا أَنْ تَصِيبُوا قَوْمًا بِمَا
قَصَبُوهُا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِين" ، قوله عليه السلام: "إِنْ بَنِيَ السَّاعَةِ
لَا يَأْمُدُ فِيهَا الْجَهْلُ وَيُرْفَعُ فِيهَا الْعِلْمُ وَيَكْثُرُ فِيهَا الْهُرْجُ . وَالْهُرْجُ الْقَبْلُ" ،
"أَلَا إِنْ رَبِّيْ أَمْرَنِيْ أَنْ أَعْلَمَكُمْ مَا جَهَلْتُمْ مَا عَلِمْنِيْ" ، "إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْزَعُ الْعِلْمَ
بَعْدَ أَنْ أَعْطَاهُمْ أَنْزَاعًا ، وَلَكِنْ يَنْزَعُهُ مِنْهُمْ مَعَ قَبْضِ الْعُلَمَاءِ بِعِلْمِهِمْ ،
فَيَقْبَقُ نَاسٌ جَهَالٌ يَسْقُطُونَ فَيَقْتُلُونَ بِرَأْيِهِمْ، فَيَضْلُّونَ وَيُضْلَّونَ" ، "إِنَّ الْقُرْآنَ مَ

ينزل يكذب بعضه بعضاً، بل يصدق بعضه بعضه، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلت منه فردوه إلى عالمه". وكذلك الأبيات التالية للنابغة الذبياني وعَبِيدُ بْنُ الْأَبْرَصِ وَعَدِيٌّ بْنُ زَيْدٍ وَعَنْتَةُ وَالسَّمَوْأَلُ وَتَابَطُ شَرَّاً عَلَى الترتيب:

يَبْتَكِ ذُو عَرْضِهِمْ عَنِي وَعَالِمِهِمْ وَلَيْسَ جَاهِلُ شَيْءٍ مِثْلَ مَنْ عَلِمَا

يَا أَيُّهَا السَّائِلُ عَنْ مَجْدِنَا إِنَّكَ عَنْ مَسَاعِنَا جَاهِلٌ

أَمْ لَدِيكَ الْهَمْدُ الْوَبِيقُ مِنَ الْأَدِي
هَلَّا سَأَلْتَ الْخَلِيلَ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ
سَلِيٍّ، إِنْ جَهِلْتِ النَّاسَ عَنَا وَعَنْهُمْ
نَامٌ؟ بَلْ أَنْتَ جَاهِلٌ مَغْرُورٌ
إِنْ كُنْتَ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي
فَلَيْسَ سَوَاءَ عَالِمٌ وَجَاهِلٌ

يَا الرَّبُّ أَيَا يَمِّ الرَّمْكُ يَسْعَا
... إِنَّ لَمْ تَلْكُخْ فَالْقَوْمُ بِالسَّيِّرِ جَهَلٌ
لكن ذلك لن يجعل المشكلة، إذ المعروف أن مصطلح

"الجاهلية" إنما ظهر بعد بُعدِ الإِسْلَامِ، وكان القرآنُ الْكَرِيمُ وَالرَّسُولُ أَوْلَى من استعماله. والمفهوم أن الجاهلية تناقض الإسلام في كل شيء تقريباً بما في ذلك الحِلْمُ وَالعِلْمُ. أي أن المسألة لا تتفق عند حائلة الجاهلية للدين الجديد في قيمتي الحِلْمُ وَالعِلْمِ، بل تشمل سائر القيم الإنسانية والاجتماعية والأخلاقية. وعلى ذلك فالجاهلية لا تقتصر على الجهل أيا كان معناه، بل تعنى كل ما أنتي الإسلام لمحوه، سواء كان جهلاً أو طيشاً أو كسلاً أو

سُكراً أو زنى أو ظلماً أو بجراً أو ذلةً أو نفاقاً أو خيانةً أو احتكاراً أو اغتصاباً أو إسرافاً أو يأساً أو حسداً أو قذارةً أو فوضىً أو قبحاً أو كفراً أو شركاً أو عصبيةً قبليةً أو قوميةً... إلخ. وغير خافٍ أن المعنى اللغوي لأية كلمة لا ينطابق مع معناها الاصطلاحي، بل يكون أوسع منه أو أضيق، بل قد يختلف عنه اختلافاً كبيراً. وربما أراد د. شوقي ضيف أن يعني الجهل عن العرب قبل الإسلام ردًا على من يحاولون التطرق من ذلك إلى الإساءة للعروبة نفسها، إلا أن الواقع التاريخي يؤكد فعلًا أن معارفهم كانت قليلة ولا تعدو أن تكون شظايا متفرقة يمازجها الأوهام والخرافات ولا تقوم على منهاج، كما أنهم لم يكونوا يعرفون المدارس والمعاهد، بل كانوا يتشاربون معارفهم أثناء حياتهم اليومية تشرياً عملياً، إذ كانت تغلب عليهم الأمية. ومن هنا كانت عظمة الإسلام، الذي حول تلك الأمة من حال إلى حال وجعل من أبنائها في غضون سنواتٍ قلائل سادةً وقادّةً للعالم في كل ميادين الحياة! إلا أن هذه مسألة أخرى.

ويشتمل هذا الكتاب على فصول سبعة في ثقافة العرب أيام جاهليتهم: أولها عن الشعر الجاهلي، الذي وضعه في صدارة الكتاب نزولاً على ما هو معروف من أن فن الشعر كان يحمل لدى عرب الجاهلية، بل في التراث العربي عموماً، المقام الأعلى بين مفردات الثقافة المختلفة. وقد بحثت في هذا الفصل عدداً من القضايا الهامة المتصلة بذلك الموضوع

كأنولية الشعر العربي وما قيل عن النحل والاتحالف وبناء القصيدة في شعر الجاهليين، وأعادت النظر في كل ذلك من جديد . وفي الفصل الثاني تناولت موضوع القصص المنسب إلى العصر الجاهلي وتساءلت كما تساءل من سبقوني إلى طرق هذا الأمر: إلى أي مدى يمكن أن نعد ذلك القصص ثراً جاهلياً؟ كما وقفت أمام بعض نصوصه وحللتها تحليلاً مضمونياً وأدبياً مبرزاً ما فيها من لمحات المتعة والإبداع. أما الفصل الثالث فخاص بالآمثال الجاهلية، وقد عالجتها فيه معالجة لغوية واجتماعية، مع التعرض هنا أيضاً لبحث المدى الذي يمكن أن تشق فيه بتلك الآمثال، وهل قيلت فعلًا في ذلك العصر أو لا؟ كما يتناول الفصل الرابع سaisي في تاريخ الأدب العربي بـ "سجع الكهان"، أي الأقوال التي كان الكهان العرب قبل الإسلام يتلقظون بها إذا ما جاء أحد لاستشارتهم في رؤيا رأها وأراد تغييرها، أو خصومة يبغى وضع حِدَّ لها، أو منافسة بينه وبين شخص آخر حول مفاسيرهما الفردية والقبيلية يراد حسمها . . . إلخ. وهي أقوال كان أولئك الكهان يعتمدون أن تكون مسجوعة تستهوي الأذن وتشغلها بما فيها من توقيع موسيقى، وأن تكون كذلك غامضة قبل أكثر من معنى، وإن كُتِّ قد شككت في كثير منها لأسباب ارتباطها حسبما سيرى القراء في حينه. وخامس تلك الفصول قد خُصّص لموضوع الخطابة الجاهلية ونصوص الخطب التي وصلتنا منسوبة إلى عصر ما قبل الإسلام والمقاييس

التي يمكن التعويل عليها في فرز صحيحتها من زائفها. أما في الفصل السادس فقد حاولت أن أرسم صورة للأوضاع المختلفة لحياة العرب في الجاهلية كما يمكن استخلاصها من آيات القرآن الكريم مع الاستعارة بقياساته وكتب أدب نزوله. ولا ريب أن القرآن هو المصدر الذي لا يمكن أن ينطلي على الكلام عن الجاهليين وحياتهم. ويقى الفصل السابع والأخير، وهو يضم عدداً من الموضوعات تتعلق بأنساب العرب وقبائلهم وأحلافهم ودياناتهم ونبرانهم وأيامهم وأسواقهم ومعارفهم وعلومهم، وقد استقيت خلاصتها من بعض المؤلفات التي تعرض لتلك المسائل كـ"الإكيليل" للهمدانى، وـ"الأغانى" للأصفهانى، وـ"تاريخ مكة" للأزرقى، وـ"نهاية الأرب" للنسویرى، وـ"صبح الأعشى" للقلقشندى، وـ"التصوير عند العرب" لأنجىد باشا تيمور، وـ"تاريخ أداب اللغة العربية" لجرجي زيدان، وـ"المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام" للدكتور جناد على... إلخ. وهو فصل شديد الأهمية نظراً لما يشتمل عليه من معلوماتٍ جدٌّ شافيةٌ ومفيدة.

وغمى عن القول أننى قد رجعت في هذا الكتاب إلى ما استطعتُ الرجوع إليه من المؤلفات التي سبقنى أصحابها إلى معالجة ما تناولته هنا من قضايا، وناقشتُ ما جاء فيها وقلبتُه على وجوهه المختلفة حتى انتهيت إلى الرأى الذى اطمأننت إليه. وحاولت أثناء ذلك أن أضيف

شيئاً جديداً حتى لو كان هذا الجديد هو الزاوية التي أنظر منها إلى القضية رهن المعالجة، أو النكمة التي أعرضها بها. ويسرى الآن أن أضع هذه الفصول بين يدي القارئ الكريم راجياً من الله تعالى أن تكون ذات نفع للباحثين في شفافة العرب قبل الإسلام من عرب ومستعربين وأن تسد ثغرة في دراسة تلك الثقافة وما تفرع إليه من فنون قوله وأوضاع اجتماعية وقيم أخلاقية وطقوس دينية وأنشطة اقتصادية. وقد عملت على ضبط أكبر عدد ممكن من الألفاظ في تلك الفصول على عادتي فيما أُلِّفَ من كتاب وأبحاث منذ فترة طويلة حرصاً مني على تقديم نص يسهل على القارئ مطالعته بأقل قدر من الأخطاء النطقية، وهو ما أرهقني جداً كما يعرف كل من يعالج الرقم على الكاتب. وأحب أن أفت نظر القراء الكرام إلى أن اليماء النهائية في كلمات الكتاب الذي بين يدي القارئ لم تُجْرَ على و蒂ة واحدة، بل كُبِّلت بطرفيتين مختلفتين: فما كتبته بنفسى من كلام لم أضع تحت ياءاته المترفة نقطتين اتباعاً للنحو المجرى في هذا السبيل، أما ما كان موضوعاً تحت هذا الضرب من ياءاته نقطتان فهو منسوخ من النصوص الموجودة على المشبك، وليس الأمر فوضى كما قد يسبق إلى ظن بعض القراء. ولعل ما سُيُكْشَفُ من أخطاء في هذا الكتاب لا يكون من الكثرة ولا من الخطورة بحيث يُرْزِى بي وبما أكتب لدى القراء والدارسين، والله ولي التوفيق !

الشعر

يقف الشعر على رأس قائمة الثقافة الجاهلية كما هو معروف، ولهذا نذكره أول شيء من تلك الثقافة. وفي هذا الفصل نناقش بعض القضايا المتصلة به تمهيضاً لما تَعْجَبَ به الساحة الأدبية من آراء في ذلك الموضوع، وأولى تلك القضايا عمرُ هذا الشعر الجاهلي. يقول الجاحظ في كتابه: "الحيوان": "وَأَمَّا الشِّعْرُ فَحَدِيثُ الْمِيلَادِ صَفِيرُ السَّنِ، أَوْلُ مَنْ نَهَجَ سَبِيلَهِ وَسَهَّلَ الطَّرِيقَ إِلَيْهِ امْرُؤُ القيسِ بْنُ حُجْرٍ وَمُهَلِّلِ بْنُ رَبِيعَةَ، وَكَتَبَ أَرْسَاطَ طَالِيسَ وَمَعْلِمَهُ أَفْلَاطُونَ، ثُمَّ بَطْلِيمُوسَ وَدِيَقْرَاطِسَ وَفَلَانَ وَفَلَانَ قَبْلَ بَدْءِ الشِّعْرِ بِالْدَّهُورِ قَبْلَ الدَّهُورِ، وَالْأَحْقَابَ قَبْلَ الْأَحْقَابِ". ويدل على حداثةِ الشعر قول امرئ القيس بن حجر:

إِنَّ بَنِي عَوْفٍ ابْتَوَا حَسَنًا
ضَيْعَهُ الدُّخُلُّوْنَ إِذْ غَدَرُوا
أَدْوَا إِلَى جَارِهِمْ خَفَارَتَهِ
لَا حِمَرِيٌّ وَقَنِّيٌّ وَلَا عَدَسٌ
لَكُنْ عَوْبِرٌ وَفَرَسٌ بِذَمَّتِهِ
وَلَا قِصْرٌ عَابَهُ وَلَا غَوْرٌ
فَانظُرْ كَمْ كَانَ عَمْرُ زُرَارَةَ، وَكَمْ كَانَ بَنْ مَوْتَ زِرَارَةَ وَمَوْلَدِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ
الصَّلَوةُ وَالسَّلَامُ. فَإِذَا اسْتَظْهَرْنَا الشِّعْرَ وَجَدْنَا لَهُ إِلَى أَنْ جَاءَ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ
خَمْسِينَ وَمَا تَرَأَّفَ عَامًا، وَإِذَا اسْتَظْهَرْنَا بِغَايَةِ الْاسْتَظْهَارِ فَمَا تَرَأَفَ عَامًا".

وقد ترددت هذه المقوله في خطها العام لدُنْ مؤرخي الشعر الجاهلي ودارسيه، إذ يرون أن الشعر الجاهلي الذي يكن الاطمئنان له إنما يبدأ من

ذلك التاريخ الذى ذكره الجاحظ (انظر مثلاً نيلدك) / من تاريخ وقد الشعر القديم / من ترجمة د. عبد الرحمن بدوى فى كتابه: "دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلى" / ط٢ / دار العلم للملاتين / ١٩٨٦م / ١٩٠٣م - ١٣٤٢هـ - ٤٥ - ٤٤م، وريجى بلاشير / التأثيرات الوراثية والمشاكل التى تضعها رواية الشعر العقيق / من ترجمة د. عبد الرحمن بدوى فى كتابه: "دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلى" / ١٩٧٦م / ط٧ / دار المعارف / ٢٨٣م، ود. شوقي ضيف / العصر الجاهلى / ط٣ / ٣٨ - ٣٩م، ود. عبد العزيز نبوى / دراسات فى الأدب الجاهلى / ط٣ / مكتبة الأنجلو المصرية / ١٩٩٩م / ١٢ - ١٣)، وإن كان أرنولد نيكلسون المستشرق البريطانى المعروف ينزل بهذا التاريخ إلى مدى قرن واحد فقط أو أكثر قليلاً بداعى من عام ٥٠٠م تقريباً (Reynold A. Nicholson, A Literary History of the Arabs, Cambridge, ١٩٦٩, P.٧١ الشديد له وإعجابى البالغ به وبفكرة وأسلوبه وشخصيته كلها، لم يقدم دليلاً على هذا الذى قال، إذ كيف يمكن الاقتناع بأن الذى مهد السبيل للشعر هو امرؤ القيس والمهلل بما يعني أنهما أول من قال الشعر من العرب

وأن شعرهما من ثم يتسم بما يتسم به أول كل شيء من البدائية وقلة الفن والسداجة بالنسبة لما جاء بعده، على حين أن ما خلفه لنا الملك الصليل من شعر، سواء من ناحية المقدار أو من ناحية القيمة الفنية حتى لقد جعلوه أميراً للشعراء الجاهليين، يكذب ذلك تكذيباً شديداً؟

ولقد لفت هذه المسألة أنظار الباحثين فأبدوا استغرابهم أن يكون الشعر الجاهلي بما فيه من فن مقدم وليد تلك المدة القصيرة التي يحددها المحافظ بمائة وخمسين عاماً أو مائتين فقط قبل الإسلام. يقول مثلاً أحمد حسن الزيات: "وليس يسُوغ في العقل أن الشعر بدأ ظهوره على هذه الصورة الناصعة الرائعة في شعر المهلل بن ربعة وامرئ القيس، وإنما اختلفت عليه العصر وتقلبت به الحوادث وعملت فيه الألسنة حتى تهذب أسلوبه وتشعبت مناحيه" (أحمد حسن الزيات / تاريخ الأدب العربي / ط٢٤ / دار نهضة مصر / ٢٨). ويقول أيضاً حنا الفاخوري: "وأقدم شعر وصل إلينا كان ما قيل في حرب البسوس أو قبل ذلك قليلاً، وكان قصائد كاملة تدل على محاولات كثيرة سبقتها وهبات طريقها حتى وصلت إلى ما وصلت إليه من استقامة الوزن واللغة والبيان" (حنا الفاخوري / تاريخ الأدب العربي / دون دار نشر أو تاريخ / ٥٢). ومثلهما في ذلك د. عبد العزيز نبوى، الذي يقرر أن "الشعر الجاهلي، منذ أقدم نصوصه التي وصلت إلينا، قد أكملت له أو كادت مقوماته الفنية بداعاً من طرائق

التعبير، واتهاء بالموسيقى من وزن وتفقيه. وهذا يعني أنه مرت حقبٌ طويلة قبل أن يستقر للشعر الجاهلي سماته وخصائصه" (د. عبد العزيز نبوى/ دراسات في الأدب الجاهلي /١٢) ... إلخ. ويؤكد تشارلز ليال أن "تعدد البحور التي كان يستعملها الشعراء الجاهليون وتعقدتها، وكذلك القواعد الراسخة التي تتعلق بالوزن والقافية، فضلاً عن الأسلوب الواحد الذي كانوا ينتهيونه في بناء قصائدهم رغم المسافات التي تفصل كلاً منهم عن الآخر، كل ذلك يشير إلى دراسةٍ ومارسةٍ طويلةٍ سابقةٍ لفن الشعر وأمكانات اللسان العربي، وإن لم يكن بين يدينا سجل لشيء من هذا" (C. J. Lyall, *Translations of Ancient Arabian Poetry*, London, ١٨٨٥, P.xvi نيكلسون (-٧٥ A Literary History of the Arabs, P.٧٥) ٧٦ . وبالمثل يقرر إجناطيوس جويدي في كتابه: " L'Arabie Antéislamique " أن القصائد الجاهلية الرائعة التي وصلتنا عن القرن السادس الميلادي تشير إلى أن وراءها صنعة طويلة (I. Guidi, L'Arabie Antéislamique, Paris, ١٩٢١, P.٢١) . ويعمل كليمان هوار اختفاء الشعر السابق على ذلك التاريخ بأن الذكريات البشرية، ما لم يتم حفظها كتابة على الجدران أو الحجارة أو الأوراق، فإنها حرية أن تضيع مع الأيام. ومن ثم يضيف قائلاً إن الشعر العربي الذي وصلنا لا يرجع إلى أبعد من القرن السادس الميلادي عندما استُعملت

الأفباء النبطية في تسجيل ذلك الشعر (Clément Huart, A. History of Arabic Literature, William Heinmann, London, 1903, P. 7) . ثم إن كلام الماحظ عن زرارة والمسافة الزمنية التي تفصله عن الرسول عليه السلام لا علاقة له بهذا الذي نحن فيه، فضلاً عن أن الآيات التي استشهد بها عميد الكتاب العرب القدماء لا تتضمن شيئاً مما يشير إليه.

وفوق ذلك فلست أستطيع أن أجده مناسبة بين كلامه في هذا السياق عن امرئ القيس والمهمل من جهة وكلامه عن فلاسفة اليونان من جهة أخرى، وإن كان عبد الفتاح كيليطو قد تصور أن الماحظ إنما يوازن بين الشعر والفلسفة مُعِلِّياً من شأن الأخيرة، يجاعلاً إياها كالشيخ المقرب الطويل العمر، أما الشعر فصَبِّيَ نَزْقٌ لَمْ تُرْكِهُ الحياة بعده لأن عمره لا يزال قصيراً . وهذه هي عبارته: "لا جدال أن هذا المتكلم يقدم الفلسفة على الشعر، ليس في الزمن فحسب، وإنما في القيمة أيضاً . فكأن الأسبقية الزمنية تمنع الفلسفة جداراً ومزنة واستحقاقاً، بينما تتأخر ظهور الشعر علامة على طفولته وسذاجته وعدم نضجه . الفلسفة كالشيخ الذي جرب الأمور واستقاد من عمره الطويل، بينما الشعر كالصبي الطايش النَّزَقُ الذي لا يُؤْبهُ كلامه ولا يُعْمَدُ عليه ولا يُعْتَدُ به" (عبد الفتاح كيليطو / بين الفلسفة والشعر / موقع "lycos") . لكن التركيب التحوي في كلام الماحظ لا يساعد على تفسير العبارة على هذا التحوى، وإلا لجاء هكذا

مثلاً: "أما الشعر فحدث الميلاد صغير السن، أول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه: أمرؤ القيس بن حجر، ومهمل بن ربعة. وأما كتب أرسطاطاليس ومعلمه أفلاطون، ثم بطليموس وديموقراطس وفلان وفلان، موجودة قبل بدء الشعر بالدهور قبل الدهور، والأحقارب قبل الأحقارب"، وبذلك تكون هناك مقارنة بين الشعر والفلسفة، علاوة على أن تركيب جملة الجاحظ، فيما لو أبقيناها رغم ذلك كما هي، ينقصه خبر المبتدأ، وهو كلمة "موجودة" أو ما يشبهها، اللهم إلا إذا كان الجاحظ قد قصد أنه قبل الشعر كانت هناك كتب في فلسفة الشعر مهدت الطريق إليه. لكن لا بد أن نفترض في هذه الحالة أنه قد سها فاستطرد قافزاً من الكلام عن الشعر الجاهلي إلى الكلام عن الشعر عموماً، لأنه لا صلة، كما نعرف، بين شعر الجاهليين وفلسفة الإغريق. وعندئذ يكون قول الجاحظ: "وكتب أرسطاطاليس...". معطوفاً على قوله: "أمرؤ القيس بن حجر والمهملي بن ربعة"، وهو ما قد يرشح له ورودُ "كتاب أرسطوطاليس" بعد فاصلة، لا بعد نقطة كما كتبها كيليطو.

وعلى آية حال فهناك أشعار تُروى عن أزمان أبعد كثيراً من تلك المدة التي حددها الجاحظ كذلك التي تنسب لعاد وثود مثلاً. صحيح أن ابن سلام قد نفى أن تكون مثل تلك الأشعار حقيقة، إلا أن الحجة التي استند إليها في ذلك النفي ليست بالحاسمة. ذلك أنه اعتمد فيها على ما

جاء في القرآن الكريم عن أولئك القوم من أنهم لم يبق منهم باقية، وهو ما أدى به إلى التساؤل قائلاً إنه إذا كانت عاد وثمود قد استوصلتا كما جاء في القرآن، فمن الذي أدى لنا تلك الأشعار يا ترى؟ لكن فاته أن القرآن لم يقل إنهم جميعاً استوصلوا، بل الذين استوصلوا منهم هم الكافرون فقط كما جاء في الآيات ٥٠ - ٦٨ من سورة "هود". كذلك من الممكن جداً أن يكون غيرهم من العرب من كانوا يحفظون تلك الأشعار هم الذين أدوها لنا. ولست أقصد بذلك أن هذه الأشعار وأشباهها صحيحة بالضرورة، فليس ذلك همس في هذا السياق، بل كل ما أريد أن أوضحه هو أن المحجة التي ساقها ابن سالم، على جلالة قدره، لا تستطيع أن تخسم المسألة، وبخاصة أنه ليس هناك ما يمنع أن يكون الشعوذيون قد قالوا شعراً ولا أن يكون ذلك الشعر قد بقى تلك المدة التي تفصل بينهم وبين الإسلام، إذ هي ليست بالمددة الطويلة، فها نحن أولاء ما زلنا نهمنا بأشعار الجاهلية التي يفتر بها الباحثون، وتقرؤها وتدرسها وتحفظ كثيراً من نصوصها رغم انصرام كل هاتيك القرون التي تبلغ الألف والستمائة من السنين. ومثلهم في ذلك تلك الأسماء التي اختفت من مسرح التاريخ واختفت معها لغاتها فلم يعد يعرفها إلا للمتخصصون القليلون، والتي نعرف مع ذلك عن تراثها وأدابها وأفكارها وعقائدها الشيء الكثير، كما هو الحال مع الأكاديميين مثلاً من التاريخ القديم، والهنود الحمر من تاريخنا الحديث. وعلى الوجه الآخر قد يكون تراث أمّة

من الأمم مَصُوْنَا مُتَاحًا بين أيدي أخلاقها، لكنهم لا يعرفون عنه شيئاً كما كان وضع الحضارة المصرية الفرعونية مثلاً بالنسبة لنا نحن المصريين قبل الحملة الفرنسية وقبل فك حجر رشيد، الذي كان بمثابة كلمة "افتح يا سمسم" لكتوز على بابا.

ولقد كانت اللهجة الشمودية تجري على القواعد التي نعرفها في الفصحى في اشتقاقاتها وأزمنة أفعالها ووجود صيغ التثنية وأسماء الإشارة والضمان وحرروف الجر والعطف فيها، وإن كانت أدلة التعريف عندهم هي "الهاء" بدلاً من "ال" (د. شوقى ضيف/ العصر الجاهلى/ ١١٢) مما يمكن أن يفسّر على أنه مظهرٌ للهجى يختفى عند نظم الشعر مثلاً فلماذا نُحيل إذن أن يكون الشموديون قد قالوا شعراً، أو أن يكون شعرهم قد بقى حتى وصل بعض منه أهل الجاهلية القربين من الإسلام؟ أما قول د. جواد على، تحت عنوان "العربى الفصحى" في الفصل التاسع والثلاثين بعد المائة من كتابه: "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، ابن النصوص التي وصلتنا عن الشموديين تختلف عن العربية التي نعرفها، فمن الممكن، لو صحة هذا الكلام وكان شيئاً مطروداً في اللغة كلها، الرد عليه بأن هذه النصوص ليست نصوصاً أدبية وأنه كان من عادتهم تخصيص اللغة التي نسميها الآن بـ "الفصحى" للإبداع الأدبي فقط، وتخصيص اللهجاتِ القبلية لما عدا ذلك حتى لو كان شيئاً مكتوباً. الواقع أنه لا يوجد عقلاً ولا قلا

ما يحيل هذا . وأما اعتراض الدكتور طه حسين مثلا على الرأنية التي ينسبها صاحب "الأغانى" لأحد أصهار إسماعيل من العرب مجحة أنها مكتوبة بلغة لينة مفهومة الألفاظ مستقية القواعد التحوية والصرفية والعروضية كلغة العرب أيام النبي عليه السلام بما يفيد أن اللغة العربية قد ظلت كل ذلك الزمن الطويل دون تطوير (في الأدب الجاهلى / دار المعارف / ١٩٦٤ - ١٨٣)، وبالمقابلة فعبارة "عليه السلام" هذه فمن عندي، إذ لم يحدث مرة أن صلى الدكتور طه على النبي في ذلك الكتاب !)، فيمكن الجواب عليه بأننا لا نزال حتى الآن، ورغم مرور زمن أكبر من الزمن الذي يفصل بين إسماعيل والجاهلية القرية من الإسلام، فهم كثيرا من الشعر الجاهلي مع اختلاف حياتنا الآن عن الحياة آنذاك أكثر مما كانت مختلفة بين العصرين المذكورين، وبخاصة أن موضوع القصيدة المشار إليها موضوع إنساني بسيط لا يتعلّق بوصف الحصان ولا الناقة وما إلى ذلك مما يكثر فيه الغريب بالنسبة لنا لأن حياتنا الآن تخلو من الناقة والحصان ولا نعرف أسماء أعضائهما ولا وجوه الحسن والسوء فيها كما كان يعرفها الجاهليون، بل يتعلّق بجداثان الدهر وتقلبات الأيام وحمنية الموت وعجز البشر عن الوقوف في وجه تصارييف القدر مما يخلو عادة من حُوشى الألفاظ ولا يجد القارئ صعوبة في فهمه . كما أن قواعد التحوى والصرف والعروض ما زالت باقية كما تركها لنا الجاهليون رغم اختلاف ظروف

حياتنا تماماً عن حياتهم. ومع هذا فلا بد أن أسارع إلى التوضيح بأنني لا أقول بالضرورة إن تلك القصيدة صحيحة فعلاً، إذ يحتاج الأمر إلى دراسة أوسع وأعمق وأكثر أناة مما فعل طه حسين المتسرع دون سبب وجيه إلى الرفض والإنكار، لا لشيء إلا لأن المستشرق البريطاني مرجليوث (كما سنوضح لاحقاً) قد شاءت له حماقة وعصبيته على العرب والإسلام من قبله أن يحمل على الشعر الجاهلي كله ليسفه نسفاً فجاء طه حسين فنسخ على منواله وأنكر الشعر الجاهلي بدوره: كُلُّهُ أو جُلُّهُ! وقد نتهي بعد هذا إلى قبول القصيدة كلها أو بعضها أو إلى رفضها جملةً أو إلى التوقف بشأنها.

وعلى أية حال فهذا نص ما قاله ابن سلام في كتابه: "طبقات فحول الشعراء" في سياق هجومه على ابن إسحاق صاحب سيرة النبي عليه السلام: "وكان من أفسد الشعر وهجنه وحمل كل غثاء منه محمد بن إسحاق بن يسار مولى آل مخرمة بن المطلب بن عبد مناف، وكان من علماء الناس بالستير. قال الزهرى: لا يزال في الناس علِمٌ ما يَقْنَى مَوْلَى آل مَخْرَمَةَ. وكان أكثر علمه باللغازي والستير وغير ذلك فقبل الناس عنه الأشعار، وكان يعتذر منها ويقول: لا علم لي بالشعر. أتيتنا به فأحمله. ولم يكن ذلك له عذراً. فكتب في الستير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط، وأشعار النساء فضلاً عن الرجال. ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود،

وقد رُوِيَ لعباس بن مِرْدَاس السُّلْمَيِّ بِيتٌ في عدنان قال:
 وَعَنْكَ بْنِ عَدْنَانَ الَّذِينَ تَلَعِبُوا بِمَذْجِحٍ حَتَّى طَرَدُوا كُلَّ مَطْرَدٍ
 وَالْبَيْتُ مُرِيبٌ عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ، فَمَا فَوْقُ عَدْنَانَ أَسْمَاءً لَمْ تَخْذِ
 إِلَّا عَنِ الْكِتَبِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِهَا، لَمْ يُذَكِّرْهَا عَرَبِيٌّ قَطُّ. وَإِنَّمَا كَانَ مَعَدْدُ
 مُوسَى بْنِ عُمَرَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ أَوْ قَبْلَهُ قَلِيلًا، وَبَيْنَ مُوسَى وَعَادَ وَثُورَدَ
 الدَّهْرِ الطَّوِيلِ وَالْأَمْدِ الْبَعِيدِ. فَنَحْنُ لَا نَقِيمُ فِي النَّسْبِ مَا فَوْقُ عَدْنَانَ، وَلَا
 نَحْدُدُ لِأُولَئِكَ الْأَرْبَعَةِ الْمُعْرُوفَاتِ شَعْرًا، فَكَيْفَ بَعْدَ وَثُورَدَ؟".

و واضح أن ابن سلام يظن أن عادا وثورد كانتا قبل زمنه بآلاف السنين وأنه لم يبق منها شيء . لكن ثورد لم يكن يفصل بينها وبين الإسلام في الواقع أكثر من ألف سنة أو أقل، إذ يعود تاريخ الشعوب إلى ما قبل الميلاد بعده قرون، واستمرروا بعده فترة، وكانوا يسكنون مداران صالح وما حولها، وجاء في القرآن الكريم أنهم قد أخذتهم الرجفة، إلا أنهم رغم هذا قد خلفوا لنا كثيرا من التفاصيل في بلادهم وخارج بلادهم (د. شوقى ضيف/ العصر الجاهلى/ ١١١، ٣٣)، مما يدل على أن فهم ابن سلام للآلية الكريمة الخاصة باستكانهم لم يكن فيما سليم . كذلك فاللغة التي كتبوا بها تقوشهم لا تختلف عن العربية الفصحى كما نعرفها، اللهم إلا فيما لا يقدم أو يؤخر حسبما رأينا . كما أن ثورد على الأقل تلو تاريخنا إسماعيل بن إبراهيم ولا تقدمه كما سبق إلى وهم عالمنا الجليل، إذ إن إبراهيم وإسماعيل إنما سبقا ميلاد السيد المسيح بأزمان طوال، وليس بقرون قليلة

كما هو الحال مع ثمود حسبما عرفنا قبل قليل، فضلاً عن أنه لا يوجد فارق زمني يذكر بين ثمود وموسى عليه السلام حسبما يقول ابن سلام، فقد قرأتنا آنفًا أن ثمود سبقت عيسى عليه السلام بعده قرون، وهو ما يصدق على سيدنا موسى أيضًا. كذلك فإسماعيل لا يمكن أن يكون هو أول من تكلم العربية طبقاً لما يقوله ابن سلام، الذي يضيف مع ذلك أنه عليه السلام قد نسي لغته الأولى لصالح لغة الصدّاد، إذ السؤال هو: وكيف ينسى ذلك النبي الكريم لغته ويتحذّل لغة أخرى إلا إذا كانت هذه اللغة الأخرى لها وجود آنذاك، وهو ما يعني أنها سابقة على نسيانه لغته؟ وهذه اللغة هي لغة زوجته العربية. أي أن اللسان العربي كان موجوداً في ذلك الحين، ولم يكن إسماعيل أول من تكلم به كما قال ابن سلام، فالفرد (أي فرد) لا يمكنه استخدام لغة لم تكن، لأن اللغة تحتاج إلى أزمان وأزمان، وهي تنمو وتتطور وتشتمل وتتعقد بالتدريج لا دفعة واحدة كما يوحى كلام ابن سلام رحمة الله.

وعلاوة على ذلك فقد ورد اسم عدنان عند شعراء آخرين غير الشاعرين الذين ذكرهما عالمنا الجليل والذين تابعه فيما قاله عنهم د. جواد على في أول الفصل الأربعين بعد المائة (عنوان "اللسان العربي") من كتابه: "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام". ومن هؤلاء الشعراء المهلّل بن ربيعة وليلي العفيفية وأمية بن أبي الصلت، الذين يقولون على التوالى:

يَوْمَ لَنَا كَانَتْ رِئَاسَةُ أَهْلِهِ دونَ الْقَبَائِلِ مِنْ بَنِي عَدْنَانِ

بِـا بَنِي الْأَعْمَاصِ، إِمَا تَقْطُعُوا
لِـبَنِي عَدْنَانَ أَسْبَابَ الرَّجْـاـ

.....

قُـل لـعـدـنـانـ: فـدـيـمـ! شـمـرـوا
لـبـنـي الـأـعـجـامـ شـمـيرـ الـوـحـىـ

تـقـوـا عـنـ أـرـضـهـمـ عـدـنـانـ طـرـاـ
وـكـانـواـ لـلـقـبـائـلـ قـاهـرـينـ

وـفـىـ "جـمـعـ الـأـمـشـالـ" لـلـمـيـدـانـ بـيـتـ شـعـرـىـ آخـرـ وـرـدـ فـيـهـ اـسـمـ
"عـدـنـانـ"، نـسـبـهـ المـؤـلـفـ لـعـبـدـ الـلـهـ بـنـ هـمـاـنـ أـحـدـ بـنـ بـنـيـ عـبـدـ الـلـهـ بـنـ غـطـفـانـ،
مـضـيـفـاـ أـنـهـ يـنـسـبـ لـلـنـابـغـةـ أـيـضاـ، وـهـوـ مـاـ عـرـاءـ الـبـغـدـادـيـ فـيـ "خـزـانـةـ الـأـدـبـ"
لـهـذـاـ الـأـخـيـرـ فـقـطـ، وـإـنـ كـانـ قـدـ عـادـ فـذـكـرـ أـنـهـ يـنـسـبـ فـيـ "الـفـاخـرـ"
(لـمـفـضـلـ بـنـ سـلـمـةـ) إـلـىـ الـاثـنـيـنـ جـمـيعـاـ، مـعـ تـحـديـدـ الـفـطـفـانـيـ بـأـنـهـ عـبـدـ الـلـهـ بـنـ
هـمـارـقـ، وـنـصـهـ:

بـماـ اـتـهـكـواـ مـنـ رـبـ عـدـنـانـ جـهـرـةـ
وـعـوـفـ بـنـاجـيـهـمـ، وـذـلـكـ جـلـلـ

وـفـىـ "الـإـيـنـاسـ بـلـعـمـ الـأـسـابـ" يـورـدـ الـوـزـيـرـ الـمـغـرـبـيـ هـذـيـنـ الـبـيـتـيـنـ لـسـلـمـةـ
بـنـ قـيسـ الـعـكـلـيـ:

سـيـلـعـ قـذـفـيـ هـشـلـاـ أـنـ مـجـدـهـ
فـصـيرـ وـقـولـ شـمـهـ وـقـصـائـدـهـ

وـيـأـتـيـ عـلـىـ الـفـوـرـيـنـ دـوـنـ مـحـجـرـ
وـيـصـعـدـ فـيـ عـلـكـ بـنـ عـدـنـانـ نـاشـدـهـ

وـبـالـإـضـافـةـ إـلـىـ ذـلـكـ فـقـدـ سـرـبـناـ ماـ قـالـهـ عـدـدـ مـنـ الـبـاحـثـيـنـ مـنـ أـنـ
الـشـعـرـ الـجـاهـلـيـ الـذـيـ بـيـنـ أـيـدـيـنـاـ لـاـ يـكـنـ أـنـ يـكـونـ أـوـلـ مـاـ نـظـمـتـهـ الـعـربـ مـنـ
أـشـعـارـ، بـلـ لـاـ بـدـ أـنـ تـكـوـنـ قـدـ سـبـقـتـهـ أـشـعـارـ أـخـرـىـ عـلـىـ مـدـىـ زـمـنـىـ طـوـيـلـ

حتى استوى الفن الشعري على سُوقه. أما إلى أى مدى يمتد هذا الزمن في الماضي بالضبط فعلمه عند الله، إذ لم يستطع حتى الآن أى باحث الإتيان بما يُشفي ويُكتفى في هذا السبيل.

وهذا كله من شأنه التخفيف من مخاوف ابن سلام والتهئة من شكوكه التي نخرتها رغم كل شيء، إذ لم يكن الرجل في تلك المخاوف ولا في هذه الشكوك صاحب هوى أو مأرب، بل كان يبغى البحث عن بُرُد اليقين في مجال من مجالات العلم، ولم يكن يقصد إحداث ضجيج مفتعل يلفت إليه الأنظار ولا أن يحارب العرب والمسلمين بتشكيكهم في كل شيء من تراهم وحضارتهم كما يفعل بعض المستشرقين ومن يعدوا لامثأة خلتهم مقلدا لهم في كل ما يفعلون. على أنسى، كما سبق التنبيه، لا أقول إن الأشعار التي بلغتنا عن عاد وثمود وأشباههما لا بد أن تكون صحيحة بالضرورة، بل كل ما أبصري قوله هو أننا ينبغي أن نعيد النظر فيما قيل بخصوص الشك في الشعر الجاهلي.

وهذه هي النقطة التي أريد أن أتناولها الآن. وقد كان ابن سلام هو أول من فصل القول من القدماء في هذه القضية، وإليك بعض ما قاله في هذا الصدد مما أصبح منطلقاً لمن جاء بعده (وبخاصة من المُحدّثين عرباً ومستشرقين) للشك في شعر ما قبل الإسلام: بعضه أو كثير منه أو جلّه أو كله. قال: "وفي الشعر مصنوع مفتعل موضوع كثير، لا خير فيه ولا

حجّة في عربية ولا أدب يستقاد ولا معنى يستخرج ولا مثل يضرّب ولا مدح راجٍ ولا هجاء مقدّع ولا فخر متعجب ولا نسيب مستطرف. وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب، لم يأخذوه عن أهل الباذية ولم يعرضوه على العلماء. وليس لأحد إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه أن يقبل من صحفة ولا يروي عن صحفى. وقد اختلف العلماء بعد في بعض الشعر كما اختلفت في سائر الأشياء، فاما ما اتفقا عليه فليس لأحد أن يخرج منه.

ثم مضى مؤكداً أن "الشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات: منها ما تتفق العين، ومنها ما تتفق الأذن، ومنها ما تتفق اليدين، ومنها ما يتفق اللسان. من ذلك اللؤلؤ والياقوت، لا تعرف بصفة ولا وزن دون المعاينة من يبصره. ومن ذلك الجبهة بالدينار والدرهم، لا تعرف جودتهما بلون ولا مسٍ ولا طراز ولا وسم ولا صفة، ويعرفه الناقد عند المعاينة فيعرف ببرّجها وزانها وسوقها ومغارتها. ومنه البصر بغريب التخل، والبصر بأنواع المتابع وضروبه واختلاف بلاده مع تشابه لونه ومسه وذرعه حتى يضاف كل صنف إلى بلده الذي خرج منه، وكذلك بصر الرقيق فتوصف الجارية فيقال: ناصعة اللون جيدة الشطبة تقية التغير حسنة العين والأنف جيدة النهود طريقة اللسان واردة الشعر، تكون في هذه الصفة بمنة دينار ومتى دينار، وتكون أخرى بألف دينار

وأكثر ولا يجد واصفها بمنيذًا على هذه الصفة. وتوصف الدابة فيقال: خفيف العنان لين الظهر شديد الحافر قتى السن ترى من العيوب فيكون بخمسين ديناراً أو نحوها، وتكون أخرى بمتى دينار وأكثر، وتكون هذه صفتها. ويقال للرجل والمرأة في القراءة والفتاء: إنه لندي الحلق ظل الصوت طويل النفس مصيبة للحن، ويوصف الآخر بهذه الصفة، وبينهما بون بعيد، يعرف ذلك العلماء عند المعاينة والاستماع له بلا صفة ينتهي إليها ولا علم يوقف عليه. وإن كثرة المدارسة تقدّي على العلم به، فكذلك الشعر يعلمه أهل العلم به".

ثم يضرب على ذلك بعض الأمثلة من واقع الحياة الأدبية: "قال محمد: قال خلاد بن يزيد الباهلي لخلف بن حيان أبي محرز، وكان خlad حسن العلم بالشعر يرويه ويقوله: بأى شئ ترد هذه الأشعار التي تروى؟ قال له: هل فيها ما تعلم أنت أنه مصنوع لا خير فيه؟ قال: نعم. قال: أتعلم في الناس من هو أعلم بالشعر منك؟ قال: نعم. قال: فلا تذكر أن يعلموا من ذلك أكثر مما تعلمه أنت. وقال قائل لخلف: إذا سمعت أنا بالشعر أستحسنـه فما أبالي ما قلت أنت فيه وأصحابـك! قال: إذا أخذـت درـها فاستحسنـته فقال لكـ الصـراف إـنه ردـى، فـهل يـنفعـكـ استـحسـانـكـ لـيـاهـ؟".

ويبدو أن ابن سلام يتصور أن الشعر الصحيح لا بد أن يكون شرعا جيدا من الناحية الفنية والمضمونية بالضرورة، وهذا ما يوحى به قوله عما

لا يطمئن له من شعر إنه "لا خير فيه ولا حجة في عربية ولا أدب يستقاد ولا معنى يستخرج ولا مثل يضرب ولا مدح رائق ولا هجاء مقدع ولا فخر معجب ولا نسيب مستطرف"، مع أنه لا تلزم البتة بين الشعر الصحيح من جهة والجودة الفنية والفائدة الخلقية والاجتماعية من جهة أخرى، ولا بين الشعر المزيف وتفاهة الفن والمضمون كذلك، وهذا مما يعرفه كل أحد. أما قوله، عن بعض ما كان يُداول على أيامه من شعر لا ترتاح نفسه له ولا يرى صحته، إنه "قد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب، لم يأخذوه عن أهل الbadia ولم يعرضوه على العلماء". فقد يكن التعقيب عليه بأن الشعر المروى عن أهل الbadia لا بد أن ينتهي هو أيضاً بعد ذلك إلى التقييد في الورق، فليست الكتابة إذن عاراً على النصوص الشعرية ولا على من يأخذ بها، ولا ينبغي من ثم أن تَتَّخَذْ تَكَاءً لرفض شيءٍ من تلك النصوص إلا إذا قام دليل قاطع على أنه زائف مصنوع. كما أن رواية الأعراب لشيءٍ من الشعر ليست في حد ذاتها برهاناً على صحته، إذ البدو بشر من البشر في نهاية المطاف، يبحرون عليهم الكذب والصدق جميعاً، ويقع منهم التزييف كما يقع منهم التحقيق، وفيهم الأمين الذي يطمئن له والخائن الذي يُخْفِلُ منه ولا يُرْتَقِبُ به. ثم هل كان العرب كلهم أبناءً بادية؟ أم يمكن فيهم من يسكن المدن؟ أم يمكن بين سكان المدن هؤلاء شعراء؟ بل كأن بينهم شعراء، وابن سلام نفسه قد أفرد لشعراء مكة ويشرب والطائف والبحرين قسماً

خاصة من كتابه الذي نحن بصدده، علاوة على من كان يعيش منهم في بلاطِ الحيرة والفساسنة، فكيف نسى عالمنا الجليل هذا حين اشترط أن يكون الشعر الصحيح من روایة البدو، والبدو وحدهم؟ وهذا أكبر دليل على أن ما زعمه كليمان هوار من أن المدن العربية في ذلك الحين كانت من شدة الاشتغال بالتجارة بحيث لم تكن هناك أية فرصة لترعرع الإبداع الأدبي فيها هو كلام لا يُؤبه به البتة (A Clément Huart, History of Arabic Literature, P.٦) . وفوق هذا لم يكن بين العرب من يعتمد على الكتابة في روایة الشعر الجاهلي؟ ثم لماذا ننسى أن كثيراً جداً من البدو العرب قد انتقلوا إلى العيش في أمصار البلاد المفتوحة وأصبحوا بهذا من سكان المدن؟ ألياًن تغيرت مساقتهم ينبغي أن يتغير الحكم عليهم ولا يُوثق عندئذ بما يروونه من شعر الجاهلين؟

أما حديث ابن سلام عن قدرة العلماء المطلقة على فرز صحيح الشعر الجاهلي من زائفه ب مجرد النظر فيه ففيه مبالغة كبيرة رغم معرفتنا بقيمة التخصص وضرورته، إذ إن أحكام العلماء التي تكلم عنها ابن سلام هنا لا تزيد عن أن تكون أحكاماً انتظارياً، ومعروف ما يمكن أن يعتري الأحكام الانتظارياً من فساد مهما علت درجة صاحبها في العلم والخبرة. ومن هنا كان لا بد للعالم من الرجوع إلى القواعد المرعية عند أهل كل صناعة، وتعريف القارئ عن طريق التطبيق العملي كيف اعتمد عليها

في الحكم على هذا النص الشعري أو ذاك، وسوق البراهين التي تدل على ما يقول حتى تكون أمام الباحث الفرصة لتمحیص ما يقرأ، ومن ثم قبوله أو رفضه عن بُيُّنة، وهو ما لم يفعله ابن سلام للأسف في كثير من الحالات كما في النص الذي ناقشه الآن والذي ينسب للعلماء قدرات خارقة لا تعرف الفشل، أو لم يوقَّ في بعض الحالات الأخرى كـها رأينا في حديثه عما ينسب لعاد وثود من أشعار. إنَّ كلام ابن سلام هنا يُيشِّيه قول من يرى أن الطبيب ليس في حاجة إلى تحليلات ولا أشعَّة ولا إلى الكشف على المريض، بل يكفيه أن يلقى نظرة عليه فيعرف للتو ما يعاني منه. وهو ما يتسبب في وقوع كوارث كان من الممكن تداركُ كثيرة منها وتجنبُ نسبة غير قليلة من حالات الوفاة أو تفاقم المرض لدرجة خارجة عن السيطرة مثلاً لو أنَّ الطبيب طامنٌ من غلوائه في الثقة بعلمه وخبرته بعض الشيء. وكم كان يُونس صادقاً في قوله التالي الذي استشهد به ابن سلام: "لو كان أحد يبغى أن يؤخذ بقوله كلَّه في شيء واحد كان ينبغي له أن يقول أباً عمرو بن العلاء في العربية أن يؤخذ كلَّه. ولكن ليس أحد إلا وأنت أخذ من قوله وتدرك". كما أنه هو نفسه يحكم على خَلْفِ الأحرق قائلاً: "اجتمع أصحابنا أنه كان أفرس الناس بيت شعر وأصدقه لساناً. كما لا ينال إداً أخذنا عنه خبراً أو أنشدنا شعراً ألا نسمعه من صاحبه"، مع أنَّ خَلْفاً لهذا مَتَّهم لدى بعض العلماء الآخرين بأنه وضعَ كَبِيرَ للشعر. فما القول في

هذا؟ أليس هذا دليلا آخر على أن مسألة معرفة العلماء بالشعر الجاهلي ومقدرتهم على تمييز صحيحة من ملقة مسألة نسبية؟ والا فلماذا اختلفوا في الحكم على خلف الأحمر إذن إذا كانت أحكامهم لا يختر منها الماء كما يريدنا ابن سلام أن نصدق؟

ليس ذلك فقط، بل ها هو ذا ابن سلام نفسه يخبرنا بأن الاختلاف بين المختصين برواية الشعر الجاهلي كان شديدا، وأن هذا الاختلاف قد دفعه إلى الاقتصار على بعض ذلك الشعر وأصحابه دون البعض الآخر: "وقد اختلف الناس والرواة فيهم فنظر قوم من أهل العلم بالشعر والتغاذ في كلام العرب والعلم بالعربية إذا اختلفت الرواية فقالوا بأرائهم، وقالت العشائر بأهوائهما . ولا يقنع الناسَ مع ذلك إلا الروايةُ عنْ تقدم، فاقتصرنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعراً فألفنا من تشابه شعره منهم إلى نظراته فوجدناهم عشر طبقات، أربعةٌ رهطٌ كلٌ طبقةٌ متكافئٌ معتدلين". أما قوله عن ابن إسحاق: "وكان من أفسد الشعر وهجته وحمل كل غثاء منه محمد بن إسحاق بن يسار مولى آل مخرمة بن المطلب بن عبد مناف، وكان من علماء الناس بالسير . قال الزهرى: لا يزال فى الناس عِلْمٌ ما يقسى مولى آل مَحْرَمَة . وكان أكثر علميه باللغازي والسير وغير ذلك، فقبل الناس عنه الأشعار، وكان يعتذر منها ويقول: لا علم لي بالشعر . أتينا به فأحمله . ولم يكن ذلك له عذرا . فكتب في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا

بالأمسكار راجعوا رواية الشعر فلم يُؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقل ذلك، وذهب عليهم منه كثير. وقد كان عند النعمان بن المنذر منه ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح هو وأهل بيته به، صار ذلك إلى بني مروان أو صار منه. قال يونس: فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها وما ثرها استقل بعض المشائير شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائهم، وكان قوم قلت وقائهم وأشعارهم فأرادوا أن يلحقوا بمن له الواقع والأشعار فقالوا على السنة شعرائهم، ثم كانت الرواية بعد فزادوا في الأشعار التي قيلت. وليس يُشكِّل على أهل العلم زيادة الرواية ولا بما وضعوا ولا ما وضع المولدون، وإنما عَضَلُ بهم أن يقول الرجل من أهل الباذية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم فُيشكِّل ذلك بعض الإشكال. قال ابن سلام: أخبرني أبو عبيدة أن ابن داود بن متمن بن نُويرة قدِم البصرة في بعض ما يَقْدِم له البدوي من الجلب والميرة فنزل التحيت، فأتته أنا وابن نوح العطاري فسألناه عن شعر أبيه متمن، وقمنا له بمحاجته وكفيناه ضيعة. فلما قَدِمَ شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ويصنعها لنا، وإذا كلام دون كلام متمن، وإذا هو يتحدى على كلامه فيذكر الموضع التي ذكرها متمن والواقع التي شهدتها. فلما توالى ذلك علمنا أنه يفتعله. وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الرواية، وكان غير موثوق

به. وكان يتحلّل شعر الرجل غيره وينحلّه غير شعره ويزيد في الأشعار.
 قال ابن سلام: أخبرني أبو عبيدة عن يونس، قال: قدم حماد البصرة على
 بلال بن أبي بردة وهو عليها فقال: ما أطرقتنى شيئاً. فعاد إليه فأنشده
 القصيدة التي في شعر الخطيبة، مدح أبي موسى. قال: ويحك! يمدح
 الخطيبة أبا موسى لا أعلم به، وأنا أروي شعر الخطيبة؟ ولكن دعها
 تذهب في الناس. قال ابن سلام: أخبرني أبو عبيدة عن عمر بن سعيد بن
 وهب التقى، قال: كان حماد لي صديقاً ملطفاً فعرض على ما قبله يوماً،
 فقلت له: أهل على قصيدة لأخوالى بنى سعد بن مالك لظرفة. فأنزلَ
 على:

إن الخليط أَجَدَ منقلةٌ ولذاك زَمْتُ غَدوةَ إِلْكَنَةٍ
 عَهْدِي بِهِمْ فِي التَّقْبِ قَدْ سَنَدُوا ثَهْدِي صِعَابَ مَطْبِيهِمْ ذَلِلَةٍ
 وَهِيَ لِأَعْشِي هَمَدَانَ . وَسَمِعْتُ يُونَسَ يَقُولُ: الْعَجْبُ مَنْ يَأْخُذُ عَنْ
 حَمَادَ . وَكَانَ يَكْذِبُ وَيَلْهَنُ وَيَكْسِرُ".

وكلام ابن سلام عن تشاغل العرب عن الشعر بالإسلام والجهاد
 والفتح معناه أولاً أن العرب كانوا جيئاً مجاهدين لا يستقر منهم في بلده
 ولا بيته أحد، وهذا بطبيعة الحال غير صحيح. إنما كان بعضهم يجاهد،
 وبعضهم يتاجر، وبعضهم يزرع، وبعضهم يصنع، وبعضهم يرعى، وبعضهم
 يعلم أو يتعلم... إنما هو الحال في أي مجتمع آخر. ومعناه ثانياً أنه
 عادوا لا يقولون الشعر ما داموا لا يرونونه، إذ الرواية أسهل وأقل بعثاً على

الخرج من النَّظمِ. لكننا ننظر فنجد أنهم ظلوا يقولون الشعر حتى على أيام النبي عليه السلام، وفي أثناء الفتوح ذاتها. وهناك شعرٌ جدُّ كثيرٌ قيل فيها كما نعرف جميعاً. بل إنَّ الرسول عليه السلام كان يقربُ إليه بعض شعراء المسلمين ويحثُّهم على قول الشعر في الذِّبَّ عن الدين الجديد ويشجعُهم، فكان يقول لحسان: أهْجُّهم (أي القرشين)، وروح القدس معك. فكيف يقال إذن إنَّ الإسلام قد شغل العرب عن رواية الشعر، حتى إذا اتهَّوا من الفتوح (والكلام هنا بالمناسبة مضطرب)، وكأنَّ الجهاد شيء آخر غير الفتوح! ورجعوا إلى أنفسهم وما كانوا يحفظونه من الأشعار وجدوا أنهم قد نسُوا نصيباً كيراً جيداً منها؟ وبالنسبة لابن مسمٍ بن نويرة هل يعقل أن يأخذ في ارتجال تلك الأشعار الكثيرة المتابعة التي تشبه شعر جده بهذه السهولة كما يفهم من الرواية الخاصة بذلك؟ ثم لماذا يصنع ذلك يا ترى؟ وهل شرط أن يكون شعر مسمٍ على مستوى واحد من المثانة والرواء؟ أليس من الطبيعي أن يقاوم شعر الشاعر فيكون بعضه قوياً مثيناً، والآخر دون ذلك، كما هو الحال حتى في شعر شاعر عبقري مثل النبي، إذ نجد في ديوانه مقطوعات وقصائد لا ترقع إلى مستوى شعره الآخر الراهن في سيف الدولة وكافور وفي التغنى بفاخره وأحزانه الذاتية؟ وقل مثل ذلك في شعر أمير الشعراء أحمد شوقي. وهذا مجرد مثالين اثنين لا غير، ولا

المعروف عند المشغلين بالأدب والنقد أن ذلك ينطبق على سائر الشعراء.

أما بالنسبة لحماد وما اشتهر به من كذب ونحل فإني أتساءل بدورى: إذا كان حماد على هذه الشاكلة من الاشتئار بالتحل والتلفيق، وكذلك باللحن والكسر فوق البيعة بما يعنى أنه من الشعر لا في العير ولا في التغير، فما الذى كان يضطربهم إلى اللجوء إليه دانما وسؤاله عما قى جعبه من جديد؟ ثم هل من الحتم اللازم أن يعرف بلال بن أبي بردة كل شعر الخطيئة، أو كانت ذاكرته قرصا مدجأ سُجّل عليه كل شعر الشاعر الهجاء فلا يند عنها شاردة ولا واردة من ذلك الشعر؟ كذلك أليس من حقنا أن نسمع رد المتهم على التهمة الموجهة إليه؟ لكن للأسف تسك الرواية عند هذا الحد فلَا تعطى المسكين الفرصة لإبداء وجهة نظره! ثم من يا ترى أنها الناس بما دار بين بلال وحماد من حوار واتفاقهما في نهاية الأمر على ترك القصيدة المزيفة تذيع في الناس؟ إن أيها منها لا يمكن أن يكون هو من روى القصة، وإلا لكان كمن يحفر قبره بيده. كما أنه لم يكن هناك إلا هما وحدهما كيلا يقول قائل إن شخصا ثالثا هو الذي فضح الأمر. أما لو افترضنا بعد ذلك كله أن قد كان هناك شخص ثالث، فإنهما لم يكونا ليجرؤا على قول هذا الكلام بسمع منه حتى لا يشوهها صورتها في عينه. وفي "الأغانى" أن المدائى كان ينسب القصيدة المذكورة

للحطيئة فعلاً! فما الذي يمكن أن قوله هنا؟ وهذا هو نص "الأغانى": "وذكر المدائى أن الحطيئة قال هذه القصيدة في أبي موسى، وأنها صحيحة. قالها فيه وقد جمع جيشاً للغزو فأنسده: "جمعت من عامرٍ فيه ومن أسدٍ"، وذكر البين وبينهما هذا البيت وهو:

فَمَا رَضِيْهِمْ حَتَّى رَفَدُهُمْ بِوائلِ رَهْطِ ذِي الْجَدَنِ سَطَامٍ

ثم هل يدح خطاً حماد في نسبة قصيدة أعشى همدان لظرفة في أماته بالضرورة؟ ألا يمكن أن تكون المشكلة مشكلة ذاكرة لا مشكلة ضمير؟ وهل هذا هو النص الشعري الوحيد الذي أحاط به الخلاف حول نسبة لصاحبها حتى نذهب فتعلق المشنة لحماد؟ ومرة أخرى نجد أنفسنا أمام وجهة النظر الخاصة بأحد الطرفين دون الآخر، وكأن حماداً خرس فلم يحرج جواباً وسلم بما قبل في حقه. وأين هذا؟ وعجب أن يقال في حماد إنه كان ينحل شعر الرجل غيره: هكذا دون إبداء الأسباب. ترى لماذا كان يفعل ذلك؟ أكان مصاباً بلوثة في عقله تجعله يتبرع من تلقاء نفسه بخداع الناس وإنفاق وقته وجهده في ذلك "الله في الله"؟ وأعجب من هذا أن يقال إنه كان يزيد في الأشعار رغم ما اتهم به في ذات الوقت من أنه كان يلحن ويكسر الشعر. يا له من أحمق! لكن: ما القول في الذين كانوا يصررون بعد هذا كله على البحث عنده دائمًا عن الجديد في الشعر؟ أليسوا مثله حمقى بل أغرق منه في الحماقة وأوغل؟ وأعجب من هذا وذاك أن يلقب هذا الكذاب الوضاع الحالى من الموهبة

الشعرية بـ"الراوية"؟ إن مثل هذا اللقب ليس له في الواقع من معنى إلا أنهم كانوا يحترمون روایته ويقدرونها حتى إنهم لم يرُوا فيه إلا أنه "راوية"! وفي "الأغاني" أن المفضل الضبي قد وصفه بأنه "رجل عارف بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم، فلا يزال يقول الشعر يُشَبِّه به مذهب رجل ويُدْخِلُه في شعره ويُحْمِلُ ذلك عنه في الآفاق فتحتَلِطُ أشعار القدماء". أي أنه كان عالماً بالشعر ذات بصيرة نقدية عجيبة فيه وصاحب موهبة وبراعة في التقليد وقدرة على خلط الأمور حتى لتدخل الأشعار الصحيحة والزائفة على يديه فلا يميز بينها إلا عالم خَرِيتَ. فمن نصدق يا ترى؟ أنصدق من يرميه بالجهل الفاحش بالشعر وباللحن والكسر فيه، أم نصدق من يصوّره بصورة العقري المجهذ الذي لا يعجزه في هذا الميدان شيء؟

وهناك خبران آخران غريبان عنه في "الأغاني" مفادهما أنه بقى يكذب على الناس ويضع لهم الشعر الجاهلي المنحول على مدى عشرات السنين، على الأقل من أيام الخليفة الأموي الوليد بن يزيد (الذى نجح فى امتحان عقده له كى يتثبت أنه يحفظ فعلًا لمن لا يعرفهم من الشعراء مائة قصيدة على كل حرف من حروف الألفباء) حتى عصر المهدى ثانى خلفاء بنى العباس حين أكشف تلاعبه فتادى فى الناس ألا يقبلوا روایته، وكان الدولة الإسلامية كان من مهامها نقد الأدب والكشف عن الشعر

المنحول ! فهل يقبل العقل أن يظل الرجل يضحك على ذقون العرب كل هاتيك العشرات من السنين دون أن يكشفه أحد قبل المهدى العباسى، وكأنه يتعامل مع أمة من الأفدام الأغتاب البائسين ؟ وأخيرا وليس آخرأ نجد ابن سلام يبدأ كلامه قائلا إن الشعر العربى لم يعرف غير الرواية الشفوية، ليعود فيضيف بعد قليل أنه كان هناك قسط كبير منه مقييد في ديوان عند النعمان بن المنذر واتهى مطافه إلى أيدي بنى مروان . وذلك القسط، حسب كلامه، هو أفضل الشعر الجاهلى من الناحية الفنية لأنه شعر الفحول ومن مدحوا النعمان وأسرته . وهذا تناقض واضح !

كذلك نقرأ في "تاريخ بغداد" لأبي بكر بن الحظيب أن أبو عمرو الشيباني، وهو أيضا راوية كوفى كحماد، كان يجمع شعر القبائل حتى إذا انتهى من شعر إحداها كتب مصحفا بخطه ووضعه في مسجد الكوفة . ومع هذا فقد كان خصوصه يتمونه بالسفر في شرب الخمر رغم إقرارهم بأنه ثقة في روایته . ويلق طه حسين قائلا: "وأكبر الظن أنه كان يتجر نفسه للقبائل، يجمع لكل واحدة منها شعرا يضيفه إلى شعرائها" (طه حسين / في الأدب الجاهلى / ١٧١) ، وهو ما يعني أن من البشر من يظل يقول: "عنزة" ولو طارت، ومنهم طه حسين، فها هو ذا الشيباني قد اجتمع خصوصه وأنصاره على توثيقه، بيد أن طه حسين لا يعجبه العجب، فيتهم الرجل بأنه كان يؤلف الشعر وينسبه إلى شعرا القبائل التي تدفع له . أما

من أين أتى طه حسين بهذا الكلام، فينبغي إليها القارئ أن تخز على ما يقوله ساجدا موافقا ولا تسأل مثل هذا السؤال. وعجب أن يسرف طه حسين في الشك في الشعر الجاهلي حتى ليزعم أنه كله تقريبا مصنوع صنعا، حاطبا هكذا في حبل مرجليلوث المستشرق البريطاني الخبيث مع بعض التلاوين التي لا تقدم ولا تؤخر، ثم يصدق دون أدنى تفكير أو محاولة في التثبت أية رواية بشكك في علماء المسلمين، بل يختصر لبعضهم الاتهامات اختراعا كما رأينا في حالة الشيباني المسكين!

أيا ما يكن الأمر فإن ما قاله ابن سلام، وهو أكثر المؤلفين العرب القدماء شمولا وتفصيلا في الحديث عن التحلل والاتحال في الشعر الجاهلي، لا يُعد شيئا إلى جانب ما كتبه المستشرق البريطاني ديفيد صمويل مرجليلوث في بحثه الذي نشره في عدد يوليه ١٩٢٥ من المجلة الآسيوية الملكية بعنوان "The Origins of Arabic Poetry" ، والذي انتقد فيه على الشعر الجاهلي ينفيه كله تقريبا باتا لا يقبل نقضا ولا إبراما، ويتهم العلماء العرب في العصر العباسي بأنهم قد صنعوا ذلك الشعر صناعة ولفقوا له أسماء شعراء فوق البيعة. وجاء على إثره طه حسين فردد مقولته تلك العجيبة حذوك النعل بالنعل، اللهم إلا بعض الخيوط الرفيعة التي لا تُذكر، إذ كل ما هنالك أنه، في الوقت الذي يزعم فيه مرجليلوث أن "كل" الشعر الجاهلي منحول زائف، فإن طه حسين يحاول أن

يبدو مستقلاً عن متبوعه فيقول: "جُلُه، إن لم يكن كله". أما فيما عدا ذلك فقد أخذ طه حسين من المستشرق البريطاني الموتور أداته واتجاه بحثه. وعيباً يحاول أنصار طه حسين تبرئته والادعاء بأنه لم يأخذ شيئاً من مرجليلوث، رغم أن الدلالـ والشواهد جميعها تنطق بأقوى لسان بأنه إنما أغـار على بحث مرجليلوث إغـارة شاملة، وإن وشـاه بعض التزاويق والخذـفات التي ظن أنها يمكن أن تقضـى على سرقـته. بل إن مرجليلوث نفسه قد اشـترك في اللعبة مدافـعاً عن ناـهـب فـكرـته زاعـماً أن الـبحـثـين قد صدرـا تـقرـيبـاً في وقت واحدـ، بينما يـفصلـ بينـهما عـشرـةـأشـهـرـ كـاملـةـ، كما أن طـهـ حسينـ فيـ كلـ ماـ كـتبـ قـبـلـ ذـلـكـ التـارـيخـ منـ مـقاـلاتـ وـ كـتـبـ كانـ يـتحدـثـ عنـ شـعـرـ الجـاهـلـيةـ حـدـيـثـ المـطـمـنـ لـهـ تـامـ الـاطـمـنـانـ. بلـ إـنـهـ فيـ آخرـ ماـ كـتبـ فيـ هـذـاـ المـوـضـوعـ قـبـلـ مرـجلـيلـوـثـ، وـكانـ ذـلـكـ فـيـ الفـصـلـ الـأـوـلـ منـ كـابـيـهـ: "قادـةـ الفـكـرـ"، الذـيـ سـبـقـ صـدـورـهـ بـحـثـ مرـجلـيلـوـثـ بـشـهـرـينـ تـقرـيبـاـ (فـيـ إـبـرـيلـ ١٩٢٥ـ مـ عـلـىـ وجـهـ التـحـديـ)، قدـ جـعلـ منـ الجـاهـلـيةـ وـأشـعـارـهاـ أـسـاسـاـ لـحـضـارـةـ الإـسـلـامـ، مـؤـكـداـ أـنـهـ لوـلاـ هـذـهـ الأـشـعـارـ وـأـصـحـابـهاـ ماـ كـانـ الخـلـفـاءـ وـالـعـلـمـاءـ وـالـقـوـادـ الـمـسـلـمـونـ. وـقدـ أـلـجـ عـلـىـ هـذـهـ الفـكـرـ إـلـخـاحـاـ كـبـيرـاـ، فـيـ الـوقـتـ الذـيـ ذـكـرـ مـعـهاـ شـكـ بـعـضـ الـبـاحـثـينـ الـأـورـبـيـنـ الـمـدـيـنـ فـيـ وجـودـ هـومـيـروـسـ. وـهـذـاـ نـصـ عـبـارتـهـ: "عـلـامـ تـقـومـ الـحـيـاةـ الـعـرـبـيـةـ فـيـ بـداـوةـ الـعـربـ وـأـوـلـ عـهـدـهـمـ بـالـإـسـلـامـ؟ـ عـلـىـ الشـعـرـ!ـ .ـ .ـ .ـ

هل كانت توحّد الحضارة الإسلامية التي ظهر فيها منْ ظهرَ مِنَ الخلفاء والعلماء وأفذاذ الرجال لو لم توحّد البداوة العربية التي سيطر عليها أمرؤ القيس والنابغة والأعشى وغيرهم من الشعراء الذين نبغسهم أقدارهم ولا نعرف لهم حقهم؟" (قادة الفكر/ ط٩/ دار المعارف بمصر/ ١٠ - ١١). لكنه ما إن ظهر بحث مرجليوث ووصل إلى أيدي الباحثين والعلماء في مصر حتى رأيناه يشتكى على رأسه وينقلب مائة وثمانين درجة مرددا عكس ما كان يردد طوال تلك السنين التي أربت على الحمس عشرة سنة منذ أول مقال وجدته يتناول فيه الكلام عن الشعر الجاهلي كما وضحت في بحث لي كتبه منذ أكثر من سبع عشرة سنة ونشرته على المشبك منذ عدة سنوات بعنوان "نظريّة طه حسين في الشعر الجاهلي: سرقة أم ملكية صحيحة؟".

وقد عقدت لبحثي طه حسين ومرجليوث دراسة مستفيضة قارنت فيها بينهما واتهيت إلى أن الدكتور طه لم يأت بشيء أساس غير ما قاله المستشرق البريطاني، وهذه الدراسة متاحة لمن يريدها في كتابي: "معركة الشعر الجاهلي بين الرافعى وطه حسين": فكلامها ينفي الشعر الجاهلي كلّه، وإن تظاهر طه حسين بأن من الممكن أن يكون بعض ذلك الشعر صحيحاً. لكنها صحة نظرية لأنّه في ذات الوقت يحرص على إثارة الريبة في ذلك الشعر جميعه متحججاً بأنه يحرى في ذلك على الشك المنهجي

الذى يُنسب للفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت، وهو ما بنت أنه لا أساس له من الصحة، إذ إن طه حسين لم يفهم تلك الفلسفة ولا نجح فى تطبيقها على موضوعه، فقد دخل الساحة وفي ذهنه التشكيك فى الشعر الجاهلى لا لشيء إلا لأن مرجليوث قد شكك فيه، فكان لا بد له بدوره من الشك والتشكيك فى كل ما يتعلق بذلك الشعر كأنه صدى صوت المستشرق البريطانى أو بوق فيه، مع الاطمئنان فى نفس الوقت إلى كل نص آخر ما دام يمكن اللتواء به لخدمة فكرته التى سرقها من مرجليوث بباركة أصحابها كما رأينا . ولو كان يفهم فعلا ذلك الشك المنهجى، أو على الأقل: لو كان مخلصاً وجاداً فى تطبيقه على بحثه، لوقف من كل النصوص التى بين يديه موقف الاحتراز والارتياح إلى أن يظهر له أنها تستحق الاطمئنان حقا .

كما أن كليهما يهاجم الرواة الشفويين الذين يقول مؤرخو الأدب العربى بوجه عام إنهم هم الذين حفظوا للأجيال التالية أشعار الجاهلية، ويشكك فى مقدرتهم على أداء تلك المهمة . وفي الوقت ذاته ينفى كلاهما أن يكون العرب فى ذلك الوقت على معرفة بالكتابة بحيث يستطيعون أن يسجلوا ذلك الشعر لو كان له فعلا وجود، كى يحفظوه من الضياع . وبالمثل فكل منهما يعتمد فى تقديره لذلك الشعر على اختفاء اللهجات القبلية من قصائده ومجيئه كله فى قالب فصيح مما يشير إلى أن العرب كانوا ينظمون

شعرهم قبل الإسلام بلغة واحدة هي اللغة الفصحى، وهذا ما يرفضه كلاهما ويرى أن الفصحى قبل الإسلام لم يكن لها وجود. كما يعتمد كل منها على خلو ذلك الشعر من الموضوعات الدينية، اللهم إلا ما فيه من بعض العقائد والشعائر الإسلامية، وهو ما يدل على أنه إنما صُنِعَ بعد الإسلام صُنُعاً (انظر د. إبراهيم عوض / معركة الشعر الجاهلي بين الرافعى وطه حسين / مطبعة الفجر الجديد / القاهرة / ١٩٨٧م - ٥٦ - ٧٧).

ومع هذا كله يأتي أحمد عبد المعطى حجازى فيفسر شكل طه حسين في الشعر الجاهلي على النحو التالي الذي لا أفهم كيف توصل إليه: "وإذا كان الرواة العرب ينسبون القصائد المعلقات لشاعراءً أفراداً كامرىء القيس وطرفة بن العبد وعنترة فقد ذهب عميد الأدب إلى أن الشعر الجاهلي منحول، أو هو بعبارة أدق تاج جماعي يصور حياة الجماعة العربية البدوية ويحسد أخلاقها ويُعبر عن نظرتها الخاصة للوجود بلغة طقسيّة قريبة من لغة الشعائر الدينية التي تصبح فيها الجماعة كياناً واحداً يتوحد فيه الأفراد وتصل الأجيال"، وهو كلام لم يدرُّ في خاطر طه حسين ولا حتى في الأحلام! إنما هو من أوهام حجازى المضحكة! (انظر مقاله فى "أهرام" الأربعاء ١١ جمادى الأولى ١٤٢٧هـ - ٧ يونيو ٢٠٠٦م بعنوان "الشعر في حياتنا - الشعر ليس امتيازاً خاصاً").

ويجد القارئ رداً مفصلاً وتفنيداً تاماً لكل ما هرَف به مرجليلوث في الدراسة المطولة التي أحققتها بترجمتها لبحث ذلك المستشرق (ديفيد صمويل مرجليلوث / أصول الشعر العربي / ترجمة وتعليق ودراسة د. إبراهيم عوض / ط٢ / دار الفكر العربي / ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م / ١٦٢). وفي تلك الدراسة بينت أن دعوى مرجليلوث القائلة بأن الشعر الجاهلي لم يكن له وجود وأن العرب لم يعرفوا نظم الشعر قبل العصر الأموي هي دعوى منهافة، ويكتفى أن نقرأ في ذلك الشعر الأموي نفسه الذي لا يشك فيه مرجليلوث لحظةً إشاراتٍ متكررةً إلى شعراء الجاهلية بوصفهم المثل الأعلى لشعراء العصر الأموي، علامة على حديث القرآن الكريم المتكرر عن الشعر والشعراء، وهو الحديث الذي لا يمكن أن يكون معناه الكهانة والكهان كما يزعم مرجليلوث على غير أساس كي ينفي معرفة العرب للشعر في ذلك الوقت، إذ تحدثت أى إنسان أن يأتينا بأى نص قديم يقول إن كلمة "الشعراء" في ذلك الوقت كانت تعنى "الكهان". علامة على أن وقائع التاريخ ورواياته تقول إن الشعراء كانوا موجودين بكل يقين قبل الإسلام وفي عصر الرسول عليه السلام على عكس ما يريد مرجليلوث منا أن نقنع. وبالموازية فقد سبقه كليمان هوار فربط على نحو ما بين الشاعر من جهة والكافر والساخر من جهة أخرى (انظر: A History of Arabic Literature, PP.٧-٨

أحمد حسن الزيات هذا السخف، وأن يكون تزديده له فوق ذلك تزديداً الواثق المطمئن الذي لا يرى في الأمر أية غرابة. بل إن الطريقة التي رددت بها لتوهّم من لا يعرف خبيثة الأمر أن هذا الكلام هو رأيه هو، توصل إليه من تلقاء نفسه. وفضلاً عن هذا فإنه لم يقدم لنا ما يدل على صحة ما يقول (انظر كتابه: "تاريخ الأدب العربي" / ٢٨ - ٢٩). وعوده إلى مرجليلوث يقول إنه من العجيب أن يأتي باحث في الشعر الجاهلي هود. كريم الوائلى فيزعم أن المستشرق البريطاني لا ينكر وجود ذلك الشعر، بل يؤكّد أنه كان موجوداً، وكل ما هناك أنه يشك في الطريقة التي وصل بها إلينا، وهو ما يقلب كلام مرجليلوث رأساً على عقب (انظر الفصل المسمى: "توثيق الشعر الجاهلي" من كتابه: "الشعر الجاهلي - قضاياه وظواهره الفتية" المنشور على المشبك). ولا أدري من أين له بذلك الفهم الغريب! أما مسألة اللهجات التي يطنطن بها كل من مرجليلوث وتابعه المصري المتقانى في تعقب خطواته الطائشة الفاشلة فيكتفى هنا في إدحاض ما زعمه بشأنها أن يقول إن القرآن قد ذكر في أكثر من آية أنه نزل بلسان عربي، لا بل هجنة قريش أو الحجاز مثلاً، مما يرهن أصلب برهان على أنه كانت هناك لغة واحدة للعرب جميعاً بخلاف ما ادعاه الاثنان بهتاناً وميئناً من أن اللغة العربية لم تصبح لساناً لمن نسميه بـ"العرب" إلا بعد قيام الدولة الإسلامية بداعياً من عصر الرسول صلى الله عليه وسلم. كما أنها لم نسمع بتاتاً أن

العرب في الجاهلية أو قبل قيام الدولة الجديدة بعد ذلك في عصر المبعث كانوا يحتاجون إلى ترجمة بين بعضهم وبعض أو قامت عقبة تحول دون تفاهمهم. ثم إننا ما زلنا حتى الآن نستعمل في حياتنا اليومية لهجات متعددة تختلف عن الفصحي في أشياء ليست بالهينة، لكننا حين نكتب أو نندع ترك عادة هذه اللهجات وراء ظهورنا وتتجه إلى المستوى الفصيح، فما المشكلة في هذا؟ بل إنني لأذهب إلى عكس ما يقول به كثير من الباحثين من أن العرب قبل الإسلام بقليل من الوقت نسبيا قد انتهوا إلى اصطدام لغة قريش في إبداعاتهم والتخاذلها من ثم لغة أدبية لهم جميعا، إذ أرى أن الفصحي كانت موجودة منذ زمن طويل ينحو الخطباء والشعراء منهم نحوها تاركين عندئذ لهجاتهم المختلفة التي كانوا يخصصونها لموضوعات الحياة العادلة كما هو الحال في كل اللغات، وإنما فلو أخذنا بنظرية ارتقاء لغة قريش عشية بزوغ الإسلام إلى احتلال موقع اللغة القومية للعرب كلهم لكان معنى هذا أن العرب قبل ذلك كانوا يصططعون لغات مختلفة بعدد قبائلهم، وهو ما يتضمن أن كل قبيلة منهم كانت تمثل دولة مستقلة لها حدودها وقوميتها بحيث لا تتدخل مع أية قبيلة أخرى. وأين ذلك، وكيف، وهم لم يكونوا يستقرون في موضع واحد فقط، بل كانوا دائمي السعي وراء العشب والماء طول العام، والاختلاط من ثم في كل أرجاء الbadia؟ أو أنهم كانت لهم لغة أخرى غير العربية يستعملون في

أمورهم المعيشية لهجاتها المختلفة، تلك اللهجات التي أخذت لهجة قريش منها موقع الصدارة قرب بحيرة الإسلام وأضحت بذلك لغتهم القومية بدلًا من لغتهم الأولى. فهل كان للعرب لغة أخرى غير هذه التي بين أيدينا؟ فما هي تلك اللغة يا ترى؟ وما اسمها؟ وما الدليل على وجودها؟ وفوق هذا فإن أيًا من مؤرخيهم أو خطبائهم أو شعرائهم لم يتحدث في هذا الموضوع بتاتاً، بل لم يشر إليه أى باحث مجرد إشارة.

وتبقى مسألة الدين، وفي الشعر الجاهلي إشارات متكررة إلى عدد من مظاهره وشعائره وقذاته. وأقصى ما قد يمكن أن يقال في هذا الصدد هو أن الشعر الجاهلي يخلو من القول المفصل في أمور الدين، وهو ما يمكن أن يفسر بأن كثيراً من ذلك الشعر قد ضاع وأن المسلمين لم يجدوا في أنفسهم ميلاً إلى حفظه وترديده. وينبغي ألا ننسى أيضاً أن خطب العرب وأمثالهم تخلو مثل الشعر، وربما أكثر من الشعر، من الحديث في أمور الدين. أما القول بأن ذلك دليل على أنه مصنوع في الإسلام فنتيجة غير لازمة ولا مسلمة، فضلاً عن أن القول بها يستلزم أن تكون أمة العرب وال المسلمين كلها على بكرة أبيها أمة من المزيفين والمتوطئين معهم، أو أمة من الكاذبين الوضاعين من جهة، ومن الأغبياء المغفلين من جهة أخرى حتى ليجوز أن يخترع المخترعون منها شعر عصر كامل وشعراءه فجاء، وكان الأمة نامت ذات ليلة دون أن يكون هناك شعر جاهلي ولا شعراء

جاهليون ثم استيقظت من مرقدها فإذا بين يديها ذلك الشعر وشراوه، ورغم هذا لا يجد هؤلاء المخترعون المزيفون من يعقب على صنيعهم. ثم إن العرب قبل ذلك كله كانوا يعتمدون على ذاكرتهم اعتماداً أساسياً حتى أصبحت الذاكرة العربية من كثرة الاستعمال والثقة بها حادة الرهافة. أما الاتهامات التي وجهت إلى بعض الرواة فمن الممكن أن تكون كلاماً مرسلاً، بل لقد وجدنا بعضها لا يقوم على أساس، أو لا يقوم على الأقل على أساس متيّن. كما أن قول القرآن الكريم في خطابه للكافرين: "أَمْ لَكُمْ كِتابٌ فِيهِ تَدْرِسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَحِيَّرُونَ؟" (القلم / ٣٧) ليس معناه أن العرب لم يكونوا يعرفون شيئاً عن القراءة والكتابة حسبما زعم مرجليوث بجهله وبهلوانيته، بل الكلام فيه موجه إلى القرشيين وحدهم لا إلى العرب كلهم، إذ كان أهل مكة يسخرون من الجنة ومن المؤمنين بها قائلين إنه إن كان ثمة جنة ونعييم فلسوف يتمتعون رغم ذلك بما فيها من خيرات ولذائذ، فأنكر عليهم القرآن قولهم ذلك متسائلاً: أَوْفَى أَيْدِيهِمْ كِتابٌ سَمَاوِيٌّ يَقُولُ بِأَنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَيَتَمْتَعُونَ كَمَا يَرْعَمُونَ بِنَعِيمِ الْجَنَّةِ كَالْمُؤْمِنِينَ الْمُقْتَيِنِ؟ ولقد أثبت الباحثون من عرب ومستشرقين معرفة العرب للكتابة والقراءة ولجوءهم إليها في عملية تسجيل الشعر في غير قليل من الأحيان (انظر في ذلك مقال كرنكوف: "استعمال الكتابة لحفظ الشعر العربي القديم" / من ترجمة د. عبد الرحمن بدوى في كتابه: "دراسات المستشرقين حول صحة

الشعر الجاهلي" / ٢٩٢ - ٣٠٤، والفصل المطول المستفيض الذي عقده لذلك الموضوع ودعمه بالشواهد الكثيرة والأدلة القوية د. ناصر الدين الأسد في كتابه القيم: "مقدار الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية" / دار المعارف / ١٩٥٦ ... الخ.

وقد انتهى الأمر بدراسة مرجليلوث وطه حسين عند الباحثين المختربين إلى الازواء في دائرة النبذ والإهمال حتى في نطاق المستشرقين أنفسهم الذين اقضوا بعضهم على بحث مرجليلوث المتهافت السخيف فمزقوا أو صاله وأبرزوا ما فيه من تفكك ومجافاة للمنطق وأصول البحث العلمي، وهو نفس المصير الذي لاقاه كتاب طه حسين رغم الفعّادات التي يحاول بعض من يُحسبون على الثقافة العربية أن يُحدِّثوها بين الحين والحين تلمسوا له جاهلين أن ذلك الكتاب قد مات وشبّع موتاً منذ ثمانين عاماً إثر تالي الضربات القاضية عليه من أقلام العلماء الآباء التي كشفت عواره وفضحت ما فيه من خَوْرٍ فكريٍ وركاكةٍ علمية وتسريعٍ أهوجٍ إلى تابع مقررة سلفاً لا تؤدي إليها المقدمات التي ساقها صاحبه، وأن ما مات لا يعود للحياة إلا يوم الدين. وبالمناسبة فكثير من النصوص الشعرية التي شكلت فيها طه حسين في كتابه: "في الشعر الجاهلي" ثم في خليفه: "في الأدب الجاهلي" ليست نصوصاً جاهلية بل إسلامية، وهذا من أغرب العجب! على أن قولنا إن المستشرقين الآخرين قد هاجموا نظرية مرجليلوث

الرعناء في تقى الشعر الجاهلى كله لا يعني أنهم لا يشكون أى شك فى ذلك الشعر. إنهم يشكون، بيد أن شكهم لا ينسحب على ذلك الشعر كله، بل على أشياء فيه لا تجعلهم يطمئنون تمام الاطمئنان إلى ما وصل إلينا منه رغم غريلة علمائنا القدامى لنصوصه، بل رغم تنطمس هؤلاء العلماء فى تلك الغريلة أحيانا أكثر مما ينبغى كما أشرت إلى بعض ذلك فيما مضى. ويستطيع القارئ أن يقرأ عددا من أبحاث هؤلاء المستشرقين فى هذا المجال فى الكتاب الذى صدر للدكتور عبد الرحمن بدوى للمرة الأولى عام ١٩٧٩ عن دار العلم للملائين بيروت بعنوان "دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلى" والذى يضم ترجمة عشرة من أبحاث كبارهم فى ذلك الموضوع مثل نيلدكه وشبرنجر وبلاشير، وقد مرت الإشارة إليه قبل قليل.

ولعل أهم ما تناولوه ووقفوا عنده مليأ الطريقة التي كان يُروى بها الشعر الجاهلى عادة، وهى الطريقة الشفوية، إذ فسروا فى ضوئها ما لوحظ على نصوص ذلك الشعر من اختلاف فى روایتها. تقديمًا وتأخيرًا وتعديرا لكلمة أو عبارة بكلمة أو عبارة أخرى، أو اختلافٍ فى نسبة نص معين إلى أكثر من شاعر، أو تداخلٍ نصٍ لشاعرٍ ما مع نص لشاعر آخر يشتراك معه فى الوزن والقافية ويقترب منه فى الموضوع الذى يعالجها... على أساس أن الذاكرة البشرية مهما كانت قوتها لا بد أن يصيبها الوهن

والنسیان من حين لآخر، وهو ما يوافق ما قاله هامilton جیب فی هذا الصدد فی كتابه: "Arabic Literature," (Oxford University Press, ١٩٧٤, P.٢٠) . ولا شك أن فی بعض ما قالوه فی هذا السبیل شيئاً من الوجاهة، إلا أنه لا ينبغي أن يغيب عن بالنا أن اختلاف روایات الشعر الجاهلي لا يرجع كله إلى خيانة الذاكرة بالضرورة، بل ربما وردت أكثر من روایة لكثير من نصوصه عن الشاعر نفسه تبعاً لاختلاف الأزمنة والظروف التي كان الشاعر يلقى فيها على الجمهور قصائده، إذ من المعروف أن المبدع لا يکف عن معاودة النظر فی إبداعاته والعمل على صقلها كلما واته الفرصة. وأية فرصة أعظم من أن أشعاره لم يكن يتم تثبيتها كتابة إلا فی أحياناً قليلة؟ وإذا ذن فالفرصة متاحة له على مصراعيها كي يُدخل أى تغيير يريد فی الوقت الذي يشاء . وأنا أفعل ذلك فی مقالاتي ودراساتي المنشورة على المشبك ولم تُثبت بعده على الورق، إذ بإمكانى كلما أعدت نشر ما كتبت قد نشرته فی موقع آخر غير الموقع الأول أن أُدخل فيه من التغييرات والتصحيحات ما أشاء وينتهي السهولة . بل إننا، حتى بعد أن يتم تثبيت نص أى كتاب لنا على الأوراق، نستطيع أن نعيده النظر فيه عند التفكير فی طبعه مرة أخرى . فإذا كان هذا يحدث فی أعمالنا المكتوبة، فما بالنا بإبداعات الشعراء الجاهلين التي لم تكن تُكتب فی العادة كما قلنا؟ (انظر فی هذا

الصدق دراسة هـ. الفرت: "ملاحظات عن صحة القصائد العربية القدمة"/ من ترجمة د. عبد الرحمن بدوى فى كتابه المذكور /٤١ -٨٦، ودراسة ف. كرنكوف: "استعمال الكتابة لحفظ الشعر العربى القديم"/ من ترجمة د. عبد الرحمن بدوى فى نفس الكتاب /٢٩٢ -٣٠٤، وبحث جيمس مونرو (James Monroe) : "Oral Composition" (Journal of Pre-Islamic Poetry in "المنشور فى Literature Arabic /١٩٧٢ م/ ٣ /١ -٧، وترجمته العربية لفصل بن عمار العمارى بعنوان "النظم الشفوى فى الشعر الجاهلى"/ دار الأصلة/ الرياض /١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م).

وبطبيعة الحال فإن ضعف الذاكرة والأعيتها ليست وحدها السبب فيما اعتبرى الشعر الجاهلى من تغييرات، فلست أحسب أن كل الرواة الذين أذوا إلينا ذلك الشعر كانوا مخلصين أو حريصين على أن يقوموا بواجبهم على النحو المطلوب، لأنهم في نهاية المطاف بشر من البشر. وعلى دارس الشعر الجاهلى أن ينظر في كل قصيدة على حدة ولا يرفضها إلا إذا قام في نفسه من بواعث الشك ما لا يستطيع الرد عليه، كأن تكون القصيدة إسلامية حقاً بحيث لا يمكن توجيهها بأى حال، أو أن يكون فيها من اضطراب التاريخ ما لا يستقيم معه أمرها البة. ومن يُرد أن يرى كيف طبّقت هذا الاختبار في دراساته فيستطيعه مراجعة الفصلين المختصين

بذلك من كتابي: "عنترة بن شداد - قضايا إنسانية وفنية"، و"النابغة الجعدي وشعره". كذلك على الدارس أن يحصر شكه فيما يقبل الشك منها فلا يعم ذلك الشك دون مسوغ. وهناك قصائد منسوبة إلى آدم مثلا، ولا أظن عاقلا يصدق أن آدم كان يتكلّم في ذلك الزمن الموجل في القدم بلسان العرب. صحيح أنها لا نعرف متى بدأ ظهور اللغة العربية ولا متى أصبحت لغة لنظم الشعر، إلا أن هذا لا يعني أن نصدق الشعر المنسوب لأبي البشر بذلك اللغة، فاللغات لا تظهر كاملاً مرتاً واحدة، وأ adam إنما يمثل أول فرد في أول جيل من أجيال البشر على الأرض، فلا يعقل إذن أن تظهر العربية على يديه كاملة الفن وطراوئق التعبير وكأنها نزلت من السماء لا ينقصها شيء. إن هذا ضد طبيعة الحياة كما نعرفها، وذلك إن صدقنا أن ذلك الجد البعيد كان يتحدث لغة من اللغات التي نعرفها أصلاً!

أعود فأبلُور موقفى من قضية النحل والاتصال في الشعر الجاهلى فأقول إن هناك بلا شك شعرًا جاهلياً منحولاً، إلا أنه لا توسع في ذلك ولا حتى توسيع ابن سلام، الذي يبدو (بالقياس لبعض الباحثين المحدثين) من المعذلين إلى حد بعيد. ذلك أن الأسباب التي استند إليها الباحثون في الشك في الشعر الجاهلي ليست دائمًا بالأسباب القوية التي تجعلنى أشكك في هذا الشعر على ذلك النطاق الواسع الذي يريد طه حسين مثلاً، أو حتى على النطاق الذى كان يتحرك فيه ابن سلام حسبما

وضحتُ فيما سبق من هذا الفصل . ومن هنا فإني أميل إلى القول بأن باحثاً كيرا كالدكتور شوقي ضيف لم يقدم دائمًا المسوغات الكافية في رفض عدد من قصائد الشعر الجاهلي ، وأن السبب في ذلك هو امتلاء نفسه بها جس النحل والاتصال رغم وقوفه في ذات الوقت في وجه من يريدون إثارة عواصف الارتياب وأعاصيره في ذلك الشعر : فمثلاً نراه رحمة الله يشك شكاً شديداً في قصيدة النابغة الذهبياني : "بانت سعاد وأمسى حبلها انجدما" لأنها ، كما يقول ، "تسيب خالص ولأن بها روحًا إسلامية تتصح في قوله مخاطباً صاحبته :

حِسَانِكِ ربِّي ، فَإِنَّا لَا يَحْلُّ لَنَا هُوَ النَّسَاء ، وَإِنَّ الدِّينَ قَدْ عَزَّزَنَا
مُشَفِّرِينَ عَلَىٰ خُوَصِّ مَزْنَمَةٍ نَرْجِسُهُ إِلَهٌ وَنَرْجِسُهُ الْبَرُّ وَالْطَّعَمَا
رَغْمَ أَنَّهَا مِنْ رَوْيَةِ الْأَصْمَعِيِّ كَمَا ذَكَرَ هُوَ نَفْسُهُ (الْعَصْرُ الْجَاهَلِي) / ٢٧٨
ولست أشاطر الأستاذ الدكتور شكم الشديد في القصيدة ، فإن
مجيئها نسيباً خالصاً لا يُعد مسوغاً لرفض نسبتها إلى الشاعر ضرورة لازب ،
والافهل عنده دليل على أن النابغة لا يمكن أن يقول شعراً خالصاً في
النسب ؟ كما أن البيتين اللذين يصفهما بأنهما ذوا روح إسلامية لا يتسمان
في حقيقة الأمر بشيء إسلامي حصرًا ، إذ الكلام فيهما عن الإله والدين
بعامة ، وهو كلام يصدق على كثير من الأديان . وحتى لو كانا إسلاميين
حقاً وصادقاً ، فإن ذلك ليس بالسبب الكافي لرفض القصيدة كلها ، بل
لرفض البيتين فحسب . وهو نفسه لم يرد بيتهن لزهير بن أبي سلمى يؤمن

فيهما باليوم الآخر والحساب ويؤكد معرفة الله تعالى بغيب النفوس واطلاعه المطلق على كل شيء (المرجع السابق / ٣٠٣)، فهذا من هذا. ولا ننس أن النابغة كان يتردد على بلاط الحيرة والغساسنة، وكان ملوكهما نصارى. بل إن في شعره، كما نعرف، كلاماً عن بعض الأعياد والاحتفالات النصرانية.

وبالمثل بحد الأستاذ الدكتور ينكر صحة قصيدة الأعشى الدالية التي تقول كتب الأدب إنه كان قد أعدها مدح الرسول عليه السلام قبل أن تلقاه قريش وتصده عن الذهاب إليه وإعلان الإيمان به، والتي تتضمن بعض التعاليم الإسلامية والعبارات القرآنية، بمحاجة أنها "لا تتفق في شيء" ونفسية الأعشى، وأنه لا يمكن أن "يؤمن بتعاليم القرآن على هذا النحو ثم ينصرف عن الرسول وهديه" حسب تعبيره (السابق / ٣٤٢). يشير الأستاذ الدكتور إلى ما تحكيه كتب الأدب من أن الأعشى أعد العدة للوفادة على النبي عليه السلام وهو لا يزال في مكة وجهز في مدحه قصيدة يقولها عند لقائه، إلا أن قريشاً ما إن علمت بهذا الذي كان ينتويه حتى سارعت بمقابلته وعملت على تنفيذه من الدين الجديد وصاحبته، فرجع من طريقه دون أن يقدر عليه صلي الله عليه وسلم، ثم تابعت الحوادث حتى مات ولم يدخل في الإسلام. لكن من قال إن الأعشى كان في خاطره الانصراف عن الرسول انصرافاً نهائياً؟ ر بما انصاع لكلام الفرшиين ريشما تناح له فرصة

أخرى، أو رها ضعف أمام ما أعطوه من مال فأخذه وانصرف مؤقتاً انتظاراً لظروف أفضل يستطيع أن يعلن فيها إسلامه دون خوف من ضغط أو إخراج. والناس ليسوا سواء في قوة التمسك بما يؤمنون به، ولا كلام على استعداد للبذل والتضحية العنيفة، ولا من طبيعتهم جمِيعاً المسرعة إلى تنفيذ ما ينونون عمله. وعندى أن تفسير موقف الأعشى بذلك أقوى في الإقناع من إنكار نسبة القصيدة له والقول بأنها منحولة. وثمة أمثلة أخرى كثيرة يسارع فيها الدكتور شوقي إلى إعلان شكه في هذه القصيدة أو تلك دون أن تكون التسويفات التي يسوقها مرضيةً للعقل، ولكنني أكتفى بهذه المثلين دليلاً على أنه، ككثير من الباحثين العرب، قد امتلاً قلبه بها حس النحل والاتصال أكثر مما يصح رغم أنه قد رد هجوم مرجليوث وطه حسين وبلاشير على الشعر الجاهلي وبين ما في ذلك الهجوم من مغالاة لا تستقيم ومنطق الأشياء (السابق / ١٦٦ - ١٧٥)، وإن لم يعن هذا بطبيعة الحال أن كل القصائد التي ردها أو أبدى شكه فيها لا تستحق هذا الشك أو ذلك الرد. خلاصة القول إن في الشعر الجاهلي شعراً صحيحاً، وهو الأغلبية الكبيرة، وفيه إلى جانب هذا شعر منحول أيضاً، إلا أن المنحول ليس بالكثرة ولا الاتساع الذي توحى به عادةً كتاباتٍ من كتبوا في ذلك الموضوع.

هذا، ويلفت النظر في الشعر الجاهلي أن عدد شعراته كبير هائل: منهم المشهور الطائر الشهير كامرئ القيس وعنترة والأعشى وزهير بن أبي سلمى والنابغة الذبياني وعمرو بن كلثوم وطرفة بن العبد وزرقاء اليمامة، ومنهم من لا يحظون بشيء من الشهرة كأبي حذيفة وأعصر بن سعد وأوس الهجيمي وجناب بن منقذ وسبيع التميمي وأرطاة الفزارى وابنة أبى الجدعاء وكسرة بنت دوشن وجمل السلمية وزهراء الكلابية وسعدي الأسدية، ومنهم من كان بين ذلك قواماً مثل عبيد بن الأبرص والمهليل بن ربعة وعلقة الفحل والمرقش الأكبر ولقيط بن يعمر وعروة بن الورد وتأبط شرّاً والشترى وعمرو بن قميصة وسلمة بن جندل وعبد يغوث الحارثى وكعب بن الأشرف النضرى وجليلة بنت مُرَّة وليلى العفيفه. ومنهم أصحاب المطولات، ومنهم من لم يصلنا عنهم إلا مقطوعات أو تفّ أو أبياتٌ مفردة. ومنهم كذلك أصحاب الدواين، ومنهم من لهم عدد صغير من القصائد والمقطوعات، ومنهم من ليس لهم إلا بعض أبيات أو أقل من ذلك. ومنهم من كان ينظم في آلةٍ ورثٍ ويعيد النظر في ما ينظمه قبل أن يذيعه في الناس حتى ليقول ابن قتيبة في "الشعر والشعراء" إن زهيراً كان يتفق في إبداع القصيدة الواحدة وقتاً طويلاً، وإن الحطّينة (من الشعراء المخضرمين)، وسويد بن كراع وعدى بن الرقاع (من شعراء بنى أمية) كانوا يتخذونه مثلاً لهم يحذرون طريقة وينصحون شعرهم قبل أن يذيعوه تنفيحاً

شديداً كما كان يصنع. ومنهم في المقابل من لم يكن يعُكَ كل هذا الوقت الطويل على تهذيب ما ينظم بل كانوا يمليون إلى إذاعة ما يبدعون من شعر على الجمهور بمجرد ما يفرغون من نظمه، وهؤلاء يُسمّون: "أصحاب الطبع"، وهو ما تناوله الباحث في كتابه: "البيان والتبيين" . . . وهكذا. ومن أولئك الشعراء من كان ملكاً أو أميراً أو شيخ قبيلة كامرئ القيس والمهليل والأفوه الأودي وأبى قيس بن الأسلت وحاتم الطائي، ومن كان فارساً كسلامة بن جندل وعلقمة الفحل وقيس بن الخطيم وعبدة بن الطبيب وأبي حيحة بن الجراح، ومن كان حكيناً كأميمة بن أبي الصلت وقس بن ساعدة، ومن كان صعلوكاً كأبي شرّاً والستّلوك بن السّلّكة، ومن كان عبداً كعنترة بن شداد وسُحيم عبد بنى الحسّاس (وهو جاهلي إسلامى)، ومن كان يتخذ من المدح مرتزقاً كالنابغة والأعشى والمنخل اليشكري وأبى زيد الطائى . . .

ولم يترك شعراء الجاهلية موضوعاً من الموضوعات إلا ونظموا فيه، فشعروا في المدح والفنر والهجاء والرثاء والحماسة والوصف والخمر والنسيب والغزل والأطلال والرحلة والقصة والتمرد على أعراف القبيلة والتجارب الشخصية والحكمة ومقارنات الحياة. أى أنهم قد نظموا أشعارهم في الأمور الاجتماعية والشخصية على السواء، وذلك على عكس ما يردده بعض الدارسين من أن الشعر الجاهلي كان شعراً غيرياً لا

بعد الشاعر فيه أن يكون ناطقاً بلسان الجماعة، وكان شخصيته قد أُغتيلت إلغاءً (من تناول هذه المسألة وقال بذلك القول المستشرق البريطاني "Arabic Literature")، إذ زعم أن غالبية شعراء الجاهلية كانوا يعبرون عن الأفكار والمشاعر الجماعية أكثر مما يعبرون عن شخصياتهم الفردية. وقد ردَّ كذلك هذا القول د. عبده بدوى في كتابه: "الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي" / الهيئة المصرية العامة للكتاب / ١٩٨٨ / ٣٩). وعلى هذا فقد صور لنا شعراء الجاهلية في قصائدتهم ومقطوعاتهم المجتمع العربي في زمانهم، فذكروا الأماكن التي كانوا يتقددون بينها أو يلتئمون بها من مدن أو عيون ماء أو جبال وتلال أو بوايد، كما أوردوا أسماء قبائلهم ومشاهير الرجال بينهم، سواء كانت شهرتهم بسبب فروسيتهم وشجاعتهم في الحروب أو بسبب كرمهم وأريحيتهم أو بسبب بخلهم أو بسبب استبدادهم أو بسبب حكمتهم أو بسبب ما اشتهروا به من شعر أو خطب... وبالمثل تحدثوا عن كثير من الأحداث المهمة في تاريخهم القريب والبعيد، وتناولوا بالذكر أنسابهم، وأوردوا بعض طقوس دينهم وأسماء أصنامهم، ورسموا كثيراً من عاداتهم وتقاليدهم وأخلاقهم ومثلهم العليا، وتحدثوا عن مناخ بلادهم من حرّ وبرد وبرد ومطر وسیول ورياح وغمام، ووصفوا أشجارها وبنياتها وينابيع مياهها وحيواناتها

وطيورها الوحشية والإنسانية، وقدموا لنا كثيراً من التفاصيل عن الأوهام التي كانوا يتوهون بها والمهن التي كانوا يمتهنونها والهوايات التي كانوا يمارسونها ويقضون بها وقت فراغهم من حجامة وكهانة وزراعة ورعى وصيد وحدادة وتجارة ولعب ولهو، كما تتضمن أشعارهم كثيراً جداً من أسماء الأعلام لديهم ذكراناً وإناثاً.

وهذا يحرّنا إلى ما ادعاه طه حسين تسرعاً ودون تثبت في كتابه: "في الأدب الجاهلي" من أن الشعر العربي المنسوب إلى الجاهلية لا يصور الحياة العربية قبل الإسلام، وأننا إذا أردنا التماس تلك الحياة فعلينا بالقرآن، أما الشعر الجاهلي فهو شعر مزيف موضوع بعد الإسلام وأضاعاً، ومن ثم فإنه لا يفيدنا بشيء في هذا المجال (في الأدب الجاهلي / ٧٠ - ٨٠)، وفي مواضع أخرى متواترة من الكتاب). إنه يقول مثلاً إن الشعر الجاهلي يخلو من الحديث عن النصرانية، مع أن هناك كلاماً متكرراً عن الرهبان والصلبان وبعض المناسبات النصرانية مما ينقض كلامه تقضياً. كذلك يزعم الدكتور طه أن شعراً الجاهلية سكتوا فلم يذكروا الروم والفرس بشيء، بينما هناك مثلاً قصيدة امرئ القيس الرائية التي يتحدث فيها عن رحلته إلى القسطنطينية وبعض المواطن التي مر بها هو ورفيقه، وكذلك قصيدة لقيط بن يعمر التي يحذر فيها قومه والعرب كلهم مما يدبره لهم كسرى من جيش يجهزه لغزو بلادهم واستذلالهم، وقصيدة الأعشى

التي يتعنى فيها باتصار العرب على الفرس في يوم ذي قار. وعلى نفس الشاكلة يمضى طه حسين فيقول إن ما نظن أنه شعر جاهلى لم يتناول المشكلة الطبيعية، في الوقت الذي يتضمن هذا الشعر فعلاً صفحات كثيرة سطّرها الشعراء الصعاليك، وهم الشعراء الذين خرجوا على قبائلهم وكونوا في منقطعات البايدية عصابات تغير على القوافل والأغنياء ثم يوزعون ما يحرزونه بهذه الطريقة على أنفسهم بالسوية. كما أن تذبح الشعراء الأغنياء آنذاك بما كانوا يُسددونه إلى القراء والبائسين من حولهم هو لون آخر من تصوير هذا الجانب الذي يزعم طه حسين أنها تقوده في شعر الجاهلية. أما أن ذلك الشعر لا يُفليس في القول إلا حين يتناول البايدية، بخلاف حياة المدن التي لم يعشها إلا مَسَاً رفيفاً كما يقول، فهذا أمر طبيعي. ذلك أن بلاد العرب أو آنذاك كانت تغلب عليها البداوة غلبة عنيفة، إذ إن معظم أرضها، كما هو معروف، صحراء قاحلة. وثبت دراسات كثيرة يتناول كل منها هذا الجانب أو ذاك من جوانب الحياة الجاهلية بما يكذب مقالة طه حسين، الذي كان لا يزال حديث عهد بالغودة من فرنسا حين كتب ما كتب في هذه القضية، فكان يظن أنه جمع العلم من كل أطرافه رغم أنه لم يشخص في فرنسا في الأدب العربي، بل في تاريخ الإغريق والرومان، علاوة على أن الدكتورية التي أحرزها هناك إنما هي دكتورية السلك الثالث لا دكتورية الدولة التي تُعد دكتورية حقيقة كاملة.

ومن هذه الدراسات تلك الأبحاث الرصينة التي رد بها العلماء الكبار على طه حسين لدى صدور كتابه الخديج: "في الشعر الجاهلي" من أمثال مصطفى صادق الرافعى و محمد لطفى جمعة و محمد فريد وجدى و محمد الخضر حسين و محمد أحمد الفراوى، وكذلك سلسلة المقالات التي كتبها د. أحمد أمين في مجلة "الثقافة" تحت عنوان "جنابية الأدب الجاهلي على الأدب العربى" وأكده فيها أن الأدب الجاهلى هو فى الواقع صورة صادقة لحياة العرب فى الجاهلية. ومنها أيضا الفصول التي خصصها كل من السباعى بيومى و د. شوقى ضيف و د. على الجندي، و عبد الله عبد الجبار مع محمد عبد المنعم خفاجى، لهذا الموضوع فيما وضعا من كتب عن العصر الجاهلى، وكذلك د. أحمد الحوفى عن الحياة والمرأة فى شعر الجاهلية، و كتاب د. يوسف خليف عن شعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى، و كتاب د. سيد حنفى حسنين عن الفروسيّة فى ذلك العصر أيضا، فضلا عن الكتب والفصول الأخرى التي خصصها أصحابها للحديث عن الحكمة أو الحرب أو النسب أو الحيوان أو النجوم أو الأنواء أو الخمر أو السُّود فى الشعر الجاهلى... إلخ. وقبل ذلك لدينا كتاب "الأصنام" لابن الكلبى، وهو يضم عددا غير قليل من الشواهد الشعرية المتعلقة بالأصنام و بيوتها و عبادة العرب لها، و "الأغانى" لأبى الفرج الأصفهانى، الذى يتضمن كثيرا جدا من أخبار العرب فى الجاهلية

وواقعهم وحكاياتهم مرفةً بما يرتبط بها ويصورها من أشعار. وفي "معجم البلدان" وأشباهه من المعاجم ثروة شعرية هائلة تفوق الحصر في وصف المواطن المختلفة في جزيرة العرب من وديان وجبال وشعاب ومياه وقرى وذكر أسمائها وتحديد مواقعها. وصدق جرجي زيدان إذ يقول إن عرب الجاهلية قد صوروا "عاداتهم وحيواناتهم وأدواتهم في أشعارهم كما صورها المصريون والأشوريون واليونان والروماني على قصورهم ومعابدهم. وكما استخرج علماء الآثار عادات تلك الأسم وأخلاقها من آثارها المنقوشة أو المحفورة فالباحث في شعر الجاهلية يستخرج منه عادات العرب وأدابهم وأخلاقهم وطبائعهم وسائر أحواهم. ولذلك قال ابن خلدون إن الشعر ديوان علوم العرب وأخبارهم وشاهد صوابهم وخطئهم، وأصل يرجعون إليه في الكثير من علومهم وحكمهم. ويزيد على ذلك أنه مستودع عاداتهم وأخلاقهم وأدواتهم وصناعتهم" (جرجي زيدان/ تاريخ آداب اللغة العربية/ مراجعة وتعليق د. شوقي ضيف/ دار الهلال/ ١٨١). وهذا هو نيكلسون يقول مثلاً إن الشعر الجاهلي يفيض بالدراسات الدقيقة التي تتعلق بعالم الحيوان؛ ومن الممكن وصفه بأنه عبارة عن تقد للحياة والفكر عند العرب قبل الإسلام (انظر كتابه: A History of Arabic Literature, PP. ٧٨- ٧٩

ومن القضايا المهمة التي تتعلق بالشعر الجاهلي أيضاً بناء القصيدة. ولعل أول من افتح الكتابة في هذا الموضوع من مؤرخي الأدب وقاده هو ابن قتيبة، الذي قال في كتابه: "الشعر والشعراء": "سمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصود القصيدة إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدفن والآثار، فبكت وشكا وخاطب الربيع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الطاعنين عنها، إذ كان نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر لاتقاشم عن ماء إلى ماء واتجاعهم الكلأ وتبعهم ساقط الغيث حيث كان. ثم وصل ذلك بالنسبة، فشكراً شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصباية والشوق ليُميل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجهه وليسدعى به إصغاء الأسماع إليه، لأن التشبيب قرب من النفوس لانط بالقلوب لما قد جعل الله في تركيب العباد من محنة الغزل والفن النساء، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب، وضارباً فيه بهم حلال أو حرام. فإذا علم أنه قد استوقف من الإصغاء إليه والاستماع له عقب بإيجاب الحقوق فرحل في شعره وشكراً النصب والسرير وسرى الليل وحرّ المغير وإنضوء الراحلة والبعير. فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وذمامة التأمين وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير بدأ في المدح فبعثه على المكافأة وهزه للسماع وفضلته على الأشباء وصغر في قدره الجليل. فالشاعر الجيد من سلك هذه الأساليب وعدل بين هذه

الأقسام فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر، ولم يطيل في مثل السامعين، ولم يقطع وبالنفوس ضماءً إلى المزيد . . . وليس لتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المقدمين في هذه الأقسام فيقف على منزل عامر أو يبكي عند مشيد البناء، لأن المقدمين وقفوا على المنزل الداير والرسم العافي، أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما، لأن المقدمين رحلوا على الناقة والبعير، أو يرد على المياه العذاب الجواري، لأن المقدمين وردوا على الأواجب الطوامي، أو يقطع إلى المدوح منابت النرجس والأس والورد، لأن المقدمين جروا على قطع منابت الشيخ والحنوة والعراة" .

وأول ما ينبغي التنبية إليه هو أن الملاحظة السابقة ليست من بنىات عقل ابن قتيبة على عكس ما هو شائع، إذ هو مجرد حاكٍ لها كما جاء في بداية كلامه، وإن كان يفهم من نهاية النص أن الرأي الذي يقول بأنه لا يحق للتأخر من الشعراء أن يخرج على ما قرره السابقون منهم هو رأيه هو. فإذا كان الأمر كذلك فمعناه أنه قد وقع دون أن يدرى في شيء من الناقض، فقد قال في مقدمة كتابه ذلك في سياق الحديث عن الشعراء الذين ترجم لهم فيه والأساس الذي استند إليه في الحكم على مرتبة كل منهم: "ولم أسلك، فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له، سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره. ولا نظرت إلى المقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره. بل نظرت بعين العدل على

الفرقين، وأعطيت كلاً حظه، ووفرت عليه حقه. فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لقدم قائله ويضعه في سخيره، ويرذل الشعر الرصين، ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه أو أنه رأى قائله! ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص به قوماً دون قوم، بل جعل ذلك مشتركاً مقوساً بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثاً في عصره، وكل شريفٍ خارجيةً في أوله. فقد ناز جريراً والفرزدق والأخطل وأمثالهم يُعدون مُحدثين، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد همت بروايه. ثم صار هؤلاء قديماء عندنا بعد العهد منهم، وكذلك يكون من بعدهم لمن بعذنا كالخزيمي والعتابي والحسن بن هانئ وأشياهم. فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرنا له وأثنينا به عليه، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله ولا حداثة سنّه. كما أن الرديء إذا ورد علينا للمقدم أو الشريـف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه". ومعنى هذا أنه لا فضل للمقدمين من الشعراء على التالين لهم، فلماذا يحرّم ابن قتيبة على هؤلاء إذن أن يخرجوا على ما قرره أولئك ونهجوا سبيلاً إذا كان الفرقان موهوبين كلامها ولا يتقاضلان بهذا الاعتبار؟ كما أن الحياة لا تعرف بهذا التضييق الذي يريد بعض الناس أن يلزموا أنفسهم وغيرهم أيضاً به، بل تسع لأنواع كثيرة مختلفة من الأذواق والمعايير، وبخاصة في ميدان الفنون والأداب. وما دام الله

سبحانه لم يجعل العقل والذوق والوجدان والإبداع فضلاً على قوم دون قوم ولا على جيل دون جيل ولا على أمة دون أمة، فلماذا اشترط ابن قتيبة على اللاحقين من الشعراء أن يلغوا شخصياتهم الفنية ويحطبوا في حبل من تقدمهم من نظرائهم؟

على أن الذي يهمنا من هذا النص حقاً هو ما جاء فيه من أن تلك هي السبيل التي كان ينتهجها دانياً أصحاب القصائد، وهو ما لا يوافيه الواقع، إذ هناك قصائد جاهلية كثيرة جداً لم يجر فيها ناظموها على هذه الخطة، بل تراهم يدخلون في موضوعهم مباشرةً، أو يستهلون شعرهم بشيء آخر غير الوقوف على الأطلال: كالنسيب مثلاً كما في قول المتنبي بن عَلَسْ:

كِفْتُ بِيَلَى خَدِينِ الشَّبَا بِوَالْجَنَّتِ مِنْهَا زَمَانًا خَبَالًا
أو الحديث عن فراق الحبيبة لاتقاها مع قبيلتها إلى منزل آخر كما

في قصيدة بشامة بن الغدير التي مطلعها:

إِنَّ الْخَلِيلَ طَأْجَدَ الْبَيْنَ فَابْتَكَرُوا لِتَيْهَ ثُمَّ مَا عَاجَوْا وَمَا اتَّظَرُوا
(وهو ما يمكن تسميته بـ"مقدمة الفراق" أو "المقدمة الفراقية"), أو بالحديث عن الشهاد ومراعاة النجوم ومقاساة الأرق والقلق (وهو ما أطلق عليه: "المقدمة السُّهْدِيَّة")، ومنه قصيدة النافع المشهورة: "كَلَيْنِي لَهُمْ يَا أُمِيَّةً نَاصِب" وقصيدة عروة بن الورد: "أَرْقَتُ وَصُحْبَتِي بِمَضِيقِ عَمَّقِ"
وقصيدة الممزق العبدى:

أَرْقَتْ فَلَّمْ تَخْدَعْ يَعْيَنِي وَسَنَةً
وَمَنْ يَلْقَى مَا لَاقَتْ لَا يَدْرِي يَارْقَى
أَوْ بِالْوَدِ عَلَى عَذَابِ زَوْجَهِ لَهُ عَلَى مَا يَهِينُهُ مِنْ مَالٍ عَلَى الْفَقَرَاءِ
وَالْمَسَاكِينِ مَا تَرَى أَوْلَى بِهِ كَمَا هُوَ الْحَالُ فِي بَعْضِ قَصَائِدِ خَاتَمِ
الْطَّائِنِ، أَوْ عَلَى تَرْكِهِ بَيْتَهُ وَأَسْرَتَهُ وَالْأَنْطِلَاقُ فِي الْأَرْضِ كَمَا فِي بَعْضِ
أشْعَارِ عُرُوْةَ بْنِ الْوَرَدِ، أَوْ عَلَى احْفَاظِهِ بِفَرْسَهِ رَعْمٍ حَاجَةُ الْبَيْتِ إِلَى ثُمَّتِهِ
كَمَا فِي قَصِيدَةِ ابْنِ الْمُضْلِلِ:

بَسَّاتِ تَلَوْمَ عَلَى ثَادِيقِ إِيْشَرَى، فَقَدْ جَدَ عِصَيَانَهَا
(وَهُوَ مَا نَسْطَعُ أَنْ نَسِمِهِ مِثْلًا بـ "المقدمة العتابية")، أَوْ بِوَصْفِ
الْخَمْرِ مِثْلًا هُوَ الْأَمْرُ فِي مَعْلَقَةِ عُمَرِ بْنِ كَلْثُومَ الَّتِي يَبْدُؤُهَا بِالْحَدِيثِ عَنِ
الْخَمْرِ ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَى الْفَخْرِ بِنَفْسِهِ وَبِقَوْمِهِ وَالْتَّحْدِي لِلْمَلِكِ الْحَمِيرِيِّ الَّذِي
ظَنَّ أَنْ بِمَكْنَتِهِ النَّلِيلِ مِنْ كَرَامَةِ الشَّاعِرِ وَأَمْهِ فَكَانَ فِي ذَلِكَ حَقْهُ الْوَحْيِ،
ثُمَّ لَا شَيْءٌ فِي الْقَصِيدَةِ بَعْدِ ذَلِكَ، أَوْ بِالْتَّحْسِرِ عَلَى أَيَّامِ الشَّبَابِ الَّتِي
اَنْصَرَتْ وَلَمْ يَعْدْ لَهَا مِنْ رَجُوعٍ كَمَا فِي قَصِيدَةِ سَعِيدَةِ بْنِ عَبْدَةِ التَّمِيمِ:
"طَحَا بِكَ قَلْبُ فِي الْحِسَانِ طَرُوبٌ . . . وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنِ الْإِبْدَاءَاتِ، وَإِنَّ
كَانَ افتتاحَ الْقَصِيدَةِ بِالْوَقْوفِ عَلَى الْطَّلْلِ أَشْهَرُ مِنْ غَيْرِهِ مِنِ الْإِفْتَاحَاتِ.

وَحْسَى إِذَا وَقَفَ الشَّعْرَاءُ عَلَى الْأَطْلَالِ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ لَا يَعْقِبُونَ
ذَلِكَ بِالرَّحْلَةِ لِلْمَدْوِحِ وَلَا لِأَيِّ شَخْصٍ آخَرِ، بَلْ كَثِيرًا مَا لَا يَكُونُ هُنَاكَ
مَدْوِحٌ بِالْبَيْتِ، كَمَا هُوَ الْوَضْعُ فِي مَعْلَقَةِ عَنْتَرَةِ وَالْمَلِكِ الْمُضْلِلِ مِثْلًا. كَذَلِكَ
فَكَثِيرٌ مِنْ هَذَا الشِّعْرِ لَا يَزِيدُ عَلَى أَنْ يَكُونَ تَصْوِيرًا لِتَجْرِيَةٍ ذَاتِيَّةٍ حَقِيقِيَّةٍ أَوْ

متوهّمة لا صلة بينها باتاً وبين الأغراض الشعرية التقليدية ولا البناء الفنى الذي تحدث عنه ابن قتيبة بأى حال، ومن ذلك بعض أشعار الشّنفري التي يصف فيها لقاءه بالغول وعراكه معها . واضح إذن أن ما قاله ابن قتيبة لا يقتصر على شعر المدح، بل يقع فى شعر المدح وفي غيره . وحتى فى شعر المدح فإنه لا يقع عليه كله بل على بعضه فقط . أى أن ما يحسنه كثير من الباحثين نظاما صارما يتبعه الجاهليون والقدماء عموما فى بناء القصيدة لم يكن فى الحقيقة كذلك، بل كان يراعى فى بعض قصائد المدح وحسب، لكنه لا يقتصر عليها بل يشرّكها فى ذلك كثير من القصائد غير المذكورة أيضا كعملة امرئ القيس التى يتناول فيها مغامراته اللاهية مع النساء ويصف الحصان والسحاب والسبيل، وكعملة طرفة التى يستهلها بالوقوف على أطلال خولة رغم أنها ليست فى المدح ولا حتى فى الهجاء أو الرثاء أو أى موضوع من موضوعات الشعر التقليدية، بل فى التعبير عن الترد على التقاليد والمحيرة فى فهم الحياة، وكعملة عنترة بن شداد التى ينخر فيها بشجاعته وفروسيته أمام حبيبته ويرسم صورة حانية لأدهمه الذى اشتکى له حرّ القتال وود لو يستطيع أن يرفع صوته بالكلام الواضح المبين كما يفعل البشر لولا عجزه عن التعبير اللغوى المقصور على أولئك البشر . . . وقد كان د. شوقي ضيف أكثر دقة وحذرنا فى حديثه فى هذا السياق عن أسلوب الشعراء الجاهلين فى نظم قصائدهم، إذ قرر أنهم

كأنوا يحرصون في كثير من مطولاً لهم منذ العصر الجاهلي على أسلوب موروث فيها، إذ نراها تبدى عادة بوصف الأطلال وبكاء الذمئ ثم تنقل إلى وصف رحلات الشاعر في الصحراء، وحينئذ يصف ناقته التي تملأ حسه ونفسه وصفاً دقيقاً فيه حدق ومهارة، ثم يخرج من ذلك إلى الموضوع المعين من مدح وهجاء أو غيرها. واستقرت تلك "الطريقة التقليدية" وثبتت أصولها في مطولاً له الكبرى على مر العصور" (د. شوقي ضيف / الفن ومذاهبه في الشعر العربي / ط٨ / دار المعارف / ١٨). فهو، كما نرى، يقول إنهم كانوا يفعلون ذلك في كثير من مطولاً لهم لا فيها كلها ولا في المدائح منها فحسب. وهذا أقرب إلى الواقع (كما أشرنا قبل قليل) مما جاء في نص ابن قبيبة آثما، هذا النص الذي فهمه نيكلسون على حرفيته فأساء الفهم والتقدير، إذ كتب زاعماً أن الشاعر الجاهلي لم يكن أمامه أي اختيار فيما يخص النظام الموسيقي للقصيدة العربية أو في اختيار موضوعاته وأسلوب معالجتها، ولم يكن يحرر من ثم على الخروج على شيء من ذلك، وإن عاد فاستثنى بعض الحالات من هذه "القواعد الجامدة" على حد تعبيره (انظر كتابه: A History of Arabic Literature, PP. ٧٧-٧٨).

ومن القضايا المتعلقة بالشعر الجاهلي كذلك ما قيل عن مكانة الشاعر في ذلك العصر، فقد ذكر ابن رشيق في "باب احتماء القبائل"

بشعراها من كتابه: "العدة في مخاسن الشعر وأذابه": "كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أنت القبائل فهناها، وصنعت الأطعمة، واجتمع النساء يلعن بالزاهر كما يصنعون في الأعراس، ويتباشر الرجال والولدان لأنهم حمامة لأعراضهم، وذب عن أحسابهم، وتخليد لتأثيرهم، وإشادة بذكرهم. وكانوا لا يهنتون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبع فيهم أو فرس شُجَّ". وقد أخذ مؤرخو الأدب العربي يستشهدون بهذه العبارة على أنها أمر مفروغ منه وأن ما ورد فيها إنما كان يقع حرفياً. ومن هؤلاء جلال الدين السيوطي (المزهر في علوم اللغة والأدب / القاهرة / ١٣٣٥هـ / ٢٩٣ / ٢)، وجرجس زيدان (تاريخ أداب اللغة العربية / ٨٣)، والشيخ أحمد الإسكندرى والشيخ أحمد العناني (الوسيط في الأدب العربي وتاريخه / ٥٩)، ورينولد نيكلسون (A History of Arabic Literature, P. ٧١)، وأحمد حسن الزيات (تاريخ الأدب العربي / ٤٤)، والسباعي بيومى (تاريخ الأدب العربي - في العصر الجاهلى / مكتبة الأنجلو المصرية / ١٤٢)، ود. على الجندى (في تاريخ الشعر الجاهلى / دار المعارف / ٢٧٤)، ود. خورشيد أحمد فارق (History of Arabic Literature, Vikas Publications, Delhi- Bombay- Bangalore- Kanpur- London, P. ٤٣) ... إلخ. على أنى، رغم ذلك كله، لا أحسب أن هذا كان يقع حرفياً كما جاء في كلام ابن رشيق، بل

المقصود أن العرب كانوا يتقاخصون بشعراهم كما يتفاخر أى منا بما تمتاز به أسرته أو قريته أو مدینته أو جامعته أو وطنه أو أمنه، لأن الحفلات كانت تقام فعلاً ويُلْعب النساء بالآلات الموسيقية وما إلى ذلك، إذ لم يقابلنا خبر واحد عن قبيلة معينة احتفلت بأحد شعرائها على هذا النحو، إنما هو كلام عام مرسل، علاوة على أن أحداً لم يقل هذا القول قبل ابن رشيق، وهو متاخر، إذ هو من أهل القرن الرابع الهجري، فain كان ذلك الكلام قبله؟ لقد كانت مكانة الشاعر الجاهلي بين قبيلته مكانة كبيرة بلا شك، وهذا كل ما أفهمه من نص ابن رشيق لا أكثر، إذ كان هو الخامس عن أعراضها والمذيع لفاحرها والمالئ وقت فراغها بما ينشدها من شعر معجب يسليها ويعتها والمحرك لشاعرها والعازف على أوتار قلبها والمعزى لها في أوقات الملمات والمثير لحماستها عند الحروب والمشعل نار الانتقام في نفوسها... وهكذا، وإن لم يعن هذا أن الشعراء جميعاً كانوا يفعلون كل ذلك، وفي كل الظروف والأوقات، بل كان هناك شعراء لا يتغتنون إلا بما يجدونه في قلوبهم بوصفهم أفراداً في دنيا البشر لا أعضاء في قبيلة معينة، كما كان هناك أيضاً شعراء متمردون يشذون عن قبيلتهم فتخالهم كما هو شأن مثلاً في شعراء الصعاليك. هذا ما أفهمه من كلام ابن رشيق، أما الاحتفال بنبوغ الشعراء في العصر الجاهلي فلا أدرى كيف يمكن تحديد الوقت الذي ينبع فيه شاعر ما: أبا أول شعر يقوله؟ لكن هذا

ليس ما يفهم من الكلمة "نبوغ" ! أم يكون باستشار شهرته ؟ لكن أمن الممكن تحديد وقت معين لذلك ؟ أم يرجع الأمر إلى لجنة تعلن أنه بلغ النبوغ الشعري ؟ لكن متى كان الجاهليون يعرفون نظاماً كهذا ؟ الواقع أننا كيما قلنا تلك العبارة فلن نصل منها إلى شيء محدد يريح البال . ولهذا كله أرى أن المقصود بها هو معناها الرمزي الذي أشرت إليه آفأ ، وهو أن الشاعر الجاهلي كان يوجه عام ذا مكانة عالية بين قومه للأسباب التي ذكرناها .

أما قول نيلدكه إن الشاعر الجاهلي كان "نبي قبيلته وزعيمها في السلم وبطلها في الحرب" ، تطلب الرأي عنده في البحث عن مراعٍ جديدة، وبكلمة وحدها تُضربُ الخيام وتُحلَّ ، كما كان يحدو الرحالة العطاش في التنقيب عن الماء" (انظر حنا الفاخوري / تاريخ الأدب العربي / ٥٩) فكلام غير صحيح، إذ ها هم أولاء شعراء الجاهلية بين أيدينا ، وقد قرأتنا أشعارهم وترجمتهم فلم نجد شيئاً مما يزعمه نيلدكه . إنما كانت قيادة القبيلة لشيخها ، فإن تصادف أن كان شاعراً فيها ونُعمتْ كما هو الوضع في حال كليب بن ربيعة والقند الزماني وعمرو بن كلثوم وأحنيحة بن الجلائح ودرير بن الصمة ، وإنما فالشاعر فرد من أفراد القبيلة يسمع ما اتهى إليه قرارها ويلتزم به كما يتزم غيره ، مع رعاية مكانته المتميزة كما قلنا . وإنما فقد كان عنترة شاعراً ، وشاعراً كبيراً ، فهل كان قبيلته تتبع خطاه وتترى ما يراه ؟ كما كان طرفة أيضاً شاعراً ، ولم تكن قبيلته تعيه أدنى اهتمام من جهة

الرياسة والرأي، إذ كان شاباً لا هيا عابثاً يصطدم بها ولا ينسجم مع أوضاعها حتى ليُمَ على ترده لوماً شديداً سجله هو نفسه في معلقته. ولدينا الأعشى وزهير والنابغة وحسان، وغيرهم كثيرون من شعراء الجاهلية، ولم نقرأ أن أيّاً منهم كان سيد قبيلته يوماً. ثم لقد كان هناك شعراء رحالة ينبعجون المدودين، فهل كان على قبائلهم إذا ما ألمت بها مُلْمةً أن تستظرهم حتى يفوبوا من أسفارهم فيشيروا عليهما بما يبغى أن تصنعه؟ كما أن القبيلة الواحدة كثيرة ما كان لها أكثر من شاعر، فمن مبنיהם يا ترى كان هو السيد المطاع الذي تأخذ برأيه وتنصاع لمشورته؟ أم هل كان لكل قبيلة شيخٌ عِدة؟ وما القول في انشعراء المتمردين على قبائلهم؟ أكانت تلك القبائل تتخذ منهم شيئاً لها رغم ذلك؟ وأخيراً متى كانت الموهبة الشعرية والشخصية الحكيمية المهيّة التي تعنو لها رقاب الآخرين صنوتين ملائزين حتى يكون كل شاعر جاهلي سيداً لقبيلته بالضرورة؟ إلا ما أكثر ما يشيع في دنيا الأدب العربي من مقولات (وبحاصة ما كان منها صادراً عن المستشرقين) إذا ما تحراها الدارس أو وقف إزاءها وقفه المسائل فسرعان ما ينكشف زيفها وما فيها من بحافة للمنطق وواقع الحياة!

القصص

ينقل د. أحمد أمين في كتابه: "فجر الإسلام" (ط١٢ / مكتبة النهضة المصرية / ١٩٧٨ / ٣٦) عن المستشرق البريطاني ديلاسي أوليري (Arabia Before De Lacy O'Leary Muhammad) أن العربي ضعيف الخيال جامد العاطف، لكنه يعقب على ذلك بأن الناظر في شعر العرب، وإن كان لا يرى فيه أثرا للشعر القصصي أو التمثيلي أو الملحم الطويلة التي تُشيد بذكر مفاخر الأمة كـ"إلياذة" هوميروس وـ"شاهنامة" الفردوسى، يلاحظ رغم ذلك براعة الشاعر العربي في فن الفخر والحماسة والغزل والوصف والتبيه والجاز، وهو مظهر من مظاهر الخيال. كما أن بكاء ذلك الشاعر للأطلال والديار، وذكره للأيام والحوادث، ووصفه لشعوره ووجوداته، وتصويره لاتباعه وهياته، كل ذلك دليل على تمعنه بالعاطفة الحية. ويردد أحمد حسن الزيات شيئاً قريباً مما نقله أحمد أمين عن أوليري، وإن اختلفت مسوغاته، إذ من رأيه أن مزاولة هذا الفن تقضي الروية وال فكرة، والعرب أهل بديهية وارتجال، كما تطلب الإمام بطبياع الناس، وهم قد شغلوا بأنفسهم عن النظر فيما عداهم، فضلاً عن احتياجها إلى التحليل والتطويل، على حين أنهم أشد الناس اختصاراً للقول، وأقلهم تعمقاً في البحث، مع قلة تعرضهم للأسفار البعيدة، والأخطر الشديدة. ثم إن هذا الفن هو نوع من أنواع

النثر، والنشر الفني ظل في حكم العدم أزمان الجاهلية وصدر الإسلام حتى آخر الدولة الأموية حين وضع ابن المقفع الفارسي مناهج النثر، وفُكر في تدوين شيء من القصص (أحمد حسن الزيات / تاريخ الأدب العربي / ٣١، ٣٩٢).

بِيَدِهِ أَنْ عَدْدًا مِنْ كَبَارِ النَّقَادِ وَمُؤْرِخِي الْأَدْبِ عِنْدَنَا تَولَّ نَفْيِهِ هَذِهِ التَّهْمَةِ الْمُتَسْرِعَةِ: وَمِنْ هُؤُلَاءِ الدَّكَاتُورَةِ زَكِيِّ مَبَارِكِ، الَّذِي أَكَدَ أَنَّ الْعَرَبَ "كَجُمِيعِ الْأَمْمِ لَهُمْ قَصَصٌ وَاحْدَادِيثٌ وَخَرَافَاتٌ وَأَسَاطِيرٌ يَقْضُونَ بِهَا أَوْقَاتَ الْفَرَاغِ وَيَصْوِرُونَ بِهَا عَادَاتِهِمْ وَطَبَاعَهُمْ وَغَرَائِزَهُمْ مِنْ حِيثِ لَا يَقْصُدُونَ" (د. زَكِيِّ مَبَارِك / النَّشُورُ الْفَنِيُّ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ / دارِ الْكِتَابِ الْمَصْرِيَّةِ / ١٩٣٤ م / ١٩٧ / ١). كَمَا رَدَ عَمَرُ الدَّسْوَقِيُّ بِاسْتِفَاضَةٍ فِي كَابِهِ: "فِي الْأَدْبِ الْعَرَبِيِّ الْحَدِيثِ" (مَطْبَعَةِ الرِّسَالَةِ / ١٩٤٨ م / ٣٣١ - ٣٤٧) عَلَى هَذِهِ الْفِرْعَةِ الْعَنْصُرِيَّةِ وَأَدْحَضَهَا عَلَى أَسَاسِ عَلْمٍ وَفَلْسَفَةٍ مُبِينًا أَنَّ مَا كَتَبَهُ الْعَرَبُ وَمَا تَرَجَّمُوهُ مِنْ قَصَصٍ فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ يَبْيَنُ بِجَلَاءِ عَمَّا يَتَمَتَّعُونَ بِهِ مِنْ خِيَالٍ وَمَهَارَةٍ فَنِيَّةٍ فِي هَذَا السَّبِيلِ. بَلْ يَذْهَبُ أَحْمَدُ أَمِينٌ أَيْضًا إِلَى أَنَّهُ كَانَتْ هَنَاكَ صَلَةٌ بَيْنِ عَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ وَآدَابِ غَيْرِهِمْ مِنِ الْأَمْمِ كَالْإِغْرِيقِ وَالْفَرْسِ تَمَثَّلَتْ فِي أَنَّهُمْ أَخْذُوا بَعْضَ الْقَصَصِ فَاحْتَفَظُوا بِهِ يَرَوُنُهُ وَيَسْأَمُونَ بِهِ عَلَى الْحَالِ الَّتِي نَقْلُوهُ عَلَيْهَا دُونَ تَبْدِيلٍ، أَوْ صَاغُوهُ فِي قَالِبٍ يَقْقُ وَذُوقُهُمْ، عَلَوْهُ عَلَى قَصَصِهِمُ الْأَصِيلِ الَّذِي لَمْ يَأْخُذُوهُ عَنْ

غيرهم مما نجده في "أيام العرب" وما يسميه بـ"أحاديث الهوى" (انظر د. أحمد أمين / فجر الإسلام / ٦٦ - ٦٨).

ويقول محمود تيمور في كتابه: "محاضرات في القصص في أدب العرب: ماضيه وحاضرها" (معهد الدراسات العربية العالمية / القاهرة / ١٩٥٨م / ٢٦): "سارعنا إلى الإنكار على الأدب العربي أن فيه قصة، وما كان ذلك الإنكار إلا لأننا وضعنا نصبَّ أعيننا القصة الغريبة في صياغتها الخاصة بها وإطارها المرسوم لها ورجحنا تأخذها المقاييس والميزان، وفتشنا عن أمثلها في أدبنا العربي فإذا هو خلُوًّا منها أو يكاد. وشدَّدَ ما أخطأنا في هذا الوزن والقياس، فللأدب العربي قصصٌ ذو صبغةٍ خاصةٍ به وإطارٌ مرسومٌ له، وهو يصور نفسية المجتمع العربي وخلاله فلا يقتصر في التصوير. وإننا لنشهد فيه ملامحنا وسماتنا وضاحكة، وكأننا لم نفقد في مجتمعنا العربي حتى اليوم ما يكشف عنه ذلك القصص من ملامح وسماتٍ على الرغم من تعاقب العصور وتطاول الآماد. وهو في جوهره وثيق الصلة بالوسائل الإنسانية التي هي جوهر القصص الفنى، وإن تباينت الصياغة واختلف الإطار". ومن الطريف أن تيمور كان يرى عكس هذا الرأى قبل زاعماً أن البيئات الصحراوية ينقصها الخيال وأن ما تركه علينا العرب في هذا الميدان شيءٌ ضئيلٌ لا قيمة له، وإن صتف هذا التراث رغم ذلك إلى قصصٍ عاطفى وقصصٍ حربىٍ وبطوليٍ وقصصٍ علميٍ

فلسفي (انظر محمود تيمور/ نشوء القصة وتطورها/ المجلة الجديدة سبتمبر ١٩٣٦م /٥٢، ٥٤-٥٦، ٦١، ومقدمته لمجموعة "الشيخ سيد العبيط"/ المطبعة السلفية/ القاهرة/ ١٩٢٦م /٤١).

وفي ذات السياق يدلي محمد مفید الشوباشی استنكاره من أنه "لا يزال بيننا أناس ينكرون على العرب كل ميزة حضارية وينظرون بعين الاستهانة والازدراء إلى آياتهم الباهرة في ميادين الأدب والفن والعلم. وقد شملت استهانتهم وزرايتهم، فيما شملتا، القصة العربية القديمة! وسندهم في هذا أن قصص العرب كانت إما أخباراً أو حكايات أو شعراً روائياً، فهي لا تشبه القصة الحديثة التي نعرفها بحال، وعلى ذلك لا تستحق أن تسمى: قصصاً" (محمد مفید الشوباشی/ القصة العربية القديمة/ سلسلة المكتبة الثقافية/ إبريل ١٩٦٤م /٣). وبحق يقرر د. محمد حسين هيكل أن فن القصص قد عرفته جميع الأمم القديمة والحديثة، وأن "القصة"، كما نعرفها اليوم، ليست إلا شكلًا من الأشكال التي اتخذها هذا الفن على مدى تاريخه الطويل، وأن هذا الشكل سوف يتطور ولا شك في المستقبل إلى صور وألوان أخرى. أما بالنسبة إلى الأدب العربي القديم فهو يؤكد حقوله بالأعمال القصصية المعبرة عن أوضاع العصور التي ظهرت فيها وملأتها شعراً وترداً (انظر د. محمد حسين هيكل/ ثورة الأدب/ ط٢/ ٣).

مكتبة النهضة المصرية / ١٩٦٥ م / ٦٧ - ٧٣ . وانظر كذلك مقالة: "رأى في القصة العربية" / الحلال / أغسطس ١٩٤٨ م / ١١٦ .

ويغوص د . محمود ذهنى، على مدى عشرات الصفحات من كتابه: "القصة فى الأدب العربى القديم" ، فى مناقشة دعوى افتقار الذهن العربى إلى الخيال وخلو أدبنا القديم من الفن القصصى، مقدما عددا من الأدلة العقلية والتصويبية: منها مثلا ما ورد فى كتب التاريخ والحديث والتفسير من روايات عن النضر بن الحارث، الذى كان يحارب دعوة الرسول عليه السلام من خلال جلوسه مجلسه صلى الله عليه وسلم بين مشركى قريش وتلاوته عليهم حكايات الأكاسرة وقوادهم ورجال دولتهم بغية صرف قلوبهم عن الدين الجديد ومحاولة تخليصهم من تأثير كتابه المعجز . ومنها ورود كلمات "قص" و"يقص" و"قصة" و"قصص" فى لغة العرب وكتاباتهم مما يدل على معرفتهم بهذا اللون من الأدب . ومنها ما يقوله المؤرخون من أنه كان لعاوية رجال موكلون بالكتب التى تحدث عن أخبار العرب وسياسات الملوك الماضين يقرؤونها عليه كل ليلة . ومنها امتلاء كتب الأدب العربى بالحكايات والنوادر والقصص التى تدور حول عاداتهم وأحوالهم معيشتهم ومعارفهم وأساطيرهم، أو حول أخبار العجم وملوكهم وسيرتهم فى رعایاهم، أو حول المغامرات والماكيد التى يحيكها البشر بعضهم البعض . . . إلخ (انظر كتابه: "القصة فى الأدب العربى القديم" / مكتبة

الأنجلو المصرية / ١٩٧٣ م / ٥٣ - ١٤٤). الواقع أن ما قاله د. ذهنى صحيح مائة في المائة، فمن يرجع إلى كتب الأدب العربي القديم سوف يهوله المقدار الضخم للقصص التي تتضمنها تلك الكتب، وكثير منها يعود إلى العصر الجاهلي أبطالاً وموضوعاتٍ وتاريخ. ومن يردد أن يتحقق من هذا يمكنه مثلاً النظر في كتاب "قصص العرب" لمحمد أحمد جاد المولى و محمد أبو الفضل إبراهيم وعلى محمد البحاوي بأجزائه الثلاثة، وهذا الكتاب يحتوى على مئات من القصص يخص العصر الجاهلي منها قدرٌ غير قليل، وإن لزم القول بأنه لا يتضمن مع ذلك جميع القصص العربية ولا معظمها بل عينات منها فحسب، كما أنه لا يتعرض للقصص الطويلة بحال، بل يحترز بالقصص ذات الحجم الصغير، تلك القصص التي ينطبق على عدد غير قليل منها شرائط القصة القصيرة كما نعرفها الآن. وهذا مجرد مثال ليس إلا.

وعلى أساس مما مر ينبغي أن نقرأ ما كتبه فاروق خورشيد من أن "العلماء مجتمعون على أن العرب في الجاهلية كانت لهم قصص كثيرة وممتدة، فقد كانوا مشغوفين بالتاريخ والحكايات التي تدور حول أجدادهم وملوكيهم وفرسانهم وشعرائهم. وكتاب "الأغاني" لأبي الفرج الأصفهاني يكاد يكون ذخيرة كاملة من القصص الذي تناقله الناس عن شعرائهم وبجالسهم وملوكيهم... وليس كتاب "الأغاني" هو المرجع الوحيد

في هذا، بل إن المكتبة العربية غنية بأمثال "الأمثال" و"صبح الأعشى" و"العقد الفريد" و"الشعر والشعراء" وكتب الترجم والطبقات بما لا يدع مجالاً للشك في أن الفن القصصي قد تناول الحياة الجاهلية في كل مظاهرها، إلا أن الدارسين المُحدِّثين رفضوا بكل بساطة أن يعتبروا هذه القصص فناً شريراً مميزاً له أصوله الجاهلية، واعتمدوا في هذا على أن كل هذه الكتب إنما دُوِّنت في العصر العباسي الذي يبعد بعدها زمنياً كثيراً عن العصر الجاهلي^١: ويُضيّق فاروق خورشيد مبيناً أن الذين قاموا بتدوين أخبار الجاهليين في العصر العباسي قد اعتمدوا، إلى جانب الرواية والحفظ، على ما خلفته الجاهلية من كتابات ومدونات، إذ كان التدوين والكتاب معروفين عند الجاهليين، "فقد يكون من المعقول" كما يقول "أن ينقل الراوى قصيدة شعر، أما أحداث تاريخ وحكاية حياة بهذه تحتاج إلى تدوين في نقلها" (فاروق خورشيد / في الرواية العربية / ط٣ / دار الشروق / ١٤٠٣هـ - ٢٧-٢٨ / ١٩٨٢م). بل إنه ليهى أن "الفن الجاهلي الأول كان هو القصة والرواية، أما ما عدا هذا من صور كالخطابة والسبع فلا تعدو أن تكون استجابة لحاجة مؤقتة من حاجات الحياة، ودرستها أقرب إلى درس اللغة منه إلى درس الأدب" (المرجع السابق / ٧٤). ومن كلام خورشيد هذا نخرج بأن عرب الجاهلية لم يكونوا يعتمدون في حفظ قصصهم على الذاكرة فقط بل على الكتابة في المقام الأول.

إِذَا جَنَّا إِلَى الدَّكُورْ شُوقِي ضِيفٍ وَمَا أَثْبَتَهُ فِي كِتَابٍ "الْعَصْرُ الْجَاهِلِيُّ" فِي هَذَا الصَّدَدِ الْفَنِيَّاهُ يُؤْكِدُ أَنَّ عَرَبَ الْجَاهِلِيَّةَ كَانُوا يُشْغِلُونَ بِالقصصِ شَغْفًا شَدِيدًا، وَسَاعِدُهُمْ عَلَى هَذَا أَوْقَاتٌ فَرَاغُهُمُ الْوَاسِعَةُ فِي الصَّحْرَاءِ، فَكَانُوا حِينَ يُرْخِيُّ الْلَّيلُ سَدُولَهُ يَجْتَمِعُونَ لِلْسُّمُرِّ، وَمَا يَبْدأُ أَحَدُهُمْ فِي مَضْرِبٍ مِنْ مَضَارِبِ خِيَامِهِمْ بِقَوْلِهِ: "كَانَ وَكَانَ" حَتَّى يَرْهَفُ الْجَمِيعُ أَسْمَاعَهُمْ إِلَيْهِ، وَقَدْ يُشَرِّكُ بَعْضُهُمْ مَعَهُ فِي الْحَدِيثِ . وَشَبَابُ الْحَىِ وَشَيوخُهُ وَنِسَاؤُهُ وَقِيَاتُهُ الْمَخْدُرَاتُ وَرَاءَ الْأَخْبِيَّةِ، كُلُّ هُؤُلَاءِ يَتَابِعُونَ الْحَدِيثَ فِي شَوْقٍ وَلُفْفَةٍ، يَبْدأُ أَنَّهُ يَسْتَمِرُ قَائِلًا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَدْعُونَ قَصَصَهُمْ، بَلْ يَتَاقْلُونَهُ شَفَافِهَا، إِلَى أَنْ تَمْ تَدوِينُهُ فِي الْعَصْرِ الْعَبَاسِيِّ، وَمِنْ ثُمَّ لَمْ يَصْلَنَا كَمَا كَانَ الْجَاهِلِيُّونَ يَرْوُونَهُ . وَهَذَا نَصْ كَلَامُهُ: "لَيْسَ بَيْنَ أَيْدِينَا شَيْءٌ مِنْ أَصْوَلِ هَذَا الْقَصْصِ الَّذِي كَانَ يَدْوُرُ بِنَهْمٍ، غَيْرَ أَنَّ الْلَّغَوِينَ وَالرَّوَاةِ فِي الْعَصْرِ الْعَبَاسِيِّ دَوَّنُوا لَنَا مَا اتَّهَى إِلَيْهِمْ مِنْهُ . وَطَبِيعَى أَنْ تَغْيِيرُ وَتَحْرُفُ أَصْوَلُهُ فِي أَنْتَهِيَّهُ هَذِهِ الرَّحْلَةِ الطَّوِيلَةِ الَّتِي قَطَعُهَا مِنَ الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ إِلَى الْقَرْنِ الثَّانِي الْمُهْجَرِيِّ، وَإِنْ كَانَ مِنَ الْحَقِّ أَنَّهَا ظَلَّتْ تَحْفَظُ بِكَثِيرٍ مِنْ سَمَاتِ الْقَصْصِ الْقَدِيمِ وَظَلَّتْ تَبْضُعُ بِرُوحِهِ وَحِيَوَيْهِ" (الْعَصْرُ الْجَاهِلِيُّ / ٣٩٩). فَعِنْدَنَا إِذْنُ مَنْ يَقُولُ إِنَّ الْجَاهِلِيِّينَ كَانُوا يَدْعُونَ تَارِيخَهُمْ وَقَصَصَهُمْ كَاتِبَةً، وَمَنْ يَقُولُ إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَصْنَعُونَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ . وَصَاحِبُ هَذَا الرَّأْيِ الْآخِرِ، وَهُوَ الدَّكُورْ شُوقِي ضِيفٍ، لَا يَكْفِي بِذَلِكَ

بل يرد ما جاء عن هشام بن محمد الكلبي من أنه رأى في بيع الحيرة بعض
مدونات استخرج منها تاريخ العرب، لأنه متهم في كثير مما يرويه على حد
تعييره. وهو ما لا يُعد دليلاً كافياً، إذ حتى لو كان هذا الاتهام صحيحاً
فليس معناه أنه كان يكذب في كل شيء ولا يقول الصدق أبداً، وبخاصة
أن ما قاله عن مدونات الحيرة لا يدخل في باب الخرافات التي لا يقبلها
العقل، فقد كان من العرب من يكتب حسبيما هو معروف لنا جميعاً،
 وبالذات في مملكة الحيرة التي كانت تتبع إمبراطورية الفرس أصحاب الكتابة
والسجلات والدواوين.

وقد أوردنا في الفصل الخاص بالشعر الجاهلي من هذا الكتاب أنه
كان لدى ملوك الحيرة ديوان يضم أشعار فحول الجahلية ومدائح من مدحهم
من شعرائها، وهو يظاهر ما قاله ابن الكلبي ويقصده. أما قول الأستاذ
الدكتور عقب ذلك إنه "حتى لو صحت روایته فأغلب الظن أن ما شاهده
من تلك المدونات لم يكن مكتوباً بالعربية، إنما كان مكتوباً بالسريانية، التي
كانت شائعة في الحيرة قبل الإسلام" فهو مصادرة على المطلوب، إذ معنى
كلامه هذا أنَّ كلام ابن الكلبي ليس صحيحاً لأنَّه ليس صحيحاً. كيف؟
إنه، بعد أن يفترض أنَّ ما قاله ذلك العالم المسلم صحيح، يعود فيقول إنه لا
يمكن أن تكون الكتابات التي رأها عربية بل سريانية. وهو ما يفيد أنه لا
يزال يكذب لأنه إنما كان يقصد أنه قرأ ذلك بالعربية، إذ لم يكن يعرف

السريانية، ولا تُعرف ذلك عنه أو لقال إنه استعان في الاطلاع على ما فيها
من يُعرف السريانية. كما أن سياق الكلام يدل على أن المراد كتبات
عربية. ومعنى هذا أنه يقول إنه قرأ الكتابات المذكورة بالعربية، على حين
يقول واقع الأمر إنها كانت مكتوبة بالسريانية التي لم يكن يعرفها. أى أنه لم
يقرأها على هذا الاحتمال أيضاً، وأنه قد كذب هنا كذلك! لكن هل يمكن
أن يكون ما قاله د. شوقي في حق ابن الكلبي سليماً؟ أما أنا فلست
أستطيع أن أوفق أستاذى الذى أكّن له كل الاحترام لأن الذى أعرفه أن
ملكة الحيرة كانت مملكة عربية، فلماذا تحدث مملكة كهذه بلسان السريان
لا بلسان العرب؟ كما أن الشعراء العرب الكبار في الجاهلية كانوا
يقصدون ملوكها ويمدحونهم أيضاً بالعربية لا بالسريانية، والأستاذ الدكتور لا
ينكر هذا بل يثبته في كتابه الذي تعرض لشعر تلك الحقبة كتابه الذي بين
أيدينا وكتابه عن "الفن ومذاهبه في الشعر العربي" مثلاً. وفوق هذا فإن
أسماء ملوكها أسماء عربية لا سريانية. أما إن ثبت مثلاً (أقول: مثلاً!) أن
السريانية كانت تستعمل في بعض الطقوس الدينية فهذا شيء آخر غير ما
نحن بصدده. إذن فلماذا يجب أن يكون القصص المذكور مكتوباً هو
بالذات بالسريانية؟

وثمة خبر كذلك أورده المسعودي في "مروج الذهب" عن معاوية
يدل على أنه كان هناك منذ خلافته على الأقل تدوين كتابي لما كان

الجاهليون يروونه من قصص وحكايات وأسمار، وأن هذا التدوين من ثمَّ لم يتظر حتى مجىء العصر العباسى كما يقول د. شوقى ضيف. وهذا هو النص المذكور، وقد ورد فى سياق كلام المسعودى عن المنهج الذى كان معاوية يتبعه فى إتفاق ساعات يومه نهاراً وليلة، وهو خاص بسماع العاهم الأموى أخبار العرب وأيامها فى الجahلية: "ويستمر إلى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها والجسم وملوكها وسياساتها لرعايتها وسيئر ملوك الأسم وحروتها ومكايدها وسياساتها لرعايتها، وغير ذلك من أخبار الأسم السائفة، ثم تأتيه الطرفُ الغريبة من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المأكولات الطيبة، ثم يدخل فينام ثلث الليل، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والمحروب والمكайд، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها، فتمر سمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات، ثم يخرج فيصلِي الصبح، ثم يعود فيفعل ما وصفنا في كل يوم". ولدينا أيضاً كتاب "أخبار عَبْدِ بن شَرِيكَةِ الجَرْهُمِيِّ في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها"، الذي سجل فيه مؤلفه ما كان يقع بينه وبين معاوية بن أبي سفيان من حوارات تاريخية، وكان معاوية قد استقدمه ليستمع منه إلى أخبار ملوك اليمن. وينذكر ابن التدييم أن عَبْدِاً وقد على معاوية فسأله عن الأخبار المتقدمة وملوك العرب والجهم وسبب تبليل الألسنة وأمر افتراق الناس في البلاد، وكان قد استحضره من صناعة

اليمن، فأجابه إلى ما سأله، فأمر معاوية أن يدون ذلك وينسب إلى عبيد . وهو الكتاب الذي يؤكد المسعودي أن صاحبه هو الوحيد الذي صرّح وفبوده على معاوية من رواة أخبار الجاهلية. قال: "ولم يصح عند كثير من الأخباريين من أخبار من وفَدَ على معاوية من أهل الدرية بأخبار الماضين وسير الغابرين العرب وغيرهم من المقدمين فيها إلا خبر عَبِيدُ بْنُ شَرِيْة وأخباره إيهامًا سلف من الأيام وما كان فيها من الكوارث والحوادث وتشعُّب الأنساب. وكتاب عَبِيدُ بْنُ شَرِيْة متداول في أيدي الناس مشهور" .

ترى هل بإمكاننا القول بأن تدوين القصص الجاهلي لم يتأخر به الزمن إلى عصر العباسيين على عكس ما يقول به د. شوقى ضيف؟ ذلك إننا هنا أمام دليل مكتوب يقول إن هذا التدوين قد بدأً منذ أول العصر الأموي، وإن كذا لا نستطيع الجزم على وجه اليقين كما صنع فاروق خورشيد بأن ذلك التدوين قد بدأ في الجاهلية فعلاً، بالضبط متلماً لا نستطيع الجزم بعكسه أيضاً. لكن إلى أى مدى نستطيع القول بأن ما كتبه عَبِيدُ بْنُ شَرِيْة هو قصص جاهلي فعلاً؟ إنه يتحدث مثلاً عن قوم عاد وما أنزله الله بهم بسبب عصيانهم وكفرهم كما تقرأ في القرآن المجيد، فهل كان الجاهليون يعرفون ما أورده القرآن في هذا الصدد من تفصيلات زادتها القصة تفصيلات أخرى كثيرة لم ترد في الكتاب المجيد؟ وهل كانوا يعرفون في

ذلك الصدد مثل التعبير التالي: "سبع ليال وثانية أيام حسوما حتى تركهم كأنهم أعيجاز نخل خاوية" حسبما ورد في كتاب عبيد، وهو تعبير قرآنى ورد في سورة "الحاقة" عند رواية المولى سبحانه قصة هلاكم؟ ومن ثم فهل نعد ما تركه لنا عبيد قصصاً جاهلياً أضاف هو إليه تفصيلات إسلامية؟ أم هل نعده قصصاً إسلامياً تام الإسلامية على أساس أن الجاهليين، وإن كانوا قد سمعوا بعده، لم يكن عندهم علم بما وقع بهم تفصيلاً من مصائب جراء كفرهم وتمردتهم؟ هذا أمر من الصعب البُتُّ فيه. كذلك لا بد من الإشارة إلى أن القصص الجاهلي لم يكن تشارفه، بل كان شعراً أيضاً. كما أن كثيراً من القصص العربي المأثور عن الجahلية أو الذي يتخذ من الجahلية موضوعاً له يختلط فيه الشعر والنشر، وليس تمرا صافياً.

وأول شيء تعرض له الآن هو: ما مدى تطابق هذه النصوص القصصية مع ما تركه لنا الجاهليون من تلك النصوص؟ فاما النصوص القصصية الشعرية فيغلب على الظن أنها أقرب إلى ما تركه العرب فعلاء، على أساس أن الشعر سهل الحفظ بسبب ما يقوم عليه من تركيز ونظم موسيقي، اللهم إلا إذا ثبت أن ثمة تزييفاً أو تلاعباً في النص. وأما النصوص النثرية فحتى لو قبلنا ما تقوله بعض الروايات من أنه كان هناك قصص جاهلي مكتوب فإن هذا لا يسوع بأبداً إطلاقاً مثل ذلك القول

وتعيشه على كل القصص، إذ كانت الكتابة في الجاهلية محصورة في نطاق ضيق مما يستبعد الدارس معه التوسيع في كتابة مثل تلك النصوص التي لا علاقة لها بالمعاهدات أو الرسائل الرسمية وما أشبه، وبخاصة إذا علمنا أن مواد الكتابة لدى العرب إنذاك كانت نادرة وبدائية في غالب الأمر. كذلك قد يقال إن الأسلوب الذي صيفت به تلك النصوص الفصحية لا ينسجم بوجه عام مع ما نعرفه من النصوص النثرية الجاهلية على قلتها من خطب وأمثال وأسجاع كهانٍ، بل ينسجم بالأحرى مع الكتابة العربية بعد تطورها في العصر العباسي الذي دقت فيه الأفكار ولانت فيه الأساليب ورقت وتلونت ووضحت فيها روح التحضر، إلا أنه يمكن مع هذا الرد بأن أسلوب القصص بطبيعته أسلوب بسيط مناسب لا يعرف الوعورة ولا الاحتقان اللذين يجدهما في كثير من الأشعار والخطب الجاهلية أو غير الجاهلية. لكن إلى أي مدى ابتعدت تلك النصوص عن الروايات الأصلية التي كان يتناولها أهل الجاهلية؟ الواقع أنه يصعب جداً، بل يستحيل في الظروف الحالية القطع بشيء من هذا، وإن كما تصور أن الموضوعات قد بقيت كما هي أو ظلت قريبة مما كانت عليه في الأصل. أما سبب القطع بأن تلك النصوص قد نالها قدر من التحوير فذلك راجع إلى أنها نصوص ثانية لا تعلق بالذاكرة علوق الشعر، الذي رأينا في الفصل الخاص به أنه هو أيضاً لم يسلم تماماً من التغيرات الراجعة إلى ما يعترى الذاكرة البشرية من ضعف

أو التباس على الأقل. كما أنه لم يكن هناك ما يدعوه إلى بذل الجهد والاهتمام في حفظ النصوص القصصية مثلما هو الحال في القرآن الكريم، وكذلك حديث النبي عليه السلام ولكن بدرجة أقل، ولا كانت النصوص القصصية مسجوعة كمواضع الاحتفاء وأحاديث الكهان، أو قصيرة موقعة كالأمثال. وفضلاً عن هذا فإن القصص الجاهلي لا يرتبط بشخص بعينه قد ألقه على عكس الشعر الذي يُنسب، إلا في الشاذ النادر، إلى هذا الشخص أو ذاك، أما القصص فإنها في الأغلب تاج جماعي، والجماعة لا تهتم بالتدقيق في حفظ إبداعهاقدر اهتمام الأفراد باتاجهم كما هو معروف. بل إنني لأؤكد أن القصاصين أنفسهم هم أول من أدخل التحويات والتعديلات في تلك النصوص طبقاً لما هو معروف من حكاياتهم لها كل مرة بطريقة مختلفة قليلاً أو كثيراً عن المرة السابقة بحكم ضعف الذاكرة البشرية والحالة النفسية التي يكونون عليها والجو الذي يحيط بهم أثناء قيامهم بعملية القص... الخ. فإذا كان هذا هو حال المبدع نفسه، فما بنا براوى هذا الإبداع؟ وبقى البناء الفني لهذا القصص الجاهلي، ولا أظننا بقادرين على البث في السؤال الخاص بمدى بقاء ما وصلنا من قصص جاهلي على حالته الفنية التي خلفها لنا قصاصون جاهليون. ذلك أنها لا غنى عنها مستندات كتابية تصور لنا ما لحقه من تطور رغم ما قيل من أنه كانت

هناك بعض الوثائق القصصية المكتوبة التي تركها لنا الجاهليون في هذا الفن يوما، إذ العبرة بما في اليد الآن لا بما كان في أيدي القدماء.

والآن إلى الموضوعات التي تناولتها القصة الجاهلية. ولسوف نترشد بما اشتمل عليه كتاب "قصص العرب" الذي سلفت الإشارة إليه على رغم علمنا بأنه لا يقتصر على القصص الجاهلي وحده. ذلك أن ما يصدق على قصص العرب في الإسلام من هذه الناحية يصدق أيضاً بوجه عام على قصصهم قبله، اللهم إلا ما كان مختصاً بهذا أو ذاك دون قسيمه، وهو أمر من السهل معرفته في معظم الأحيان لأول وهلة. ومن ينظر في فهرس الكتاب الذي نحن بصدده يجد أن أصحابه قد قسموا القصص العربية إلى: قصص تستعين بها مظاهر حياتهم وأسباب مدنيتهم بذكر أسلوافهم وأجلاب تجاراتهم والمساكن التي كانت تتوهم وسائل ما كان على عهدهم من دلائل الحضارة ووسائل العيش، وقصص تتضمن معقداتهم وأخبار كهانهم وكواهنتهم وتبسيط ما كانوا يعرفون من حقائق التوحيد والبعث والدار الآخرة وما كانوا يتسلون به من إقامة الأواثان وتعهدها بألوان الزلفي والقريان، وقصص تخلو علومهم ومعارفهم وتوضح منها ثقافتهم وما كان متداولاً بينهم من مسائل العقل والنقل التي هدتهم إليها فطراهم أو أنهما إليهم تجاريهم، وقصص يرى منها ما كانوا يتغذون به من المكارم والمفاحر وما كانوا يتذمرون به من المناقش والمعرات سواءً كان ذلك يتصل

بكل منهم في نقهه ألم فيما يتصل بالآقربيين من ذويه ألم فيما يضم أهل قبيلته
ألم فيما يشمل الناس جيغا، وقصص تعدد غرائزهم وخصالهم فتكتشف ما
طبعوا عليه من وفرة العقل وحدة الذكاء وصدق الفراسة وقوه النفس وما
أهلوthem له طبيعة بلادهم وأسلوب حياتهم من شريف السجايا ومدوح
الخصال، وقصص تشرح ما أثر عنهم من عادات وشمائل فى الأسباب
الدائنة بينهم وبين ما اتهجوه فى مواسمهم وأعيادهم وأفراحهم وأعراسهم
ما يمثل حياتهم الاجتماعية أصدق تمثيل، وقصص تمثل أحوال المرأة العربية
وما تحرى عليه فى تربية أطفالها ومعاشرتها زوجها ومعاونتها له فى
الحياتين الاجتماعية والمدنية بالسعى فى سبيل الرزق والاشتراك فى خوض
معamus الحروب والأخذ بقسط من الثقافة الأدبية السائدة فى ذلك العهد،
وقصص تمثل ذلقة لسانهم وحكمة منطقهم وما ينضاف إلى ذلك من
فصاحة اللفظ وبلاعه المعنى وجمال الأسلوب وحسن التصرف فى الإبانة
والتبير، وقصص تسرد بارع ملهم ورائع طرفهم فى جواباتهم المسنكة
وتصرفاتهم الحكيمه وتحلصاتهم اللبقه مما يدل على حضور الذهن وسرعة
البيهه وشدة العارضة، وقصص تعرب عما يقع بين العامة والملوك والقواد
والرؤسae والقضاء ومن إليهم من كل ذى صلة بالحكم والحكام مما يتناول
حيلهم فى المنازعات والخصومات ويوضح طرائقهم فى رفع الظلمات
ورجع الحقوق وما يحرى هذا الجرى، وقصص تصور احتفاظهم بأنسابهم

واعتزازهم بقبائلهم وتجيدهم للأسلاف وتعديدهم ما تركوا من مآثر وما أدى إليه ذلك من مفاحر ومنافرات، وقصص تنقل ما كانوا ينفكرون به من أسماء ومتايمات ومناقدات وأفاكيه مما نال به المحدثون والندماء سيني الجوائز والخلع من الخلفاء والوزراء وما ارتفعت به مكانتهم عند السادة والوجهة في المجتمعات والمنتديات، وقصص تزخر مذكور أيامهم وتفصل شهر وقائهم ومقتل كبرائهم وتصف الحروب والمنازعات التي كانت تدور بين قبائلهم أخذها بالثار وحماية للذمار، وقصص تحكي ما كان للجند من أحداث وأحاديث في الغارات والغزوـات والفتحـ مصورةً نفسياتهم وأحوالـم واصفةً تطورـاتهم العقلـية والخلقـية بنـشأة الدولة العربية وافسـاح رقـتها مـفصلـةً عـددـهم وـآتـهم وأـسلـحـتهم فـى حـيـاتـهم الجـديـدة. وـمن الواضح مـثـلـاً أنـ العـناـوـينـ التـىـ يـرـدـ فـيـهاـ ذـكـرـ الخـلـفـاءـ أوـ الـوزـراءـ أوـ الدـولـةـ الـعـربـيـةـ وـحـيـاتـهـمـ الجـديـدةـ هـىـ مـنـ القـصـصـ التـىـ تـشـمـىـ إـلـىـ تـارـيخـهـمـ الإـسـلامـيـ لـاـ جـاهـلـىـ. وـمـنـ الواضحـ أـيـضاـ أـنـ وـاـضـعـيـ الكـتابـ قدـ زـكـرـواـ فـىـ تـلـكـ العـناـوـينـ عـلـىـ الـجـوـانـبـ الـطـيـبـةـ فـىـ الشـخـصـيـةـ الـعـربـيـةـ تـعـصـبـاـ مـنـهـمـ لـلـعـربـ،ـ وـكـانـ الـعـربـ كـانـواـ بـلـاـ عـيـوبـ،ـ وـهـوـ مـاـ يـكـذـبـهـ الـوـاقـعـ وـمـنـطـقـ الـحـيـاةـ،ـ بـلـ يـكـذـبـهـ قـبـلـ ذـكـرـ كـلـهـ مـاـ نـقـرـفـهـ فـىـ تـلـكـ القـصـصـ نـقـسـهـاـ التـىـ بـيـنـ أـيـدـيـنـاـ،ـ وـاـنـ كـمـ تـقـهـمـ الدـوـافـعـ التـىـ حـدـتـ بـالـمـؤـلـفـينـ إـلـىـ اـسـهـاجـ تـلـكـ الـحـلـةـ،ـ إـذـ كـانـواـ يـرـؤـنـ الـهـجـومـ الـظـالـمـ الـذـيـ يـشـنـهـ عـلـىـ أـمـةـ الـعـربـ أـعـداـوـهـاـ الـخـارـجـيـوـنـ وـأـذـنـابـهـمـ مـنـ بـيـنـ

أَخْهُرُنَا فِي الدَّاخِلِ، فَأَرَادُوا أَنْ يَقُولُوا إِنَّ الْعَرَبَ لَمْ يَكُونُوا يَوْمًا بِهَذَا السُّوءِ
الَّذِي يَصُورُهُمْ بِهِ هُزُؤَاءً وَهُزُؤَاءً، بَلْ كَانَتْ لَهُمْ دَائِنًا حَسَنَاتِهِمُ الْبَاهِرَةُ
وَإِنْجَازَاتِهِمُ الرَّانِةُ الْمَعْجَبَةُ الَّتِي يَضَارُّعُونَ بِهَا كَثِيرًا مِنَ الْأَمْمِ الْأُخْرَى، إِنَّ لَمْ
يَفْتُوقُوا فِيهَا عَلَيْهِمْ.

وَقَدْ رَجَعَ وَاضْعَوْكُمُ الْكِتَابَ إِلَى عَشْرَاتِ الْكِتَابِ التَّرَاثِيَّةِ كَمَا يَنْقُلُونَ
مِنْهَا مَا ضَمَّنُوهُ كَاتِبَهُمْ مِنْ قَصْصٍ. وَالنَّاظِرُ فِي عَنَاوِينَ الْمَرَاجِعِ وَالْمَصَادِرِ
الْمَذَكُورَةِ فِي فَهَارِسِ ذَلِكَ الْكِتَابِ يَحْدُدُ أَنْ بَعْضَ تُلُوكَ الْكِتَابِ تَارِيْخِيًّا،
وَبَعْضُهَا أَدْبِيًّا، وَبَعْضُهَا قَصْصِيًّا، وَبَعْضُهَا يَتَعَلَّقُ بِسِيرَةِ هَذَا الشَّخْصِ أَوْ
ذَلِكَ، وَبَعْضُهَا مِنْ كِتَابِ الْأَمَالِ، وَبَعْضُهَا مِنْ الْكِتَابِ الَّتِي تَشْرِحُ الْأَمْثَالَ،
وَبَعْضُهَا مِنْ كِتَابِ الْمُوسَعَاتِ، وَبَعْضُهَا مِنْ كِتَابِ الْطَّرَافَفِ، وَبَعْضُهَا مِنْ
دَوَاوِينَ الشِّعْرِ وَمَجْمُوعَاتِهِ وَشَرْوَحِهِ، وَبَعْضُهَا مِنْ كِتَابِ التَّرَاجِمِ الْعَامَةِ أَوِ
الْخَاصَّةِ، وَبَعْضُهَا مِنْ كِتَابِ السِّيَاسَةِ، وَبَعْضُهَا مِنْ كِتَابِ الشَّوَاهِدِ
اللُّغُوِيَّةِ . . . إِلَخ. وَلَعِلَّ مِنَ الْمُسْتَحِسِنِ أَنْ نُورِدَ هُنَا بَعْضَ أَسْمَاءِ مُلَكِ
الْكِتَابِ: فَمِنْهَا مُثْلًا "أَخْبَارُ الْأَذْكِيَاءِ" لَابْنِ الْجُوزِيِّ، وَ"الْأَغَانِيُّ" لَابْنِ الْفَرِيجِ
الْأَصْفَهَانِيِّ، وَ"الْأَمَالِيُّ" لِلشَّرِيفِ الرَّضِيِّ، وَ"الْأُوراقُ" لِلصَّوْلِيِّ، وَ"بِلَاغَاتُ
النِّسَاءِ" لِأَحْمَدِ بْنِ طَاهِرٍ، وَ"جَمِيْرَةُ أَشْعَارِ الْعَرَبِ" لَابْنِ زَيْدِ الْخَطَابِيِّ،
وَ"الْحِيوَانُ" لِلْجَاحِظِ، وَ"زَهْرَ الْآدَابِ" لِلْحَصَرِيِّ، وَ"صِبْعُ الْأَعْشَى"
لِلْقَلْقَشِنِدِيِّ، وَ"الْعَقْدُ الْفَرِيدُ" لَابْنِ عَبْدِ رَبِّهِ، وَ"الْكَامِلُ فِي الْأَدَبِ" لِلْمَبْرِدِ

و"الكامل في التاريخ" لابن الأثير، و"الحسن والمساوي" للبيهقي، و"المستطرف من كل فن مستطرف" للأبيشيهي، و"معجم الأدباء" لياقوت الحموي، و"تقاضي جرير والفرزدق" لأبي عبيدة، و"نهاية الأربع" للنويري... وهلم جراً.

والآن إلى شواهد من القصص الجاهلي الذي أورده لنا كتب الأدب ودواوين الشعر: ونبأ بقصيدتي تأبُط شرًا في لقائه بالغول حيث يتحدث عن ذلك الوحش الخرافى حديث المصدق بوجوده، إذ كان الإيمان بالغول واحدا من الاعتقادات الجاهلية. وقد يكون تأبُط شراً توهم رؤية الغول فعلا ثم أضاف إلى وهمه بعض التفاصيل والتحابش، أو يكون قد اخترع القصة كلها اختراعا، وقد... وقد... إلا أن الآيات مع ذلك تصور اعتقاداً كان سائداً بين الجاهليين كما ذكرنا، أو فلننقل: إنها تصور خرافة من خرافاتهم. ومعروف أن أهل الريف في بلادنا إلى وقت قريب كانوا هم أيضاً يؤمنون بالغول، وأذكر أننى كنت في طفولتى أرتعب من ذكر تلك الغول، إذ كان اعتقادنا أنها تنبش القبور وتأكل جثث الموتى، فكنت أتخيلني وقد ميت ووُسِدْتُ الثرى في القبر وتركتي أهلى ومضوا إلى بيوتهم لتنفرد بي الغول في الظلام تأكل لحمي أكلًا وتنهش عظامي نهاشًا، وأنا من العجز في حالة تامة! وبطبيعة الحال فإن مثل هذا الاعتقاد قد تقلص إلى حد بعيد ولم أعد أسمع بشيء من ذلك مع اتسار التعليم ودخول الكهرباء

القرية. وربما كان تكرر حديث شاعرنا في قصيدةتين على الأقل عن الغول راجعا إلى أنه كان كثيرا ما يحب الصحراء في الظلام الدامس وحيدا، إذ كان صعلوكا متربدا لا يأوي إلى المجتمعات، بل كان يشكل، مع أمثاله من الصعاليك المتمردين، عصابات لقطع الطريق، فكانت حياتهم قلقا وخوفا وتشرعا مستمرا. فإذا أضفنا الجهل الذي كان سائدا آنذاك في المجتمع العربي تبين لنا أن انتشار مثل تلك الخرافات بين الجاهليين أمر طبيعي تماما، وبخاصة في ظروف شخص كاذب شرّا.

وقد تكرر ذكر "الغول" في شعر العرب قبل الإسلام بما يدل على أن هذه الخرافة كانت تسكن عقول الجاهليين كما قلنا: فمن ذلك قول طارقة الشاعرة الجاهلية، حين اقترب زوجها بامرأة أخرى، إنه قد اخذ بدلا منها "هوجاء مقاء كشيه الغول". ومنه قول أمير القيس تهكمًا بغيريم له كان يهدده بالقتل:

أَقْتُلْنِي، وَالْمَشْرَقِيُّ مُضَاجِعِي
وَمَسْنَوَةَ زُرْقَ كَأْنَابِ أَغْوَالِ؟

تُبَادِرُ أَغْوَالُ الْعَشَّيِيِّ وَتَقَيِّ
غَلَالَةَ مَلَوِيَّ مِنَ الْقَدَّ مُحَصَّدِ

والآن إلى القصيدةتين اللتين قص فيها تأثيراً شرّاً حكايتها مع الغول، وفيهما يتبدى قصاصاً بارعاً التصوير والتسويق والفكاهة والمقدرة على إجراء الحوار والتحول من السرد إلى الحديث بين بطلين قصته في اقتدار ومهارة، إلى جانب انتقاله في القصيدة الأولى من الفعل الماضي إلى التعبير بالفعل

المضارع عما مضى من وقائع بينه وبين الغول بما يجعلنا نشعر أننا نشاهد
حوادث تقع الآن تحت أعيننا لا أموراً مضت وانقضت، كما في قوله:
"فَشَدَّتْ... فَأَهْوَى لَهَا كَفَنْ... فَأَضْرَبَهَا... فَخَرَّتْ":

يَمَّا لَاقَتْ عِنْدَ رَحَى طَانِ
شَهَبَ كَالصَّحِيفَةِ صَحْصَحَانِ
أَخْوَسَفَرَ فَخْلِي لِي مَكَانِي
لَهَا كَفَنْ يَمْضِقُولَ يَمَانِي
صَرِيعَا لِلْيَدَيْنِ وَلِلْجَرَانِ
مَكَانِكِ إِنْسِي ثَبَتَ الْجَنَانِ
لَأَظْطَرَ مُضْبَحَا مَاذَا أَتَانِي
كَرْأَسَ الْهَرَرَ مَشْقُوقَ اللَّسَانِ
وَتَوْبَ مَرْزَنْ عَبَاءِ أَوْ شِنَانِ؟

كَمَا اجْتَابَتِ الْكَاعِبُ الْخَيْلَادُ
وَمَرْزَقَ جَلْبَابَةَ الْأَيْلَادُ
فَبَتَ لَهَا مَدْبِرًا مُقْبَلاً
فِيْ ا جَارَاتَا، أَنْتِ مَا أَغْبُلَا
بُوْخَنْ بِهِ تَهُولَ فَاسْتَغْوُلَا
فِوْلَتَ، فَكَتَ لَهَا أَغْبُلَا
سَنْ دُوسَفَانِيْ قَدْ أَخْلَقَ الْمُخْلَدَا
فَخَدَّ وَلَمْ أَرِهِ صَيْقَلَا

أَلَا مَنْ مِنْ لَيْخَ قِتَانَ فَهُمْ
مَانِي قَدْ لَقِيتَ الغُولَ شَهُورِ
فَقَدْلَتْ لَهَا: كِلَانَا يَنْضُو أَيْنِ
فَشَدَّتْ شَدَّةَ نَحْويَ فَأَهْوَى
فَأَضْرَبَهَا بِلَادَ دَهَشَ فَخَرَّتْ
فَقَالَتْ: عَدُّ، فَقَلَتْ لَهَا: رُوَيدَ
فَلَمْ أَنْقَكَ مَكَانَا عَلَيْهَا
إِذَا عَيْنَانِ فَيَرِي رَأْسَ قَبِيْحِ
وَسَاقَ سَادِحَ وَشَوَاهَ كَلْبِ

وَأَدْهَمَ قَدْ جَبَتْ جَلْبَابَهُ
إِلَى أَنْ حَدَّدَ الصَّبِيجَ أَثْنَاعَهُ
عَلَى شَيْمَ نَارَ تَنَورَهَا
فَأَصْبَحَتْ وَالْغُولُ لِي جَارَةَ
وَطَالَتْهَا بُصْعَهَا فَالْتَوَتْ
فَقَلَتْ لَهَا: يَا انْظِري كَيْ تَرَيْ
فَطَسَارَ بَقْحَفِ ابْنَةِ الْجَيْ
إِذَا كَمْلَ أَمْبَيْتَهَا بِالصَّفَا

عظَاءَةُ قَرْلَهَا حَلَّا
نِمَنْ وَرَقَ الطَّلَحِ لَمْ تَعْلَأْ
فَمَنْ سَالَ أَينَ ثُوتُ جَارِي؟
وَأَمَا الشَّاهِدُ الثَّانِي فَمِنْ شِعْرِ النَّابِغَةِ الْذِيَانِي يُصَفُُ فِيهِ مَطَارِدَة
الْكَلَابِ لِلثُورِ الْوَحْشِي حِينَ يَطْلُقُهَا صَاحِبُهَا عَلَيْهِ أَثْنَاءَ اصْطِيَادِهِ لَهَا.
وَمِثْلُ تِلْكَ القَصْةِ الَّتِي تَكْرَرُ كَثِيرًا فِي الشِّعْرِ الْجَاهِلِي تَدْلِي عَلَى شَيْءٍ
صِيدِ الثُورِ الْوَحْشِي فِي بَلَادِ الْعَرَبِ قَبْلِ الْإِسْلَامِ. وَالْأَبْيَاتُ مَا خُوذَةٌ مِنْ
مَعْلَقَةِ الشَّاعِرِ الْمُشْهُورَةِ، وَلَا يَبْغِي أَنْ يَغُوْتَنَا مَا تَمْيِيزُ بِهِ تِلْكَ الْأَبْيَاتِ مِنْ
وَصْفِ مَفْعُومِ الْجَيْوِيَّةِ وَالْدَقَّةِ فِي التَّشْبِيهِ وَالتَّبَيِّنِ لِلتَّفْصِيلَاتِ الْمُوحِيَّةِ. وَلَا
يَدْرِي مَنْ التَّبَيِّنِيَّةُ ثَانِيَةٌ إِلَى أَنَّ الْقَصْةَ الَّتِي نَحْنُ بِصَدْدِ الْكَلَامِ عَنْهَا لَا تَسْتَقِلُ
بِقَصِيدَةٍ كَامِلَةٍ، بَلْ تَشَكَّلُ فَقْطَ جُزْءًا مِنْ قَصِيدَةٍ أَكْبَرَ، شَانَهَا فِي ذَلِكَ
كُشَانٌ أَغْلَبُ الْقَصْصِ الْجَاهِلِيِّ الْشَّعْرِيِّ.

يَوْمَ الْجَلِيلِ عَلَى سَتَانِسِ وَجِيدِ
كَانَ رَخْلَيِ، وَقَدْ زَالَ النَّهَارُ بِنَا
طَساَوِيَ الْمَصِيرِ كَسِيفِ الصَّيْقَلِ الْفَرَدِ
مِنْ وَحْشِ وَجْرَةِ مُوشِيِّ أَكَارِعَةِ
تُرْزِجِيَ الشَّمَالُ عَلَيْهِ جَامِدَ الْبَرَدِ
سَرَرْتُ عَلَيْهِ مِنَ الْجَوْزَاءِ سَارِيَةِ
طَرْوَعَ الشَّوَامِسِ مِنْ خَوْفِ وَمِنْ صَرَدِ
فَارِتَاعَ مِنْ صَوْتِ كَلَابِ فَبَاتَ لَهُ
طَسْعَ الْكَعُوبِ بِرِبَنَاتِ مِنَ الْحَرَدِ
فِي بَثَنَهِ عَلَيْهِ وَاسْمَرْ بِهِ
طَعْنَ الْمَعَارِكِ عَنْدَ الْمُحْجَرِ التَّجَدِ
وَكَانَ ضُرْمَانُ مِنْهِ حِيثُ يُوزَعُهُ
طَعْنَ الْمَبِيطِرِ إِذَا شَفَى مِنَ الْعَضِيرِ
شَكَ الْفَرِيقَةَ بِالْمِدْرَى فَاقْتَذَهَا
سَفَوْدَ شَرَبَ سُوَّهُ عَنْدَ مُنْتَادِ
كَانَهُ، خَارِجاً مِنْ جَنْبِ صَفَحَتِهِ
سَفَوْدَ شَرَبَ سُوَّهُ عَنْدَ مُنْتَادِ
فَظَلَّ يَتَحَمُّ أَعْلَى الرَّوْقِ مُنْقِبَصًا
فِي حَالِكِ اللَّوْنِ صَدِيقَ غَيْرِ ذِيْ أَوْدِ

لَا رَأَى وَاسْقَى إِعْصَاصَ صَاحِبِهِ
 قَالَتْ لِهِ النَّفْسُ : إِنِّي لَا أَرَى طَعْمًا
 كَذَلِكَ تَصُورُ الْأَبْيَاتِ التَّالِيَةِ ، وَهِيَ لِأَمْرِي الْقَيْسِ ، وَاقِعَةٌ مِنْ وَقَائِعِ
 الصَّيْدِ ، إِلَّا أَنَّ الْفَرِيسَةَ هُنَا أَرْنَبٌ بَرَّى لَا ثُورٌ وَحْشِيٌّ ، ثُمَّ تَنَاهَى بِالْحَدِيثِ
 عَنْ تَنَوُّلِ الْطَّعَامِ بَعْدِ اتِّهَاءِ الْمَطَارِدَةِ بِالْبَحَاجِ ، فَهِيَ إِذْنُ قَصَّةٍ مِنْ قَصْصِ
 الْقَنْصِ وَاللَّهُو :

كَانَ غَلَامٌ إِذْ عَلَّا حَالُ مَتَّبِهِ
 رَأَى أَرْبَاعًا فَاقْتَضَى يَهُوي أَمَامَهُ
 قَتَلَتْ لَهُ صَوْبَتْ وَلَا تَجْهَدَتْ
 فَأَدْبَرَنَ كَالْجَزَعِ الْمَفَصَّلِ بَيْنَهُ
 وَأَدْرَكَهُنَّ ثَانِيَّا مِنْ ذَلِكَ عِنَانِهِ
 فَصَادَ لَهُ سَاعِيًّا وَثُورًا وَخَاضِبًا
 وَظَلَّ غَلَامٌ يُضْجِعُ الرَّمَحَ حَوْلَهِ
 وَقَامَ طَوَالَ الشَّخْصِ إِذْ يَخْضُبُونَهُ
 فَقَتَلَنَا : أَلَا قَدْ كَانَ صَيْدِ لِقَائِنِصِ
 وَظَلَّ صَاحِبِي يَشْتَوُونَ بِنَعْمَةِ
 أَمَّا الْأَبْيَاتُ الَّتِي نَحْنُ مُقْبَلُونَ عَلَيْهَا الْآنُ ، وَهِيَ لِلْمَلِكِ الضَّلِيلِ أَيْضًا ،
 فَتَوَسَّعُ فِي الْحَدِيثِ عَنْ نَزْولِهِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ فِي بَعْضِ الْطَّرِيقِ بِغَيْرِهِ الْأَكْلِ
 وَالْإِسْرَاحَةِ حِيثُ نَصْبُوا لِأَنفُسِهِمْ مَا يُشَبِّهُ الْحَنِيمَةَ يَسْتَتِرُونَ بِهَا ، ثُمَّ رَاحُوا
 بَعْدَ ذَلِكَ يَتَنَاهُونَ مَا أَعْدُوهُنَّ مِنْ شَوَّاءٍ لَمْ يَجْدُوا بَدَا حِينَ اتَّهَوْا مِنْ مَسْحِ

أيديهم في أعراف خيولهم لعدم وجود مناديل معهم. كذلك لم يفت الشاعر التلفت حوله وتسجّل ما كان يراه من حيوان وحشى يقف على مقربة منهم ويتطلع إليهم بعيونه التي تشبه حبات الجزع غير المثقوب كما يقول، والجزع حجر كريم تأخذ منه العقود التي تزين نحور الجميلات، وهو تشبيه عجيب. وهناك كلمة ليست شائعة الاستعمال في الأدب العربي حتى في القديم منه هي كلمة "تمشّن"، ولها علوق بالقلب رغم ذلك. وهي قريبة من "تمسّن"، وإن لم يقتصر معناها على مجرد المس، بل تضم إليه أيضاً معنى مسح اليد في شيء خشن بغية إزالة ما علق بها من دسم. وهذه هي الآيات:

فَعَالُوا عَلَيْنَا فَضْلَ ثُوبِ مَطَبَّ
رُدَّشِيَّةِ فِيهَا أَسْنَةُ قَعْضِ
وَصَهْوَتِهِ مِنْ أَتْحَمِيِّ مُشَرِّعَبِ
إِلَى كُلِّ حَارِيِّ جَدِيدِ مُشَطَّبِ
فَقَلَّ فِي مَقْبِلِ نَحْسِهِ مَغْبِبِ
وَأَرْحَلَنَا الجَزعُ الَّذِي لَمْ يَقْبِبِ
إِذَا نَخْنَ قَمَنَا عَنْ شَوَاءِ مَضَبَّ
عَلَيْهِ كَسِيدِ الرَّدَهَةِ الْمَأْوَبِ
وَنَظَلَ مَعَ امْرَى الْقَيْسِ فِي لَهُوَ، وَلَكِنْ فِي غَيْرِ مَيْدَانِ الْقَنْصِ، أَوْ
قَلْ: إِنَّهُ فِي مَيْدَانِ الْقَنْصِ أَيْضًا، إِلَّا أَنَّهُ قَنْصٌ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ، قَنْصٌ الْمَرْأَةِ لَا

وَقَلْتُ لِفَتَيَانَ كَرَامٍ: أَلَا اَنْزَلْتُ وَا
وَأَوْتَاهُ مَازِيَّةً، وَعِمَادَهُ
وَأَطْنَابَهُ أَشْطَانَ خُوصَ نَحْشَانَ
فَلَمَّا دَخَلْنَاهُ أَضَفَنَا ظَهِيرَتَهُ
فَظَلَّ لَنَا يَوْمٌ لَذِيدٌ وَنَعْمَةٌ
كَانَ عَيْنُونَ الْوَحْشِ حَوْلَ خَبَائِشَهَا
مُشَشِّ بِأَعْرَافِ الْجَيَادِ الْمُكْفَنَّا
إِلَى أَنْ تَرْوَحْنَا بِلَا مَعْنَىٰ

قنص الحيوان. وفي الأبيات التي سنوردها من قوْرَنَا يروى لنا الشاعر، صدقًا أو كذبًا، بعض مغامراته في دنيا النساء حيث يتبدى شخصًا عابثًا فاجرا لا يرعى عن فاحشة، بل يباهى بما يجترحه من عدوان على الحرمات والأعراض حين يتسلل في جنح الليل البهيم إلى حيث اتَّعد مع إحدى صواحبه في الخلاء، أو إلى حيث يقتتحم على أخرى خباءها، وهي تناشدته أن يتركها ولا يفضحها، إلا أنها مناشدة غير صادقة فيما يبدو، ولا ما استجابت له رغم ذلك ومتادت معه فيما أراده منها . . .

إلاه. وهو في كل ذلك يصف حبيباته وصفًا حيًّا عجيبةً ويحكى ما وقع منهن ومنه غير متدرج من شيءٍ، مُورِّدًا كثيراً من التفصيات الدالة التي تعيد لنا المنظر والحدث كأنهما ابنا اللحظة، مشهراً بهن لما مَرَّ عليه من استهثار، إذ كان ابنَ مَلِكٍ لا يبالي بما يأتي أو يدعَّ. وعجب أنه، حين يصور ما يقع من النساء من تصرفات أو ما يصدر عنهن من كلام، قادر على تقمصهن فكأنَّ امرأة هي التي تتكلم أمامنا أو تصرف لا أنها تقرأ

شعرًا:

قالت: لك الوبلات إنكَ مُرجِّبي
عَقَرْتَ بعيري يا امرأ القيس، فانزلَ
ولا تبعديني من جَنَاكَ المعلَلِ
فألهبُتها عن ذي مائِسٍ مُخْسولٍ
 بشِقٍّ، وتحتَي شِقَها لم يُحَوَّلِ

ويوم دخلتُ الخِدرَ خدرَ عَنْتَرَةَ
تقولُ وقد مالَ الغَبَطُ بنا معاً:
قتلتُ لها: سيري وأرخي زمامَةَ
فيْثِيكَ حَبْلِي قد طَرَقْتُ وَمُرْضِعٍ
إذا ما بكى من خلفها انصرافتُ لهُ

عَلَيْ وَالْتُّ حَلْفَةَ لَمْ تَحَلِّ
 وَانْ كَتِ قد أَزْمَعْتَ صَرْمِي فَاجْمَلِي
 فَسُلْيَ ثَيَابِي مِنْ ثَيَابِكِ شَسْلِ
 وَأَنْكِ مَهْمَا تَأْمِي الْقَلْبِ يَفْعَلِي
 بِسَهْمِيكِ فِي أَعْشَارِ قَلْبِ مُقْتَلِ
 تَسْعَتْ مِنْ لَهُوبِها غَيْرَ مُجَاهِلِ
 عَلَيْ حِرَاصًا لَوْ يُسِرِّونَ مَقْتَلِي
 تَعْرُضَ أَثْنَاءَ الْوَشَاحِ الْمُفَصَّلِ
 لَدِي السُّتُرِ إِلَى لِبَسَةِ الْمُقْضَلِ
 وَمَا إِنْ أَرَى عَنْكَ الْغَوَايَةَ تَجْلَي
 عَلَى أَثْرِنَا دَيْلِ مِرْطِ مُرَحَّلِ
 بَنَا بَطْنُ خَبَتِ ذِي حِقَافِ عَقْنَلِ
 عَلَيْ هَضِيمِ الْكَشْحَرِيَا الْمُخْلَلِ
 تَرَابِهَا مَصْقُولَةَ كَالسَّجَنِجَلِ
 غَذَاها نَمِيرُ الْمَاءِ غَيْرَ الْمُخَلَّ
 بِنَاظِرَةِ مَنْ وَحْشَ وَجْرَةَ مُطْفَلِ
 إِذَا هَيَّنَتْهُ وَلَا بَمُعْطَلِ
 أَثْبَتِ كَتْبُو التَّخْلَةَ الْمُعْكَبَلِ
 تَضِيلَ الدَّارِيِّ فِي مَسْنَى وَمُرَسَّلِ
 وَسَاقِ كَانْبُوبِ السَّقِّى الْمُذَلَّ
 أَسَارِيْمُ ظَبِيِّ أوْ مَساوِيْكِ إِسْحَلِ

وَيَوْمًا عَلَى ظَهَرِ الْكَتِيبِ تَعِذَّرَتْ
 أَفَاطِمُ، مَهْلًا بَعْضَ هَذَا الدِّلَلِ
 وَإِنْ تَكَ قد سَاعَتِكِ مِنِي خَلِيقَةَ
 أَغْرِكِ مِنِي أَنْ حَبَّبِكِ قَاتِلِي
 وَمَا ذَرَفَتْ عَيْنَاكِ إِلَّا لِتَضَرِّبِي
 وَبِيَضَةِ خَدْرٍ لَا يُرَامُ خَبَاؤُهَا
 تَجاوزَتْ أَحْرَاسًا إِلَيْهَا وَمَعْشَرًا
 إِذَا مَا ثَرِيَا فِي السَّمَاءِ تَعْرَضَتْ
 فَجَحَّتْ وَقَدْ نَفَسَتْ لَنْفُومُ ثَيَابِهَا
 فَقَالَتْ: يَعِينَ اللَّهُ مَا لَكَ حِيلَةَ
 خَرَجَتْ بِهَا أَمْشِي تَجَزَّ وَرَاعَتَا
 فَلَمَّا أَجْزَنَا سَاحَةَ الْحَسِنِيِّ وَاتَّحَى
 هَصَرَتْ بِفَوْدَيِّ رَأْسَهَا فَتَمَالِتْ
 مَهْمَهَةَ بَيْضَاءَ غَيْرَ مُعَاضِبَةِ
 كِبِّكِ الْمُقَانِيَةَ الْبَيَاضِ بِصَفَرَةِ
 تَصَدَّ وَتَبَدِي عنْ أَسِيلِ وَتَقْسِي
 وَجِيدَ كَجِيدِ الرَّئِمِ لِيَسْ بِفَاحِشَ
 وَفَرِعَ يَغْشِيَ الْمَنَّ أَسْوَدَ فَاحِسَّ
 غَدَائِرَهُ مَسْتَشِزَرَاتُ إِلَى الْعُلَى
 وَكَشْحَ لَطِيفِ كَالْجَدِيلِ مَخْصَرَ
 وَعَطَوْ بَرَخَصِ غَيْرَ شَشِنِ كَانَهُ

تُضيءُ الظلامَ بالعَشَاءِ كَانَهَا
 نُورُ الضَّحْيَ فِي بَيْتِ الْمِسْكِ فَوْقَ فِرَاشِهَا
 إِذَا مَا اسْبَكَتْ بَيْنَ دُعَى وَمَجْوَلِ
 وَلَيْسَ صِبَابَى عَنْ هَوَاهَا بَنْسَلِ
 نَصِيحٌ عَلَى تَعْذَالِهِ غَيْرُ مُؤْتَلِ
 وَتَبَقَّى الْأَبْيَاتُ التَّالِيَةُ، وَهِيَ لَسْلَامَةُ بْنُ جَنْدُلَ، وَفِيهَا يَصُورُ اتِّصَارَ
 قَوْمَهُ عَلَى أَعْدَانِهِمْ سَارِداً مَا وَقَعَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْ كَبَارِ الْمَحَارِبِ أَوْلَى
 الْأَعْدَاءِ: فَمِنْهُمْ مَنْ صُرِعَ فِي التَّرَابِ، وَمِنْهُمْ مَنْ نَجَاهَ الْفَرَارَ مِنَ الْهَلاَكِ، إِذَا
 نَالَهُ طَعْنَةٌ كَانَ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُرْدِيَهُ قَتِيلًا لَوْلَا أَنْ أَجْلَهُ لَمْ يَحْنَ بَعْدَ، وَمِنْهُمْ مَنْ
 وَقَعَ أَسِيرًا فِي أَيْدِيهِمْ فَاقْتَادُوهُ إِلَى مَضَارِيهِمْ مَكْبُلًا بِالْأَغْلَالِ تَفَرَّجَ عَلَيْهِ
 نِسَاءُ الْقَبْيلَةِ وَيَشْمَنُ بَهُ وَبِقَوْمِهِ. وَكَمَا نَرَى فَهُوَ يَطْلَعُنَا فِي كُلِّ لَوْحَةٍ عَلَى
 صُورَةِ مُصْوَرِ تَلْكَ الْهَزِيْعَةِ الَّتِي مُبَنِّيَ بَهَا هُولَاءِ الْأَعْدَاءِ. وَالْمَلَاحِظُ أَنَّهَا
 مُجْرِدَ سِرْدٌ وَوَصْفٌ لَا حُوارٌ فِيهَا وَلَا تَوْسِعُ فِي التَّفَاصِيلِ، إِلَّا أَنَّ الرُّوحَ

القصصية ظَاهِرَةٌ فِيهَا رَغْمَ ذَلِكَ:

وَمَنْ كَانَ لَا تُعْتَدُ أَيَامُهُ لَهُ
 جَعَلَنَا لَهُمْ مَا بَيْنَ كُلَّةِ رَوْحَةٍ
 غَدَاءَ تَرَكَاهُ فِي الغِيَارِ ابْنُ جَحْدَرِ
 لَقُوا مِثْلَ مَا لَاقَ الْلَّهِيْبِيُّ قَبْلَهُ
 فَابَ إِلَى حَجَرٍ، وَقَدْ فَضَّلَ جَمَّهُ
 وَقَدْ نَالَ حَدًّا السِّيفِ مِنْ خَرْ وَجْهِهِ

فَأَيَّمْنَا عَنَّا تُجَلِّي وَتُعْرِبُ
 إِلَى حِيثُ أَوْفَى صَوْتُهِ مُشَقَّبًا
 صَرِيعًا، وَأَطْرَافُ الْعَوَالِيِّ تُصَبَّبُ
 قَاتِدَةً لَمَّا جَاءَنَا وَهُوَ يَطْلَبُ
 بِأَنْخِبَتِ مَا يَأْتِي بِهِ مُتَأْرِبًا
 إِلَى حِيثُ سَاوَى أَنْفَهُ الْمُنْقَبُ

وجشامة الذهلي قد وسجت به
 تعرفه سُطَّ الْبَيْوَتِ مُكَبِّلاً
 وهوذة نجى بعد ما مال رأسه
 فائسكة من بعد ما مال رأسه
 غداة كأنَّ ابني لجيم ويشكرًا
 وتنقل إلى القصص النثرى الجاهلى، وهانذا أورد بعضا من نماذجه
 المبثوثة فى كتب الأدب المختلفة، ونبداً بكتاب "أخبار النساء" لابن
 الجوزى الذى قرأ فيه القصة التالية، وهى قصة من قصص العشق
 والمؤامرات تتمتع بمستوى فنى راق: ففيها العقدة، وفيها التشويق، وفيها
 الرسم المتقن للشخصيات، وفيها الحوار المحكم الموجز المتبين عن طبيعة
 المتحدين، وفيها النهاية التى تجمع بين المفاجأة وعدم مصادمة منطق الحياة
 فى نفس الآن. وهى تربينا أن الطبيعة البشرية، نهما يكن من علو نفوس
 صاحبها، لا تسلم عادةً من بعض العيوب التى قد تكون عيبوا مخيفة كما
 هو الحال فى أمر النعمان بن المنذر. كما تقوم العقدة فيها على المكر وأخذ
 الآخرين بالحيلة الخفية الدقيقة التى تخدع الحال عليه وتوهمه أنها تبغى
 مصلحته، ليكشف فى النهاية بعد أن تقع الفأس فى الرأس، أنه كان
 ضحية حيلة مزعجة حيثكت بمهارة شديدة فلم يتبين له ساعتها وجه الحق
 فيها. ولا ينبغى أن يفوتنا هنا النص على اختلاط النثر والشعر فى القصة،
 وإن اقتصر العنصر الشعري هنا على بيت واحد فى النهاية. ولنلاحظ

كيف روَيَتِ القصة كما كانت تُروَى الأحاديث النبوية والأخبار التاريخية وكثير من حكايات العرب وأقوالهم، وذلك باتباع أسلوب العَنْعَةَ، إذ بدأت على النحو التالي: "حَكَى الْهَيْمَنُ بْنُ عَدَىٰ عَنِ الْكَلْبِيِّ قَالَ: كَانَ مُلْكُ النَّعْمَانَ بْنَ الْمَنْذَرِ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَمْ يُرَأِ مِنْهُ فِي مُلْكِهِ سَقْطَةً غَيْرَ هَذِهِ: وَذَلِكَ أَنَّهُ رَكِبَ يَوْمًا فَنَظَرَ إِلَى امْرَأَةٍ خَارِجَةٍ مِنَ الْكِنِيسَةِ فَأَعْجَبَهُ جَمَالُهَا وَحَسِبَنَاهَا وَهِيَ شَهِيدَهَا، فَقَالَ: عَلَيَّ بَعْدِيٌّ بْنُ زِيدٍ، وَكَانَ كَاتِبَهُ وَخَاصَّتَهُ. فَقَالَ لَهُ: يَا عَدَىٰ، قَدْ رَأَيْتَ امْرَأَةً لَمْ يُظْفَرْ بِهَا إِنَّهُ هُوَ الْمَوْتُ. فَلَا بُدَّ فِي أَنْ تَلْطِفَ فِي الْجَمْعِ بَيْنِ وَبَيْنِهَا. قَالَ: وَمَنْ هِيَ؟ قَالَ: قَدْ سَأَلْتُ عَنْهَا فَقِيلَ لِي: امْرَأَةٌ حَكَمَ بْنُ عَوْفٍ، رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ أَهْلِ الْحِيرَةِ. قَالَ: فَهَلْ أَعْلَمُتَ بِذَلِكَ أَحَدًا؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَاَكْتُمْهُ. فَإِذَا أَصْبَحَتْ فَجْدُكُ بِكُلِّ كَرَامَةٍ لِنَزِيلِكَ. يَرِيدُ حَكَمَ بْنُ عَوْفٍ. فَلَمَّا أَذِنَ لِلنَّاسِ بَدَأَ بِهِ وَأَكْرَمَهُ وَأَجْلَسَهُ عَلَى سَرِيرِهِ، فَأَعْجَبَ النَّاسَ حَالُهُ وَتَحَدَّثُوا بِهِ. فَلَمَّا أَمْسَى فَأَذِنَ لِلنَّاسِ بَدَأَ بِهِ فَأَكْرَمَهُ وَأَجْلَسَهُ مَعَهُ وَكَسَاهُ وَجْهَهُ، فَفَعَلَ بِهِ ذَلِكَ أَيَّامًا. ثُمَّ قَالَ لَهُ عَدَىٰ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، عِنْدَكَ عَشَرَ نِسَوَةً، فَطَلَّقُ أَقْلَمَنَ عَنْكَ مَنْزَلَةً ثُمَّ قَلَ لَهُ فَلِيَزِرُوجُهَا. فَفَعَلَ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ لَهُ: يَا حَكَمُ، إِنِّي قدْ طَلَقْتُ فَلَانَةً لَكَ فَتَرَوْجُهَا. فَقَالَ حَكَمُ لَعَدَىٰ: مَا صَنَعَ الْمَلِكُ بِأَحَدٍ مَا صَنَعَ بِي، وَلَا أَدْرِي بِمَا أَكَافَهُ. فَقَالَ لَهُ عَدَىٰ: طَلَقْتُ امْرَأَتَكَ كَمَا طَلَقْتُ امْرَأَتَهُ. فَفَعَلَ،

وَحَظِيَ عَدِيْ بِهَا عِنْدَ الْمُلْكِ، وَعَلِمَ الرَّجُلُ أَنَّهُ مَكَرَ بِهِ فِي امْرَأَتِهِ. وَفِيهَا
يَقُولُ بَعْضُ أَهْلِ الْحِيَةِ:

مَا فِي الْبَرِّيَّةِ مِنْ أَشْيَاءِ تَعَادِلُهَا إِلَّا الَّتِي أَخْذَ النَّعْمَانَ مِنْ حَكْمِ
أَمَا الْقَصْةُ التَّالِيَّةُ، وَهِيَ مَأْخُوذَةُ مِنْ كِتَابِ "الْأَغَانِيِّ" لِأَبِي الْفَرْجِ
الْأَصْفَهَانِيِّ، فَبَطْلُهَا كَلْيَبُ بْنُ رَبِيعَةَ، وَهُوَ شِيخُ قَبْلَةٍ مُسْتَبِدٌ لَا يَبْلِي
بِكَرَامَةِ أَحَدٍ وَلَا بِحُقُوقِهِ، بَلْ يَعْمَلُ الْجَمِيعَ بِعَسْفٍ وَتَعَالٍ وَاحْتِقارٍ لَا يُعْفَنَى
أَحَدًا مِنْ ذَلِكَ وَلَوْ كَانَ صَهْرًا لِهِ، مَا أَدَى فِي النَّهَايَةِ إِلَى أَنْ قَتَلَ أَخَوَ زَوْجِهِ
وَاضْعَفَ بِذَلِكَ أَخَهُ فِي كَرْبَلَةِ عَظِيمٍ، إِذَا كَانَتْ بَيْنَ نَارِيْنِ: نَارِ الْحَزَنِ عَلَى
مَقْتَلِ زَوْجِهِ، وَنَارِ الْخُوفِ مِنْ اتِّقَامِ أَهْلِهِ مِنْ أَخِيهَا. يَقُولُ أَبُو الْفَرْجِ فِي
ذَلِكَ:

"وَكَانَ السَّبَبُ فِي قَتْلِ كَلْيَبَ بْنِ رَبِيعَةِ . . . أَنَّ كَلْيَبًا كَانَ قَدْ عَزَّ
وَسَادَ فِي رَبِيعَةِ فَبَغَىْ بَعْنَاهُ شَدِيدًا . وَكَانَ هُوَ الَّذِي يُنْزَلُهُمْ مَنَازِلَهُمْ وَيُرْخَلُهُمْ،
وَلَا يُنْزَلُونَ وَلَا يُرْخَلُونَ إِلَّا بِأَمْرِهِ . فَبَلَغَ مِنْ عَزَّهُ وَبَغْنَاهُ أَنَّهُ اتَّخَذَ جَرْوَكَبَ،
فَكَانَ إِذَا نَزَلَ مِنْزَلًا بِهِ كَلَأً قَدْفَ ذَلِكَ الْجَرْوَ فِيهِ فَيَعُوِيْ، فَلَا يَرْعَى أَحَدٌ
ذَلِكَ الْكَلَأَ إِلَّا بِإِذْنِهِ . وَكَانَ يَفْعُلُ هَذَا بِجَيَاضِ الْمَاءِ فَلَا يَرِدُهَا أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ
أَوْ مَنْ آذَنَ بِحَجْرِهِ، فَضُرِبَ بِهِ الْمِثْلُ فِي العَزَّ فَقِيلَ: أَعَزَّ مِنْ كَلْيَبٍ وَائِلٌ . وَكَانَ
يَحْمِي الصَّيْدَ وَيَقُولُ: صَيْدٌ نَاحِيَّةٌ كَذَا وَكَذَا فِي جَوَارِيْ، فَلَا يَصِيدُ أَحَدٌ
مِنْهُ شَيْئًا . وَكَانَ لَا يَمْرِغُ بَيْنَ يَدِيهِ أَحَدٌ إِذَا جَلَسَ، وَلَا يَحْتَبِيْ أَحَدٌ فِي مَجْلِسِهِ
غَيْرِهِ، فَقَتَلَهُ جَسَاسٌ بْنُ مَرْءَةِ . . . وَكَانَ كَلْيَبُ بْنُ رَبِيعَةَ لَيْسَ عَلَى الْأَرْضِ

بَكْرِيٌّ وَلَا تَغْلِبِي أَجَارُ رَجُلًا وَلَا بَعِيرًا إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَا يَحْمِي حِمَى إِلَّا بِأَمْرِهِ،
 وَكَانَ إِذَا حِمَى حِمَى لَا يُقْرَبُ. وَكَانَ لَمْرَةُ بْنُ ذُهْلَ بْنُ شِيبَانَ بْنُ ثَلْبَةَ
 عَشْرَةَ بْنِينَ جَسَاسُ أَصْغَرِهِمْ، وَكَانَ أَخَّهُمْ عِنْدَ كَلِيبٍ. وَخَالَةُ جَسَاسِ
 الْبَسُوسُ، فَجَاءَتْ فَنَزَلتْ عَلَى ابْنِ أَخِهِ جَسَاسٍ فَكَانَتْ جَارَةً لِبَنِي مُرَّةَ،
 وَمَعَهَا ابْنُهَا، وَلَهُمْ نَاقَةٌ خَوَارَةٌ مِنْ نَعْمَ بْنِي سَعْدٍ، وَمَعَهَا فَصِيلٌ. أَخْبَرَنِي
 عَلَيْيَ بْنُ سَلِيمَانَ قَالَ: قَالَ أَبُو بَرْزَةَ: وَقَدْ كَانَ كَلِيبَ قَبْلَ ذَلِكَ قَالَ لِصَاحِبِهِ
 أَخْتَ جَسَاسٍ: هَلْ تَعْلَمَيْنِ عَلَى الْأَرْضِ عَرَبِيًّا أَمْنَعْ مِنِي ذِمَّةً؟ فَسَكَتْ،
 ثُمَّ أَعْادَ عَلَيْهَا الثَّانِيَةَ فَسَكَتْ، ثُمَّ أَعْدَادَ عَلَيْهَا الثَّالِثَةَ فَقَالَتْ: نَعَمْ أَخِي
 جَسَاسٍ وَنَذْمَانَهُ ابْنُ عَمِّهِ عُمَرُو الْمَزْدَلْفُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ بْنُ ذُهْلَ بْنُ شِيبَانَ.
 وَرَأَيْمَ مَقَاتِلَ أَنْ امْرَأَهُ كَانَتْ أَخْتَ جَسَاسٍ. فَبَيْنَا هِيَ تَغْسِلُ رَأْسَ كَلِيبَ
 وَتَسْرِحُهُ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ قَالَ: مَنْ أَعْزَّ وَائِلًا؟ فَصَمَتْ، فَأَعْدَادَ عَلَيْهَا. فَلَمَّا
 أَكْتَرَ عَلَيْهَا قَالَتْ: أَخْوَاهُ جَسَاسٌ وَهَمَامٌ! فَنَزَعَ رَأْسَهُ مِنْ يَدِهَا وَأَخْذَ
 الْقَوْسَ فَرَمَى نَاقَةَ الْبَسُوسَ خَالَةَ جَسَاسٍ وَجَارَةَ بَنِي مُرَّةَ فَقُتِلَ،
 فَأَغْمَضُوا عَلَى مَا فِيهِ وَسَكَتُوا عَلَى ذَلِكَ. ثُمَّ لَقِيَ كَلِيبَ ابْنَ الْبَسُوسَ
 قَالَ: مَا فَعَلَ فَصِيلَ نَاقَتَكُمْ؟ قَالَ: قُتِلَتْهُ وَأَخْلَيْتَ لَنَا لَبَنَ أُمِّهِ. فَأَغْمَضُوا
 عَلَى هَذِهِ أَيْضًا. ثُمَّ إِنَّ كَلِيبَيَا أَعْدَادَ عَلَى امْرَأَهُ فَقَالَ: مَنْ أَعْزَّ وَائِلًا؟
 فَقَالَتْ: أَخْوَاهُ. فَأَضْمَرَهَا وَأَسْرَهَا فِي نَفْسِهِ وَسَكَتْ حَتَّى مَرَتْ بِهِ أَبْلَلُ
 جَسَاسٍ فَرَأَى النَّاقَةَ فَأَنْكَرَهَا، فَقَالَ: مَا هَذِهِ النَّاقَةُ؟ قَالُوا: لَخَالَةُ جَسَاسٍ.

قال: أَوْقَدْ بَلْغَ مِنْ أَمْرِ ابْنِ السُّعْدِيَّ أَنْ يُجِيرَ عَلَيَّ بِغَيْرِ إِذْنِي؟ أَرْمَ ضَرَعَهَا يَا غَلَامَ. قَالَ فَرَاسٌ: فَأَخْذُ الْقَوْسَ فَرَسَى ضَرَعَ النَّاقَةَ فَأَخْتَلَطَ دَمَهَا بِلَبَنِهَا، وَرَاحَتِ الرُّعَاةَ عَلَى جَسَاسٍ فَأَخْبَرُوهُ بِالْأَمْرِ، فَقَالَ: احْلِبُوهَا مَكِيَالِيًّا لِبَنِ بَحْلَبِهَا، وَلَا تَذَكِّرُوهَا مِنْ هَذَا شَيْئًا. ثُمَّ أَغْمَضُوهَا عَلَيْهَا أَيْضًا. قَالَ مُقَاتِلٌ: حَتَّى أَصَابُهُمْ سَمَاءً، فَغَدَا فِي غَبَّهَا يُتَمَطِّرُ. وَرَكَبَ جَسَاسَ بْنَ مَرَّةَ وَابْنَ عَمِّهِ عُمَرَ بْنَ الْحَارِثَ بْنَ ذَهْلَ، وَقَالَ أَبُو بَرْزَةَ: بَلْ عُمَرُ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، وَطَعَنَ عُمَرُ كَلِيَّاً فَحُطِّمَ صَلْبُهُ. وَقَالَ أَبُو بَرْزَةَ: فَسَكَتَ جَسَاسٌ حَتَّى طَعَنَ ابْنَاهَا وَأَهْلَهَا، فَمَرَتْ بَكْرَ بْنَ وَأَهْلَهَا عَلَى شَهِيٍّ يُقَالُ لَهُ: شَبِيثٌ، فَنَفَاهُمْ كَلِيبٌ عَنْهُ وَقَالَ: لَا يَذْوَقُونَ مِنْهُ قَطْرَةً. ثُمَّ مَرَوْا عَلَى شَهِيٍّ آخَرَ يُقَالُ لَهُ: الْأَحْصَ، فَنَفَاهُمْ عَنْهُ وَقَالَ: لَا يَذْوَقُونَ مِنْهُ قَطْرَةً. ثُمَّ مَرَوْا عَلَى بَطْنِ الْجَرِبِ فَمَنَعُوهُمْ إِيَّاهُ فَمَضُوا حَتَّى نَزَلُوا الذَّنَابَ، وَاتَّبَعُوهُمْ كَلِيبٌ وَحَيَّهُ حَتَّى نَزَلُوا عَلَيْهِ. ثُمَّ مَرَ عَلَيْهِ جَسَاسٌ وَهُوَ وَاقِفٌ عَلَى غَدِيرِ الذَّنَابَ فَقَالَ: طَرَدْتَ أَهْلَنَا عَنِ الْمَيَاهِ حَتَّى كَدْتَ تَقْتِلُهُمْ عَطْشًا! فَقَالَ كَلِيبٌ: مَا مَنَعَنَا هُمْ مِنْ مَاءٍ إِلَّا وَنَحْنُ لَهُ شَاغِلُونَ. فَمَضَى جَسَاسٌ وَمَعْهُ ابْنُ عَمِّهِ الْمَزْدَلْفَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ جَسَاسٌ نَادَاهُ فَقَالَ: هَذَا كَفَعْلُكَ بَنَاقَةَ خَالِتِيِّ. فَقَالَ لَهُ: أَوْقَدْ ذَكْرَتَهَا؟ أَمَا إِنِّي لَوْ وَجَدْتُهَا فِي غَيْرِ إِبْلٍ مُّرَّةً لَا سَحَّلَتْ تِلْكَ إِبْلُهَا. فَعَطَّفَ عَلَيْهِ جَسَاسٌ فَرَسَهُ فَطَعَنَهُ بِرَمْحٍ فَأَنْقَذَهُ حَضْنِيهِ، فَلَمَّا تَدَاعَهُ الْمَوْتُ قَالَ: يَا جَسَاسَ، اسْقِنِي مِنَ الْمَاءِ. قَالَ: مَا عَقَلْتَ اسْتِسْقَاءَكَ الْمَاءِ

منذ ولدتك أملك إلا ساعتك هذه؟ قال أبو بربزة: فعطف عليه المزلف
عمرو بن أبي ربيعة فاحترز رأسه.

والآن أود من القارئ أن يطالع القصة التالية التي تختلف عما مر بنا حتى الآن من قصص، إذ هي قصة رمزية بعضُ أبطالها من الحيوان الذي يتكلم كما يتكلم الأدميون، ويشعر كما يشعر الأدميون، ويجادل كما يجادل الأدميون، وعندَه الحكمة والحذر كما عند الأدميين. جاء في كتاب "الأمثال" للمفضل الضبي: "زعموا أن أخوين كانا فيما مضى في إبل لهما فأجذبَتْ بلادَهُما، وكان قرِيباً منهما وادٍ فيه حية قد حمَّه من كل واحد، فقال أحدُهُما للآخر: يا فلان، لو أني أتيت هذا الوادي المُكْلئ فرعِيتُ فيه إبلِي وأصلحتها، فقال له أخوه: إنِّي أخافُ عليك الحياة. لا ترى أنَّ أحداً لم يهبط ذاك الوادي إلا أهلكَه؟ قال: فوالله لأهبطنَّ. فهبط ذلك الوادي فرعى إبله به زماناً، ثم إنَّ الحياة لدغته، فقال أخوه: ما في الحياة بعدَ أخي خير، ولا تلطينَ الحياة فأقتلها أو لا تبعنَ أخي. فهبط ذلك الوادي فطلب الحياة ليقتلها، فقالت: ألسْتَ ترى أنِّي قتلتُ أخي؟ فهل لك في الصلح فأدعوكَ بهذا الوادي ف تكون به وأعطيك ما بقيت ديناراً في كل يوم؟ قال: أفعِلْ أنتِ؟ قالت: نعم. قال: فإني أفعل. فحلف لها وأعطاهما المواثيق لا يضيرها، وجعلت تعطيه كل يوم ديناراً، فكثر ماله ونمَّت إبله حتى كان من أحسن الناس حالاً. ثم ذكر أخاه فقال: كيف ينفعني العيش وأنا أنظر إلى

قاتل أخي فلان؟ فعمد إلى فأس فأحدها ثم قعد لها فمرت به فتبهـا فضرـها فأخطـها، ودخلـت الجـرـ وقعـ الفـاسـ بالـجـيلـ فوقـ جـحرـهاـ فـأثرـ فيـهـ. فـلـمـ رـأـتـ ماـ فـعـلـ قـطـعـتـ عنـهـ الـدـيـنـارـ الـذـيـ كـانـ تـعـطـيهـ، فـلـمـ رـأـيـ ذلكـ وـتـخـفـ شـرـهاـ نـدـمـ وـقـالـ لهاـ: هـلـ لـكـ فـىـ أـنـ تـوـاثـقـ وـنـعـودـ إـلـىـ مـاـ كـانـ عـلـيـهـ؟ فـقـالـتـ: كـيـفـ أـعـاـوـدـكـ وـهـذـاـ أـثـرـ فـأـسـكـ، وـأـنـتـ فـاجـرـ لـاـ تـبـالـيـ العـهـدـ؟ فـكـانـ حـدـيـثـ الـحـيـةـ وـالـفـاسـ مـثـلـاـ مـشـهـورـاـ مـنـ أـمـثـالـ الـعـربـ".

وـمـنـ هـذـاـ النـصـ يـتـبـيـنـ لـنـاـ أـنـ قـصـصـ الـحـيـانـ فـيـ الـأـدـبـ الـعـرـبـيـ لمـ يـنـتـظـرـ حـتـىـ يـضـعـ اـبـنـ المـقـعـ كـاتـبـهـ: "كـلـيـلةـ وـدـمـنـةـ"، إـذـ هـاـ هـمـ أـولـاءـ الـجـاهـلـيـونـ يـجـعـلـونـ مـنـ الـحـيـانـاتـ أـبـطـالـ لـقـصـصـهـمـ، وـيـنـطـقـونـهـ بـذـاتـ الـلـغـةـ الـتـىـ يـتـحدـثـونـهـ، وـيـضـفـونـ عـلـيـهـمـ سـائـرـ الـخـلـالـ الـبـشـرـيـةـ كـمـاـ سـلـفـ القـوـلـ. وـهـنـاكـ قـصـصـ جـاهـلـيـةـ أـخـرـىـ عـنـ الـحـيـانـ: مـنـهـاـ قـصـةـ قـيـامـ الضـبـ بـالـقـضـاءـ فـىـ الـخـصـومـةـ الـتـىـ كـانـتـ بـيـنـ الـأـرـبـ وـالـثـلـبـ، وـقـصـةـ الضـبـ وـالـضـفـدـ، وـقـصـةـ الـغـرـابـ الـذـيـ أـرـادـ أـنـ يـقـلـدـ الـعـصـفـورـ، وـقـصـةـ النـعـامـةـ الـتـىـ ذـهـبـتـ تـطـلـبـ قـرـنـينـ، وـقـصـةـ بـرـ الـهـدـهـدـ بـأـمـهـ، وـقـصـةـ الرـَّحـمـ الـحـكـيمـ. وـكـذـلـكـ قـصـةـ الـغـرـابـ وـالـدـيـلـ، وـفـيـهـ أـنـ الـدـيـلـ كـانـ نـدـيـاـ لـلـغـرـابـ وـأـنـهـماـ شـرـبـاـ الـخـمـرـ عـنـدـ خـارـ وـلـمـ يـعـطـيـاهـ شـيـئـاـ، وـذـهـبـ الـغـرـابـ لـيـأـتـيـهـ بـالـثـنـيـنـ بـعـدـ أـنـ رـهـنـ صـدـيقـهـ عـنـدـ الـخـمـارـ، لـكـمـ غـدـرـ بـهـ فـبـقـىـ فـيـ الـحـبـسـ. وـهـنـاكـ أـيـضـاـ قـصـةـ الضـبـ وـالـذـبـ، وـمـلـخـصـهـاـ أـنـ الضـبـ وـجـدـتـ نـمـرـةـ فـاخـلـسـهـاـ الـذـبـ فـلـطـمـتـهـ قـتـحـاـكـمـاـ إـلـىـ

الصب، فقالت: يا أبا الحَسِيل. قال: سميًّا دعوت. قالت: جناك نحْكُم إليك. قال: في بيته يُؤْتَى الحَكْم. قالت: إني التقطت نَرَة. قال: حُلُوًا جنِيَّتِي. قالت: إن الثعلب أخذها. قال: حَظَّ نفسه بَغَى. قالت: لطْمَهُ. قال: أَشْفَقْتِي، والبادي أَظْلَم. قالت: فلطمَنِي. قال: حُرُّ اتَّصَرَ لِنَفْسِهِ. قالت: أَفْضَلْ بَيْنَا. قال: قَضَيْتُ . . . وَغَيْرَ ذَلِكَ مَا يَجْدِهُ الْقَارِئُ فِي "الْحَيْوَان" لِلْجَاحِظِ وَ"الشِّعْرَاءَ" لِابْنِ قَيْبَيَةِ وَ"الْأَذْكَيَاءَ" لِابْنِ الجُوزِيِّ وَ"خَزَانَةَ الْأَدْبَ" لِلْبَغْدَادِيِّ وَغَيْرَهَا.

وَاتَّرَكَ هَنَا الْقَارِئَ مَعَ الْقَصَّةِ التَّالِيَّةِ، وَأَبْطَالَهَا مِنَ الْمُلُوكِ وَرِجَالِ الْبَلَاطِ، وَتَدُورُ حَوْلَ ضُعْفِ الْبَشَرِ أَمَامَ نَدَاءِ قُلُوبِهِمْ حَتَّى لَوْ عَرَفُوا أَنَّ فِي ذَلِكَ حَقْهُمْ. وَهِيَ قَصَّةُ الزَّيَاءِ وَجَذِيَّةِ الْأَبْرَشِ الْمُشْهُورَةِ، وَقَدْ أَخْذَنَا هَا مِنْ كَابِ ابنِ الجُوزِيِّ: "الْأَذْكَيَاءَ": "قَالَ هِشَامُ بْنُ مُحَمَّدَ الْكَلَّبِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَ جَذِيَّةُ بْنُ مَالِكٍ مَلَكًا عَلَى الْحِيرَةِ وَمَا حَوْلَهَا مِنَ السَّوَادِ . مَلَكَ سَتِينَ سَنَةً، وَكَانَ بَهِ وَضْحَ، وَكَانَ شَدِيدَ السُّلْطَانِ يَخَافُهُ الْقَرِيبُ وَيَهَا بِهِ الْبَعِيدُ، فَتَهَيَّأَتِ الْعَرَبُ أَنْ يَقُولُوا: الْأَبْرَشُ، فَقَالُوا: الْأَبْرَشُ. فَغَزَّ مَلِيْحَ بْنَ الْبَرِّ، وَكَانَ مَلَكًا عَلَى الْحَضْرِ، وَهُوَ الْحَاجِزُ بَيْنَ الرُّومِ وَالْفَرْسِ، وَهُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ عَدَّيِّ بْنُ زَيْدٍ فِي قَصِيْدَةِ مِنْهَا هَذَا الْبَيْتُ:

وَأَخْوَ الْحَضْرِ إِذْ بَنَاهُ، وَإِذْ دَجَلَةَ تُجَبِّي إِلَيْهِ وَالْخَابُورَ
فَقُتِلَهُ جَذِيَّةٌ وَطَرَدَ الزَّيَاءَ إِلَى الشَّامِ فَلَحَقَتْ بِالرُّومِ، وَكَانَتْ عَرَبِيَّةُ
اللِّسَانِ حَسَنَةُ الْبَيَانِ شَدِيدَةُ السُّلْطَانِ كَبِيرَةُ الْهَمَةِ. قَالَ ابْنُ الْكَلَّبِيِّ: لَمْ يَكُنْ

في نساء عصرها أجمل منها . وكان اسمها فارغة، وكان لها شعر إذا مشت سحبته وراءها ، وإذا نشرته جللها فسميت: الزباء . قال الكلبي: وبعث عيسى بن مريم عليه السلام بعد قتل أبيها فبلغت بها همتها أن جمعت الرجال وبذلت الأموال وعادت إلى ديار أبيها وملكتها ، فأزالت جذية الأبرش عنها وابتنت على الفرات مدینتين مقابلتين من شرقى الفرات ومن غربيه وجعلت بينهما نفقاً تحت الفرات . وكان إذا راهقها الأعداء أوت إليها وتحصنت به . وكانت قد اعزلت الرجال فهي عذراء ، وكان بينها وبين جذية بعد الحرب مهادنة . فحدث جذية نفسه بخطبتها فجمع خاصته فشاورهم في ذلك ، وكان له عبد يقال له: قصیر بن سعد ، وكان عاقلاً لبيباً ، وكان خازنه وصاحب أمره وعميد دولته . فسكت القوم وتكلم قصیر فقال: أليست اللعن أنها الملك ، إن الزباء امرأة قد حرمت الرجال فهي عذراء لا ترغب في مال ولا جمال ، ولها عندك ثار ، والدم لا ينام . وإنما هي تاركك رهبةً وحذار دولة . الحقد دفين في سويدة القلب له كمون كمون النار في الحجر ، إن اقدحته أورى ، وإن تركه توارى . وللملك في بنات الملوك الأكفاء متسع ، ولهن فيه منتفع . وقد رفع الله قدرك عن الطمع فيمن دونك وعظم شأنك ، فما أحد فوقك . فقال جذية: يا قصیر ، الرأي ما رأيت ، والحزم فيما قلته ، ولكن النفس تواقة إلى ما تحب وتهوى ، وكل امرئ قدر لا مفر له منه ولا وزر . فوجّه إليها خاطباً وقال:

ائت الزباء فاذكر لها ما يرغبها فيه وتصبو إليه. فجاءتها خطبته، فلما سمعت كلامه وعرفت مراده قالت له: أفعُم بك عيّناً وما جئت به وله. وأظهرت له السرور به والرغبة فيه وأكرمت مقدمه ورفعت موضعه، وقالت: قد كت أضربي عن هذا الأمر خوفاً أن لا أجد كفراً. والملك فوق قدرى، وأنا دون قدره، وقد أجبت إلى ما سأله ورغبت فيما قال. ولو لا أن السعي في مثل هذا الأمر بالرجال أجمل لسرت إليه وزلت عليه. وأهدت إليه هدية سنينية: ساقت العبيد والإماء والكراع والسلاح والأموال والإبل والغنم، وحملت من الثياب والعين والورق. فلما رجع إليه خطبته أعجبه ما سمع من الجواب وأبهجه ما رأى من اللطف وظن أن ذلك لحصول رغبة، فأعجبته نفسه وسار من فوره فيمن يشق به من خاصةه وأهل مملكته، وفيهم قصير خازنه، واستخلف على مملكته ابن أخيه عمرو بن عدي اللخمي، وهو أول ملوك الحيرة من لحم. وكان ملكه عشرين ومائة سنة، وهو الذي أخطفته الجن وهو صبي، وردهته وقد شب ونبر. فقالت أمه: أليسوا الطوق. فقال خاله جذيمة: شب عمرو عن الطوق، فصارت مثلاً. فاستخلفه وسار إلى الزباء فلما صار بقعة نزل وتصيد وأكل وشرب واستعاد المشورة والرأي من أصحابه فسكت القوم وافتتح الكلام قصير بن سعد، قال: أيها الملك، كل عزم لا يؤيد بحزم فما يكون. فلا شق بزخرف قول لا حصول له، ولا تعتقد الرأي بالهوى فيفسد، ولا الحزم بالمنى فيبعُد.

والرأي عندي للملك أن يعقب أمره بالثبت وياخذ حذره بالتيقظ، ولو لا أن الأمور تجري بالمقدور لعزمت على الملك عزماً بـألا يفعل. فاقبل جذية على الجماعة فقال: ما عندكم أتم في هذا الأمر؟ فتكلموا بحسب ما عرفوا من رغبته في ذلك وصوبوا رأيه وقووا عزمه. فقال جذية: الرأي للجماعة، والصواب ما رأيتم. فقال قصير: أرى القدر يسابق الحذر، ولا يطاع لقصير أمر. فأرسلها مثلاً. وسار جذية، فلما قرب من ديار الزباء نزل وأرسل إليها يعلمها بمحينه، فرحبت وقربت وأظهرت السرور به والرغبة فيه، وأمرت أن يُحمل إليه الأنزال والعلوفات، وقالت لجندتها وخاصة أهل مملكتها وعامة أهل دولتها ورعايتها: تلقوا سيدكم ومملكتكم. وعاد الرسول إليه بالجواب بما رأى وسمع، فلما أراد جذية أن يسير دعا قصيراً فقال: أنت على رأيك؟ قال: نعم، قد زادت بصيرتي فيه. أفانت على عزتك؟ قال: نعم، وقد زادت رغبتي فيه. قال قصير: ليس للأمور بصاحب، من لم ينظر في العواقب. وقد يُستدرك الأمر قبل فواته. وفي يد الملك بقية هو بها مسلط على استدراك الصواب، فإن وثقت بأنك ذو ملك وعشيرة ومكانك وإنك قد نزعت يدك من سلطانك وفارقت عشيرتك ومكانك وأقيمتها في يدي من لست آمناً عليك مكره وغدره. فإن كتَّ ولا بد فاعلاً لهواك تابعاً فإن القوم إن تلقوك غداً فرقاً وساروا أمامك وجاء قوم وذهب قوم فالأمر بـعده في يدك، والرأي فيه

إليك . وإن تلقوك رَزْدَقاً واحداً وأقاموا لك صفين حتى إذا توسع لهم
انقضوا عليك من كل جانب فأخذوا بك فقد ملكوك وصرت في قبضتهم .
وهذه العصا لا يُشَقْ غبارها . وكانت لجذبة فرس تسبق الطير وتجاري
الريح يقال لها العصا . فإذا كان كذلك قتلت ظهرها ، فهي ناحية بك إن
ملكت ناصيتها . فسمع جذبة ولم يرده جواباً ، وسار . وكانت الزياء لما
رجع رسول جذبة من عندها قالت لجندها : إذا أقبل جذبة غداً فلتلقوه
بأجمعكم وقوموا له صفين عن يمينه وشماله ، فإذا أوسط جمعكم فتعرضوا
عليه من كل جانب حتى تُخْدِّقوا به ، وإياكم أن يفوتكم . وسار جذبة
وقصير عن يمينه ، فلما لقيه القوم رَزْدَقاً واحداً أقاموا له صفين ، فلما
توسّطهم انقضوا عليه من كل جانب اقتضاض الأجدل على فريسته
فأخذوا به ، وعلم أنهم قد ملكوه . وكان قصير يسايره فأقبل عليه وقال :
صدقت يا قصير . فقبال قصير : أيها الملك ، أبطأت بالجواب حتى فات
الصواب . فأرسله مثلاً . فقال : كيف الرأي الآن ؟ قال : هذه العصا ،
فدونكها لعلك تنجو بها . فائف جذبة من ذلك وسارت به الجيوش . فلما
رأى قصير أن جذبة قد استسلم للأسر وأيقن بالقتل جمع نفسه فصار على
ظهر العصا وأعطها عينانها وزجرها ، فذهبت ثُوي به هُوي الريح . فنظر
إليه جذبة وهي تطاول به ، وأشارت الزياء من قصرها فقالت : ما
أحسنك من عروس تُجلّى عليَّ وتُرَفَّ إليَّ ، حتى دخلوا به إلى الزياء ولم

يُكَنُّ معاها في قصرها إِلَّا جَوَارِ أَبْكَارِ أَتْرَابٍ. وَكَانَتْ جَالِسَةً عَلَى سَرِيرِهَا وَحَوْلَهَا أَلْفٌ وَصِيفَةٌ كُلُّ وَاحِدَةٍ لَا تُشَبِّهُ صَاحِبَتَهَا فِي خَلْقٍ وَلَا زَيْ، وَهِيَ بَيْنَهُنَّ كَانَهَا قَمْرٌ قَدْ حَفَتْ بِهِ النَّجْوَمُ تَرْهُو. فَأَمْرَتْ بِالْأَنْطَاعِ فَبُسِطَتْ، وَقَالَتْ لِوَصَائِفَهَا: خَذُوا بِيْدَ سَيِّدِكُنَّ وَبَعْلِ مَوْلَاتِكُنَّ. فَأَخْذَنَ بِيْدِهِ فَأَجْلَسْنَهُ عَلَى الْأَنْطَاعِ بِجِهَتِ يَرَاهَا وَتَرَاهُ وَتَسْمِعُ كَلَامَهُ وَيَسْمَعُ كَلَامَهَا، ثُمَّ أَمْرَتْ الْجَوَارِيَ فَقَطَّعْنَ رُوَاهَشَهُ، وَوَضَعْتِ الطَّسْتَ تَحْتَ يَدِهِ، فَجَعَلَتْ تَشْبَخُ فِي الطَّسْتِ، فَقَطَرَتْ قَطْرَةً عَلَى النَّطْعِ، فَقَالَتْ لِجَوَارِهَا: لَا تَضِيعُوا دَمَ الْمَلِكِ. فَقَالَ جَذِيْمَةُ: لَا يَحْزُنَكَ دَمُ أَرَاقَهُ أَهْلَهُ، فَلَمَّا مَاتَ قَالَتْ: وَاللهِ مَا وَهَى دُمُكَ وَلَا شَفَى قَتْلَكَ، وَلَكَهُ غَيْضٌ مِنْ فَيْضٍ. ثُمَّ أَمْرَتْ بِهِ فَدْفَنَ، وَكَانَ جَذِيْمَةُ قَدْ اسْتَخَلَفَ عَلَى مُلْكَتِهِ ابْنَ أَخْتِهِ عَمْرَ بْنَ عَدِيِّ، وَكَانَ يَخْرُجُ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى ظَهَرِ الْحِيَرَةِ يَطْلُبُ الْخَبَرَ وَيَقْتَيِ الْأَثْرَ عَنْ خَالِهِ، فَخَرَجَ ذَاتِ يَوْمٍ فَنَظَرَ إِلَى فَارِسٍ قَدْ أَقْبَلَ يَهُوِيَ بِهِ فَرْسَهُ هُوَيَ الرِّيحِ، فَقَالَ: أَمَا الْفَرَسُ فَفَرَسُ جَذِيْمَةِ، وَأَمَا الرَّاكِبُ فَكَاهِلِيَّةُ. لَأُمِرَّ مَا جَاءَتِ الْعَصَا. فَأَشَرَّفَ عَلَيْهِمْ قَصِيرٌ فَقَالُوا: مَا وَرَاءُكَ؟ قَالَ سَعَى الْمَقْدَرُ بِالْمَلِكِ إِلَى حَتْقِهِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنْفِي وَأَنْفِهِ، فَاطَّلَبَ بِثَارِكَ مِنَ الْبَيْاءِ. فَقَالَ عُمَرُو: وَأَيْ ثَارِ يُطَلَّبُ مِنَ الْبَيْاءِ، وَهِيَ أَمْنَعُ مِنْ عَقَابِ الْجَوِ؟ فَقَالَ قَصِيرٌ: قَدْ عَلِمْتَ نَصْحِيَّ كَانَ لِخَالِكَ، وَكَانَ الْأَجْلُ رَانِدَهُ. وَاللهِ لَا أَنِي عَنِ الْطَّلَبِ بِدَمِهِ مَا لَاحَ نَجْمٌ وَطَلَعَتْ شَمْسٌ أَوْ أَدْرِكَ بِهِ ثَارًا أَوْ تُخْرِمَ نَقْسِي فَأُغْذِرُ. ثُمَّ إِنَّهُ

عمد إلى أنفه فجده عمه ثم لحق بالزياء على صورة كأنه هارب من عمرو بن عدي. قيل لها: هذا قصیر بن سعد عم جذیة وخازنه وصاحب أمره قد جاءك. فأذنت له فقالت: ما الذي جاءك إلينا يا قصیر، وبيننا وبينك دم عظيم الخطر؟ فقال: يا ابنة الملوك العظام، لقد أتيتُ فيما يُؤْتَى مِثْلِكِ في مثله. ولقد كان دم الملك يطلب حتى أدركه. وقد جئتُ مستجيرًا بك من عمرو بن عدي، فإنه اتهمني بخاله ويشورني عليه بالسير إليك، فجدع أفك وأخذ مالي وحال بياني وبين عيالي وتهددني بالقتل. وإنني خشيتُ على نفسي فهربت منه إليك. أنا مستجير بك ومستند إلى كهف عزك.

قالت: أهلاً وسهلاً، لك حق الجوار وذمة المستجير. وأمرت به فأنزل، وأجرت له الأنزال ووصلته وكسته وأخدمته وزادت في إكرامه. وأقام مدة لا يكلها ولا تكلمه، وهو يطلب الحيلة عليها وموضع الفرصة منها، وكانت ممتنعة بقصر مشيد على باب النفق تعتصم به فلا يقدر أحد عليها. فقال لها قصیر يوماً: إن لي بالعراق مالاً كثيراً وذخائر فقيسة مما يصلح للملوك. وإن أذنت لي في الخروج إلى العراق وأعطيتني شيئاً أتعلل به في التجارة وأجعله سبيلاً للوصول إلى مالي أتيتك بما قدرت عليه من ذلك. فأذنت له وأعطيته مالاً، فقدم العراق وببلاد كسرى فأطوفها من طرائفه وزادها مالاً إلى ما لها كثيراً، وقدم عليها فأعجبها ذلك وسرّها وترتب له عندها منزلة. وعاد إلى العراق ثانية فقدم بأكثر من ذلك طرفاً من الجواهر والبز

والخزَّ والديباج، فازداد مكانه منها وازدادت منزلته عندها ورغبتها فيه. ولم يزل قصير يتلطف حتى عرف موضع النفق الذي تحت الفرات والطريق إليه. ثم خرج ثالثة فقدم بأكْثر من الأُولَئِينَ ظرائف ولطائف فبلغ مكانه منها وموضعه عندها إلى أن كانت تستعين به في مهماتها وملماتها، واسترسلت إليه وعوَّلت في أمورها عليه. وكان قصير رجلاً حسن العقل والوجه حصيناً لبيباً أديباً، فقالت له يوماً: أريد أغزو البلد الفلاني من أرض الشام، فاخُرُجْ إلى العراق فأُرْتِني بِكَذَا وَكَذَا من السلاح والكُرَاعِ والعبيد والثياب. فقال قصير: ولِي في بلاد عمرو بن عدي ألف بعير وخزانة من السلاح والكُرَاعِ والعبيد والثياب، وفيها كذا وكذا، وما يعلم عمرو بها، ولو علمها لأخذها واستعن بها على حربك. وكتت أترِص به المنون وأنا أخرج متذكرةً من حيث لا يعلم فأتَيك بها مع الذي سأليتِ. فأعطيته من المال ما أراد وقالت: يا قصير، المُلْك يحسن لِمُثلِك، وعلى يد مُثلِك يُصلح أمره. ولقد بلغني أن أمر جذيمة كان إبراؤه وإصداره إليَّكم، وما تَقْصُرْ يدك عن شيءٍ تناله، ولا يَقْعُدْ بك حالٌ ينهض بي. وسمع بها رجل من خاصة قومها فقال: أسدٌ خادرٌ، وليث ثائر قد تحفَّز للوثبة. ولما رأى قصير مكانه منها وتقشه من قلبها قال: الآن طاب المصَّاع. وخرج من عندها فأتَى عَمْرَ بن عدي ف قال: قد أصبتَ الفرصة من الزباء، فانهض فعجل الوثبة. فقال له عمرو: قل أَسْمَعْ، وَمُرْ أَفْعُلْ، فأنْتَ طَبِيبُ هَذِهِ

القرحة. فقال: الرجال والأموال. قال: حكمك فيما عندنا مسلط. فعمد إلى أَفْيَ رجل من قتيان قومه وصناديد أهل مملكته فحملهم على ألف بعير في الغرائر السود وألبسهم السلاح والسيوف والمحجف وأنزلهم في الغرائر وجعل رؤوس المسوح من أسفالها مربوطة من داخل، وكان عمرو فيهم. وساق الخيل والعيبد والكراع والسلاح والإبل محملة، فجاءها البشير فقال: قد جاء قصير. ولما تقرب من المدينة حمل الرجال في الغرائر متسلجين بالسيوف والمحجف وقال: إذا توسيطت الإبل مدينة الزباء فالأماراة بيننا كذا وكذا، فاخترطوا الربط. فلما قربت العير من مدينة الزباء رأت الإبل من قصرها شهادى بأحmalها فارتابت بها. وقد كان وُشِّيَ بقصير إليها وحذرت منه، فقالت للواشى به: إن قصيراً اليوم منا، وهو ربب هذه التعمة، وصناعة هذه الدولة. وإنما يبعثكم على ذلك الحسد. ليس فيكم مثله. فقدح ما رأت من كثرة الإبل وعظم أحمالها في نفسها مع ما عندها من قول الواشى به إليها، فقالت:

ما للجمال مشيتها وئيدا؟	أجندلا يحملن أم حديدا؟
أم صرفانا باردا شديدا؟	أم الرجال في المسوح سودا؟

ثم أقبلت على جواريها فقالت: أرى الموت الأحرق في الغرائر السود. فذهبت مثلاً. حتى إذا توسيطت الإبل المدينة وتکاملت القوا إليهم الأمارة فاخترطوا رؤوس الغرائر، فسقط إلى الأرض ألفاً ذراعاً بـأَفْيَ باطِ طالب ثار القتيل غدرًا. وخرجت الزباء تُمْضِعَ تزيد النفق، فسبقتها إليه قصير فحال

بِنْهَا وَبِنْهُ. فَلَمَّا رَأَتْ أَنْ قَدْ أَحْيَطَ بِهَا وَمُلْكَتْ الْقَمَتْ خَاتَمًا فِي يَدِهَا
 نَحْتَ فَصَهْ سُمْ سَاعَةً، وَقَالَتْ: بِيَدِي لَا يَدْكُ يَا عُمَرُو. فَأَدْرَكَهَا عُمَرُو
 وَقَصِيرٌ فَضَرَبَهَا بِالسِيفِ حَتَّى هَلَكَتْ، وَمَلِكًا مَلِكَتْهَا وَاحْتَوَيَا عَلَى
 نَعْمَتِهَا. وَخَطَ قَصِيرٌ عَلَى جَذِيمَةِ قَبْرِهِ وَكَبَ عَلَى قَبْرِهِ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ يَقُولُ:
 مَلِكٌ تَمَتعُ بِالْعَسَاكِرِ وَالْقَنَا وَالْمَشْرُقَيْهِ، عِزَّهُ مَا يُوصَفُ
 فَسَعَتْ مَنْيَتِهِ إِلَى أَعْدَائِهِ وَهُوَ الْمَرْجُ، وَالْحَسَامُ الْمَرْهَفُ

الأمثال

"الأمثال" جمع "مَثَلٌ"، وهو جملة من القول مقتطعة من كلام أو مرسلة لذاتها تُقلل مما وردت فيه إلى مُشابهه دون تغيير بعنة الاستشهاد بها . وبعض الأمثال قد يكون مسجوعاً متوازناً، وإن لم يكن هذا شرطاً لا بد منه . ومتماز هذه الجملة بأنها تلخص الموقف أو الجدال أو التعليق وتحسّنه على خير وجه، وبأنها قصيرة لا تتجاوز بعض كلمات، وبأنها من الحيوية والسلاسة وحلوة الصياغة وبراعة التصوير وتعدد الأبعاد بحيث يكتب لها السيرة والانتشار على ألسنة الناس، وبأنها لا تخالو في كثير من الأحيان من موعدة أو حكمة .

وقد كتب هنا الفاخوري زاعماً أن الأمثال الجاهلية، تكونها "كلام الشعب في جميع طبقاتهم، فقد جاءت في أكثرها غير مقصولة كما في قوله: أول ما أطلع ضبّ ذبّه" (حنا الفاخوري/ تاريخ الأدب العربي/ ٢٠٢) . وهذا حكمٌ جُرافٌ لا معنى له ولا دليل عليه، وليس في عبارة المثل الذي أورده ما يدل على راكحة أو ضعف في الصياغة البتة، بل تحرى على فحولة الصياغة العربية . وفي كتاب النحو والصرف كلام عن هذا التركيب يجده القارئ في نهاية باب المبتدأ والخبر، إذ يذكر العلماء عدة مواضع يجب فيها حذف الخبر منها أن يكون المبتدأ مضافاً إلى مصدر عامل في اسم مفسرٍ لضمير له حال لا يصح ورودها خبراً، مثل: "أكثر شُرُبِي السُّوقِ ملوتاً" و "أَخْطَبُ ما يَكُونُ الْأَمِيرُ قَائِمَاً" ، والمثل الذي بين

أيدِينا يقترب جداً من المثال الأخير كما نرى، إلا أن المعنى هنا (وهو "ذئب") مفعول لا حال. ولو أردنا أن نصوغ المثل صياغة عاديَّة لقلنا: "أول شيء يُطلعه الضَّبُّ من جحره هو ذئب". ومثله قول العقاد في قصيدة "الشاعر الأعمى": "وأظلم ما نال العَمَى جفنَ شاعر". وعلى هذا فكلام الفاخوري مجرد دعوى فارغة من المضمون. وقد أكد د. شوقى ضيف بحق أن "طائفة من هذه الأمثال تدخل في الصياغة الجاهلية البليغة، إذ نطق بها بعض بلغائهم وفصحائهم من أمثال أكثم بن صيفي وعامر بن الظَّرب، وكان خطباً لهم المُفَوَّهُونَ كثيراً ما يعمدون إلى حشدتها في خطاباتهم". بل إننى لازعم، دون أدنى مبالغة فيما أحسب، أن معظم هذه الأمثال هى نموذج للصياغة البليغة الجزلة يعكس ما يهرب به الفاخوري. أما قول الدكتور شوقى ضيف إن "بعض الأمثال تخالف قواعد النحو والتصريف" فربما يكون كلامنا أدق لو قلنا إنها قد تخالف ما نعرفه من هذه القواعد، إذ كان الواجب أن يجعل علماء النحو والصرف تلك الأمثال مصدراً من المصادر التي اعتمدوا عليها في استخلاص قواعدهم لأن يحكموا تلك القواعد في مثل هذه النصوص الجاهلية التي يصعب أن يكون قد دخلها تغيير يذكر، إن كان قد دخلها أي تغيير على الإطلاق كما قال الأستاذ الدكتور نفسه (د. شوقى ضيف / العصر الجاهلي / ٤٠٤، ٤٠٨)، على عكس ما يؤكد ك. أ. فارق (K. A. Fariq) في

الصفحة الثالثة والثلاثين من كتابه: "History of Arabic Literature" ، إذ يقول إن النثر الجاهلي كله (بما فيه الأمثال طبعاً) شأنه شأن الشعر في ذلك العصر، قد دخله تحرير كثير من قبل الرواة، الذين زيفوه وبدلوا وأضافوا إليه وحذفوا منه وشوهوه، وذلك دون أن يدعم زعمه هذا بأى برهان، على الأقل فيما يخص الأمثال التي، نظراً لإيجازها الشديد وكثرة ترديدها واستمرار الاستشهاد بها والحرص التام على استعمالها كما نُطق بها لأول مرة دون أي تحوير، يصعب جداً جداً أن ينالها شيء من هذا الذي قال. وسوف توسع بعض التوسيع في معالجة النقطة الخاصة بدعوى مخالفة الأمثال الجاهلية لقواعد النحو والصرف فيما

بعد .

وببدأ بالجانب اللغوي: وهناك ألفاظ كان الجاهليون يعرفونها ويستعملونها ولا يجدون فيها غرابة، لا في وقوعها على الأذن ولا في وقوعها على الذهن، ولا تشكل لهم من ثم أية صعوبة في فهم دلالتها، بيد أن الأمر الآن قد تغير، فأضحت تلك الألفاظ لا تستعمل، وأضفت بحاجة إلى من يشرح للقراء معانيها، إذ اللغة تتطور كما يتطور كل شيء في الحياة، فيimotoت بعض ألفاظها ولو إلى حين، وتتجدد عليها ألفاظ لم تكن معروفة من قبل، أو على الأقل لم تكن شائعة الاستعمال كما هو الحال الآن... وهكذا.

وقد استطعت أن أقطع بعضا من تلك الألفاظ التي تحتاج إلى من يشرحها للقارئ العصري، إما لأنها غريبة عليه تماماً، وإما لأنها، وإن لم تكن غريبة عليه في ذاتها، فهي غريبة عليه بمعناها القديم، إذ أصبحت تعنى في لغتنا الحالية معنى آخر غير الذي كان لها قبلاً، أو هي غريبة عليه بصفتها لكونه يعرف لذلك المعنى صيغة أخرى. ومن هذا النوع من الألفاظ "الاحتلاط: الغضب" (أول العي الاحلاط)، و"القين: الحداد" (إذا سمعت بسرى القين فإنه مُصبح)، و"الصرح: اللين الذي ليس فوقه رُغوة" (أبدى الصريح عن الرُّغوة)، و"العذرة: العذر"، و"الحقين: الوَطْب الذي يُحقن باللين" (أبى الحقين العذرة)، و"أرجحن: مال" و"الشاصي: الرافع رجله" (إذا أرجحن شاصياً فارفع يداً)، و"القدح: السهم الذي كانوا يستقسمون به، أي يحاولون أن يعرفوا به الغيب حسبما كانوا يوهمون" (أبصِرْ وَسِمْ قِدْحَك)، و"الثرب: نصيب الشخص أو الحيوان من الماء" (آخرها أفلها شرباً)، و"العي (وجمعه "أعقاء")": ما يخرج من الصبي عند ولادته" (اخدر الصبيان لا تصبك بأعقاهم)، و"الذل (وجمعه "اذلال")": السهولة" (أبخر الأمور على أذلاها)، و"الحسن: الاستصال"، و"الأس: الأصل" (الصيق الحسن بالأس)، و"السلى: مشيمة الحوار، وهو الجمل الوليد" (انقطع السللى في البطن)، و"الوذم: سيور تربط بها أطراف العرافق، وهي الخشبتان اللتان تكونان على حافة الدلو يحمل منهما، أو

الخشتان اللتان تصلان بين وسط الرَّحْل والمؤخرة، والمفرد: عَرْقُوَةً" (أَمِرَّ دون عَبِيْدَةَ الْوَذْمُ: لَمْ يَسْتَشِرْهُ أَحَدٌ فِي الْأَمْرِ لَهُوَ شَانُهُ)، و"البَّاعَ: المَاعَ والثَّقل" (أَقْتَلَ عَلَيْهِ بَعَاعَهُ: أَقْتَلَ عَلَيْهِ نَفْسَهُ مِنْ حُبَّهِ لَهُ)، و"الزَّخَارِيَّ: النَّبْتُ عِنْدَ ارْفَاقِهِ" (أَخْبَذَ الْأَرْضَ زُخَارِيَّهَا: أَكْمَلَ وَبَلَغَتِ الْغَايَا)، و"الرَّطِيطُ: التَّذْمَرُ" (أَرْطَى، إِنْ خَيْرُكَ فِي الرَّطِيطِ)، و"العَقْنَقُلُ: الْمُصْرَابُ" (أَعْطَ أَخَاكَ مِنْ عَقْنَقُلَ الْضَّبِّ: أَعْطَهُ مِنْ كُلِّ مَا مَعَكَ مِمَّا يَكُنْ تَافِهَا)، و"حَظَّبَ يَحْظُبُ: سَمِنَ" (أَعْلَلَ تَحْظُبَ)، و"النَّجِيْثُ: مَا كَانَ خَافِيَا فَظِيْهِ" (بَدَا نَجِيْثُ الْقَوْمَ)، و"الْحَذَيْيَا: الْعَطِيَّةُ" (بَيْنَ الْحَذَيْيَا وَالْخَلْسَةِ: إِمَّا أَنْ تَعْطِيهِ مَا مَعَكَ وَإِمَّا اخْتَلَسَهُ مِنْكَ، أَيْ أَنَّهُ لَا فَكَاكَ مِنْ أَخْذِهِ مِنْكَ مَا مَعَكَ)، و"الطَّرِيقَةُ: الْلَّيْنُ وَالْمُضْعُفُ"، و"العِنْدَاؤَةُ: الْعِنَادُ" (نَحْتَ طِرِيقِهِ عِنْدَاؤَةً)، و"الثَّاطَةُ: الْطَّينُ" (ثَاطَةٌ مُدَّاتٌ بِهَا: بِمَعْنَى "رَازَ الطَّينَ بِلَةً")، و"الْجَدْحُ: الشَّرْبُ" (جَدْحٌ جُوْنَينَ مِنْ سَوْيِقِ غَيْرِهِ). وجُوْنَينَ: اسْمَ شَخْصٍ، وسَوْيِقُ نَوْعٌ مِنَ الْطَّعَامِ)، و"القَذَةُ: الْبِرِيشَةُ الَّتِي تَرَكَ عَلَى السَّهْمِ" (حَذْوَ القَذَةِ بِالْقَذَةِ)، و"هَرَاقُ: أَرَاقُ" (خَلَ سَبِيلَ مَنْ وَهَى سِقاوَهُ، وَمَنْ هَرِيقَ بِالْفَلَاهَ مَاوَهُ)، لَأَنَّهُ لَا أَمْلَ فِي صَلَاحِهِ)، و"الْيَلْمَعُ: السَّرَابُ" (أَخْذَلَ مِنْ يَلْمَعِ)، و"الدَّبَّرِيُّ: الَّذِي يَأْتِي بَعْدَ فَوَاتِ الْأَوَانِ" (شَرَّ الرَّأْيِ الدَّبَّرِيِّ)، و"الْحَقَّةُ: السَّيْرُ السَّرِيعُ الشَّدِيدُ" (شَرَّ السَّيْرِ الْحَقَّةِ)، و"الْجَرْوَةُ: النَّفْسُ" (ضَرَبَ عَلَى الْأَمْرِ الْفَلَانِي جَرْوَتَهُ: وَطَنَ نَفْسَهُ عَلَيْهِ)، و"الْهِلْبَاجَةُ:

النؤوم الكسلان، أو التقليل الجافى" (أعجز من هِلْباجة)، و"غَشْمَشَ": غَشْمُوم" (غَشْمَشَ يُغْشِى الشَّجَرَ: يُفْسِدُ كُلَّ شَيْءٍ وَلَا يَبَالُ، كَاثُورٌ فِي مَحْلِ الْخَزْفِ)، و"القرَاب": القرَاب بِقُرَابِ أَكِيس: الفرار قَبْلَ التَّوْرُطِ فِي الْمَهْلَكَةِ أَفْضَلَ مِنَ التَّمَادِي فِي الْأَمْرِ)، و"القطُوف": البطْئُ المَتَائِنِي فِي مَشِيشَةٍ)، و"الوَسَاعُ": المسرع السَّابِقُ" (القطُوف يُثْلِعُ الْوَسَاعَ: قَدْ يَلْحُقُ الْمَتَائِنِي الْمُتَعَجِّلَ)، و"الكِفتُ وَالْوَيْتَةُ": الْقِدْرُ الصَّغِيرَةُ وَالْكِبِيرَةُ" (كَفَتَ إِلَى وَيْتَةٍ: تَقَالَ لِمَنْ لَا يَكْتُفِي بِتَحْمِيلِ صَاحِبِهِ الْمَكْرُوهِ الْكِبِيرِ، بَلْ يَلْحُقُ بِهِ مَكْرُوهًا آخَرَ)، و"البِضَاعُ": الْجِمَاعُ" (كَمْلَمَةٌ أَمْهَا الْبِضَاعُ)، و"جَلَلُ": صَغِيرٌ" (كُلُّ شَيْءٍ أَخْطَأَ الْأَفَّاجَلَ)، و"الْيَهِيرَ": السَّرَابُ" (أَكْذَبُ مِنَ الْيَهِيرَ)، و"لَحَامُ": لَحُومُ" (لَكْنُ لَحَامٌ بِشَرْمَةٍ لَا تُجَنِّنُ)، "إِلْلَتُ": أَبْتَلَتُ" (مَا يَلْلَتُ مِنْ فَلَانَ بِأَفْوَقَ نَاصِلٍ: ظَهَرَ أَنَّهُ رَجُلٌ صَعِبُ الْمَرَاسِ). وَالْأَفْوَقُ النَّاصِلُ: السَّهْمُ الْمَكْسُورُ)، و"وَدَعَ نَفْسَهُ": أَرَاحَهَا . وَهُوَ مَا يَخُوذُ مِنَ الدَّعَةِ لَا مِنَ التَّوْدِيعِ" (مِنْ لَمْ يَأْسَ عَلَى مَا فَاتَ وَدَعَ نَفْسَهُ)، و"الْعَبَكَةُ": مَا يَلْقَى بِأَصْوَافِ الْغَنَمِ مِنْ بَعْرَهَا" (مَا أَبَالِيهِ عَبَكَةً)، و"مُخْرَبِقُ لَيْبَاعَ": أَى لَاطِئٌ بِالْأَرْضِ يَسْهُزُ فَرْصَةً لِيُثْبِ على عَدُوِّهِ، و"تَعَظُّعَطُ": اتَّعَظَ" (لَا تَعْظِيَنِي وَتَعَظِّعَنِي).

وَيَةُ جَانِبٍ فِي الْأَمْثَالِ يَحْسَنُ أَنْ تَنَاوِلَهُ ضَمِّنَ مَا تَنَاوِلُ مِنْهَا هَذَا، أَلَا وَهُوَ الْأَلْفَاظُ الْعَارِيَةُ. وَالْوَاقِعُ أَنْ مِثْلَ هَذِهِ الْأَلْفَاظَ لَا تَظْهَرُ بِقُوَّةٍ فِي الْأَمْثَالِ الْجَاهِلِيَّةِ وَلَا فِي الْأَمْثَالِ الْعَرَبِيَّةِ الْفَصِيحَةِ بِوَجْهِهِ عَامٌ، وَرَبِّما لَمْ يَكُنْ

هناك منها في الأمثال الجاهلية التي وقعت لى في كتاب "جمهرة الأمثال" لأبي هلال العسكري إلا "الضراط" و"الاست" و"الخُرءَ" ، فضلاً عن قلة ورود هذه الألفاظ في حد ذاتها . وقد كنت أحسب أن مثل هذا النوع من الألفاظ سيكون كثيراً في كلام الجاهليين نظراً لخشوتهم وبداؤتهم وعدم احتشام وثنائهم، إلا أن الواقع جاء شيئاً آخر غير ما كفا تصور، على الأقل طبقاً لما تقوله أمثالهم في هذا الشأن . وهذه بعض شواهد على ورود هاتين اللفظتين في تلك الأمثال: "أَضْرَطَ وَأَنْتَ الْأَعْلَى؟" ، "أَضْرَطَ آخِرَ الْيَوْمِ؟" ، "أَسْتَ الْبَيْانَ أَعْلَم" ، "أَسْتَ لَمْ تُعَوِّدِ الْجُمْرَ" ، "قَدْ يَضْرِطُ الْعَيْرُ وَالْمَكْوَةُ فِي النَّارِ" ، "خَرَيْتُ بِنَهْمِ الْصَّبَعِ" .

وهناك، إلى جانب ما مرّ، صيغ صرفية وتركيب خوبية لم تعد تستخدم الآن، مثل استعمال "ليس" في موضع حرف العطف "لا" كما في المثل التالي: "إِنَّمَا يَجْزِي الْفَقِيرُ لِيُسَاجِلُ" ، وهو استعمال لـ"ليس" لا يعرفه كثير منا، يضاف إلى استعمالها أداة استثناء كما في قولنا: "قام الطلاب ليس عَلَيْا" ، أي قاموا إلا عَلَيْا . ومن هذه التركيب أيضاً حذف خبر "أنْ" رغم عدم تقدم ما يدل عليه، إلا أنه مفهوم من السياق كما في الشاهد التالي: "أَشْبَهَ شَرْجَ شَرْجًا لَوْ أَنْ أَسَيْمِرًا" ، إذ المعنى أن هذا المكان هو فعلاً المكان الذي يسمى "شرجًا" ، إلا أن الأسيمر (أي شجرات السُّمُر) التي كنت أعبدها فيه ليست موجودة . و تمام الكلام إذن هو: "أَشْبَهَ شَرْجَ

شَرْجًا لو أنْ أَسِمِّرًا كُتْتْ أَعْبُدُهَا مِنْ قَبْلِ كَانَتْ هَنَاكَ". ولعل القارئ قد تنبه إلى تصغير صيغة الجمع في "أَسِمِّر" (جمع "سَمِّرَة")، وتصغير صيغة الجمع كما هي (أى دون ردها إلى صيغة المفرد أَوْلًا) من نوع بوجه عام في اللغة العربية حسبما هو معروف، اللهم إلا ما نصَّ عليه الصرفيون، وهو جموع تكسير الفِلَة، ومنها صيغة "أَفْعُل" التي بين أيدينا. كذلك يعرف الملمون بال نحو العربي أن هناك مواضع تمحض فيها "كان" وأسمها، لكن ليس من بينها "إلا"، التي نلاحظ في الشاهد التالي كيف أن قائل المثل قد حذف بعدها "كان" وأسمها مثلما يحذفهما العرب بعد "لو" كما في قول الرسول الكريم مثلاً: "التس ولو خانَتْ مِنْ حَدِيدٍ" ، أى ادفع أى مهر حتى لو كان هذ المهر مجرد خاتِمٍ من حديد لا قيمة له، وكذلك بعد "إِنْ" المكررة كما في مثل قوله عليه السلام: "النَّاسُ مُجَرَّبُونَ بِأَعْمَالِهِمْ: إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ" ، أى إن كان العمل الجرِّبُونَ به خيراً فالجزاء خيرٌ، أو كان هذا العمل شرًا فالجزاء شرٌّ. ونص المثل هو: "إِلَّا حَظِيَّةً فَلَا أَلِيَّةٌ" ، أى "إذا لم يكن أمرك هو الحظوة عند من تريد أن يكرمك فلا تأْلُمْ أن تسود له".

ومن الشواهد التي جاءت فيها "كان" وأسمها محفوظين قوله في المثل التالي: "قد قيل ذلك إِنْ حَقًا وَإِنْ كَذِبًا" ، أى قيل ما قيل، واتسهي الأمر، سواء كان الكلام المقصود حقاً أو كذباً. كذلك انظر إلى المثل التالي: "أَنَا غَرِيرُكَ مِنَ الْأَمْرِ" (ومعناه: "أَنَا عَالِمٌ بِالْأَمْرِ عَلَمًا يَجْعَلُنِي أَجْيِبُكَ فِي أَىْ أَمْرٍ

منه حتى لو كان سؤالك على حين غرة") كيف أدى التركيب فيه إلى المعنى المقصود رغم أنه لا يدل عليه دلالة مباشرة لا تُخرج إلى شرح. وهناك أيضاً المثل التالي بتركيبه الذي لا يقابلنا في فصحاناً المعاصرة رغم استمراره في العامية: "أَعْوَرُ، عَيْنَكَ وَالْحَجَرُ"، فهو يدل على التحذير من خطر يهدد المخاطب، وهو هنا الحجر الذي يمكن أن يصيب عين الأعور، مع ملاحظة أن كلاماً من المهدّ (الحجر) والمهدّ (العين) منصوب كما هو واضح. وهو تركيب لا يستعمل إلا في العامية كما قلت، بل لا أظنه من التراكيب التي تقابلنا في النصوص القديمة كثيراً. ولا تننس أن أداء النداء قد حُذفت كذلك في النص، إذ الأصل: "يا أعور"، والمقصود: "أيها الأعور، احذر أن يصيب عينك الوحيدة الباقيَة حجر يذهب ببصرها أيضاً فتصبح أمّاً عاماً".

أما في قوله: "أَحَشَفَا وَسُوءَ كِيلَة؟" فقد حُذف الفعل وفاعله، وهو استئناف لجمع الشخص بين خلتين سنتين في تعامله مع الناس بدلاً من الاقتصار على واحدة منهما ليست في ذاتها بالقليلة. ومثله قوله في مثل آخر: "أَغَيْرَةٌ وَجُبُنًا؟"، وهو مثل تقوله الزوجة لرجلها الذي يغار أشد الغيرة عليها، لكنه من الجبن بحيث لا يحاول الدفاع عنها إذا تعرض عرضه للعدوان. وهناك صيغة صرفية قابلتنا في الفعل: "أَنْجَدَ" من قوله: "أَنْجَدَ من رأى حَضْنًا" (إشارةً إلى الوصول إلى الغاية)، وهي صيغة

"أَفْعَلَ" للفعل الماضي المشتق من اسم بـلـدٍ ما أو مدينةٌ من المدن، كـفـولـم؛ "أَغْرَقَ، وأَشَأَمَ، وأَغْمَنَ، وأَمْنَى، وأَمْنَى"، أي وصل العراق أو الشام أو عمان أو اليمن أو مـنـى أو شـارـفـ الـوصـولـ. وـ"حـضـنـ" اـسـمـ جـبـلـ مشـهـورـ فيـ بـخـدـ . وـثـيـةـ صـيـغـةـ جـمـعـةـ لـاـ نـسـتـخـدـمـهاـ عـادـةـ فـىـ الـمـوـضـعـ الـذـىـ جـاءـتـ فـيـ هـيـ،ـ وـهـىـ صـيـغـةـ "أـفـعـالـ"ـ فـىـ قـوـلـمـ:ـ "أـجـنـاـوـهـاـ أـبـنـاـهـاـ"ـ (ـجـمـعـ "ـجـانـ"ـ وـ"ـبـانـ"ـ)ـ بـدـلاـ مـنـ "ـجـنـاـتـهـاـ بـنـاـتـهـاـ"ـ،ـ أـيـ أـنـ مـنـ جـنـوـاـ عـلـيـهـاـ (ـأـيـ هـدـمـوـهـاـ)ـ هـمـ أـنـفـسـهـمـ الـذـينـ سـبـقـ أـنـ بـنـوـهـاـ .ـ وـهـىـ صـيـغـةـ جـمـعـةـ قـلـيلـةـ الـاسـتـعـمالـ فـىـ هـذـاـ الـمـوـضـعـ حـسـبـمـاـ قـلـنـاـ كـمـاـ فـىـ "ـصـاحـبـ:ـ أـصـحـابـ"ـ وـ"ـشـاهـدـ:ـ أـشـهـادـ"ـ،ـ وـلـكـنـهـاـ لـيـسـ خـاطـئـةـ كـمـاـ قـدـ يـفـهـمـ مـنـ كـلـامـ دـ.ـ شـوـقـىـ ضـيـفـ،ـ الـذـىـ عـلـقـ عـلـىـ هـذـاـ مـلـلـ قـاتـلـاـ إـنـ "ـالـقـيـاسـ"ـ جـنـاـتـهـاـ بـنـاـتـهـاـ لـأـنـ "ـفـاعـلـاـ"ـ لـاـ يـجـمـعـ عـلـىـ "ـأـفـعـالـ"ـ .ـ دـ.ـ شـوـقـىـ ضـيـفـ/ـ الـعـصـرـ الـجـاهـلـىـ/ـ ٤٠٨ـ)،ـ وـفـاتـهـ أـنـ الـقـرـآنـ نـفـسـهـ قـدـ اـسـتـخـدـمـ "ـأـشـهـادـ"ـ فـىـ مـوـضـعـيـنـ مـنـهـ (ـهـودـ/ـ ١٨ـ،ـ وـغـافـرـ/ـ ٥١ـ)،ـ وـمـثـلـهـ "ـأـصـحـابـ"ـ،ـ الـتـىـ تـكـرـرـتـ فـيـهـ تـيـفـاـ وـسـبـعـيـنـ مـرـةـ،ـ وـهـمـاـ جـمـعـ "ـشـاهـدـ"ـ وـ"ـصـاحـبـ"ـ عـلـىـ التـوـالـىـ،ـ وـلـيـسـ بـعـدـ قـوـلـ اللـهـ قـوـلـ .ـ كـذـلـكـ ذـكـرـ عـبـاسـ أـبـوـ السـعـودـ فـىـ كـابـهـ:ـ "ـالـفـيـصـلـ فـىـ الـوـانـ الـجـمـوعـ"ـ (ـدـارـ الـمـعـارـفـ/ـ ١٩٧١ـ/ـ ٤٠ـ)ـ أـنـهـ وـرـدـ عـنـ الـعـربـ أـيـضـاـ "ـقـاـسـ:ـ أـقـبـاسـ"ـ وـ"ـجـاهـلـ:ـ أـجـهـالـ"ـ .ـ أـمـاـ فـىـ قـوـلـمـ:ـ "ـإـذـاـ جـاءـ الـحـيـنـ،ـ حـارـ الـعـيـنـ"ـ فـنـلـاحـظـ تـذـكـرـ الـفـعـلـ:ـ "ـحـارـ"ـ رـغـمـ إـسـنـادـهـ لـؤـنـتـ،ـ وـهـوـ اـسـتـعـمالـ صـحـيـحـ لـأـنـ لـفـظـةـ "ـعـيـنـ"ـ،ـ

وإن كانت مؤتة، فتأنيتها مجازى، أى أنها ليست كائنا حياً له عضو أو ثلة كالمرأة والدجاجة مثلاً، ومن ثم جاز في لغة الضاد تذكر فعلها.

ومن التركيبات اللافقة للنظر أكتفاؤهم بالحال فقط من بين أركان الجملة جميعاً كما في المثلين التاليين: "أضرطاً وأنت الأعلى؟"، "أضرطاً آخر اليوم؟". أما في قولهم في المثل الثاني: "أفلب قلاب" (أى اقلب الكلام وعد إلى ما قبله) فهو مثل يضرب للرجل تكون منه سقطة فيتداركها بأأن يقلبها عن جهتها ويصرفها عن معناها) فعندنا صيغة "فعال" التي تعنى "افعل"، مثل "دراك"، "نزال"، أى أدرك، وانزل. ومن أسماء الأعلام التي قابلتني في أمثال الجاهليين على هذه الصيغة أيضاً اسم "عرار"، وهو من أسماء الأعلام المؤتة، وقد ورد في المثل التالي: "باءت عرار بـكحْل"، أى أن عرار وكحلاً بقرتان متساويتان لا تفضل إحداهما الأخرى، فإذا أخذت هذه بدلاً من تلك، أو تلك بدلاً من هذه، لم تخسر شيئاً. ولنلاحظ أن هذا الاسم، رغم مجده فاعلاً، قد يبني على الكسر، وهذا إعرابه دائمًا في لغة المجازيين مهما تغيرت وظيفته في الجملة. ومنه أيضاً ما ورد في الأمثال التالية: "إسق رقاش، إنها سقاية" (اسم امرأة كريمة)، "القول ما قالت حدام" (اسم امرأة اشتهرت بصحة رأيها)، "أجرا من خاصي خصاف" (اسم فرس خصاء صاحبه كى لا يأخذه منه ملك أعيشه الفرس وأراد أن يستولى عليه)، "روغى جعاري، وانظرى أين المفر"

(اسم عَلِمٌ على الضبع)، "أَرْنَى من سَجَاجِح" (وهي الكاهنة التميمية المشهورة التي ادعت النبوة عند موت النبي عليه السلام ثم فاءت إلى الإسلام كرة أخرى، وكان لها مع مسيلمة الكذاب قصة معروفة هي التي شهّرّتها بهذا المثل)، "صَمَّى صَمَامٍ" (اسم للداهية. وهو مثل يقال عند استفطاع الدهاية تعبيراً عن الضيق بها والرغبة في انتشاعها). بيد أن هذه الصيغة لا تبلغ غرابة صيغة "فَعَيْلَى" التي نقابلها في الشاهد التالي مرتين: "الأخذ سُرِطَى، والقضاء ضُرِطَى"، أى هو في الاستدامة لطيف العشر، لكنه عند الدفع يستحيل شخصاً شَكِسًا سَئِ الذمة. وفي قوله: "أخذه الله أخذ سَبْعَةَ" نراهم يسمون اللبوة: "سَبْعَةَ" (تأنيث "سبع")، ولا يعرف هذه التسمية إلا الأقلون، ومثلها في هذا مثل "رَجُلَةَ" (مؤنث "رَجُلَ") بدلاً من "أمّةَ".

وفي بعض الأمثال نلاحظ إيراد الحرف "ما" قبل الفعل المتأخر عن شبه الجملة، وذلك لتأكيد المعنى، ومثله قوله: "بِالْيَدِينِ مَا أُورَدَهَا زَانِدَةَ" (و"زاندة" اسم رجل)، "بَعَيْنَ مَا أَرَيَنَكَ"، "قَبْلَكَ مَا جَاءَ الْخَبَرَ"، "لَكَ مَا أَبْكَى، وَلَا عَبْرَةَ بِى"، "وَبِالْأَشْقَى مَا حَلَّ الْعِقَابُ". كما أن هناك مثلاً واحداً على الأقل تكررت فيه "بَيْنَ" مع اسمين ظاهرين على خلاف ما يدعى بعض اللغويين المستطسين من أن مثل هذا التكرار لا تحيزه العربية، ثم اتضح لي منذ سنوات غير قليلة أن ذلك غير صحيح، إذ وجدتُ في

الشعر الجاهلى والإسلامى والأموي عشرات الشواهد التى تدل على أنه ليس فى هذا التكرار ما يعاب من جهة الأسلوب العربى الأصيل، وإن لم يرد ذلك التركيب فى القرآن، إذ القرآن الكريم لا يسوعب، كما هو معروف، كل إمكانات اللغة، فهو كتاب سماوى لا معجم لغوى. وعلى أية حال هذا هو المثل المذكور: "بين المطين وبين المُدبر العاصى"، أى أنه لا يوثق ب موقفه، فهو متذبذب بين الطاعة والمعصية، فأتى هما أمكنته جرى فى طرقها . ومن التراكيب التى قابلتني هنا أيضا وأرى أنه ينبغي التثبت عندها قليلا التركيب الذى عليه المثلان التاليان: "جَارِي بَيْت بَيْت" ، "وَقَعَا فِي حَيْصَ بَيْصَ" ، بناء الكلمتين على الفتح كما هو واضح، وهو مثل قولهم: "صَبَاحَ مَسَاءً" ، "لَيْلَ نَهَارًّا" ، "أَحَدَ عَشَرَ" . وقد أجريت التعبير العامى: "خَبْطَ لَرْقَ" عليه واستعملته فى كتاباتى مطعما الفصحى به على طريقتى فى إغتناء لغة الكتابة بما أرى استعارته من العامية بعد إجرائه على مقتضيات قواعد النحو والصرف . ويمكن أن نلحق به الكلام فى الجملة التالية: "اَذْهَبْ إِلَى الْمَكَانِ الْفَلَانِي جَرْئِي جَرْئِي" ... وهكذا .

وما لفت انتباھي من التراكيب التى قابلتني فى الأمثال الجاهلية ما ورد فى قولهم: "حَبَّ شَيْئاً إِلَى الإِنْسَانِ مَا مُنِعَّا" ، الذى استخدم فيه الفعل "حَبَّ" بدلا من "أَفْعَلَ التفضيل" (هكذا): "أَحَبَّ شَيْئاً إِلَى الإِنْسَانِ مَا مُنِعَّا" ، مع نصب "شيء" لا جزء كما يلاحظ القارئ . وهناك أيضا

تركيب آخر للدلالة على التفضيل وردت منه أمثلة في الشواهد التالية من أمثال العرب القدماء، وهي: "قَسْيٌ وَلَا كَمَالِكٌ"، "مَرْعَى وَلَا كَالْسُعْدَانُ"، "مَاءٌ وَلَا كَصَّادَاءُ"، فالاسم الذي بعد "ولا" مفضل على ما قبلها. وقرب منه قولهم: "الْمَنِيَّةُ وَلَا الْدَّيَّةُ"، "النَّارُ وَلَا الْعَارُ"، وإن كان التفضيل في هذا التركيب الأخير للمذكور أولاً، وهو "المنية" و"النار" على الترتيب. أما في المثلين التاليين اللذين يجريان في تركبيهما على ذات المنوال فإن المعنى مختلف عما نحن إزاءه، ففي قولهم: "مَرْعَى وَلَا أَكْوَلَةُ"، و"عَشْبٌ وَلَا بَعِيرٌ" لا مجال للتفضيل، بل المقصود التحسر على توفر المراعي والعشب بغزاره، ولكن دون قاعدة، إذ لا وجود للماشية التي يمكن أن تأكله. وبالنسبة لكلمة "رُؤيد" فلا أظننا الآن نعرفها إلا في قولينا: "رُؤيداً يا فلان". أو "رُؤيدك يا فلان"، بيد أن العرب القدماء كانوا يتصرفون فيها أوسع من ذلك كما في المثلين التاليين: "رُؤيدَ الشَّعَرَ يَغْبَ" (انتظر قليلاً حتى ينشر الشعر بما فيه من مدح أو هجاء ويعمل عمله في العقول)، "رُؤيدَ الغَرْزُوَ يَنْمِرُّ". ولا حظّ كيف أن الاسم بعد "رُؤيد" يكون منصوباً. وللنحاة في هذا التركيب كلام يعللون به هذا الإعراب، وأرى أنها لا ينبغي أن يجري مع تقديرات النحاة التي لا تسير على منطق اللغة الواضح المستقيم، بل نكتفى بالقول هنا إن الاسم الواقع بعد "رُؤيد" ("رُؤيد" دون تنوين) يكون منصوباً، والسلام، وذلك دون أن نعني أنفسنا بالبحث عن السبب في هذا التصيّب.

خارج تلك الدائرة. ثم إنه قد يلى هذه الكلمة فعل كما فى المثل التالى: "رُؤيدَ يَعْلُونَ الْجَدَدَ"، أى ارفق حتى يمكّنى الأمر. وبالمثل لا أحب أن نرهق أنفسنا مع الصرفين فى توجيه صيغة الكلمة، وهل هى تصغير "رُود" طبقاً لما يقول به بعض أو "إرواد" بناء على ما يقوله آخرون؟

وهناك صيغة صرفية أخرى لم تعد تستخدمن أيضا على نطاق واسع، وهى الأسماء التى على وزن "فُعلٌ" ، إذ لا يفدي على ذهنى منها الآن إلا "العُقبى" (أى "العاقبة") و"الشُورى" و"النُعمى" (أى "النعمنة")، و"البُقى": أى الإبقاء، و"الدُنيا". وفي القرآن، إلى جانب ذلك، "الرُجُعى" (يعنى "الرجوع") و"السُوَى" (أى "السوء")، و"البُسرى" ، و"العُسرى".

ومن أسماء النساء عند العرب "سُعدى" و"سُلمى" ، وفي الأمثال التى بين أيدينا نجد أيضا "رُغبى" و"رُهبى": "رُهباك خير من رُغباك" ، أى رهبة خير من رغبة.

والمعنى أنك لا تأتى ما تأتى من أعمال الخير عن رغبة منك وحب بل عن رهبة وخوف. أما الاسم "خَقِيدَ": الظليم (أى ذكر النعام) في المثل التالى: "أشْرَهُ مِنْ خَقِيدَ" فقد جاء على صيغة لا أظنهى قابلت اسم آخر على وزنها من قبل، إذ هو وزن نادر لا أستطيع أن أذكر اسماء من الأسماء المصبوبة فيه، وإن كان هناك "سَمِيدَ": الشريف الشجاع" مثلا، إلا أنه صفة لا اسم.

ومن التراكيب التي وجدتها في أمثل الجاهلين أيضا قولهم: "عَدُوكْ إِذْ أَنْتَ رَبِيعْ" لتحميس الشخص ليبدل أقصى ما عنده كما كان يفعل أيام الشباب والحيوية. و"العَدُو" هو الجري السريع، و"الرَّبِيع" هو الجمل في شبابه. والشاهد في الكلام هو نصب "عَدُوكْ". على الإغراء، والإغراء باب من أبواب النحو معروف، وإن لم يكن هذا التركيب مما ينشر في الأسلوب العصري على نطاق واسع. أما المثل القائل: "عَسَى الْغُوَيْرُ أَبُؤُسًا" فهو يخالف القاعدة العامة التي تقول إن خبر "كاد" وأخواتها لا يكون إلا جملة فعلية فعلها مضارع: مع "أَنْ" أو بدونها حسب حالة كل فعل منها، إذ الخبر هنا مفرد لا جملة، فكأنهم قد أَجْرَوْا "عَسَى" في هذا المثل مجرى "كاد" وأخواتها. وبالمقابل فهذا المثل هو أحد الشواهد في كثير من كتب النحو على ذلك الاستعمال. وهناك استعمال آخر لـ"عَسَى" يسوّها بـ"لعل"، فينصب اسمها ويرفع خبرها، الذي يمكن في هذه الحالة أن يكون مفرداً أو شبيه جملة، ومنه ما كنا نسمعه من السعوديين حين يعني بعضهم بعضاً بالعيد فيقولون: "عَسَاكُمْ مِنْ عُوَادَهْ". وبالمثل نجد أهل اللغة المهيمنين بصحة الأسلوب يخطئون بمحىء "لا" بين "قد" والمضارع قائلين إنه ينبغي في هذه الحالة الاستعاضة بـ"ربما" عن "قد" فلا يقال مثلاً: "قد لا أَعْبُدْ"، بل لا بد من تغييرها إلى "ربما لا أَعْبُدْ". وقد غَيَّرَ على زمن كثيرون خطأ من يفعل ذلك، ثم جاء وقت ظنت أن هذا تحكم لا معنى له، كما

وَجَدْتُ فِي كَابِحٍ مُحَمَّدَ الْعَدَنَانِي: "معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة" بعض الشواهد على صحة هذا التركيب منها بيت شعر للأعشى هذا نصه: **وَقَدْ قَالَتْ قَيْلَةً إِذْ رَأَتْنِي وَقَدْ لَا تَقْدِمُ الْحَسَنَاءُ ذَامًا وَهُوَ مَثَلٌ يُضْرِبُ لِلشَّيْءِ الرَّاجِعِ الَّذِي لَا يَخْلُو أَنْ يَجِدَ مِنْ يَعْيِيهِ رَغْمًا هَذَا، وَإِنْ كَانُوا يَحْذِفُونَ مِنْهُ "قَدْ". وَهُنَاكَ بَيْتٌ أَخْرَى لِلنَّمَرِ بْنِ تَوْلَبِ الشَّاعِرِ الْمُخَضْرَمِ، أَوْرَدَهُ الْعَدَنَانِي أَيْضًا، وَنَصُّهُ: **وَأَحَبِّتْ حَبِيبِكَ حَبَّاً رُؤِيدًا فَقَدْ لَا يَعْوِلُكَ أَنْ تَصْرِمَنَا إِلَى جَانِبِ عَبَارِتَيْنِ لَابْنِ جَنْيٍ وَابْنِ مَالِكٍ صَاحِبِ الْأَلْفِيَّةِ، وَهُما مِنْ كَبَارِ النَّحَّاءِ وَأَهْلِ الْلُّغَةِ.****

ثُمَّ بَدَأْتِي، وَأَنَا أَكْتُبُ هَذِهِ الْدِرَاسَةَ، أَنْ أَرَاجِعُ الشِّعْرَ الْقَدِيمَ فِي "المُوسَوعَةِ الشَّعْرِيَّةِ" الضَّوئِيَّةِ مُجْهَدًا مَا اسْتَطَعْتُ مِنْ مُقاوْمَةِ الْمَلَلِ وَالضَّيقِ أَثْنَاءَ بَحْثِي عَنِ الشَّواهدِ الْمَرَادِةِ، لَكِنِّي، فِي حَدُودِ مَا تَبَهَّتْ وَغَالَبَتْ مُلْلَةَ الْبَحْثِ فِي أَكْوَامِ ذَلِكَ الشِّعْرِ، لَمْ أَتَبِهِ إِلَى وَجْهِ شَوَاهِدٍ أُخْرَى تَسْعَغُ مَوْقُفِي الْجَدِيدِ، وَهَنَانِذَا أَعُودُ فَارِيًّا أَنْ مِنَ الْأَفْضَلِ لِي أَنْ أَشْخَصِي مَا لَا لِزَمْنِي بِغَيْرِي تَجْبَبَ اسْتِعْمَالُ ذَلِكَ التَّرْكِيبِ فِي كَابَاتِي بِمَا فِيهَا الرِّسَائِلُ الْشَّخْصِيَّةِ الَّتِي لَمْ أَكُنْ أَتَحْرِزَ فِيهَا تَحْرِزًا فِي الْكَابَاتِ الرَّسِمِيَّةِ وَالْأَدِيَّةِ، وَالْعَوْدُ أَحَمَّ كَمَا يَقُولُونَ. بَيْدَ أَنِّي قَدْ عَثَرْتُ رَغْمَ ذَلِكَ بِمِثْلِ التَّالِي أَثْنَاءَ قِرَاءَتِي لِكَابِحٍ أَبْنِي هَلَالِ الْعَسْكَرِيِّ الْحَالِيِّ: "جَمِيرَةُ الْأَمْثَالِ"، وَقَائِلَهُ رَجُلٌ جَاهِلِيٌّ هُوَ سَعْدُ بْنُ زَيْدٍ مَنَاهَةُ التَّمِيمِيِّ، قَالَهُ بَعْدَ أَنْ شَاخَ وَأَضْحَى لَا

يستطيع أن يسوق بنفسه جمله الذي يركبه، وهو بالمناسبة من الشواهد التي ساقها الأستاذ العدنا尼، بارك الله فيه، وهذا نص المثل: "قد لا يقاد بي الجمل". أى أنه لم أكن قبلًا أحتاج إلى من يقود بي الجمل كما هو الحال الآن بعد أن شبّت ولم أعد أستطيع القيام بأمر نفسي. فالمثل إذن تعبر عمما يجده الرجل العجوز من حسرة بعد أن ضعفت قواه وولى عنه الشباب.

وهناك مثل لفت نظرى كونه جملة اسمية خالية من أى فعل بما يعني خلوها من التحديد الزمنى، وكان المفروض بناءً على هذا أن تدل على المعنى المقصود مطلقا دون الارتباط بزمن معين، أو على الأقل مع قصره على الزمن الحاضر، لكنها مع هذا قد صيغت لتدل على الماضي، وهو ما لا يقبله النحويون. فهذا الشاهد إذن يسير بعكس ما يقولون، وهذا هو نصه: "لَكُنْ شَعْقَيْنِ أَنْتِ جَدُودٌ". و"الجدُود" هى القليلة اللين، والمثل فى امرأة كانت فقيرة محرومة حتى من اللين، ثم أصابت غنى وكثرت عندها الماشية ودرَّت ألبانها، فأخذت تتفاخر بذلك، مما دفع مبغضيها لذكرها أيام فقرها حين كانت تنزل الموضع المسئى: "شَعْقَيْنِ"، كى تكف عن هذا الفخر الكريه. كذلك هناك عدد من الأمثلة تتضمن "أفعل تقضيل" مباشرا مشتقا من فعل مبني للمجهول، وهو ما يرفضه كثير من الصرفين حسب القواعد التى وضعوها، وإن كان لكل قاعدة شواذ كما نعرف، ومنها

الأمثال التالية: "أشغل من ذات التحيين"، "أقود من مهر"، "أمنع من عقاب الجو". ونختم هذه الملاحظات اللغوية بالإشارة إلى ما ورد في المثل الثاني: "وخدان الرقين يغطي على أفن الأفين"، أي أن غنى الشخص وأمتلاكه للرقين، وهي الفضة، يستر على كل عيوبه وحماقاته. فـ"الرقين" جمع "رقة"، وهو ما يسمى في الصرف بالملحق يجمع المذكر السالم، لأنَّ كلمة "الرقة" لا تتوفر فيها الشروط التي لا بد منها في ذلك النوع من الجمع، مثلها في هذا مثل "برة: بُرُون- بُرِين"، "كركة: كُرُون- كُرِين"، "عززة: عِزُون- عِزِين"، "عضة: عِضُون- عِضِين"، "مِئة: مِئُون- مِئِين"، "رِئة: رِئُون- رِئِين"، "سَنة: سِئُون- سِئِين" ... إلخ.

إذا انتقلنا إلى الجانب الموسيقي لاحظنا أن بعض الأمثال تعتمد السجع والجناس والطباق والموازنة (كلها أو بعضها) بغية توفير الإيقاع الموسيقي والذهني لضمان المتعة والحفظ والسيطرة. بل إن بعض هذه الأمثال عبارة عن بيت من الشعر أو شطر من شطريه.وها هي ذي الشواهد على ما نقول: "اختلط الحابل بالنابل"، "إذا أردت الحاجزة فقبل المناجرة، "إذا عَرَّ أخوك فهنّ"، "إذا لم تغلب فاخلب"، "إذا جاء الحين، حار العين"، "إِرْقَ على ظللك، وقدر بذر عك"، "أرِينها نِمرة أركها مَطَرَة"، "أعْذَرَ من آندر"، "إن القنوع الغَسْنِي لا كثرة المال"، "إنسى لن أضيره. إنما أطوى مصيرة"، "استغنت التقة عن الزفة"، "بَعْتَ جاري، ولم

أَيْغُ دارى"، " جاء بالطِّمِّ والرَّمِّ" ، " جَدَكَ لَا كَدَكَ" ، " حال الجَرِيْضِ دون الفَرِيْضِ" ، " الخَلَاء بَلَاء" ، " دَهْدَرَيْن سَعْدُ الْقَيْنِ" ، " رَبَّ قَوْل أَشَدُ مِنْ صَوْل" ، " ضَرْبُ أَخْمَاسِ لِأَسْدَاسِ" ، " الطَّرِيفُ خَفِيفٌ" ، وَالْتَّلِيدُ بِلِيدٍ" ، " قُرْبُ الْوَسَادِ" ، وَطُولُ السُّوَادِ" ، " كُلُّ الْحِذَاء يَحْتَذِي الْحَافَى الْوَقْعِ" ، " لَوْلَا اللَّثَامَ لَهَّلَكَ الْأَنَامُ" ، " لَيْسَ مِنَ الْعَدْلِ سَرْعَةُ الْعَدْلِ" ، " مَنْ لِي بِالسَّانِحِ بَعْدَ الْبَارِحِ؟" ، " المَنَابِيَا عَلَى الْبَلَابِيَا" ، " مِنَ الْعَنَاءِ رِيَاضَةُ الْهَرِيمِ" ، " هَذَا أَوَانُ الْحَرْبِ" ، فَاشْتَدَى زِيَمُ" ، " الْيَوْمُ خَمْرٌ" ، وَغَدَّا أَمْرُ".

وَمِنَ الْجِوانِبِ الاجْتِمَاعِيَّةِ التِّي أَرِيدُ أَنْ أَتَناوِلَهَا فِي هَذِهِ الْدِرَاسَةِ الْأَسْمَاءُ التِّي كَانَ الْعَرَبُ الْقَدِمَاءُ يَسْمَؤُنُ بِهَا، وَقَدْ وَقَتَتُ إِلَى الْعُثُورِ عَلَى الْأَسْمَاءِ التَّالِيَّةِ لِلرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ: فَأَمَّا الرِّجَالُ، وَلِيُسْمَعَ لِجِنْسِ الْلَّطِيفِ أَنْ أَبْدِأُ بِهِمْ أَوْلَأً جَرِيًّا عَلَى الْعَرْفِ الاجْتِمَاعِيِّ وَلَيْسَ رُغْبَةً فِي تَنْقُصِهِنَّ، فَهَا هِيَ ذَى أَسْمَاؤُهُمُ التِّي تَبَهَّتُ إِلَيْهَا أَنْثَاءٌ تَصْفُحُ لِلْأَمْثَالِ الْجَاهِلِيَّةِ (الْجَاهِلِيَّةُ فَعْلًا أَوْ ظَنَّا) الْمُوْجَوَّدةُ فِي كِتَابِ الْعَسْكَرِيِّ: " سَعْدٌ" ، " سُعِيدٌ" ، " عَيْبِيْدَةُ" ، " دَرَمٌ" ، " سَمْلَقَةُ" ، " حُنْيِيفٌ" ، " مَالِكٌ" ، " زَيْدٌ مَنَاهُ" ، " عُمَرُو" ، " سَالِمٌ" ، " فَلْحَسْنٌ" ، " مَادِرٌ" ، " سَحْبَانٌ" ، " قُسٌّ" ، " لَقْمَانٌ" ، " الْمُرْقِشُ" ، " جُوْيِنٌ" ، " عَمَسٌ" ، " حَاتِمٌ" ، " هَرِيمٌ" ، " كَعْبٌ" ، " هَبَيْقَةٌ" ، " حُجَيْنَةٌ" ، " رَبِيعَةٌ" ، " عَدِيٌّ" ، " أَبُو غَبْشَانٍ" ، " جَنَابٌ" ، " عِجْلٌ" ، " الْأَحْنَفُ" ، " سِنَانٌ" ، " حُنَيْنٌ" ، " عَرْقَوبٌ" ، " دُعَيْمِصٌ" ، " أَسْعَدٌ" ، " فُطَرَةٌ" ، " إِيَّاسٌ" ، " أَخْزَمٌ" ،

"حداجة"، "قرئع"، "شِظاظة"، "سَلَاعَة"، "عائشة"، "عَثْمَة"، "مرقمة"، "جُعِينَة"، "حُمِيقَة"، "عَوْفَة"، "كُلِيبَة"، "مَرْوَانَة"، "الشَّنْفَرَى"، "السَّلْيُكَة"، "بَاقلَة"، "مُزْيِقِيَاء"، "عَيْيَيَة"، "قَيْسَة"، "عاصِمَة"، "الْحَارِثَة"، "حَاجِبَة"، "زُرَارَة"، "سَدِيْمَة"، "بِسْطَامَة"، "كُلُومَة"، "عَامِرَة"، "الْبَرَاضَة"، "ظَامَة"، "الْمُذْلُقَة"، "الْطَّفِيلَة"، "نَاسِرَة"، "قَصِيرَة"، "حَمَلَة"، "أَسْلَمَة"، "ضَبَارَة"، "جَدَرَة"، "ابن تَوْضُعَة"، "الْذَّئْبَة"، "عَصَامَة"، "خَرَافَة"، "عَبَودَة"، "جَنَابَة"، "خُرَيْمَة"، "حَيَانَة"، "حَوْثَة"، "خَوَاتَة"، "الْخُرْشُبَة"، "شَنَّة"، "السَّمَوَالَة"، "جَذِيَّة"، "النَّطِيفَة"، "لَكِيزَة"، "أَسْلَمَة"، "قَوْضَعَة"، "ضَبَارَة" . . . إلخ.

هذه أسماء جنس الرجال، وكما يرى القارئ فمعظمها خَشِينٌ وَغَرْ، والآن إلى أسماء القوارير، ولكن يوسفى من كل قلبى أن أقول إنها، بوجه عام، لا تقل خشونةً ووعورةً، وليس هذا بالشيء المستغرب، فقد كان الجاهليون يبدوا خشنين، وكان معظم ما حولهم وَغَرْا جافينا، فمن أين يمكنهم أن يستمدوا الأسماء الجميلة، والإنسان فى الغالب هو ابن بيته وظروفه؟ ما علينا، فلتتابع أسماء الجنس اللطيف فى الجاهلية، ولنذكر على ذكر من أن صاحبات هذه الأسماء الجافحة هن اللاتى شغلن أقدمة الشعراء وأُسْهَرْنَهُم الليلى يقلبون على الشوك والجمر، أو لا يجدون ما يعلونه سوى عد النجوم بسبب مجافاة النوم لهم، وأشعلن خيالهم وأطلقين قرائحهم وألسنتهم بالقصائد الخالدة التى أبَقْت على ذكرهن طوال هذه

القرون وسُبِّقَتْ عليها إلى أبد الآيدين ما دامت هناك هذه اللغة العبرية، لغة الضاد. وهذا بعض ما وجدته من أسماء لأنساتنا وسيداتنا (تيحان رؤوسنا سواه رضينا أو كرهنا): "رَقَاشٌ"، "حَذَامٌ"، "سَجَاجٍ"، "زَرْقَاءٌ"، "حَوْلَمٌ"، "مَارْخَةٌ"، "أُمْ خَارِجَةٌ"، "مَنْشِمٌ"، "لَمِيسٌ"، "مَارِيَةٌ"، "حَلِيمَةٌ"، "الْبَيَاءُ"، "أُمْ قَرْفَةٌ"، "ظَلْمَةٌ"، "صُحْرٌ"، "عَانِكَةٌ"، "شَوْلَةٌ"، "خَبِيثَةٌ" ... وهلم جراً. ومن الواضح أن الأغلبية الساحقة من هذه الأسماء، الرجالى منها والنسائى، قد اختفت من حياتنا تبعاً لتغير الأذواق والمفاهيم والمعتقدات وظروف الحياة والبيئة والتطور التاريخى، وبخاصة أنها أسماء جاهلية لا تربطنا بها وشبيحة كائنة تربطنا بالأسماء الإسلامية التى نعزز بها أيام اعزاز ونحرض على تسمية أبنائنا وبناتنا بها.

هذا، وما أكثر الأمثال التى تدور حول هذا الشخص أو ذاك لجلة فيه أو لحادية وقت له اشتهر بها بين العرب حتى ضرب به المثل، ومن ذلك الأمثال التالية، وكثير منها يقوم على المقارنة وأفضل التفضيل: "آبلُ من حَنَيفِ الْحَاطِمِ"، أى أكثر إيلاءً، "أبْخَلَ مِنْ مَادِرٍ"، "أبْصَرَ مِنْ زَرْقَاءٍ"، "أبْلَغَ مِنْ سَحْبَانَ"، "أَتَيْسُ مِنْ ثَيُوسِ تُوَيْتَ"، "أَحْزَمَ مِنْ سِنَانَ"، "أَحْكَمَ مِنْ لَقَمَانَ"، "أَحْمَقَ مِنْ أَبِى غَبَشَانَ، أَوْ مِنْ شَرِبَثَ"، "أَسْرَقَ مِنْ شِظَاظَةَ"، "أَسْعَدَ أَمْ سَعِيدَ؟"، "أَصْبَطَ مِنْ عَائِشَةَ بْنَ عَثْمَانَ"، "أَطْعَمَ مِنْ فَلَحَسَّ"، "أَعْظَمَ فِي نَفْسِهِ مِنْ مُرِيقَيَاءَ"، "أَفْتَكَ مِنْ الْحَارِثَ بْنَ ظَالِمَ"، "أَقْوَدَ مِنْ

ظلمة"، "أَنْكَحُ مِنْ حَوَّرَةً" (وهذا المثل يقال للشخص المزوج)، "أَنْعَمْ من حَيَانَ" ، "أَبِنَمَا أَوْجَهَ الْقَ سَعْدًا" ، "بَيْدِي لَا بَيْدِ عَمْرُو" ، "تَجْشَأْ لَقَمانَ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ" ، "دَقَوا بِنَهْمَ عَطْرَ مَنْشِيمْ" (أى ثارت بينهم حرب شئون مملكة). ومنشيم امرأة كانت تبيع العطر، وهو عطر مشؤوم)، "دَمْ سَلَاغِ جَبَارٌ" ، أى هَذْرُ ، "دُهْدُرِينْ سَعْدَ التَّيْنَ" ، "رِدْ كَعْبُ ، إِنْكَ وَرَادْ" (يقال لمن كان على شفا الموت)، "شَبَّ عَمْرُو عَنِ الطَّوق" ، "شِنْشِيشَةً أَعْرَفَهَا مِنْ أَخْرَمْ" ، "صَحِيفَةُ الْمَلَقِسْ" (وهي كلمة تقال عند الشاقم بشيء تخشى من ورائه الملقة)، "صَفَقَةً لَمْ يَشْهُدْهَا حَاطِبْ" ، "عَادَتْ لِعَرَثَهَا لَمِيسْ" (أى رجعت لعادتها القديمة)، "فِي بَيْتِهِ يُؤْتَى الْحَكْمُ" (أى أن لفلان من الكرامة ما يوجب على الناس أن يذهبوا إليه ولا يذهب هو)، "الْقَوْلُ مَا قَالَتْ حَذَّامٌ" ، "لَا حَرَّ بِوَادِي عَوْفٍ" (يقال للسيد المستبد الذي لا ينهض له أحد)، "هَمَا كَدْمَانِي جَذِيْعَةً" ، "وَلَوْ بَقْرَطَنِي مَارِيَةً" (يقال للشيء النفيس لا يمكن التفريط فيه ولو دفع فيه أعلى ثمن)، "يَا وَيلَتَا ! رَأَتِي رِبِيعَةً" ، "مَا يَوْمَ حَلِيمَةَ بِسِيرَ" (واليوم هنا يعني "المعركة" ، وأيام العرب" هي معاركم وحرروهم المشهورة، والمقصود بـ"يوم حليمة" المعركة التي ضَمَّنَتْ فيها الأميرة حليمة بنت الحارث بن جبلة رجال جيش أبيها بالعطر غداة انطلاقهم للحرب، وكان يوما مشهورا ضرب به المثل).

على أن أسماء الأعلام لا تقتصر على الأشخاص، بل تشمل الحيوان والمكان أيضاً: ومن أسماء الموضع التي وردت في أمثال الجاهلين "أبان" (جبل)، "شجعات"، "شرج"، "حضرن" (اسم جبل)، "أجلن"، "أضاح"، "مكة"، "عرار" (اسم بقرة)، "كحل" (اسم بقرة أخرى)، "براقش" (اسم كلبة)، "المارد" (اسم حصن)، "الأبلق" (اسم حصن آخر)، "الرَّامَان" (وهو الاسم الذي أطلقه طه حسين على دارته في الجيزة). وقد أخذه من المثل القائل: "تسألني (أى ناقتي) براماين سلجمماً، أى تطلب شيئاً ليس هذا موضعه)، "شُبِّيث"، "الأَحْصُن"، "هَلَان" (جبل)، "خُمِيرَة" (اسم فرس)، "ابنا شَمَام" (اسم هَضْبَتَيْن)، "صَدَاء" (اسم ماء)، "بَرِّيَة" "خُسَاف"، "هَرْشَى"، "بَلْدَح"، "شَعْفَان"، "بُدَد" (اسم نسر طويل العمر)، "تَرْج" (مكان تكثر فيه الأسود)، "خَفَان" (مكان آخر تكثر فيه الأسود)، "بَالَّة".

وهذا يقودنا إلى محاولة التعرف إلى جانب آخر من جوانب الحياة الطبيعية في الجزيرة العربية في ذلك العصر، لا وهو أنواع الحيوان والطيور التي كانت موجودة هناك وتعرضت لها أمثال الجاهلين. وفي كثير من هذه الأمثل نرى نظرة العرب إلى الحيوان أو الطير المذكور وكيف كانوا يرون طباعه وعاداته بغض النظر عن مدى صحة هذا الرأي أو لا. والملحوظ أنهم قد يصفون الحيوان أو الطير بصفات مختلفة أو متناقضة، كل صفة في

مَثْلَ مُخْتَلِفٍ، كَمَا أَنْهُمْ قَدْ يَصْفُونَ عَدَةً حَيَّانَاتٍ أَوْ طَيُورٍ بِصَفَةٍ وَاحِدةٍ. وَلَسْوَفُ أَذْكُرُ نَصَّ كُلَّ وَرْدٍ فِيهِ ذِكْرٌ لِحَيْوانٍ أَوْ طَيْرٍ: فَمِنْهَا "اسْتَنْوَقَ الْجَمَلُ"، "أَتَبْعَيَ الْفَرَسَ لِجَامِهَا"، "إِذَا نَامَ ظَالِمُ الْكَلَابُ"، "أَرْغَوْا لَهَا حَوَارِهَا تَقْرَرَ" (الْحُوَارُ: وَلَدُ النَّاقَةِ)، "أَصِيدَتِ الْقَنْدَذُ أَمْ لَقْطَةً؟"، "أَنْكَحْنَا الْفَرَأَ، فَسَنْرِي" (الْفَرَأُ: الْحَمَارُ الْوَحْشِيُّ)، "أَخْوَكَ أَمْ الْذَّئْبُ؟"، "أَخْدَهُ اللَّهُ أَخْذَ سَبْعَةً" (السَّبْعَةُ: الْلَّبْوَةُ)، "أَعْطَ أَخَاكَ مِنْ عَقْنَقَلِ الضَّبِّ"، "أَطْرَقَ كَرَّا، إِنَّ النَّعَامَ فِي الْقَرَى" (الْكَرَّا: الْوَاحِدُ مِنْ طَيُورِ الْكِرْوَانِ). وَالْمَرَادُ أَنَّ أَهْوَانَ مِنْ أَقْصَدِكَ بِكَلَامِيِّ، بَلْ أَقْصَدُ قَوْمًا يَسْتَحْقُونَ الْكَلَامَ)، "الْبَغَاثُ بِأَرْضِنَا يَسْتَنْسِرُ" (الْبَغَاثُ: طَيْرٌ صَغِيرٌ ضَعِيفٌ)، "أَدْنَى حَمَارِيكِ ازْجَرِيٍّ"، "آمِنُ مِنْ حَمَامِ مَكَّةَ"، "أَلَّفُ مِنْ غَرَابِ عَقْدَةَ"، "أَكْلُ مِنْ سُوسٍ، أَوْ مِنْ فَأْرٍ، أَوْ مِنْ حَوْتٍ، أَوْ مِنْ الفَيْلِ"، "بَالْتَّ بَيْنَهُمُ الْثَّالِبُ" (ثَارَ بَيْنَهُمُ الشَّرُّ)، "خَرَثَ بَيْنَهُمُ الضَّبْعُ" (نَفْسُ الْمَعْنَى السَّابِقُ)، "أَبْعَدُ مِنْ بَيْنِضِ الْأَنْوَقِ" (الْأَنْوَقُ: ذَكْرُ الرَّحْمَةِ)، "أَبْصَرَ مِنْ عَقَابٍ، أَوْ مِنْ نَسْرٍ، أَوْ مِنْ فَرَسٍ"، "أَبْصَرَ بِاللَّيلِ مِنْ الْوَطَوَاطِ"، "أَبْرَزَ مِنْ الْهِرَةِ، أَوْ مِنْ الذَّئْبَةِ"، "أَبْكَرَ مِنْ الْغَرَابِ"، "أَنْجَلَ مِنْ كَلْبٍ"، "أَبْلَدَ مِنْ السَّلْحَفَةِ، أَوْ مِنْ الثَّورِ"، "أَبْيَضَ مِنْ دَجَاجَةٍ"، "أَنْجَزَ مِنْ صَقْرٍ، أَوْ مِنْ فَهْدٍ"، "أَبْوَلَ مِنْ كَلْبٍ"، "تَرَكَهُ عَلَى مِثْلِ مِشْفَرِ الْأَسْدِ" (أَيْ عَرْضَةً لِلْهَلَاكِ)، "تَقْلِدَهَا طَوْقَ الْحَمَامَةِ" (لِزَمْهِ عَارِهَا إِلَى الْأَبْدِ)، "أَتَبْعَيَ مِنْ تَوْلَبَ" (وَلَدُ الْحَمَارِ، لِأَنَّهُ يَتَبعُ أَمَّهُ لَا يَفْارِقُهَا أَبَدًا)، "أَتَعْبَ مِنْ رَاكِبِ

"فصيل" (ولد الناقة، لأنه لم تم رياضته بعد)، "أتحم من فصيل" (لأنه يشرب من اللبن فوق طاقته)، "أتيس من تيوس ثويت"، "الثور يضرب لما عافت البقر" (يقال في من يُؤخذ بذنب غيره)، "أثبت من قراد"، "أثقف من سئور" (وهو القط، لأنه يعرف كيف يصطاد الفأر فلا يخطئ أبداً)، "الجحش لما بذك الأعيار" (الأرض بما هو متاح لك واستكثف به عملاً تستطيعه. والعَيْر: الحمار الكبير)، "أجبن من صفرد، أو من كروان (طايران)، أو من ثملة (الشلوب)، أو من الهجرس (القرد)، أو من الرباح (ولد القرد)"، "أجرا من ذباب، أو من خاصي الأسد"، "أجول من قطُرُب" (دابة لا تكتف عن التجوال ليلاً أو نهاراً)، "أجوع من لعنة (وهي الكلبة)، أو من الذئب، أو من قراد"، "أجشع من كلب"، "أجهل من فراشة، أو من حمار، أو من عقرب، أو من نملة، أو من راعي ضأن"، "حمار استائن" (أى تحول إلى أتان، وهي أشني الحمار)، "حتى يجتمع مغزى الفزر" (الفزر: رجل تفرقت مغازاه في كل مكان، وهو مثل يضرب للاستحالة)، "حيل بين العَيْر والتَّزوَان" (مثل لمن يحال بينه وبين مراده. والتَّزوَان: الوثوب)، "حمير الحاجات" (للشخص الذليل الممتهن في الأشغال الشاقة)، "أحمق من الضبع، أو من الرَّخل (أتشي ولد الضأن)، أو من نعجة على حوض، أو من أم الهنبر (والهنبر: الجحش، وأمه هي الأتان)، أو من الجهيزه (أى الذئبة)، أو من حمامه، أو من نعامته، أو من رَخْمة، أو من

"عَقْعَقٌ"، "أَكِيسٌ من الرَّحْمَةِ"، "أَحْذَرُ مِنْ قِرْلَى (طائر يغوص في الماء فيستخرج السمك)"، أو من ذئب، أو من غراب، أو من عَقْعَقٌ، أو من ظَلِيلٍ (ذكر النعام)"، "أَحْزَمَ مِنْ الْقِرْلَى، أَوْ مِنْ الْحَرِيَاءِ"، "أَحْيَرَ مِنْ الضَّبِّ، أَوْ مِنْ الْوَرَلِ" (وهما حيوانان إذا خرجا من جحرهما لم يهدايا إليه ثانية)، "أَحْيَا مِنْ الضَّبِّ" (أى أطول حيًّا منه)، "أَحْوَلَ مِنْ الذَّئْبِ" (لبراعته في الحيلة)، "أَحْوَلَ مِنْ أَبْى راقِشَ" (لأنَّ ألوانه تتحول ولا تثبت على لون واحد)، "أَحْرَسَ مِنْ كَلْبٍ"، "أَحْرَصَ مِنْ ذَئْبٍ، أَوْ مِنْ كَلْبٍ، أَوْ مِنْ خَنْزِيرٍ"، "أَحْطَمَ مِنْ الْجَرَادِ"، "أَحْقَدَ مِنْ جَمْلَةِ" ، "أَبْحَنَ مِنْ شَارِفٍ" (وهي الناقة المسنة)، "أَخْكَى مِنْ قَرْدٍ"، "أَخْمَى مِنْ اسْتِنْتَرِ، أَوْ مِنْ أَنْفِ الأَسْدِ"، "خَلَمَ دَرَجَ الضَّبِّ" (دعه على عماه)، "الخَيْلُ أَعْرَفُ بِفَرْسَانِهِ"، "الخَيْلُ مَيَامِينِ"، "الخَرْوَفُ يَقْلِبُ عَلَى الصَّوْفِ" (مثلاً يُضَربُ للتقلب في النعمة)، "أَخْفَتَ مِنْ فَرَاشَةَ"، "أَخْفَتَ رَأْسَهُ مِنْ الذَّئْبِ، أَوْ مِنْ الطَّائِرِ" (إذا أقلَّ شَيْءاً يُوقظُهُما)، "أَخْفَتَ حِلْمًا مِنْ بَعِيرٍ، أَوْ مِنْ الْعَصْفُورِ" (أى أنهما قليلاً العقل)، "أَخْرَقَ مِنْ الْحَمَامَةِ" (لأنَّها لا تحسن بناء عشها)، "أَخْلَفَ مِنْ بَولِ الْجَمَلِ"، "أَخْلَفَ مِنْ ثَيْلِ الْحَمَلِ" (الثَّيْلُ: كيس عضو الحمل، لأنه يتجه إلى غير جهة البول)، "أَخْلَفَ مِنْ الصَّفَرِ" (أنتن رائحةً من فم الصقر)، "أَخْبَثَ مِنْ ذَئْبِ الْفَصَنِيِّ"، "أَخْوَنَ، أَوْ أَخْتَلَ، أَوْ أَخْبَثَ مِنْ الذَّئْبِ"، "أَخْبَثَ مِنْ ضَبَّ، أَوْ مِنْ ثَعَالَةَ" (وتعالة: الثعلب)، "أَخْيَلَ مِنْ دِيكَ، أَوْ مِنْ

غَرَابٌ، "أَخْطَأَ مِنْ ذِبَابٍ، أَوْ مِنْ فِراشَةً"، "أَخْطُفَ مِنْ عَقَابٍ، أَوْ مِنْ قِرْلَىٰ"، "أَخْشَنَ مِنْ شَيْهَمٍ" (وهو ذكر القنفذ)، "أَذَبَ مِنْ قَرَادٍ، أَوْ مِنْ عَقْرَبٍ، أَوْ مِنْ ضَيْوَنَ (أَيِّ السَّنَنَ)، أَوْ مِنْ قَرَبَىٰ (دُوَيْبَةٌ تُشَبَّهُ بِالْخَنْفِسَاءِ)"، "الذَّئْبُ يُدْعَىٰ: أَيَا جَعْدَةً" (لَا تَغُرِّبَا بِمَا يُظْهِرُهُ فَلَانَ مِنَ الْكَرْمِ، فَإِنَّمَا هُوَ كَالذَّئْبِ الْغَدَارِ)، "الذَّوْدُ إِلَى الذَّوْدِ إِبْلٍ" (القليل إِلَى القليل يُصْبِحُ مَعَ الْأَيَّامِ كَثِيرًا). وَالذَّوْدُ ثَلَاثَ نُوقٍ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ قَلِيلًا)، "الذَّئْبُ يَأْدُرُ لِلْفَزَالَ" (يَخْدُعُهُ)، "ذَلٌّ مِنْ بَالِتِ عَلَيْهِ التَّعَالِبُ" ، "أَذَلَّ مِنْ عَيْرٍ، أَوْ مِنْ حَمَارٍ مَقِيدٍ، أَوْ مِنْ بَعِيرَ السَّانِيَةِ" (أَيِّ السَّاقِيَةِ)، "أَرْوَى مِنْ نَعَامَةَ (لأنَّهَا قَلِيلَةُ الْعَطْشِ)، أَوْ مِنْ الضَّبَّ (لأنَّهُ كَمَا يَقُولُونَ، لَا يَشْرُبُ أَبْدًا)، أَوْ مِنْ حَيَّةٍ، أَوْ مِنْ الْحَوْتِ، "أَرْسَحَ مِنْ ضَفْدَعٍ" (وَالرَّسَحُ: خَفْفَةُ الْعَجْزِ)، "أَزَّنِي مِنْ هِجْرِسٍ، أَوْ مِنْ هِرَّةٍ" ، "أَزَّهِي مِنْ غَرَابٍ، أَوْ مِنْ وَعْلٍ (وَهُوَ التِّيسُ الْجَبَلِيُّ)" ، "سَقَطَ الْعَشَاءُ بِهِ عَلَى سِرْحَانٍ" (السِّرْحَانُ: الذَّئْبُ. أَيْ أَنَّهُ بَدْلًا مِنْ أَنْ يَنْالَ مَا كَانَ يَغْيِيَهُ قَدْ أَصَابَهُ مَكْرُوهٌ)، "سُوَاسِيَّةُ كَأَسْنَانِ الْحَمَارِ" (فِي الشَّرِّ)، "سَمَّنْ كَلْبَكَ يَأْكُلُكَ" ، "أَسْمَعَ مِنْ سِمْعٍ (ابنُ الذَّئْبِ مِنَ الْضَّبِيعِ)، أَوْ مِنْ قَرَادٍ (لأنَّهُ، فِيمَا يَقُولُونَ، يَسْمَعُ صَوْتَ أَخْفَافِ الإِبْلِ مِنْ مَسِيرَةِ يَوْمٍ)، أَوْ مِنْ فَرْسٍ (إِذَا كَانُوا يَعْقِدُونَ أَنَّهُ يَسْمَعُ صَوْتَ الشَّعْرَةِ الَّتِي تَسْقَطُ عَنْ بَدْنِهِ)" ، "أَسْلَحَ مِنْ حُبَّارَىٰ، أَوْ مِنْ دَجَاجَةٍ" ، "أَسْبَحَ مِنْ نُونَ (أَيِّ الْحَوْتِ)، "أَسْهَرَ مِنْ جُدُجُودٍ" (صَرَارُ الْحَقْلِ)، "أَشَمَّ مِنْ النَّعَامَةِ، أَوْ مِنْ

ذئب، أو من هِقل (ذكر النعام)، "أشره من الأسد"، "أشرد من حَقِيدَد" (وهو ذكر النعام)، "أشكَر من كلب"، "أشدَّ من الفيل"، "أشرب من الْهِيم" (الإبل العطاش)، "أصُولَ من جمل" (يُضرب به المثل في شدة العض)، "أصبر من الصبَّ، أو من حمار"، "صلٌّ دُرِّيْصٌ نَقَّهَ" (يُضرب مثلاً لمن لا يهدى في كلامه أو في فعله. والدَّرْصُ: ولد الفأر، لأنَّه إذا خرج من جحروه لم يستطع الاهتداء إليه كرة أخرى)، "الضبع تأكل العظام ولا تعرف قدر اسْتِها"، "أصلٌّ من ضبٍّ، أو من وَرَلٍ"، "أطول ذمَاءً من الضبَّ، أو من الحية، أو من الأفعى، أو من الخنفَسَاء" (لأنَّها لا تموت سريعاً، بل تظل تتحرَّك فترَة طويلاً بعد قتلها)، "أطْيَرَ من عَقَابٍ، أو من حَبَارِي" (كانوا يظنون أنها تطير عبر بلاد متساواحة في زمن جدَّ قصير)، "أطْيَشَ من فراشة، أو من ذبابٍ"، "أطْفَسَ من العَفْر" (الخنزير)، "ما بَقَى مِنْهُ إِلَّا ظِمَاءُ حمار" (لم يبقَ فيه إِلَّا القليل)، "أَظْلَمَ مِنْ حَيَاةٍ، أو من وَرَلٍ" (لأنَّهما يدخلان جحر غيرهما ويستوليان عليه)، "أَعْزَّ مِنْ بَيْضِ الْأَنْوَفِ، أو من الغراب الأعْصَمِ"، "أَعْطَشَ مِنْ النَّفَاقَةِ (أَيِّ الصُّفْدَعِ)، لأنَّها إذا فارقت الماء ماتت)، أو من النمل (لأنَّه يكون في القفر فلا يرى الماء أبداً)، أو من حوتٍ، "أَعْيَثَ مِنْ جَعَارٍ" (وهي الضبع، فهي إذا وقعت في الفتن أفسدت أمَّا إِفْسَادِه)، "أَعْجَلَ مِنْ نَعْجَةٍ إِلَى حَوْضٍ"، "أَعْمَرَ مِنْ ضبَّ (إِذ كانوا يقولون إنه يعيش أطول كثيراً من مائة عام)، أو من قُرَادٍ (فقد كانوا

يعتقدون أنه يعيش إلى سبعمائة سنة)، أو من نسر (لأنهم كانوا يظنون أنه يعيش خمسماة عام)، "أغزر من طبى مفتر"، "أغوى من غوغاء الجراد"، "أغزل من عنكبوت"، "أبلغ من ضيؤن" (ليس أشد شهوة من السنور فيما يقولون)، "أفسد من الجراد، أو من السوس، أو من الأرض، أو من الصبع"، "أفسى من ظربان، أو من خنفباء، أو من نمس"، "قف الحمار على الردهة، ولا تقل له: ساً" (الردهة: نقرة الماء التي يشرب منها). ومعنى المثل: أره الطريق، ثم اتركه يتصرف ولا تحف عليه)، "أقود من مهر"، "كل الصيد في جوف الفرا"، "كل شاة تناظ برجلها"، "الكلب أحبت أهله إليه الظاعن"، "أكيس من قشة" (بحرو القرد، وهو مثل يضرب للولد الصغير العاقل)، "أكبب من نمل، أو من فار"، "لقد كتْ وما أخَشَ بالذئب" (للذل بعد العز)، "لو ترك القطا لنام" (هذا مثل قولنا: نوم الظالم عبادة. والقطا: الحمام البرى)، "لبستُ له جلد النمر" (أبديتُ له العداوة الشديدة)، "ألين من خرق" (ولد الأربن)، "أمسخ من لحم الحوار"، "أمنع من عقاب الجو"، "نابٌ، وقد يقطع الدويبة الناب" (الناب: الناقة المسنة، والدويبة: الفلاة الصحيحة. والمعنى أنه، على كبر سنها وضعفه، قد يصلح للسفر الطويل المرهق)، "أنفس من كلب"، "أنبىش من جيبل" (الصبع مشهورة بنبيش القبور)، "أنوم من فهد، أو من غزال، أو من ظربان"، "أنزى من طبى، أو من جراد" (لأنهما كثيرا القفز والحركة لا يستقران)، "وَجَدَ

تمرة الغراب" (حصل على أحسن شيء، لأن الغراب، فيما يقولون، ينتقي أجود تمرة ويأكلها)، "أوغن من كلب"، "هـما كركبـي البعير" (أى متساوـيـان في كل شيء)، "هـما كـهرسـي رـهـان" (دائـماً التـنـافـسـ فـيـ الـخـيـرـ)، "أـهـونـ مـنـ حـنـدـجـ (وـهـيـ القـمـلـةـ)، أوـ مـنـ ضـرـطـةـ عـنـزـةـ"، "لاـ تـقـتـنـ مـنـ كـلـبـ سـوـءـ جـرـوـاـ"، "لاـ نـاقـىـ فـيـهـاـ وـلـاـ جـمـلـيـ" (أمر لا يهمـنـيـ)، "لاـ يـنـتـصـحـ فـيـهـاـ عـنـزـانـ" (قضـيـةـ مـحـسـومـةـ لـاـ جـدـالـ فـيـهـاـ) .

ولا شك أن هذه الأمثال تدل على دقة ملاحظة العرب الجاهلين في عالم الحيوان والطير ما لا نعرف نحن الآن عشرة معاشره رغم التقدم العلمي والثقافي الذي تحقق للبشرية منذ ذلك الحين، وإن كان هناك بعض الأخطاء في تلك الملاحظات، وهو أمر طبيعي، إذ إن العرب ليسوا بذعاعاً بين البشر، فهم يجمعون في معلوماتهم بين الخطأ والصواب. ولكن يكفيهم شرفاً وفضلاً أنهم كانوا بهذه الدقة وذلك التبصر فيما لاحظوه على ما حولهم من حيوان وطير كثير العدد كما رأينا في الأمثال التي سلفت، وفيما عرفوه من الفروق بين الذكر عن الأنثى في الطياع والخصائص كالجمل والناقة طبقاً لما جاء في المثل القائل: "استئنف الجمل" ، أو "حِمارُ اسْتَأْنَفَ" (أى ظهرت على كل منها علامات الأنوثة، فاقترب الأول أن يكون ناقة، والثانى أن يكون أتانا)، وتخصيص اسم لكل عمر من أعمار الحيوان: فالحوار هو ولد الناقة، والفصيل هو الشاب من الإبل، على عكس الناب،

التي هي الناقة المسنة، ثم الشارف، التي تأتي بعد ذلك. وهناك الدُّرُص والجِسْل والستِّم والفرْعُل والمِجْرس والجِحْش والظَّبْس والمُهْر والخِرْق والجِرْو والخَلْم، وهي صغار الفَأْر والضَّب والذَّئب والضَّبْع والقرد والحمار والغزال والحمان والأرنبي الكلب والقراد على التوالي. كذلك هناك الجمل والناقة، والأُنوق والرَّخْمَة، والأَسْد واللَّبْؤَة، والحمان والفرس، والحمار والأتان، والهِقْل والنعامَة، والذَّئب والجَهِيزَة، وهو الذَّكْر والأَشْي من كل حيوان من هؤلاء... وهلم جرا.

وقد رأينا كيف استطاعوا التمييز بين طبائع كل حيوان وغيره حتى في مسائل التبول، ورائحة الفم، والعطش أو الرَّي، والاهتداء إلى المسكن أو الضلال عنه، والعزة أو الذلة مثلاً، وإن اشتراك بعض الحيوانات في هذه السمة أو تلك من تصرفاتها... مما مر بنا من الأمثل التي أوردناها آفنا. ويمكن أن يتحقق بذلك ما تحدثت عنه الأمثل من شجر ونبات: "ترى الفتى كالنخل، ولا يُنْبِيك ما الدَّخْل" (أى أن المهم هو مخبر الإنسان لا مظهره)، "أشبه شَرْجَ شَرْجًا لو أن أَسْيَمْرَا" (والأسيمير: تصغير "أسمر"، وهي جمع "سَمَرَة"، نوع من الشجر ينبع في بلاد العرب)، "إنك لا تجني من الشوك العنبر"، "عَصَبَتْهُ عَصَبَ السَّلْمَة" (والسلَّم: نوع آخر من شجر العرب، وهو شجر شائك يستعمل ورقه وقشره في الدِّياغ، ويسمى ورقه: "القرَاط")، "أَرْخَ يَدِيك واسْتَرْخَ، إِنَ الزَّنَادَ مِنْ مَرْخَ" (في كل شجرة نبار،

وَاسْتَمْجَدَ الْمَرْخُ وَالْعَفَارُ" (والمرخ والعفار: شجرتان تُقدح أغصانهما لاستخراج النار منها)، "أَشَعْتَ مِنْ قَاتِدَةً" (وهو شجر كثير الشوك)، "مَرْعَى وَلَا كَسْعَدَانَ" (شوك تأكله الإبل فيغزز لبنيها)، "أَخْبَثَ مِنْ ذَئْبٍ
الْفَضْيَ" (والفضي: شجر جيد للوقود).

ومن معارف الجاهليين الطبيعية التي تعكسها أمثالهم ما له علاقة بالبيئة الجغرافية والفلكلورية: فمن ذلك قولهم: "أَبْعَدْ مِنَ الْعَيْوَقِ"، "أَتَلَى مِنَ الشَّعْرَى" (لأنها تتلو الجوزاء)، "أَرِيهَا السَّهَا، وَتُرِيشِي الْقَمَرِ"، "أَرَقَ مِنْ رَقَاقِ السَّرَابِ"، "أَطْوَلُ صَحْبَةً مِنَ الْفَرْقَدِينِ" (لأنهما نجمان لا يفترقان)، و"بنات نعش" (كواكب معروفة)، "بَرْقُ خُلَبٍ" (وهو البرق الكاذب الذي لا يعقبه مطر)، "أَرِنِيهَا نِيرَةً، أَرِكَهَا مَطَرَةً" (ومعناه أن السحابة إذا كان فيها سواد وبياض فمعنى هذا أنها ستمطر. وهذا يدل على خبرة بأنواع السحاب ومقدرة على التفرقة بين المطر منها وغير المطر. وينبغي أن لا يغيب عن باليها أن بلادهم كانت تعتمد على المطر في المقام الأول، إذ ليس فيها أنهار كما هو الحال في مصر، ومن ثم كانت معرفتهم الدقيقة بكل ما يتعلق بالمطر والسحاب، وبخاصة أن السماء كانت مفتوحة أمام أعينهم لا يسترها عنهم ساتر، فقد كانوا يعيشون في خيام منصوبة في العراء لا في بيوت تعوق أعينهم عن النظر الحر المترافق إلى الفضاء والأفق والسماء).

لقد كان الماء قضية حياة أو موت، ومن هنا مثلاً نراهم يقولون: "أن تردد الماء بماءِ أكيس" لمعرفتهم أنهم سئوا اقطعوا عن الماء في باديتهم المناوحة التي كثيراً ما يعزم فيها عنصر الحياة الأول فقد يهلكون. وبالمثل شرأ في المثل التالي أن "آخرها (أي آخر الإبل الواردة على الماء للسقي) أقلها شرباً"، إذ تردد وقد قارب الماء على النفاد، أو على الأقل تردد ولم يعد الماء صافياً كما كان للإبل التي شربت مبكرة، فضلاً عن أن تأخير السقي هو دليل على العجز والمذلة. وإذا كانت هناك عين ماء طيبة فسرعان ما تشتهر بينهم: "ماء ولا كصداء"، "إن أصاخًا منهلٌ مورود"، "أعذب من ماء البارق، أو من ماء الحشرج". وثمة مثل آخر يشير إلى عملية الاستقاء من البئر بالحبال والدلاء: "بئس مقام الشيخ: أمرس! أمرس!"، أي أنه لا يليق بك أن تزاول عملاً لا يناسب مكانتك، مثل وقوفك على شفا بئر وسُقياك بالحبل، الذي قد ينقطع في يدك فيصبح الناس بك أن "أمرس! أمرس!"، أي أعد الحبل إلى مكانه من البكرة. ومن أمثال الاستقاء أيضاً قولهم: "القِ دلوك في الدلاء". كذلك استطاع العرب القدماء أن يفرقوا بين الحيوانات والطيور المختلفة حسب مدى حاجتها إلى الماء، وسرعة أو بطء هذه الحاجة مثلاً مضى بيانه في الأمثال التي قرأتها معاً، وهو ما يبين لنا كيف كان الماء يحتمل من أذهانهم واهتمامهم مكاناً مكيناً.

ومن الجوانب التي تتعلق أيضاً بالبيئة العربية القديمة ما كان
الجاهليون يمارسونه من أعمال أو حرف تقوم على ما هو متوفّر في هذه
البيئة من ثروات أو إمكانات طبيعية: خذ عندك مثلاً الدبغ، الذي جاء
في أمثالهم عنده قوله: "إِنَّمَا يُعَاتِبُ الْأَدِيمَ ذُو الْبَشَرَةَ"، بمعنى أن العتاب لا
يصلح إلا مع من لا يزال فيه خير، كالجلد الذي يراد دبغه، فإن كانت له
بشرة، وهي ظاهر الجلد (على عكس الأدمة، التي هي باطنها)، صلح
دبغه، وإن لم يتحمل الدباغ وتمرق. كذلك لا بد، في عملية الدماغ، أن
يُكشط اللحم تماماً من أديم الجلد ولا يترك عليه أي بقايا منه، وإن فسد
الجلد سريعاً: "أَنْحَقَ مِنَ الدَّابِعِ عَلَى التَّحْلِيَءِ". والتحليء: ترك بقايا اللحم
على الجلد، وفي هذه الحالة لا يصل إليه الدماغ. وهناك مثل آخر يرد فيه
ذكر "القارظ" على النحو التالي: "إِذَا مَا قَارَظَ الْعَنَزِيَّ أَبَا"، وهو جامع
القراظ أى ورق شجر السلم المستعمل في عملية الدماغ. وهذا المثل
يُضرب للوعد الذي لا يمكن أن يتحقق لأنّه معلق على شرط مستحيل،
فالقارظ العنزي لم يعد من جولته في جمع القراظ حتى الآن، بل لن يعود أبداً
الدهر لأنّه مات في الطريق. وهناك أيضاً المثل التالي: "أَرْتَعَنْ أَجَلَى أَنِّي
شَتَّتْ"، أى أن الموضع المستئن: "أَجَلَى" هو من الموضع الصالحة للرعى
في أى وقت وفي أى موضع منه. ومنها كذلك: "مَرْعَى وَلَا كَالسَّعْدَانَ".
وكان للرعى أصوله التي لا بد للراعي من مراعاتها، وإن فسد عمله:

"أَسَاءَ رَعِيَا فَسقى مُقْصِبًا"، أى أنه لم يُشعِّب إبله من الكلأ كما ينبغي واضطُرَّ أن يملاً بطونها ماءً على قلة ما فيها من طعام فاضرَّ بها ذلك ضرراً شديداً. والإقباب: أن تُمْتَنَع إبل الراعي عن الشرب. كذلك كانوا يخلبون ماشيَّهم بأنفسهم: "حَلَبْتُهَا بِالسَّاعِدِ الْأَشَدِ"، "اَحْلَبْتُ حَلَبًا لَكَ شَطَرَهُ" (وـ"الحلب" هو ما يُخلب من اللبن)، "حَلَبَ الدَّهْرَ أَشْطَرَهُ".

ومن المهن التي كان الجاهليون يمارسونها كذلك تأثير النخل: "جَبَابٌ، فَلَا تَعْنِ أَبِرًا"، والآبر هو ملقط النخل، والمقصود أن النخلة لا طَلْعَ فيها، بل الموجود جَبَابٌ فحسب، أى جُمَار، ومن ثم فلا فائدة في التأثير أصلًا. ومن هذه المهن أيضاً الحَذَاء: "كَالْحَادِي، وَلَيْسَ لَهُ بَعِيرٌ"، والحادي هو سائق الإبل الذي يحدوها، أى يعني لها حتى تنشط للسير ولا يعتريها الضعف والكلال. أما المثل الذي وجدته عن "الحَذَاء" فيجري عكس تصدق كل ما تسمع، فكثيراً ما يقول الناس كلاماً ويقصدون عكسه، ك فعل القَيْن (وهو الحداد) عندما يزعم أنه مسافر من ليته كى يدفع الناس إلى الإقبال عليه قبل أن يغادرهم، على حين أنه ينوى البقاء حيث هو. وهناك مثل مشهور يذكر "الحاَبِل" وـ"النَّابِل"، أى الصائد بالشبكة والصائد بالنَّيل: "اَخْتَلَطَ الْحَابِلُ بِالنَّابِلِ". ومثل آخر لا يقل شهرة يتحدث عن "القوس"

وصانعه: "أَعْطِ القوسَ بارِّها"، وهو كما نقول في مثنا العامي: "أَبْطِ
العيش لخبازه". ومثل ثالث يذكر "السهام": "قَبْل الرُّمْسِ يُرَأْشِ السَّهَمْ".
ورابع يتحدث عن "الكحانة": "قَبْل الرُّمْسِ تُثْلِّ الْكَحَانَةْ".

كذلك كانوا يعرفون الطب، وكان طبنا بداعيا بطبيعة الحال: "يا
طبيب، طِبْ لِنفْسِك". وكذلك البيطرة: "أشهر من رأْيَةَ الْبَيْطَارِ"، "أَهُونُ
من ذَبَّ الْحَمَارِ عَلَى الْبَيْطَارِ". وكان من طبئيم الكَيِّ: "آخِر الدَّوَاءِ
الْكَيِّ"، "قَدْ يَضْرُطُ الْعَيْرُ، وَالْمِكْوَاةُ فِي النَّارِ". كما كانوا يعالجون جَرَبَ
الماشية بما يسمونه "الْعَيْنَة": "عَيْنَتِه تَشْفِي الْجَرَبَ"، وهي قَطْرَانٌ وأَخْلَاطٌ
تُجْمَعُ وَيُهَنَّأُ بِهَا الْبَعِيرُ الْأَجْرَبُ. ولعمليَّةِ الْهِنَاءِ أَصْوَلُ مِنْهَا إِلَّا يَقْتَصِرُ الْهَبَانَى
عَلَى دَهْنِ مَوْضِعِ الْجَرَبِ فَقْطًا، بل يَعْمَلُ سَاتِرَ بَدْنَ الْبَعِيرِ: "لَيْسَ الْهِنَاءُ
بِالدَّسِّ" (والدَّسِّ: الاقتصار في الْهِنَاءِ عَلَى الْمَكَانِ الْمَصَابِ بِالْجَرَبِ). وقد
ورَدَ فِي مِثْلِ مَا أَمْتَاهُمْ إِشَارَةً لِمَرْضٍ كَانَ يَصِيبُ الْبَعِيرَ، وَهُوَ "الْغُدَّةُ":
"أَغْدِيَّةُ كُعْدَةِ الْبَعِيرِ، وَمَوْتُ فِي بَيْتِ سَلْوِيَّةِ؟". أَمَّا المِثْلُ التَّالِي فَيُشَيرُ إِلَى
مَرْضٍ آخَرَ هُوَ "الْقَلَابُ"، وَهُوَ دَاءٌ يَصِيبُ الْإِبْلَ فِي رُؤُوسِهَا فَيَقْبِلُهَا إِلَى
فَوْقِ: "مَا بِهِ قَلَبَةٌ"، أَيْ أَنَّهُ سَلِيمٌ لَا يَشْكُو مِنْ أَى دَاءٍ. وَقَرِيبُ مِنْهُ دَاءُ
الصَّعَرِ، وَهُوَ دَاءٌ يَأْخُذُ فِي رِقَابِ الْإِبْلِ فَيُمْلِلُهَا: "لَا يُقْبِلَنَّ صَعَرَكُ". وَكَانَ
الْجَاهِلِيُّونَ يَحْبُّونَ الْوَشَمَ، الَّذِي كَثِيرًا مَا شَبَهَ الشَّعْرَاءَ بِهِ مَا يَرَوْنَهُ فِي أَطْلَالِ
حَبَائِبِهِمْ مِنْ الْخَطُوطِ وَآثَارِ الْرِّيحِ: "أَثْبَتُ مِنَ الْوَشَمِ". وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ الَّتِي

كان أهل كل بيت يمارسونه بأنفسهم خياطة الفتوق: "اتسع الخُرُق على الراقع"، وجمع الخطب للنار: "أَخْبِطُ مِنْ حَاطِبَ لَيلَ" ، والطحن بالرحا: "أَسْعَ جَعْجَعَةً وَلَا أَرَى طِحْنًا" ، و"الطحن" هو الدقيق، والمعنى أن هناك ضجة، لكن ليس هناك دقيق، أي أنها ضجة على القاضى.

ويتصل بهذه الأمثل تلك التي ورد فيها ذكر لما كانوا يخذونه من أدوات لتأدية هذه الأعمال، ومنها الإبرة: "أَبْغَى مِنْ إِبْرَةً" ، والفأس: "أَبْغَى مِنْ فَآسٍ" ، والقدح: "أَبْغَضَ مِنْ الْقِدْحِ الْأَوَّلِ" ، والعصا: "أَبْقَى مِنْ تَفَارِيقِ الْعَصَمِ" ، والخيط: "أَدْقَ مِنْ خِيطٍ" ، والحبيل: "إِنَّ الشَّقَىَ بِكُلِّ حَبْلٍ يُختَوِّ" ، والحداء: "أَدْنَى مِنْ الْحَدَاءِ" ، ورباط النعل: "أَدْنَى مِنْ الشَّسْعِ" ، والمجمر (المبخرة): "اسْتَمْتَ لَمْ تَعُودْ الْمِجْمَرَ" ، والخذروف (وهو لعبة للأطفال تشبه ما نسميه في مصر بـ"التحلة"): "أَسْرَعَ مِنْ الْخَذَرُوفَ" ، والآفقيّة (الحجر الذي كانوا ينصبون منه ثلاثة تحت القدر): "أَصْبَرَ مِنْ الْأَثَافِي عَلَى النَّارِ" ، والجلم (المقص): "أَقْطَعَ مِنْ جَلْمَ" ، والعصا: "أَكْثَرَ مِنْ تَفَارِيقِ الْعَصَمِ" ، والشفرة: "إِنْ وَجَدَتْ لِشَفَرَةِ مَحَرَّزاً" ، والمرآة: "أَنْقَى مِنْ مَرَآةَ الْغَرْبِيَّةِ" ، والجلجل: "أَنْمَ مِنْ جَلْجَلَ" ، والسيف: "تَرَكَهُ عَلَى مِثْلِ حَرْفِ السِّيفِ" ، والصحيفة: "صَحِيفَةُ الْمَلْتَسِ" ، والكتامة (جَعْبَةُ السَّهَامِ): "قَبْلِ الرَّمَاءِ تُمْلَأُ الْكَتَانِ" ، والدللو: "قَدْ عَلِقَتْ دَلْوَكَ دَلْوَ أَخْرَى" ، والمجن: "قَلْبَتْ لَهُ ظَهَرُ الْجَنِّ" ، والمكواة: "قَدْ يَضْرِطُ الْعَيْرُ وَالْمَكْوَاهُ فِي النَّارِ" .

أما أطعنتهم فهذه بعض الأمثال التي تحدث عنها مما وضعت يدي عليه أثناء تجولى في كتاب العسكري: "إذ وجدت إليه فا كْرَشْ"، أي إن وجدت إليه سبيلاً فسوف أطبخ الشاة في كرشها. ومن أسماء أطعنتهم "اللَّبَأُ"، وهو أول الألبان عند ولادة الحيوان: "أَبِي أَبِي اللَّبَأً". ومن أطعنتهم أيضاً "الرِّيسَكَةُ"، وهي أقط طبنة بسمن وتمريّن ورخوا: "غَرَثَانُ، فَارِبُوكَوَاهُ"، أي أنه جائع فلا تكلمه في أي شيء لأن ذهنه مشغول بالجوع والطعام، بل أعدوا له الرِّيسَكَةُ أولاً، فإذا أكل رجع إليه عقله. وهذا مثل قولنا: "ساعة البطون توه العقول". وأصل المثل، حسبما يروون، أن رجلاً عاد من سفر فأخبروه أن امرأته قد ولدت له غلاماً، فلم يتم به الخبر لأنها كان يعاني من بُرْحَاء الجوع وقال: وما أصنع به؟ أكله أم أشربه؟ فطلبت منهم زوجته أن يطعموه أولاً. وقد كان، إذ بعد أن أطعموه ارتد إليه عقله وشرع يسأل عن الوليد وأمه، وهو سعيد محبور. ولدينا كذلك طعام "السَّوِيق": "جَدْحَ جُوَيْنِ من سَوِيقِ غَيرِهِ"، وهو طعام سائل يُصنع من القمح والشعير على عجل للمسافر والجائع الذي لا يصبر. والمراد أن جُويَّنا هذا، لأنه لا ينفق من ماله ولا يأكل من سَوِيقِه بل من سَوِيقِ غيره، فإنه يسرف ولا يبالي بالاقتصاد. والجَدْحُ: الشرب. كذلك كانوا يصطادون الضب ويأكلونه: "ما أبالي أنا ضَبَكَ أَمْ نَضَبَّ"، "أَعْطِ أَخَاكَ مِنْ عَقْتَلَ الضَّبَّ"، ويسمون صيده: "حَرَشًا": "هُوَ أَعْلَمُ بِضَبِّ حَرَشَهُ"، وما قتله الضب يؤكل في

الخليج حتى يومنا هذا. وبالمثل كان العرب في الجاهلية يصطادون حمار الوحش ويأكلونه، وقد ورد ذكره في قوله: "كُلَّ الصِّيد فِي جَوْفِ الْفَرَّارِ" ، "أَخْلَى مِنْ جَوْفِ حَمَارٍ" ، لأنهم كانوا يلقون بما في جوفه ولا ينتفعون به. كما كانوا يأكلون "الكماء" ، التي لا يزال الناس هناك يتذذلون بطعمها حتى الآن. وهي، كما تقول المعاجم، نبات يخرج من الأرض كما يخرج الفطر. وهناك نوع منها يسمى: "الفَقْع" : "أَذْلَى مِنْ فَقْعٍ بِقَرْقَرَةٍ" ، لأنه يظهر على سطح الأرض فقطنه الأقدام، وإن كان هناك نوع آخر يحتاج إلى أن ينبش الإنسان الأرض عنه.

ومن أطعمتهم التي وردت بها الأمثال "العسل": "أَحْلَى مِنْ الْعَسْلِ" ، أو من الشهد". كما كانوا يصنعون "الزِّبَاد" من اللبن ويأكلونه، وجاء به المثل التالي: "اخْتَلَطَ الْخَاثِرُ بِالْزِبَادِ" . ومن طعامهم في الجاهلية أيضاً "الدم" ، وذلك بعد أن يقصدوه من عرق الناقة أو الفرس ثم يملأوا المصران به، ثم يشورو ويأكلوه. وهذا الطعام يسمى: "الْفَصِيدَ" : "لَمْ يُحَرِّمْ مِنْ فُصِيدٍ لَهُ" ، أي أن الفصيد طعام كافٍ لمن يقدّم إليه. وقد جاء الإسلام بتحريم أكل الدم، ومعروف أن الدم مرتع لجميع أنواع الفيروسات والجراثيم والميكروبات، التي تضر الجسم والتي تسري إليه عند أكل الإنسان إياه. وكانوا يحفظون الدهن المذاب في سقاء، وهذا الدهن يسمى: "الإهالة": "كَحَاقِنَ الإهَالَةِ" ، أي أنا خبير بهذا الأمر كخبرة حاقن الإهالة في السقاء، إذ كان الأمر يتطلب

تُأكِّدُ الحقائق تماماً، عن طريق إيلاج إصبعه في الإهالة، أنها قد بردت بحيث لا تفسد السقاء بسخونتها . كما وردت أمثلهم بـ "الزيت": "أُوفَى من كُلِّ الزيت". كذلك كان "الشعيعر" من طعامهم، وإن لم يكن من أشهر إلى نقوسهم: "كالشعيعر: يُوكِلُ ويُذْمَّ". ومن الفاكهة التي ذكرتها الأمثال "التمر": "كُمْسَبْضَعِ التمر إلى هَجَر" (وهو كقولنا: "يبيع الماء في حارة السقائين")، "وَجَدَ تَرَةً الغرَابَ". وقد جاء ذكر "الحشف"، وهو أرداً أصنافه، في مثل آخر: "أَحَشَفَا وَسُوءَ كِيلَةً؟" ، وـ "العنب": "إِنَّكَ لَا تَجِنِّي من الشوك العنْبَ" ، "أَعْجَرُ مِنْ مُسْتَطِعِمِ العنْبِ مِنَ الدَّفْلِ" ، إذ الدَّفْلِ بـ "الخمر" ، ويُكْثِرُ شعراً وهم من التمدح بشربها ويعدونه من علامات الكرم والسيادة، حتى جاء الإسلام وحرّمها تاماً . ومن أمثلهم في أم الخبائث قولهم: "الذَّ منْ بِذَاقَ الْخَمْرَ" .

وللأمثال، فضلاً عن الجوانب التي مرت، جانب آخر يمكن أن يُنظر إليها منه هو الجانب النفسي والخلقي والاجتماعي: فالمثل التالي على سبيل المثال يشير إلى وجه من وجوه الطبيعة الإنسانية، إلا وهو أهمية الإيحاء الذاتي في علاج المشاكل، فكثير من الأمور يمكن أن تنحل أو يسهل حلها إذا وضع الشخص في اعتباره أن هناك أملًا كبيراً في التغلب عليها: "أَكْذَبْ نَفْسَكَ إِذَا حَدَّثَهَا" ، وإلا فليس له مَعْدٌُّ عن الصبر، وهو الدواء

الذى لا بد من تحرعه على مراتته: "حيلة من لا حيلة له الصبر". كما أن طبيعة الاجتماع البشري تقضى من الإنسان أن يتغاضى عن بعض حقوقه وأن يكون مننا مع الآخرين وألا يواخذهم بكل صغيرة وكبيرة حتى تسير عجلة الحياة: "إذا عزَّ أخوك فهُنْ"، "إذا رأيَتَ الريح عاصفاً فتطامِنْ"، "أني الرجال المهدَبُ؟"، "طَوَيْتُه على بُلَالَتِه"، مع معرفة أن "رضا الناس غاية لا تُدْرِكْ"، وأن الطبائع الشخصية عصية على التغيير، وبخاصة إذا شاب الإنسان على ما شَبَّ عليه: "أَغَيَّبْتُنِي بَاشُرْ، فَكَيْفَ بَدُرْدُرْ؟"، "مِنَ العناء رياضة الهرم". ثم هناك العصبية القبلية التي لا يمكن الفكاك منها، ولذلك قيل في أمثال الجاهلية: "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً"، وهو ما صاحبه الرسول الكريم عندما حورَه بعض التحوير فقال ابن نصرتك أخاك ظالما إينا تكون بمنعه من الظلم، معطيا عليه السلام هذا المثل بعدها أخلاقها عظيمـاـ . كذلك هناك المثل التالي الذي يتعامل مع الطبيعة البشرية تعاملـاـ مغرقاـ في الواقعـة بلـ في اللـانـسانـية دونـ مراعـاةـ المـثـلـ الأـعـلـىـ فـيـ قـلـيلـ أوـ كـثـيرـ، وـهوـ "أـجـعـ كـلـبـ يـتـبعـكـ". وـفيـ قولـهمـ: "جـلـىـ مـحـبـ نـظـرـهـ" تـعبـيرـ عنـ حـقـيقـةـ نـفـسـيـةـ تـشـاهـدـ فـيـ الـمحـبـينـ، إـذـ مـهـماـ حـاـوـلـ الـواـحـدـ مـنـهـ إـخـفـاءـ مشـاعـرهـ تـجـاهـ مـعـشـوقـهـ عـنـ النـاسـ فـإـنـ عـيـنـيهـ تـفـضـحـانـهـ. وـقدـ قالـ الشـاعـرـ: "الـصـبـ تـفـضـحـ عـيـونـهـ". كذلك يـحسـنـ بـالـإـنـسـانـ، إـذـ أـرـادـ أـنـ يـظـلـ عـزـيزـاـ مـحـبـواـ مـكـرـماـ، أـلـاـ يـكـثـرـ الـزـيـارـةـ لـالـآخـرـينـ مـهـماـ كـانـواـ يـحـبـونـهـ وـيـرـيدـونـهـ أـلـاـ يـقـطـعـ

رجله عنهم: "زُرْ غِبَّاً تزدَد حَبَّاً، وَالاِيْكِيرَ كذلِكَ مِن المُزَاح، فَإِنَّهُ سَبِيلَ
إِلَى نَشَوَّءِ البغضَاءِ حَتَّى بَيْنَ الْمُتَحَايِبِينَ: "المُزَاح لِقَاحُ الصُّغَافِينَ".

وفي دنيا الزواج والأسرة تطالعنا الأمثال التالية، وهي مأخوذة من
واقع الحياة الذي لا سبيل إلى تغييره ولا نكرانه: "زوجٌ مِنْ عُودٍ خَيْرٌ مِنْ
قُعُودٍ"، وهو ما يقال عنه في أمثالنا العامية: "ظِلُّ رَجُلٍ وَلا ظِلُّ حَاطِطٍ"،
"الْعَوَانُ لَا تُعْلَمُ الْحِمْرَةُ"، "بِنِيهِمْ دَاءُ الْضَّرَائِرُ"، "إِنَّ الْحِمَةَ أَوْلَعَتْ بِالْكَكَّةَ *
أَوْلَعَتْ كَكَّتَهَا بِالْفَلَّةَ"، "أَصْلُ مِنْ مَوْرُودَةٍ"، وهي البنت الصغيرة التي تُدْفَنَ
حيث، وكان بعض الجاهليين يتدون بناتهم خوفاً من الفقر أو العار. على أن
هناك مثلًا يبدو أنه يعكس اعتقاداً راسخاً عند العرب منذ قديم الزمان،
ألا وهو أن الحظ عليه مَعْوَلٌ كبير في حياة الإنسان. ولقد كتبت أضيق
أشد الضيق بمثل هذا الكلام وأؤكد دائمًا أن السعي والخطيب واليقطة
هي عمود كل نجاح، ثم تبين لي أن للحظ دوراً لا يُنكر في حياتنا، وأنه قد
يرفع أقواماً حقهم الاتضاع، ويختنق أقواماً يستحقون كل خير ورفعة. ذلك
أن أمورنا نحن العرب لم تزل تجري على غير خطيط، كما أن القيم الإسلامية
المخطية لا يؤخذ بها في كثير من الأحوال، ومن ثم فكثير من الناس لا
يحصل على حقه، على حين يَرَوْنَ مِنْ لَا يَسْتَحْقُونَ قد سبقوهم سبقاً
فا Hassan دون أدنى مسوغٍ. ومن هنا صحة المثل العربي القديم القائل: "جَدَّكَ

لاَكَدَكَ" ، أى أن حظك هو الذى ستكون له الغلبة فى نهاية المطاف، وكذلك قولهم: "اسْعِ بِجَدٍ أَوْ دُغًّا" ، وأن "من غاب غاب نصيبه".

أما قولهم: "لو لَكَ عَوْتُ مَأْعُوْ" فيشير إلى ما كان يفعله الرجل الجاهلى فى الصحراء حين يكون مسافرا ويأتى عليه الليل فيجد نفسه وحيدا، فيعود كالكلاب على أمل أن يكون على مقربة من خيمة لبعض الأعراب فتجاوיבهم كلامهم فيأنفس بهم ويحصل على ما يحتاجه من طعام وشراب عندهم حتى لا يموت جوعا أو عطشا. كما أن المسافر فى الصحراء كان يمسك دائما بعضا يحمل عليها ملابسه وصرة طعامه: "لو كان فى العصا سير". ومن الطريف أن نجد من الأمثال العربية ما يدلنا على أنهم فى الجahلية كانوا يخونون صغارهم بالذئاب كما يفعل أهل الريف والمناطق الشعبية عندنا الآن إذ يخونون أبناءهم العصاة بالغرift والغول وأبى رجل مسلوحة وما أشبه: "لَقَدْ كَتُّ وَمَا أَخْشَى بِالذَّئْبِ".

ونخت بما ورد فى الأمثال الجahلية مما كانوا يعتقدونه من خرافات وأساطير، كاعتقادهم فى السانح والبارح: فالسانح ما مر بك من طير أو حيوان من اليمين إلى اليسار، والبارح ما مر من اليسار إلى اليمين، وكانوا يتفاءلون بالأول، ويتشاءمون بالثانى: "من لي بالسانح بعد البارح؟". كما كانوا يتشاءمون بالغراب، إذ ارتبط وجوده عندهم بمواقع أطلالهم التي خلفوها، إذ يلقط منها ما يكونون قد تركوه وراءهم، فانعقدت الصلة فى

أذهانهم بينه وبين الفراق، وصاروا يشاعون به: "أشام من غراب البَيْنِ".
 ولم يقتصر تشاوئهم على الحيوان والطير، بل كانوا يستحسنون بعض النجوم
 أيضاً: "أنكَدَ من تالِ النجم"، وهو "الدَّبَرَانُ" ، الذي يتلو نجم "الثَّرِيَا". كما
 كانوا يعتقدون في "البَلَائِنَا" ، جمع "بَلَيَّة" ، وهي الناقَة التي كانوا يربطونها
 عند قبر صاحبها بعد أن يغْمِّوا عينيهما، ثم يتركونها هكذا دون طعام أو
 شراب حتى تموت، إذ كانت عقیدتهم أنها بهذه الطريقة تكون جاهزة تحت
 تصرف صاحبها ليركبها يوم القيمة: "المنايا على البلايا" ، وهو مثل يضرب
 للقوم الواقعين في كرب لا مخلص منه، فهم يُ شبِّهُون "البَلَيَّة" ، التي لا مفر لها
 من الموت. ومن خرافاتهم ما كانوا يقولونه عن السَّلَيْكَ بن السَّلَكَة، الشاعر
 الجاهلي الصعلوك المشهور، إذ كانوا يرون أنه ظل يعود يوماً وليلة كاملين
 سابقاً فارسين من فرسان الأعداء لم يستطعوا إدراكه قط حتى بلغ منازل
 قومه وحذرهم هجوماً وشيكاً من أعدائهم، فأخذوا حذره ولم يقدر
 العدو أن يصيب منهم غيره: "أَعْدَى مِن السَّلَيْكَ". ومن مبالغاتهم التي
 تدخل في باب الخرافات قوله: "أَبْصَرَ مِن الزَّرْقاء" (وهي زرقاء اليمامة
 المشهورة، وكانت يزعمون أنها من قوة البصر وحدتها بجبيث ترى على بعد
 ثلاثة أيام). وهناك مثل يقول: "أشام من الزَّمَاح" (إشارة إلى طير كان يقع
 على بيوت ناس من أهل شرب ويأكل من تمراهم ثم يطير فلا يعود إلى العام
 التالي، فرمى رجل منهم بسهم فقتله وقسم لحمه، فلما مر العام لم يبق من

أكل من لحمه أحد حيًا، "أعمَّرُ من حيَّةً" (لأنهم كانوا يظنون أنها لا تموت أبداً إلا إذا قتلاها إنسان، وإنما إذا كبرت عادت فصغرت حتى تكبر ثم تعود فتصغر... وهكذا دواليك!)، "أعمَّرُ من نَسْرٍ، أو من قُرَادٍ" (إذ كانوا يؤمنون أن الأول يُعْمِر خمساً مائة عام، والثاني سبع مائة).

هذا، وهناك كتاب خاص بالآمثال أنها بعض من كبار الكتاب العرب القدماء، ومنهم صُحَارَى العبدى وأبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى وشُعْبَ المفضل الضَّبَّانِي وأبو هلال العسكري والزمخشري والميدانى. وهى كتاب تُعنَى بإيراد أكبر عدد ممكن من الأمثال العربية القديمة وشرحها وتفسير ما يحتاج من الفاظها وترأكيبها وعباراتها إلى تفسير، فضلاً عن إيراد قصة المثل إن كانت وصلتهم، وقد تكون هذه القصة حقيقة أو خيالية، فإن كانوا في بعض الأحيان يعلون عن عجزهم عن معرفتها كما فعل أبو هلال العسكري مراراً، إذ قال مثلاً عند تعرضه لقولهم: "أَبْدَحْ وَدَبِيعْ": "يَقُولُونَ: جاءَ بِأَبْدَحْ وَدَبِيعْ، إِذَا جَاءَ بِالْبَاطِلِ. وَمَنْ يُعْرَفُ أَصْلَهُ، أَىْ أَنْ قَصْتَهُ لَمْ تَصْلِهِ". أما في شرحه للمثل القائل: "بَعِينَ مَا أَرَيَّشَكْ" فقد علق قائلاً: "معناه: أَغْبَلْ. وهو من الكلام الذي قد عَرِفَ معناه سماعاً من غير أن يدل عليه لفظه. وهذا يدل على أن لغة العرب لم ترد علينا بكمالها، وأن فيها أشياء لم تعرفها العلماء". وفي تعليقه على المثل التالي: "أَحْمَقَ مَنْ رَاعَى ضَأْنَ ثَانِينَ" نزاه يقول: "وَلَا أَدْرِي لَمْ خُصَّتْ بِالثَّانِينَ هُنَا" . . . إلخ.

ومن هنا نرأتنا لا نوافق بروكلمان على ما قاله في الأمثال من أن "من عُنوا
يجمعها من الأدباء لم يقعوا مرة في حيرة من تفسيرها وإياضتها" وما فيه
من سخرية مبطنة (كارل بروكلمان / تاريخ الأدب العربي / ١٢٩ / ١)، بل
تؤكد أن هذا الكلام غير صحيح لعدة أسباب: الأول أن هؤلاء المؤلفين لم
يكونوا يوردون هذه القصص دائمًا كما قلنا آفنا. والثاني أنهم ليسوا هم
الذين ألفوا هذه القصص، بل كانوا مجرد نقلة لها حسبما وصلت إليهم.
والثالث أن العسكري مثلًا، حسبما رأينا معاً، قد أعلن عن عجزه في
عدة مناسبات مختلفة عن معرفة قصة المثل، بل حتى عن مجرد معرفة معناه
في بعض الأحيان. بل إنهم كثيراً ما يكتفون بإيراد المثل دون إضافة أيه
كلمة أخرى من لدنهم. وهو نفسه ما نقوله ردًا على ما كتبه نيكلسون في
ذات الموضوع، إذ جاء في كتابه: "A Literary History of the Arabs" أثناء كلامه في هذه المسألة إن هذه الأمثال "نادرًا ما
تسعى عن الشرح، على حين أن ما كُتب من تعليقات عليها إنما هي من
عمل علماء وضعوا نصب أعينهم أن يشرحوها مهما كلفهم ذلك، رغم أن
الظروف التي قيلت فيها قد نُسيت تماماً" (A Literary History of the Arabs, P. ٣١)

سَجْعُ الْكَهَانِ

الْكَهَانِ الْعَرَبُ هُم طائفةٌ مِنْ رِجَالِ الدِّينِ كَانُوا يَقُومُونَ عَلَى سِدَّادَةِ
مَعَابِدِ الْأَوْثَانِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ الْعَرَبُ الْوَثَّابِيُّونَ يَلْجَأُونَ إِلَيْهِمْ فِي حَسْمٍ مَا
يَنْشَا بَيْنَهُمْ مِنْ مَنَافِرَاتٍ أَوْ خَلْفَاتٍ قَبْلِيَّةٍ أَوْ أَسْرِيَّةٍ أَوْ فَرْدِيَّةٍ، أَوْ تَأْوِيلِ مَا
يَقْعُدُ فِي نُومِهِمْ مِنْ رُؤُسَّ تَحْتَاجُ إِلَى تَعْبِيرٍ، أَوْ مَسَاعِدِهِمْ عَلَى مَعْرِفَةِ مَا
يَخْبُثُهُ الْغَيْبُ مِنْ أَحْدَاثٍ أَوْ أَشْيَاءٍ وَمَا إِلَى ذَلِكَ مَا كَانُوا يَحْصُلُونَ عَلَى
جُعْلٍ فِي مَقَابِلِهِ. وَكَانَ هُؤُلَاءِ الْكَهَانِ يَجْبِيُونَ عَلَى مَا يَوجَهُ إِلَيْهِمْ مِنْ
اسْقَسَارَاتٍ بِكَلَامٍ مَسْجُوعٍ يُرَاعِي فِيهِ عَادَةً أَنْ يَكُونَ مُوجَزاً غَامِضاً
يَحْتَمِلُ وِجْهَهَا مُتَعَدِّدَةٌ مِنِ التَّفْسِيرِ، فَضْلًا عَنِ الْاحْتَوَانِ عَلَى بَعْضِ الْغَرِيبِ
مِنِ الْلَّفْظِ، بِحِيثُ يُسْتَطِعُ الْكَاهِنُ عِنْدَ الْلَّزْوَمِ أَنْ يَقُولَ إِنَّهُ لَمْ يَقْصُدْ هَذَا
الْمَعْنَى مَثَلًا بَلْ ذَاكَ، وَمِنْ ثُمَّ لَا يَظْهَرُ لِقُصَادِهِ وَطَالِبِي عَوْنَهُ أَنَّهُ يَخْنُطُ كَثِيرَهُ
مِنِ النَّاسِ وَأَنَّهُ لَيْسَ بِنَهْ وَبَيْنَ عَالَمِ الْغَيْبِ أَنِ اتِّصَالٍ. وَقَدْ وَرَدَتْ أَقَوِيلٌ
مِنْسُوبَةٌ إِلَى هُؤُلَاءِ الْكَهَانِ فِي مَنَاسِبٍ وَقَضَائِيَّاتٍ مُخْتَلِفَةٍ كَمَا فِي الْخَبَرِ الْمَرْوِيِّ
عَنِ الْكَاهِنِ الْخُزَاعِيِّ، الَّذِي تَقَرَّ بَيْنَ هَاشِمَ جَدِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأُمِّيَّةَ بْنَ
عَبْدِ شَمْسٍ، وَجَاءَ فِيهِ: "وَكَيْ هَاشِمٌ بَعْدَ أَبِيهِ عَبْدِ مَنَافٍ مَا كَانَ إِلَيْهِ مِنْ
السَّقَائِيَّةِ وَالرَّفَادَةِ فَحَسَدَهُ أُمِّيَّةُ بْنُ عَبْدِ شَمْسٍ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ عَلَى رِيَاسَتِهِ
وَإِطْعَامِهِ، وَكَانَ ذَا مَالٍ. فَتَكَلَّفَ أَنْ يَصْنَعْ صَنْيَعَ هَاشِمٍ فَعَجَزَ عَنْهُ،
فَشَمِّتْ بِهِ نَاسٌ مِنْ قَرْيَشٍ، فَغَضِبَ وَنَالَ مِنْ هَاشِمٍ وَدَعَاهُ إِلَى الْمَنَافِرَةِ.

فـكـرـهـ هـاشـمـ ذـلـكـ لـسـنـهـ وـقـدـرـهـ، فـلـمـ تـدـعـهـ قـرـيـشـ حـتـىـ نـافـرـهـ عـلـىـ خـمـسـينـ
نـاقـةـ سـوـدـ الـحـدـقـ يـنـحـرـهـ بـبـطـنـ مـكـةـ وـالـجـلـاءـ عـنـ مـكـةـ عـشـرـ سـنـينـ. فـرـضـيـ
بـذـكـ أـمـيـةـ وـجـعـلـاـ بـيـنـهـماـ الـكـاهـنـ الـخـزـاعـيـ، وـهـوـ جـدـ عـمـرـوـ بـنـ الـحـمـيقـ
(الـصـحـابـيـ الـمـعـرـوفـ)، وـمـنـزـلـهـ بـعـسـفـانـ (بـيـنـ مـكـةـ وـيـثـربـ). وـكـانـ مـعـ أـمـيـةـ
هـمـهـةـ بـنـ عـبـدـ الـعـزـىـ الـقـهـرـىـ، وـكـانـ اـبـنـهـ عـنـدـ أـمـيـةـ، فـقـالـ الـكـاهـنـ: وـالـقـمـرـ
الـبـاهـرـ، وـالـكـوـكـبـ الـزـاهـرـ، وـالـفـعـامـ الـمـاطـرـ، وـمـاـ بـالـجـوـ منـ طـائـرـ، وـمـاـ اـهـتـدـىـ
بـلـمـ مـسـافـرـ، مـنـ مـتـجـدـ وـغـائـرـ، لـقـدـ سـبـقـ هـاشـمـ أـمـيـةـ إـلـىـ الـمـاـئـرـ، أـوـلـ مـنـهـ
وـأـخـرـ، وـأـبـوـ هـمـهـةـ بـذـكـ خـابـرـ. فـقـضـىـ هـاشـمـ بـالـغـلـبـةـ وـأـخـذـ هـاشـمـ الـإـبـلـ
فـنـحـرـهـ وـأـطـعـمـهـ، وـغـابـ أـمـيـةـ عـنـ مـكـةـ بـالـشـامـ عـشـرـ سـنـينـ. فـكـانـ هـذـهـ
أـوـلـ عـدـاـوـةـ وـقـعـتـ بـيـنـ هـاشـمـ وـأـمـيـةـ".

وـمـنـهـ كـذـكـ ماـ قـيلـ عنـ تـكـنـ عـوـفـ بـنـ رـبـعـةـ الـأـسـدـيـ بـمـقـتـلـ حـجـرـ
بـنـ الـحـارـثـ، حـيـثـ تـجـرـىـ الـقـصـةـ عـلـىـ النـحـوـ التـالـىـ: "كـانـ حـجـرـ بـنـ الـحـارـثـ
أـبـوـ اـمـرـىـ الـقـيـسـ مـلـكـ بـنـيـ أـسـدـ، وـكـانـ لـهـ عـلـيـهـمـ إـتـاـوـةـ كـلـ سـنـةـ لـمـ يـحـتـاجـ
إـلـيـهـ. فـبـقـيـ كـذـكـ دـهـرـاـ، ثـمـ بـعـثـ إـلـيـهـمـ مـنـ يـجـبـيـ ذـلـكـ مـنـهـمـ، وـحـجـرـ يـوـمـئـذـ
يـهـامـهـ، فـطـرـدـواـ رـسـلـهـ وـضـرـبـوـهـ. فـبـلـغـ ذـلـكـ حـجـرـاـ فـسـارـ إـلـيـهـمـ فـأـخـذـ
سـرـوـاتـهـ وـخـيـارـهـ وـجـعـلـ يـقـتـلـهـ بـالـعـصـاـ، فـسـمـوـاـ: "عـبـيـدـ الـعـصـاـ"، وـأـبـاحـ
الـأـمـوـالـ وـصـيـرـهـمـ إـلـىـ تـهـامـةـ وـحـبـسـ جـمـاعـةـ مـنـ أـشـرافـهـ مـنـهـمـ عـبـيـدـ بـنـ
الـأـبـرـصـ الشـاعـرـ، فـقـالـ شـعـراـ يـسـطـعـفـهـ فـيـهـ، وـمـنـهـ قـوـلـهـ:
أـنـ الـمـلـيـكـ عـلـيـهـمـ وـهـمـ الـعـبـيـدـ إـلـىـ الـقـيـامـةـ

فرق لهم وعفا عنهم وردهم إلى بلادهم. فلما صاروا على مسيرة نيوم من نهاية تكهن كاهنهم، وهو عوف بن ربيعة بن عامر الأسدى، فقال لهم: يا عبادى. قالوا: ليك ربنا . فقال: من الملك الصالب (الشديد)، الغلاب غير المغلب، في الإبل كأنها الريرب (أى قطيع بقر الوحش)، لا يقلق رأسه الصحب، هذا دمه ينبع (يسيل)، وهو غداً أول من يستتب؟ قالوا: ومن هو ربنا؟ قال: لولا تجيش نفس جاشية، لأخبرتكم أنه حجر ضاحية (أى علانية). فركبوا كل صعب وذلول حتى بلغوا عسكر حجر فهجروا عليه في قته فقتلوه".

ثم هذا الخبر الذى يتحدث عن تعرض هند بنت عتبة للشك فى شرفها من زوجها الفاكه بن المغيرة لرببه ظنها فيها، فحاكمه أبوها إلى كاهن من كان اليعن قضى ببراءتها فعادت مرفوعة الرأس رافضة أن تظل على ذمة الفاكه بعد الذى كان منه فى حقها: "كان الفاكه بن المغيرة المخزومي أحد قتىان قريش، وكان قد تزوج هند بن عتبة، وكان له بيت للضيافة يغشاه الناس فيه بلا إذن. فقال يوماً في ذلك البيت وهند معه، ثم خرج عنها وتركها نائمة فجاء بعض من كان يعشى البيت، فلما وجد المرأة نائمة ولّى عنها، فاستقبله الفاكه بن المغيرة فدخل على هند وأتّها وقال: من هذا الخارج من عندك؟ قالت: والله ما اتبهت حتى أتبهني، وما رأيت

أَحْدَا قَطْ. قَالَ: الْحَقِّي بَأْبِيكَ. وَخَاضَ النَّاسُ فِي أَمْرِهِمْ، فَقَالَ لَهَا أَبُوهَا: يَا بُنْيَةَ، الْعَارَ وَإِنْ كَانَ كَذِبًا. بُشِّئِي شَائِكَ، فَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ صَادِقًا دَسَسْتُ عَلَيْهِ مِنْ يَقْتَلُهُ فَيَقْطَعُ عَنْكَ الْعَارَ، وَإِنْ كَانَ كَذِبًا حَاكِمُهُ إِلَى بَعْضِ كُهَانِ الْيَمْنِ. قَالَتْ: وَاللَّهِ يَا أَبَتِ إِنَّهُ لَكَاذِبُ. فَخَرَجَ عَبْتَةُ فَقَالَ: إِنَّكَ رَمِيتَ ابْنَتِي بِشَيْءٍ عَظِيمٍ، فَإِمَّا أَنْ تَبَيَّنَ مَا قُلْتَ، وَلَا فَحَاقَمِنِي إِلَى بَعْضِ كُهَانِ الْيَمْنِ. قَالَ: ذَلِكَ لَكَ. فَخَرَجَ الْفَاكِهُ فِي جَمَاعَةِ مِنْ رِجَالٍ قَرِيشٍ وَنِسَوَةٍ مِنْ بَنِي مُخْزُومٍ، وَخَرَجَ عَبْتَةُ فِي رِجَالٍ وَنِسَوَةٍ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ. فَلَمَّا شَارَفُوا بِلَادَ الْكَاهِنِ تَغَيَّرَ وَجْهُ هَنْدٍ وَكَسَبَتْ بِالْهَا، فَقَالَ لَهَا أَبُوهَا: أَيْنَ بُنْيَةَ، أَلَا كَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ يَشْتَهِرَ فِي النَّاسِ خَرْوْجَنَا؟ قَالَتْ: يَا أَبَتِ، وَاللَّهِ مَا ذَلِكَ لَكَرُوهُ قِيلِي، وَلَكُنُوكُمْ تَأْتُونَ بِشَرًا يَخْطُنُ وَيَصِيبُ، وَلَعِلَّهُ أَنْ يَسِّمِنِي بِسِمَةٍ تَبْقَيْ عَلَى أَلْسِنَةِ الْعَرَبِ. فَقَالَ لَهَا أَبُوهَا: صَدَقْتِ، وَلَكُنِي سَأَخْبُرُهُ لَكَ. فَصَفَرَ بِفَرْسِهِ، فَلَمَّا أَذْلَى عَمَدَ إِلَى حَبَّةِ بُرْ (قَمْح) فَأَدْخَلَهَا فِي إِحْلِيلِهِ ثُمَّ أَوْكَى (رَبِطَ) عَلَيْهَا وَسَارَ، فَلَمَّا نَزَلُوا عَلَى الْكَاهِنِ أَكْرَمُهُمْ وَنَحْرُ لَهُمْ، فَقَالَ لَهُ عَبْتَةُ: إِنَا أَتَيْنَاكَ فِي أَمْرٍ، وَقَدْ خَبَانَا لَكَ خَبِيَّةً، فَمَا هِيَ؟ قَالَ: بُرَّةٌ فِي كَمَرَةٍ. قَالَ: أَرِيدُ أَبْيَنَ مِنْ هَذَا. قَالَ: حَبَّةُ بُرٍّ فِي إِحْلِيلٍ مُهْرٍ. قَالَ صَدَقْتِ، فَانْظَرْ فِي أَمْرِ هَنْلَاءِ النِّسَوَةِ. فَجَعَلَ يَمْسِحُ رَأْسَ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ وَيَقُولُ: قَوْمِي لِشَائِكَ. حَسَّ إِذَا يَلْغُ إِلَى هَنْدٍ مَسْحِ يَدِهِ عَلَى رَأْسِهَا وَقَالَ: أَنْهَضِي غَيْرَ رَقَحَاءَ (فَاجِرَةً) وَلَا زَانِيَةَ، وَسَلَّدِينَ مَلِكًا يَسْمَى: مَعاوِيَةَ.

فلما خرجت أخذ الفاكه بيدها، فنثرت بيده من يدها وقالت: إليك عَنِي .
وَاللَّهُ لَا يُحِرِّصُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْوَلَدُ مِنْ غَيْرِكَ . فَتَزَوَّجَهَا أَبُو سَفِيَانُ، فَوُلِدَتْ
لَهُ معاوية .

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا مَا رُوِيَّ عَنْ سَطِيعِ الذَّنْبِيِّ الْفَسَانِيِّ مِنْ أَنَّهُ "لَمَا كَانَ
لِلَّيْلَةِ وُلِدَ النَّبِيُّ ارْتَجَّ إِيَّوَانَ كَسْرَى فَسَقَطَتْ مِنْهُ أَرْبَعُ عَشَرَةَ شَرْفَةً، فَعَظَمَ
ذَلِكَ عَلَى أَهْلِ مَلْكَتِهِ، فَمَا كَانَ أَوْشَكَ أَنْ كَبَ إِلَيْهِ صَاحِبُ الْيَمْنِ يَخْبُرُهُ
أَنْ بَحِيرَةَ سَاوَةَ غَاصَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَكَبَ إِلَيْهِ صَاحِبُ السَّمَاوَةَ يَخْبُرُهُ أَنْ
وَادِي السَّمَاوَةَ انْقَطَعَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَكَبَ إِلَيْهِ صَاحِبُ طَبْرِيَّةَ أَنَّ الْمَاءَ لَمْ يَجْرِ
تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي بَحِيرَةِ طَبْرِيَّةَ، وَكَبَ إِلَيْهِ صَاحِبُ فَارِسَ يَخْبُرُهُ أَنَّ بَيْوَاتَ الْمِيزَانَ
خَمَدَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَلَمْ تَخْمُدْ قَبْلَ ذَلِكَ بِالْفَ سَنَةَ . فَلَمَّا تَوَاتَرَتِ الْكِتَابَ أَبْرَزَ
سَرِيرَهُ وَظَهَرَ لِأَهْلِ مَلْكَتِهِ فَأَخْبَرَهُمُ الْخَبَرَ، فَقَالَ الْمُؤْبِدَانُ: أَهْلُ الْمَلَكِ، إِنِّي
رَأَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ رُؤْيَا هَالْتِنِيِّ . قَالَ لَهُ: وَمَا رَأَيْتَ؟ قَالَ: رَأَيْتُ إِبْلَأَ صِعَابًا،
تَقْوَدَ خِيلًا عِرَابًا، قَدْ اقْتَحَمَتْ دَجْلَةً وَاتَّسَرَتْ فِي بَلَادَنَا . قَالَ: رَأَيْتَ
عَظِيمًا، فَمَا عَنْدَكَ فِي تَأْوِيلِهَا؟ قَالَ: مَا عَنِّي فِيهَا وَلَا فِي تَأْوِيلِهَا شَيْءٌ،
وَلَكِنَّ أَرْسَلْتُ إِلَى عَامِلَكَ بِالْحِجَرَةِ يَوْجِهُ إِلَيْكَ رَجُلًا مِنْ عَلَمَانِهِمْ، فَإِنَّهُمْ
أَصْحَابُ عِلْمِ الْحِدْثَانِ . فَبَعْثَتْ إِلَيْهِ عَبْدُ الْمُسِيحِ بْنُ بُقَيْلَةَ الْفَسَانِيِّ، فَلَمَّا
قَدِمَ عَلَيْهِ أَخْبَرَهُ كَسْرَى الْخَبَرَ، فَقَالَ لَهُ: أَهْلُ الْمَلَكِ، وَاللَّهُ مَا عَنِّي فِيهَا وَلَا
فِي تَأْوِيلِهَا شَيْءٌ، وَلَكِنَّ جَهَنَّمَ إِلَى خَالِ لِي بِالشَّامِ يَقَالُ لَهُ: سَطِيعٌ . قَالَ:

جهزوه. فلما قدم إلى سطح وجده قد اخْتَضِر، فناداه فلم يجبه، وكلمه
فلم يرد عليه، فقال عبد المسيح:

أَصَمْ أَمْ يَسْمَعُ غِطَّارِيفُ الْيَمْنِ؟
أَنَاكَ شِيخُ الْحَيِّ مِنْ آلِ سَنَنَ
رَسُولُ قَبْلِ الْعِجْمِ يَهْوَى الْوَنَنَ
يَا فَاضِلُ الْخَطْةِ أَعْيَتُ مَنْ وَمَنْ
أَبِيسْ فَضْفَاضُ الرَّدَاءِ وَالْبَنَنَ
لَا يَرْهَبُ الرَّغْدُ وَلَا رَبُّ الزَّمْنَ
فَرَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ وَقَالَ: عَبْدُ الْمَسِيحِ، عَلَى جَمِيلٍ مُشَيْحٍ (أَيْ سَرِيعٍ)،
إِلَى سَطْحِ، وَقَدْ أَوْفَى عَلَى الضرِّحِ، بَعْثَكَ مَلِكُ بَنِي سَاسَانَ، لِارْتِبَاجِ
الْإِيَوانَ، وَخَمْدَوْ النَّيَارَنَ، وَرَوْقَيَا الْمَوَذَانَ، رَأَى إِبْلًا صِعَابَا، تَقْوَدُ خِيلًا عِرَابَا،
قَدْ اقْتَحَمَتْ فِي الْوَادِيِّ، وَاتَّشَرَتْ فِي الْبَلَادِ، يَا عَبْدُ الْمَسِيحِ، إِذَا كَثُرَتْ
الْتَّلَوَةُ، وَظَهَرَ صَاحِبُ الْهَرَاؤَةِ، وَفَاضَ وَادِيُ السَّمَاءَةِ، وَغَاضَتْ بَحِيرَةُ
سَاوَةِ، وَخَمْدَتْ نَارُ فَارَسَ، فَلَيْسَتْ بَابِلُ لِلْفَرَسِ مُقَاماً، وَلَا الشَّامُ لِسَطْحِ
شَامَا، يَمْلِكُ مِنْهُمْ مُلُوكُ وَمُلَكَاتٍ، عَدْدُ سَقْطَ الشَّرَفَاتِ، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ
آتٍ... إِلَّا... .

أَمَا فِي الْقَصْةِ التَّالِيَةِ فَنَرِي الْكَاهِنُ يَحْذِرُ بَنِي الْحَارِثَ بْنَ كَعْبٍ مِنْ
الْإِغْارَةِ عَلَى بَنِي تَمِيمٍ، وَإِلَّا تَعْرَضُوا لِلْهَزِيمَةِ الْمُرَّةِ عَلَى أَيْدِيهِمْ: "كَانَ بَنُو تَمِيمٍ
قَدْ أَغَارُوا عَلَى لَطِيمَةٍ (قَافْلَة) لَكْسَرِي فِيهَا مَسْكٌ وَعَنْبَرٌ وَجَوْهَرٌ كَثِيرٌ،
فَأَوْقَعُ كَسْرَى بَهْمٍ وَقَتْلَ المَقَاتِلَةِ، وَبَقِيتْ أَمْوَالُهُمْ وَذَرَارِهِمْ فِي مَسَاكِنِهِمْ لَا
مَانِعٌ لَهَا". وَيَلْغُ ذَلِكَ بَنِي الْحَارِثَ بْنَ كَعْبٍ مِنْ مَدْحُوحٍ، فَمَشَى بَعْضُهُمْ إِلَى
بعْضٍ وَقَالُوا: اغْتَنِمُوا بَنِي تَمِيمٍ. فَاجْتَمَعُتْ بَنُو الْحَارِثَ وَأَحْلَافُهَا مِنْ زِيدٍ

وحزم بن ريان في عسكر عظيم وساروا يريدون بني تميم، فحضرهم كاهن كان مع الحارث، واسمه سلمة بن المغفل، وقال: إنكم تسيرون أعقاباً (أى بعضكم في إثر بعض)، وتغزوون أحباباً، سعداً ورباباً، وتردون مياها جباباً (جمع "جبَّ"، وهو البُر)، فتلقون عليها ضرابة؛ وتكون غبتمكم تراباً، فاطيعوا أمري ولا تنفزوا تميماً. ولكنهم خالفوه وقاتلوا بني تميم فهزموا هزيمة نكراً".

ولا شك أن أى عاقل سينكر ما جاء فى مثل تلك الأخبار من أن هذا الكاهن أو ذاك كان يستطيع أن يعلم الغيب، إذ الغيب شأن من شأن الله سبحانه وتعالى لا يمكن أحداً من عباده أن ينفذ من خلال حججه إلا إذا أوحى الله بشيء من ذلك لنبي من آنبيائه. ونبينا عليه السلام مأمور في القرآن بأن يقول: "وعنده (أى عند الله) مفاصح الغيب، لا يعلمها إلا هو"، "قل: لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله"، "قل: بما كنت بذعماً من الرسل، وما أدرى ما يفعَل بي ولا بكم"، "ولو كتَبْتَ أعلم الغيب لاستكثرتَ من الخير وما مَسَنَّ السوء"، "عالِم الغيب (أى الله سبحانه) فلا يُظهر على غيه أحداً" إلا من ارتضى من رسول، فإنه يَسْلُك من بين ومن خلفه رصداً "ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم" ... إلخ. فماذا يكون الكاهن بالنسبة للنبي، وبخاصة إذا علمنا أن الكهنة كانوا يزعمون أنهم إنما يستعينون في مهمتهم الكهنوية بالشياطين، ولم يكن ينزل

عليهم الوحي من السماء من لدن الله سبحانه وتعالى؟ وعلى هذا فنحن مضطرون إلى أن نرفض ما ورد أيضاً في تلك الأخبار ذاتها من كلام منسوب للكهنة في هذه الظروف من مثل: "عبد المسيح، على جمل مُشَيْخ (أي سريع)، إلى سطح، وقد أُوْفِي على الصريح، بعثك ملِك بنى ساسان، لارتجاج الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا المُبَدَّان. رأى إبلًا صِعَاباً، تقدُّد خيلاً عِرَاباً، قد اقتحمت في الواد، واتشتَّرت في البلاد. يا عبد المسيح، إذا كُرِّت التلاوة، وظهر صاحب الهراء، وفاض وادي السماوة، وغاصت بحيرة ساوة، وخدمت نار فارس، فليست بابل للفُرْس مُقَاماً، ولا الشام لسطح شاماً. يملك منهم ملوك وملكات، عدد سقوط الشرفات، وكل ما هو آت آت"، أو "انهضي غير رقحاء ولا زانية، وستلدين ملكاً يسمى: معاوية"، لأنَّه إذا كانت الواقعة لم تحدث أصلاً فبطبيعة الحال لا يمكن أن يكون الكلام المتصل بها قد قيل! أما قول الكاهن الذي تقرَّ بين هاشم بن عبد مناف وأمية بن عبد شمس فهو لا يزيد عن أن يكون حُكْماً في قضية اجتماعية ليس إلا، ولا يدخل في باب الإنباء بالغيب.

إذن فالباحثون الذين ينكرون صحة هذه الأسْجَاع ويرُوْن أنها من صنع المتأخرین ليسوا على خطأ مطلقاً، وإن قام رَفَضُ الدُّكُور شوقي ضيف لها مثلاً على أساس طول الزمن المنصرم ما بين صدور الأقاويل المنسوبة إلى أولئك الكهان والوقت الذي سُجِّلت فيه (العصر الجاهلي/

(٢٢٤)، وهو سبب غير كاف كما قلنا عند حديثنا عن الأمثال، إذ إن الذاكرة العربية مشهورة بالحفظ من كثرة ما كان أصحابها يعتمدون عليها ويستعملونها لاتشار الأمية بينهم، مما من شأنه أن يجعلها أَحَدَ وأنشط من الذاكرة التي لا يستخدمها أهلوها على هذا النطاق الواسع. كما أن هذه الأقوال، حسبما بينا، تقوم على السجع، وهو ما يساعد على المزيد من الحفظ، فضلاً عن أنها ليست من الطول ولا ما احتفظت به الكتب من نصوصها من الكثرة بحيث تسبب للذاكرة عَنَّا في الاحتفاظ بها، إلى جانب اعتقاد الجاهلين أنها حق لا ريب فيه.

وقد يُفهم من كلام بعض الدارسين أن هذه الأقوال هي أساس السجع أو أنها على الأقل كانت النصوص المسجوعة الوحيدة في التراث الجاهلي، فقد كتب مثلاً المستشرق الألماني كارل بروكلمان أن "السجع هو القالب الذي كان يصوغ العرافون والكهنة فيه كلامهم وأقوالهم" (تاريخ الأدب العربي / ٥١)، وهو ما يتابعه عليه عبد السatar فوزي ود. عز الدين إسماعيل، إلا أنها لم يكفيها بذلك، إذ ذكر الأول أن "تلك الأسجاع حتى البقية التي استعملت في عصر الإسلام الأول قد نبعت جمِيعاً من سجع الكهان الجاهلين يوم كانت تلك الأنقام المتوازنة ضرورية لتمثيل الكاهن، ولا غنى عنها لتصوير شخصيته وإثبات علمه وتحديد ما يصدره من أقضية وأحكام، وما يشيع عنه من وحي وإلهام" (عبد السatar فوزي /

السجع وأطوار استعماله في أدب العرب / الشركة المركزية للطباعة والإعلان / بغداد / ١٩٦٦م / ٣٢)، كما ورد في حديث الثاني عن السجع وسيطرته على النثر الفنى في العصور الإسلامية أن هذا الاتجاه هو "امتداد لما عُرف في الجاهلية قديماً باسم سجع الكهان" (د. عز الدين إسماعيل / المكونات الأولى للثقافة العربية - دراسة في نشأة الأدب والمعارف العربية وتطورها / ط٥ / أبواللو للنشر والتوزيع / ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م / ٤٢)، وإن كان في موضع آخر قد أضاف "الأمثال" أيضاً إلى "سجع الكهان"، وذلك في النص التالي الذي يعرض فيه لأولية الشعر العربي وكيفية نشوئه، إذ قال: "هناك فرض راجح حتى الآن يذهب فيه أصحابه من علماء تاريخ الأدب إلى أن الشعر العربي قد نشأ في جاهلية العرب الأولى نتيجة لتطور العبارات المسجوعة التي كان يستخدمها الكهنة في رقائهم وتبؤاتهم، والعبارات الأخرى المسجوعة في بعض الأحيان التي كان تجري على الألسنة مجرى المثل" (المراجع السابق / ٩). وعلى كل حال فليس بين أيدينا ما يبين متى بدأ السجع في النثر العربي، وهل يرجع فعلًا إلى "سجع الكهان" وحده أو إليه هو و"الأمثال" كما في النص الأخير أو هو أمر سابق على ذلك، فضلًا عن أن خطب الجاهليين ومنافرائهم وخصوماتهم كانت (كما هو معروف) مسجوعة في غير قليل من الأحيان. وعلى هذا فالتفكير العلمي الحذر يقتضينا أن نكون على ذكر

من هذه الحقيقة قبل أن نصدر حكماً كهذا فنفضل في بدأء الوهم. كل ما نستطيع أن نقوله هو أن السجع كان معروفاً للجاهلين وأنه كان مستعملاً لا في كلام الكهان والكافئات وحده، ولا في كلامهم والأمثال فقط، بل في الخطب والمنافرات والخصومات أيضاً، إذ هو يليّ حاجـة فطرية في النفس، فالكلام الموسيقى الموزان على اختلاف ألوانه هـاف النفس حين تضطرم بنواع النشوة والألم، والسرور والحزن، والرضاـء والغضب، والبسـط والقبض، تبعـه في يسرٍ من أعماقهـا سـيـالاً متـدارـكاً كـأنـا تـجدـ فيـ تـنـاغـمـ الفـاظـهـ وـرـنـينـ أـجـراـسـهـ وـتـعـاطـفـ حـرـوفـهـ مـنـفـسـاـ لـهـذـاـ الجـيشـانـ العـنـيفـ وـتـطبـيقـاـ لـهـذـهـ الثـورـةـ الصـاخـبةـ" (على الجندي / صور البديع - فن الأسجع / دار الفكر العربي / ٩ / ١)، وليس ثمة ما يلـجـعـناـ إـلـىـ القـولـ بـأنـ السـجـعـ نـشـأـ فـيـ أحـضـانـ السـتـخـرـ وـالـكـهـانـةـ وـالـمعـابـدـ وـماـ إـلـىـ ذـلـكـ كـماـ يـرـدـدـ بـعـضـ الدـارـسـينـ الـعـربـ تـأـثـرـاـ بـمـاـ يـقـولـهـ الـمـسـتـشـرـقـونـ فـيـ هـذـاـ الجـالـ، لأنـ ماـ كـانـ مـرـتـبـطاـ بـالـفـطـرـةـ لـيـحـتـاجـ إـلـىـ سـحـرـ أوـ كـهـانـةـ أوـ مـعـابـدـ، وـبـخـاصـةـ أـنـاـ نـعـلمـ مـاـ تـمـيـزـ بـالـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ مـنـ الـموـسـيـقـيـةـ وـالـرـنـينـ وـالـتـواـزنـ مـاـ يـجـعـلـهـ فـيـ ذـاتـهـ بـيـنةـ جـدـ مـنـاسـبـةـ لـأـرـدـهـارـ السـجـعـ وـالـشـعـرـ.

السجع إذن لم يكن مقصوراً على الكهان، بل استخدمه الخطباء والمتنارون والمفاررون وضاربو الأمثال أيضاً، ذلك أنه مجرد أداة، مثله في هذا مثل الجمل والسيف والقلم وغيرها من الوسائل والأدوات التي

يصطعنها البشر في حياتهم، لا يحمل أية دلالة عقائدية أو أخلاقية في جد ذاته، على عكس ما يقول المازرون الذين يحاولون الإيهام بأنه ليس هناك فرق بين دعوة الرسول عليه السلام ووظيفة الكهان. ومن هنا نجد السجع مستعملاً في القرآن كما كان مستعملاً لدى الكهنة، رغم أنهم إنما كانوا يستخدمونه في الكذب والإيهام بالتبؤ بالغيب وفي التغافل بين المنافقين على السمعة وما أشبه، على حين أنه في القرآن مستعمل في الدعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر والتحث على البر والعدل والصدق والعلم والأخوة والتراحم والتعاون والمساواة ونبذ الربا والقمار والخمر... إلى آخر ما نعرف من القيم الكريمة النبيلة التي رفع لواءها القرآن الكريم والتي تعارض مع دعاوى الكهانة وخرافاتها. ولقد نزل القرآن بنفس اللغة التي كان الكهان يتحدثونها، وهي اللغة العربية، كما أن الرسول كان يمارس حياته، فيما عدا كهاتهم ووثنيتهم، مثلما كانوا يمارسون حياتهم، فكان يأكل ويشرب ويترىجح مثلما كانوا يأكلون ويشربون ويترسّدون، وكان يركب الناقة والمحصان مثلما كانوا يفعلون. وفي القرآن نقرأ أن كتاب الله قد "نزل بلسان عربي مبين"، وهذا أمر طبيعي كي يفهمه العرب الذين اتجه إليهم القرآن أول ما اتجه: "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيّن لهم"، والسجع جزء من هذا اللسان الذي نزل به القرآن، وهو عنصر جذاب لأولئك القوم، فain وجه الحرج في أن يستعين به كتاب الدعوة الجديدة حتى تنصت إليه

الأسماء وتصنّعُ له القلوب والعقول؟ وبقرب من هذا قال د. جواد على، الذي علق على أسلوب المفسرين في توجيهه قَسْمَ القرآن بالتين والزيتون وما إلى ذلك قائلاً: "وفي القرآن قَسْمٌ بالسماء وبالعاديات وبالتين والزيتون وغير ذلك ذهب المفسرون في سبب القسم بها مذاهب، ففسروا وتأنّوا. ولو فكروا أن هذا النوع من القسم هو أسلوب من أساليب العرب في القسم قبل الإسلام، وأن القرآن إنما نزل بلسان العرب، ولذلك اتبع طريقهم في القسم لأنه خاطبهم على قدر عقولهم وبلغتهم، عرفوا السبب. ولا زال الأعراب على سجيدهم القدية في القسم بهذه الأشياء، يُقسّمون بها كما يُقسّم المتحضر بأعز شيء عنده" (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام / ٤/ الفصل الخاص بالنشر).

كما أن المسلمين الأوائل قد أدوا العُمرَة في السنة التالية لغزوة الحديبية حين كانت الكعبة لا تزال تعج بالأوثان، فهل يمكن اتهامهم بأنهم كانوا يمارسون طقوساً وثنية؟ بل إن الحاج المسلمين كانوا وما فتوا يأتون من الطقوس ما كان الوثنيون يمارسون بعضه مما بقى من حج الخليل عليه السلام، لكن العبرة بالنية، إذ يتبعى ألا ننسى أن الجاهليين الوثنيين كانوا يحتفظون رغم وثنيتهم بعض شعائر الحج الصحيحة التي ورثوها عن آبائهم إبراهيم عليه السلام، وهو ما احتفظ به الإسلام أيضاً في هذه العبادة. ومثله السجود، الذي كان بعض الوثنيين يؤدونه للشمس وللقمم، ويؤديه

ال المسلمين أيضاً، لكنَّ الله تعالى لا لهذين الجرائمِ السَّمَاوَيْنِ... وهكذا. إن السجع مجرد أداة أو وسيلة، والأداة لا تُعاب في حد ذاتها، بل للفرض السوء الذي تستعمل فيه.

لقد كان سجع الكهان يدور في تلك الوثنية ويتم في بيوت الأوثان، بخلاف السجع في القرآن، الذي حارب الوثنية وقام الرسول الذي نزل عليه ذلك الكتاب الكريم بهدم أواثانها وبيوتها. كما كان الكهان يتقاضون أجراً على ما يقولون، أما النبي فلم يكن يمد يده إلى مال أحد، وأيات القرآن الكريم واضحة تمام الوضوح في هذا: "قل: لا أسألكم عليه أجراً. إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرًا لِلْعَالَمِينَ"، "وَمَا أَسَأَلْكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ. إِنَّ أَجْرَى إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ"، "قُلْ: مَا أَسَأَلْكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مِنْ شَاءَ أَنْ يَتَخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا"، "قُلْ: لَا أَسَأَلْكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا مَوْدَةً فِي الْقُرْبَى". ليس هذا فحسب، بل لقد حرم الإسلام أيضاً عليه وعلى أهل بيته جمعياً أن يأخذوا شيئاً أثني عشر من أموال الصدقات، وكلنا يعرف أنه عليه الصلاة والسلام كان يتشدد في هذا أيما تشدد! ولقد حارب الإسلام والرسول الكهانة والمتكهنين حرباً شعواء، وأبدى عليه السلام امتعاضه وتقوره الشديد من طريقهم المتكلفة الغامضة في التسجيع، فكيف يقال إنه صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد جرى في رِكَابِهِمْ وَتَهَجَّهُمْ كَمَا يردد بعض الرُّقعَاءِ؟ ومصداقاً لهذا تلقت النظر إلى القصة التالية وما فيها من دلالات على موقف الرسول

الأكرم من "سجع الكهان". أيضا لا من "الكهان" أنفسهم فقط، فقد "اقتلت امرأتان من هذيل، فرمت إحداهما الأخرى بحجر قتلتها وما في بطنها، فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقضى رسول الله أن دية جنينها غرّة: عبد أو وليدة. وقضى بدية المرأة على عاقتها، وورثها ولدّها ومن معهم. فقال حمل بن النابغة المذلي: يا رسول الله، كيف أغرم من لا شرب ولا أكل، ولا نطق ولا استهل؟ فسئل ذلك يطل. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما هذا من إخوان الكهان"، من أجل سجعه الذي سجع، إذ كان كهان الوثنية، كما سبق بيانه، يخدعون الناس ويسيعون الوهم في العقول ويصطعنون أسلوبًا متلكلاً لا يعني كشف الحق بل يمكن للباطل تكيناً، فأراد عليه السلام من المسلمين أن يتبنوا هذا الأسلوب العنف الضار. إنما إذن طريقان مختلفان، وأسلوبان في استعمال السجع لا يلتقيان!

ثم لو كان صلى الله عليه وسلم يجري على سُنة الكهانة والمتكهنين كما يزعم الظاعنون، فكيف يفسر المنطعون الذين يتهمنه هذا الاتهام الأرعن أنه قد حورب من قومه، على حين أن الكهان كانوا مخط رهبة ورجاء من هؤلاء القوم، ولم يكن أحد من العرب ليفكر في مس شعرة من شعرهم؟ بل كيف يفسرون معاداة الكهان له عند إعلانه دعوته لو أنه كان واحداً منهم، وهم الذين لم ننسع قط أنهم عادوا أى واحد من أبناء

مهنthem؟ بل إننا لم نسمع أيضاً أن أحداً منهم اتهم الرسول عليه السلام رغم هذا بأنه قد أخذ منهم أسلوبه، فكيف تفسر ذلك أيضاً؟ صحيح أن قومه قد اتهموه بأنه كاهن، لكنهم اتهموه كذلك بأنه شاعر، وبأنه مجنون، وبأنه ساحر، وكل تهمة من هذه تناقض التهمة الأخرى، كما أن أيّ منها لا ينطبق على حاله صلى الله عليه وسلم، مما يدل على أنها مجرد دعاءً ومزاعمٍ كاذبةٍ متخبطٍ مبعثها الحقد والغبطة . وأكبر دليل على بطلان هذه الأقوال هي أنهم هم أنفسهم قد اتهموا إلى الإيمان به لاحسِّين كل تلك الاتهامات ومكذِّبين أنفسهم بأنفسهم ! بل لقد عرضوا عليه أنه إنْ كان الذي يأتيه ربِّا من الجن فإنهم على استعداد لبذل كل ما يملكون في تطبيبه حتى يُشفوْه منه، وكان جوابه التمسك بما يدعوه إليه وعدم الالتفات إلى هذه السخافات والمزيد من التقافى في دعوتهم إلى تبذل الأوثان وسبيل الكهان . وقد اتهما هذا كله، كما هو معروف، بأنَّ دخل الجميع في دين الله على بكرة أبيهم بما فيهم الكهان أنفسهم وأهلوهم، فعلام يدل هذا أيضاً لو كان عند من يَتَهمونه مثل هذه التهمة عقول تفكُّر وتبصر؟ إن القرآن حملة مستمرة على الشيطنة والشياطين، فبأيَّة الله كيف يُسْوغ في منطق العقل أن يقال إنه عليه السلام كان يستعين بالشياطين؟

ولقد أكثر أعداء الإسلام في العصر الحديث من المستشرين والمبشرين ومن يلوذ بهم ويردد مزاعمهم من الكلام في أقسام القرآن التي

استهلتْ بها بعض السور المكية مثل: "والنجم إذا هوى* ما ضلَّ صاحبكم وما غوى* وما ينطق عن الهوى* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ"؛ "والسماء والطريق* وما أدرك ما الطريق؟* النجم الثاقب* إِنْ كُلُّ نفسٍ لَمَا عَلَيْهَا حَافِظٌ"؛ "قَ وَالْقَرَآنُ الْجَيِّدُ"؛ بل عجبوا أنْ جاءهم مُنذِرٌ منهم فقال الكافرون: "هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ"؛ "حُمْ وَالْكِتَابُ الْمَبِينُ"؛ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مِبَارَكَةٍ. إِنَّا كَمَا مُنذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٌ"؛ أمراً من عندنا" . . . إِنَّمَا، قائلين إِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّمَا يَقْلِدُ الْكَهَانُ فِي طَرِيقِهِم بالقسم بظاهر الطبيعة كالمذى رُوِيَّ عن الكاهن الخزاعي من قوله: "وَالقمر الباهر، والكوكب الظاهر، والنجم الماطر، وما بالجو من طائر، وما اهتدى بعلم مسافر، من مُنْجِدٍ وغائزٍ"؛ والمذى رُوِيَّ عن سواد بن قارب الدؤسيي وقوله: "والسماء والأرض، والغمر والبرض، والقرض والفرض، إِنَّكُمْ لِأَهْلِ الْهَضَابِ الشَّمْسِ، وَالنَّخْلِ الْعُمْ، وَالصَّخْرِ الصَّمْ، مِنْ أَجَابِ الْعِيَطَاءِ، وَسَلَمَى ذَاتِ الرَّقْبَةِ السَّطْعَاءِ" . . . أُقْسِمُ بِالضِيَاءِ وَالْحَلَكِ، وَالنَّجْوَمِ وَالْفَلَكِ، وَالشَّرْوَقِ وَالدَّلَكِ، لَقَدْ خَبَاتُ بُرْثَنْ فَرَخَ، فِي إِعْلِيَطِ مَرْخَ، تَحْتَ آسِرَةِ الشَّرْخِ . . . وَالسَّحَابِ وَالرَّابِ، وَالْأَصْبَابِ وَالْأَحَدَابِ، وَالنَّعَمِ الْكِتَابِ، لَقَدْ خَبَاتُ قُطَّامَةَ فَسِيطَ، وَقُدَّةَ مَرِيطَ، فِي مَدَرَّةِ مَدَرِّي مَطِيطِ . . . أُقْسِمُ بِالسَّوَامِ الْعَازِبِ، وَالْوَقِيرِ الْكَارِبِ، وَالْجَدِ الرَّاكِبِ، وَالْمُشَيْحِ الْحَارِبِ، لَقَدْ خَبَاتُ نَفَاثَةَ فَنَنَ، فِي قَطْبِيَعِ قدَّ مَرَنَ، أَوْ أَدِيمٍ قدْ جَرَنَ . . . أُقْسِمُ

بنفَنْف اللُّوح، والماء المسفوح، والفضاء المندوح، لقد خبات زَمَعَة طَلَأْ
أعفر، في زِغْبَنَة أديمٍ أحمر، تحت حِلْسِنْضُو أَدْبَر... والناظر من حيث
لا يُرى، والسامِع قبل أن يناجِي، والعالم بما لا يُدْرِي، لقد عَنَتْ لَكُمْ عَقَابٌ
عجزاء، في شِغَانِيبِ دُوْحَةِ جرداء، تحمل جَدْلًا، فتمارِيم: إما يَدًا وإما
رَجُلًا، وكالذى رواه الماحظ لعرَى سَلَمَةَ مِنْ أَنَّهُ قَالَ: "والأَرْضُ وَالسَّمَاءُ،
وَالْعَقَابُ وَالصَّقَاعُ، وَاقِعَةٌ بِقَعَاءٍ، لَقَدْ فَرَّ الْجَهْدُ بَنِي الْعَشَرَاءِ، لِلْمَجْدُ
وَالسَّنَاءِ"، وكالذى جاءَ فِي حِدِيثِ زِبَرَاءِ الْكَاهِنَةِ مَعَ بَنِي رَئَامَ مِنْ قَضَاعَةَ،
إِذْ قَالَتْ: "وَاللُّوحُ الْخَافِقُ، وَاللَّيلُ الْغَاسِقُ، وَالصَّبَاحُ الشَّارِقُ، وَالنَّجْمُ
الْطَّارِقُ، وَالْمُرْزُنُ الْوَادِقُ، إِنْ شَجَرُ الْوَادِي لَيَأْدُو خَتْلًا، وَيَخْرُقُ أَنْيَابًا عَصْلًا،
وَإِنْ صَخْرُ الطَّوْدِ لَيُنْذِرُ ثُكَلًا، لَا تَجْدُونَ عَنْهُ مَعْلًا"، وَأَخِيرًا كَالذِي نُسِّبَ
إِلَى سَلْمَى الْهَمْدَانِيَّةِ وَمَا أَبْدَتَهُ مِنْ رَأْيٍ فِي حَرِيمِ الْمَرَادِيَّ: "وَالْخَفْوُ وَالْوَمِيسُ،
وَالشَّفْقُ كَالْإِحْرِيْضُ، وَالْقُلْلَةُ وَالْحَضِيْضُ، إِنْ حَرِيمًا لَمْتَعِيْحُ الْحِيزِ، سِيدُّ مَرِيزِ،
ذُو مَعْقَلِ حَرِيزِ، غَيْرُ أَنِّي أَرِي الْحُكْمَةَ سَتَظْفَرُ مَنْهُ بَعْثَرَةً، بَطِيْثَةَ الْجَبْرَةِ".
ويجد القارئ هذه النصوص تحت عنوان: "خطب الكاهن" و"خطب
الكواهن" من كتاب "جمهرة خطب العرب" للمرحوم الأستاذ أحمد رزكي
صفوت.

ونظرة سريعة إلى هذه الأقسام تتبئنا أنها في التنبؤ بالغيب أو في
التنفير بين المنافسين على الاقتخار بحسن الأحداث بين الناس، على حين

أن أقسام القرآن تهدف إلى تأكيد حقيقة اليوم الآخر أو صدق الوحي القرآني أو ضلال الشرك والشركين وأشباه ذلك. وهذا لو أغضبنا البصر عن سخف التغافر ومخالفته لأصول الاجتماع الصحيحة التي ينبغي أن تقوم على الإعلاء من شأن العمل النافع ووجوب التجدد في القيام به بحيث يضع فاعله مصلحة المجتمع والبشرية نصب عينيه وينظر الأجر والمثوبة من الله ولا تشغل نفسه الرغبة في الاشتهرار بين الناس كي يتحدثوا عنه بالحق أو بالباطل، وكذلك لو جاريـنا الاعتقاد الجاهلي الآخرق وصدقـنا أن الكهان يستطيعون أن يتـبـأـوا فـعـلاـ بالـغـيـبـ، وهو ما سبق أن قـلـنا إـنـهـ أمرـ مستـحـيلـ، إلاـ أنـاـ بـخـرىـ هـنـاـ معـ المـتـهـمـينـ إـلـىـ أـقـصـىـ حدـ حتـىـ نـبـينـ لـهـمـ وـلـنـ يـقـرـأـونـ ماـ يـكـبـونـ أـنـ كـلـمـهـمـ لـاـ يـقـومـ عـلـىـ أـيـ أـسـاسـ. كـمـاـ أـنـ الـأـقـاسـ الـخـاصـةـ بـ"ـالـزـرـابـ وـالـأـصـبـابـ وـالـأـحـدـابـ وـالـنـعـمـ وـالـسـحـابـ وـالـغـامـ الـمـاطـرـ وـالـمـرـءـ الـوـادـقـ وـالـصـفـعـاءـ وـالـعـقـابـ وـالـذـئـبـ وـالـغـمـرـ وـالـقـرـضـ وـالـفـرـضـ وـالـبـرـضـ وـالـلـوـحـ الـخـافـقـ وـتـقـنـفـ الـلـوـحـ وـالـمـاءـ الـمـسـفـوحـ وـالـفـضـاءـ الـمـنـدـوـحـ وـالـخـفـوـ وـالـوـمـيـضـ وـالـشـفـقـ الـذـىـ يـشـبـهـ الإـحـرـيـضـ وـالـقـلـةـ وـالـخـضـيـضـ وـالـحـلـكـ وـالـفـلـكـ وـالـدـلـكـ وـالـسـوـامـ الـعـازـبـ وـالـوـقـيرـ الـكـارـبـ وـالـجـدـ الـرـاكـبـ وـالـمـشـيـحـ الـحـارـبـ وـالـنـاظـرـ مـنـ حـيـثـ لـاـ يـرـىـ وـالـسـامـ قـبـلـ أـنـ يـنـاجـيـ وـالـعـالـمـ بـاـ لـاـ يـدـرـىـ"ـ هـىـ أـقـاسـ مـلـ تـرـدـ فـيـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ، وـفـيـ الـمـقـابـلـ فـإـنـ الـقـسـمـ بـ"ـالـقـرـآنـ الـجـيدـ وـالـقـرـآنـ ذـىـ الذـكـرـ وـالـكـلـابـ الـمـبـيـنـ وـالـكـلـابـ الـمـسـطـورـ فـيـ رـقـ مـنـشـورـ وـالـبـيـتـ الـمـعـمـورـ وـالـسـقـفـ

المعروف والبحر المسجور والصفات صَفَّا والذاريات ذَرْوَا والمرسلات عُرْفَا
 والنازِعات غَرْقَا وللليالى العشر والشَّفَعُ والوَتَرُ وما خَلَقَ الذَّكَرُ والأُنثى
 والضَّحَى والتين والزَّيْتون وطُور سِينِين وهذا البلد الأمين والعاديات ضَبْحًا"
 هو أيضاً قَسْمٌ لا تعرفه النصوص المنسوبة إلى أولئك الكهان، مثلاً لا تعرف
 التركيب القرآني التالي: "لَا أَقْسِمُ بِكَذَا"، ولا بمعنى عبارة "هل في ذلك
 قَسْمٌ لِذِي حِجْرٍ؟" أو "وَإِنَّه لَقَسْمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ" أو "بَلْ الْأَمْرُ كَذَا
 وَكَذَا" بعد القسم، أو بمعنى حرف هجائي أو أكثر قبله، كما في قوله
 تعالى: "وَالْفَجْرُ * وَلِيَالٍ عَشْرُ * وَالشَّفَعُ وَالوَتَرُ * وَاللَّيلُ إِذَا يَسْرُرُ * هل في
 ذلك قَسْمٌ لِذِي حِجْرٍ؟"، فلا أقسام بواقع النجوم* وإنه لقسم لَوْ تَعْلَمُونَ
 عَظِيمٌ* إنَّه لِقُرْآنٍ كَرِيمٍ* فِي كَابِ مَكْتُوبٍ* لَا يَمْسِهُ إِلَّا الْمَطَهَرُونَ"، "صَ
 وَالْقُرْآنُ ذِي الذَّكَرِ" بل الذي كفروا في عِزَّةٍ وشِقَاقٍ، "فَوَالْقُرْآنُ
 الْجَيْدُ" بل عجبوا أن جاءهم مُنذِرٌ منهم فقال الكافرون: هذا شَيْءٌ
 عَجِيبٌ، "إِنَّه لِقُرْآنٍ حَكِيمٍ" إنك من المرسلين* على صراط
 مستقيم". ثم إن النصوص المضمنة لأقسام الكهان تميز بأنها قصيرة
 النفس، إذ سرعان ما ينتهي النص الذي وردت فيه هذه الأقسام عقب
 الفراغ من نبياً الغيب المزعوم أو التناقض بين المتخاطفين مما لا يستغرق إلا
 بضع جمل قصيرة ليست بذات عدد، على حين أن السورة القرآنية تمضي

بعد ذلك متناولةً أمور العقيدة الجديدة وقيمها الأخلاقية وما إلى هذا، وقد تطول طولاً كثيراً لا تنسّب بينه وبين نصوص الكهانة المدعاة.

وهذا كلّه إذا لم قل إن هذه الأقسام الكهنوتية إنما صيغت على غرار أقسام القرآن الكريم: إنما من صنعواها في العصر العباسي ونسبوها زوراً للجاهليين، وإنما من كهان صاغوها بعد نزول القرآن فوضعوه أماماً لهم وأخذذوه، أو إن الكهان السابقين على نزول القرآن إنما كانوا يقلدون، فيما صحت نسبة لهم، أسلوباً من أساليب القسم كان مستعملاً فيما نزل من وحي على الأنبياء العرب السابقين كهودٍ وصالحٍ وشعيّب. والعجيب أن كاتب مادة "سجع" في الطبعة الجديدة من "The Encyclopaedia of Islam" الاستشرافية لا يختلف مع الباحثين الآخرين في وسم كلّ ما نسب للكهان من أقوال بأنها لا تبعث على الاطنان، ومع هذا يتمّ الرسول بأنه يقلد في قرآن سجع أولئك الكهان، وإن أضاف أنه قد عمل في ذات الوقت على أن يصب في هذا القالب الكهنوتي القديم المبادئ الجديدة التي أتى بها ! أي كما يقال في المثل: "عنزة ولو طارت" !

ولني لأشعر بآفأ بعض الناس القرآن الكريم ثم يقولوا بعد ذلك إنه من كلام الكهان، أو إنه تقليد لكلام الكهان ! إن هذا الادعاء فهو دليل على أن صاحبه كاذب بالثلث أو منكوس العقل مطموس البصيرة. ولسوف

أورد هنا نص ثلات سور صغيرة هي "البلد" و"الليل" و"الضحى" وأنرك القارئ (إذا كان دينه ومذهبه) وجهاً لوجهٍ أمامها ليسأل ضميره بصدق وأمانة: أمثل هذا الكلام هو من وحي الشياطين أو يجري من جاء به على سُنَّةِ الشَّيَاطِينَ؟ يقول جل جلاله: **"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"*** لا أقِسْمُ بِهَا الْبَلْدَ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَا الْبَلْدَ (٢) وَوَالِدٌ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا إِنْسَانَ فِي كَبِيرٍ (٤) أَيْخُسْبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لَبَدًا (٦) أَيْخُسْبُ أَنْ لَمْ يَرِهِ أَحَدٌ (٧) اللَّمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَقَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُثُرَ رَقَبَةٌ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْعَبَةٍ (١٤) تَيَمَّاً ذَا مَقْرَبَةِ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَرْبَةِ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبَرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْيَمِنَةِ (١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ السُّثَامَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ (٢٠)" ، **"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"*** وَاللَّيلُ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارُ إِذَا تَجْلَى (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣) إِنَّ سَعِينَكُمْ لَشَتَّى (٤) فَامَّا مَنْ أَغْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَيِّسَرَهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَامَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَيِّسَرَهُ لِلْعُسْرَى (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهِ إِذَا تَرَدَى (١١) إِنَّ عَلَيْنَا لِلْهُدَى (١٢) وَإِنَّ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى (١٣) فَإِنَذِرْنَاهُمْ نَارًا تَلْظَى (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا أَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَبَ وَتَوَكَّلَ

(١٦) وَسَيُجْنِبُهَا الْأَقْرَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَرْكَى (١٨) وَمَا لَأَحَدٍ
عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا بِغَاءٍ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ
يُرْضِى (٢١)"، "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * وَالصَّحَى (١) وَاللَّيلُ إِذَا
سَجَى (٢) مَا وَدَعَكَ رَبِّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلِلآخِرَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٤)
وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبِّكَ قَرْضًا (٥) أَلَمْ يَجْدُكَ بَيْمًا فَأَوَى (٦) وَوَجَدَكَ
ضَالًا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَإِنَّمَا الْبَيْتِمَ فَلَا تَنْهَرْ (٩) وَأَمَّا
السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدَثَ (١١)". والله إن كان هذا
الكلام النبيل الكريم هو من كلام الكهان، ومن وحي الشيطان، فليس هناك
شيء يستحق الثقة إذن في دنيا الإنسان!

في ضوء ما مررنا به من نستطيع أن نضع الكلام التالي لعبد الله إبراهيم
(المدرس الذي خدع جامعة قطر لسنوات موهما إليها أنه "أستاذ"
مساعد)، على حين أنه لم يكن سوى "مدرس" أتى من إحدى الجامعات
اللبيبة حيث يسمون "المدرس" الجامعي: "أستاذ مساعد"، و"الأستاذ
المساعد": "أستاذ مشاركاً"، ثم لم ترض له بحاجته وعراقته في التدريس
إلا أن يمضي شوطا آخر في الخداع اللثيم الأثير فتقدم بأوراقه للترقية إلى
"أستاذ" مرة واحدة، لكن القدر كان له بالمرصاد، إذ اكتشفت اللجنة التي
كانت مكلفة بالنظر في أوراق التقديم للدرجة الجديدة، بالمصادفة المخضة،
أنه مدرس كبير، ولما تحققت الجامعة القطرية من حقيقة الأمر أنهت عقده،

وإن كانت أكفت لسوء الحظ بهذا فلم تحوله مجلس تأديب، فاستمر يزعم المزاعم ويقترب على الجامعة وإدارتها وأسانتنها الأكاذيب، وكل ذلك لأن من البشر بشرًا تخينى جلد الوجه لا يخجلون. وهذا نص ما قاله ذلك المجلس عن الإسلام والرسول والكهان)، وأرجو من القارئ أن يرهف أذنه ليلقط ما بين السطور، وقبل ذلك ما في السطور نفسها، من افتراءات ضالة مضلة عن تشابه القرآن وأسجاع الكهان: "استأثر ضرب آخر من النثر باهتمام طائفه من الكهان والمتبنين والمعبددين في العصر الجاهلي، ونسب إليهم لأنه كان الوسيلة المعبرة عن مقاصدهم وأفكارهم. ويدو أن جملة الظروف الثقافية القائمة آنذاك قد دفعت هذا النوع من النثر إلى مقدمة أنواع النثر الجاهلي لأنه ارتبط بالنظم الدينية التي كانت قائمة آنذاك. ومن ناحية منطقية فإن الإسلام جبّ مضمون شر الكهان وأساليبه السجعية، ولكن إذا نظر للأمر من ناحية واقعية فإن واقع الحال يكشف أن جوهر الرسالة الإسلامية والأسلوب الذي جاءت فيه لم يكن يتعارض مع شر الكهان. ذلك أن الموضوعات التي كانت تتوارد فيه هي إجمالاً أخلاقية وعظية تخللها ضروب من التأويلات الغامضة، أما أساليبه فيغلب عليها الأسجاع التي تمايل إلى حد ما الصيغ السجعية التي تجدها في الخطاب والنصوص الدينية. ومن المتحمل أن أصل التعارض كان قائماً في الوظائف التي يقوم بها كل من النبي والمتنبي، أي الخلاف في وظيفة الرسول ووظيفة

الكاهن. ذلك أنه لو نظر إلى ماهية النصوص بعيداً عن سلطة المقدس لوجدنا أن المثال في المضامين والأساليب لا يفضي إلى نوع من التعارض الحقيقى، ويرجح أن ظروفاً واقعية وتاريخية أوجدت ذلك التعارض، وفرضت نوعاً من التناقض بينهما" (عبد الله إبراهيم/ سيرة المرويات النثرية السردية الجاهلية/ شبكةذاكرة الثقافية). هذا ما قاله عبد الله إبراهيم، وتعليقنا هو: هل صحيح أن جوهر الرسالة الإسلامية والأسلوب الذى جاءت فيه لم يكن يتعارض مع شر الكاهن كما زعم هذا المدرس؟ هل كان الكاهن يدعون إلى الصدق والعفة واعطاء الفقراء والمساكين واليسامي وأبناء السبيل حقوقهم فى أموال القادرین؟ هل كانوا يحثون على النظافة والنظافة وإماتة الأذى عن الطريق وتنظيف الأسنان وتمشيط الشعر؟ هل كانوا يحضرون على العلم ويرؤونه أفضل ألوان العبادة؟ هل كانوا يحتمسون الناس إلى تشغيل عقولهم والحرص على استقلال آرائهم فلا يكونوا إمعات؟ هل كانوا حرصاء على نشر الوعى بالسنن الكونية فى السماوات والأرض ودنيا البشر؟ هل كانوا يقولون إن من الذنب ذنب لا يمكنها إلا العمل؟ هل كانوا يحاربون الوثنية والثنوية والتثليث وتأليه البشر والحمداد ويقرون حياتهم على دعوة التوحيد؟ هل كانوا يقولون إن لكل داء دواء، وعلى البشر أن يبحثوا عن الدواء لكل مرض يصيبهم؟ هل كانوا يصلون ويزكون ويصومون؟ هل كانوا يعملون بكل جدهم على الوقوف بكل قواهم ضد

الاستغلال والظلم والجبروت والتأله؟ هل كانوا يقولون باليوم الآخر والحساب الإلهي والجنة والنار؟ هل كانوا ينكرون في عظمة الله وما ينبغي له من التمجيد والتحميد والطاعة والإخبار؟ هل كانوا يؤمنون بالرسل والنبين السابقين؟ وأخيراً وليس آخرها: هل كانوا يكرهون مهنتهم القائمة على الكذب والتديس والتضليل ويتوعدون من يقصدهم بسخط الله عليهم؟ ثم هل كان الرسول يدعى المقدرة على التنبؤ بالغيب؟ أم هل كان يأخذ أجراً على دعوته؟ أم هل كان يفتخر بأنه على صلة بالشياطين؟ أم هل كان يلوذ ببيوت الأوثان؟ أم هل كان يورث نيران المفاخرة بين الناس ثم يلف ليفصل بينهم؟ لقد كان الكهنة يفعلون هذا كله وأشنع منه، أما الرسول فقد كانت سبيله هي سبيل الظهر والأمانة والسمو والعقل والعلم والحضر. ألا إن المدلسين لففي ضلال مبين!

الخطب

يتناول الجاحظ في كتابه: "البيان والتبين"، ضمن ما يتناول، الخطابة عند العرب في العصر الجاهلي مبيناً أنهم كانوا بارعين في هذا الميدان براءة منقطعة النظير حتى إنهم لم يكونوا عادةً بحاجة إلى الاستعداد المسبق لمواجهة الجموع التي يتطلبهها هذا الفن، بل كان الكلام في مثل تلك المواقف ينشال عليهم اثنالا، إذ كانت قرائتهم خصبة ممتازة وتفوقهم في ميدان الأحاديث العامة معروفاً لا يحتاج إلى برهان، وبخاصة أنهم كانوا يدرّبون أبناءهم عليها منذ وقت مبكر. يُبدِّأ أن من الباحثين العرب المُحدَّثين من يرى أنهم كانوا يُعدون خطبهم ويهيئون أنفسهم للاقتالها مسبقاً، فهذه طبيعة الإبداع الأدبي كما يقول (د. إحسان النص / الخطابة العربية في عصرها الذهبي / دار المعارف / ١٩٦٣م - ١٦١٧)، وهو ما تميل النفس إليه، وبخاصة أن من خطبهم التي تبعث على الثقة بصحتها ما كان يخلِّيه السبع، مما يصعب تصور اثناله على لسان الخطيب ارتاحلاً، وهو من الأسباب التي دفعته للشك في بعض الخطب الجاهلية المتقللة بالتسجيع والمحسنات البدعية كما سيأتي لاحقاً. كما كانت لهم تقاليد مشهورة في إلقاء الخطب يحرصون عليها أشد الحرص، منها لبس العمامات واتخاذ المخصوصة، أي العصا. وفي كتاب الجاحظ المذكور آنفـاً نماذج من الخطب التي تركها لنا الجاهليون، ومعها أسماء عدد من اشتهروا بالتفوق في ذلك

الباب، وهذا كله يبرهن أقوى برهان على أن العرب في ذلك العصر كانت لهم خطبهم وأحاديثهم، وأن هذه الخطب والأحاديث لم تُضع رغم أنهم كانوا أمّة أميّة في غالب أمرها، إذ كانت حافظتهم لاقطة شديدة الحساسية، كما أن اعزازهم بكلامهم وتقاليدهم قد ضاعف من اهتمامهم بحفظ نصوص خطبهم المشهورة.

وبالمثل يؤكد جرجى زيدان أن العرب في ذلك العصر كانوا خطباء مصاقع بتأثير طبيعتهم النفسيّة وأوضاع حياتهم السياسيّة والاجتماعيّة، إذ كانوا ذوي نقوس حساسة أبية تعشق الاستقلال وتبغض العبوديّة أشد البعض، كما كثُر فيهم الفرسان آنذاك. والخطابة، حسبما يقول، تناسب عصور الفروسيّة حيث تغلب الحماسة على النقوس وتكون للكلمة البليغة المتهبة مكانة عظيمة عاليّة، فضلاً عن أنهم كثيراً ما كانوا يتّافرون ويتفاخرون بالأنساب والأحساب مواجهةً عن طريق المناظرات والخطب، إلى جانب كثرة وفودهم في المناسبات المختلفة، وبخاصة عند الملوك، مما كان يستلزم قيام الخطباء للحديث في تلك الظروف، وهم في العادة شيوخ القبائل ورؤساء الناس. كما ذكر أيضاً أنهم كانوا يدرّبون فتيانهم على إتقان هذا الفن منذ حداثتهم، وأنهم كانوا يحفظون خطبهم ويتوارثونها جيلاً بعد جيل، ومن هنا كانت عنايّتهم الشديدة بها وبصياغتها (جرجي زيدان / تاريخ آداب اللغة العربية / مراجعة وتعليق د. شوقي ضيف / ١٦٧ -

١٦٩). و"كان مفروضاً في الخطيب الجاهلي أن يعرف القبائل والأنساب والواقع والتاريخ حتى تجتمع له من ذلك مادة الخطبة حين ينافر أو يفاخر أو يهادن أو يحرض قومه على قتال أو يدافع عن أحساب قومه" (محمد عبد الغنى حسن/ الخطيب والمواعظ/ دار المعارف/ ١٩٥٥م/ ٢١).

هذا ما يقوله ثلاثة من كبار مؤرخي الأدب العربى قدماً وحديثاً، بيد أن للدكتور طه حسين رأياً مختلفاً تماماً عما سمعناه منهم، إذ يؤكد أن العرب لم يتركوا لنا آية آثار أدبية تشيرية البتة لا خطيباً ولا غير خطيب: فالنشر من جهة يحتاج إلى بيئة ثقافية متقدمة لم تكن متوفرة في جزيرة العرب قبل الإسلام، ومن جهة أخرى لم يصل إلينا عنهم شيءٌ من ذلك مكتوب، فكيف نطمئن إذن إلى ما يقال إن العرب قد خلفو لنا من خطب وحكم ووصايا وأسجاع كهنوتية؟ لكننا نراه، بعد أن أكد هذا في أسلوب حاسم قاطع، يرجع على عقبيه الفهري مستثنياً من شكه هذا بعضاً من النثر، وهو الأمثال، التي يعود فيقول إنها أقرب إلى الأدب الشعبي منها إلى النثر الفنى الذي يقصد، أما الخطابة فإنها تستلزم حياة خصبة جياشة، وحياة العرب قبل الإسلام لم تكن فيها سياسة قوية ولا نشاط دينى عملى، بل كانت قائمة على التجارة، وهى لا تحتاج إلى خطابة ولا تعين عليها، أو على الحروب والغزوات، وهذه إنما تحتاج إلى الحوار والجدل لا إلى الخطاب (طه حسين/ في الأدب الجاهلي/ دار المعارف/ ١٩٦٤م/ ٣٢٩).

(٣٣٢). ولعله لهذا السبب نبحث عبئاً، في كتاب "التجييه الأدبي" الذي ألفه طه حسين مع أحمد أمين وعبد الوهاب عزام ومحمد عوض محمد، عن أي حديث يتعرض للخطابة في العصر الجاهلي، إذ كلما ورد ذكر الخطابة عند العرب وجدنا كاتب الفصل، وأغلب الظن أنه طه حسين نفسه، يقزز مباشرة إلى الحديث عنها بدءاً من العصر الإسلامي فهاياها إلى العصر الحديث متجاهلاً تمام التجاهل أي كلام عنها فيما قبل الإسلام! (التجييه الأدبي / مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر / ١٣٥٩هـ - ٤١١٩٤٠م) وما بعدها، وكذلك ٧٣ وما بعدها)، رغم تأكيد الكاتب أيضاً أن "تاريخ الخطابة يكاد يكون مقارنا للتاريخ الإنساني: نشأ بنشائه، وارتقي برقيه"، وأنه "لهذا رُويت لنا الخطب منذ عُرف التاريخ"، وأنه متى توفر عامل الحرية وشعور الأمة بسوء حالتها وتطلعها إلى حالة أفضل انتعش هذا الفن انتعاشاً كبيراً (المراجع السابقة / ٤٠ - ٣٨)، وهو ما تحقق للعرب في ذلك العصر حسبما هو معلوم، إذ لم يكن لهم دولة تمارس سلطانها عليهم وينزلون لها عن حظ من حريةهم واستقلالهم، كما أن السخط على الأوضاع كان منتشرًا بين كثير منهم آنذاك، هذا السخط الذي كان إحدى عُذَّة الإسلام في مواجهة الجahلية وأوضاعها الباطلة التي جاء ليغيرها إلى ما هو أفضل. ثم إنه من غير المنطقى أن يخترع العرب في عصور التدوين كل تلك الخطب وكل أولئك الخطباء من العدم ودون أن يقوم من بينهم من يفضح

هذا التزيف، وكان الأمة قد صارت كلها أمة من الكاذبين أو من الكاذبين والسدج المغفلين الذين يجوز عليهم مثل هذا الخداع دون أن يثير فيهم إنكاراً أو حتى دهشة واستغراباً !

على كل حال فطه حسين إنما يسير في إنكاره للنثر الجاهلي على ذات الـ درب المتختبط الأهوج الذي سار عليه في تقديره للشعر الجاهلي كله تقريباً مشارياً المحرق من جلیوٹ في خُرُقه وضلاله وعَمَّي منطقه وبصيرته ! وفوق ذلك فمن الصعب على العرب، كما يلاحظ بحق عبد الله عبد الجبار ود. محمد عبد المنعم خفاجي، أن يرتفعوا فجأة في ميدان الخطابة هذا الارتفاع الذي يقرّ هو به بعد الإسلام لو كانوا لا يعرفون الخطابة في الجاهلية أو كانت خطاباتهم على الأقل من التقافة وعدم الغناء بالموضوع الذي يزعم طه حسين (انظر كتابهما: "قصة الأدب في المجاز في العصر الجاهلي" / مكتبة الكليات الأزهرية/١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م / ٢٠٣ - ٢٠٢). كذلك قد قفَّشه د. محمد عبد العزيز المواتي قفَّشه بارعةً بحقِّ حين لفت الاتباع إلى أن طه حسين عندما انكر وجود الخطابة الجاهلية إنما كان اعتماده في ذلك الإنكار على خلوّ العصر الجاهلي من الحضارة والحياة المدنية الراقية، مع أنه سبق أن أقام إنكاره لصحة الشعر الجاهلي على القول بأن ذلك الشعر لا يمثل الحياة العقلية الراقية لدى الجاهليين (د. محمد عبد العزيز المواتي/ قراءة في الأدب الجاهلي/ ط٧/ دار الثقافة العربية/

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م / ٢٨٦ - ٢٨٧). ونضيف نحن أنه، رغم تقديرنا أن يكون للجاهليين أي نشاط ديني عملي، كان قد أقام إنكاره للشعر الجاهلي على عدة أساس من بينها أن هذا الشعر لا يعكس حياتهم الدينية. فإذاً حياة دينية يعكسها إذا لم تكن لهم حياة دينية عملية أصلاً كما يقول هو بعزمته لسانه؟ أي أنه يقول بالشيء وقىده لقوله ما يريد تقريره دون مبالغة باعتبارات المنطق أو حقائق التاريخ، مع الاستعارة بالسفسطة السخيفة التي لا تتحقق حقيقة ولا تُبطل باطلًا! ولقد فات د. طه أن هناك نصوصاً شعرية جاهلية تذكر الخطابة والخطباء في ذلك العصر، وهو دليل آخر على وجود الخطابة والخطباء أوائله. ومن هذه الأشعار قول ربيعة بن

مقرئ الضبي:

ومنْ تَقْتُمْ عِنْدَ اجْمَاعِ عَشِيرَةٍ
خَطَبَوْنَا بِنْ الْعَشِيرَةِ يُفْضِلُ
وقول أبي زيد الطائي:

وَخَطِيبٌ إِذَا تَمَعَرَّتِ الْأُو
جَهِ يَوْمًا فِي مَاقْطَعِ شَهِودٍ
وقول النجاشي الحارثي:

وَخَطِيبٌ إِذَا تَمَعَرَّتِ الْأُو
جَهَ يَشْجُى بِهِ الْأَذْنَاصِيمُ
وقول بلاء بن قيس الكاناني:

الْأَبْلَغُ سُرَاقَةً يَا ابْنَ مَسَالٍ
فِنْسُ مَقَالَةِ الرَّجُلِ الْخَطِيبِ
وقول ملاطيم الغزارى:

ذَكَرَتْ بِرُؤْيَتِي حَمَلَ بْنَ بَدْرٍ
وَصَاحِبَهُ الْأَذْدَأَ عَلَى الْخَطِيبِ

وقول أوس بن حجر:

لدى الملوك ذوى أيدٍ وأفضالٍ؟

أم من يكون خطيب القوم إذ حفلوا

وقول عامر بن فضالة:

بكل خطيبٍ يترك القوم كُلُّمَا

وهم يَدْعَمُونَ القول في كلِّ محفلٍ

وقول عامر المخاربي:

إذا الْكَرْبُ أَنْسَ الْجِبْسَ أَنْ يَكَلَّمَا

يَقُومُ فَلَا يَعْيَا الْكَلَامُ خَطَبَيْنِ

وقول عمرو بن الإطباة:

يَوْمَ الْمَقَالَةِ بِالْكَلَامِ الْفَاصِلِ

وَالْفَاقِلِينَ فَلَا يَعْبُرُ خَطَبَيْهِمْ

وقول عمرو بن كلثوم:

وَأَبِي الَّذِي حَمَلَ الْمِيزَنَ وَتَاطَقَ الْ

وقول أميمة بنت أمية:

خَطَبَيْبِ مِصْقَاعٍ مُّثْرِبٍ

وَكُمْ مِنْ نَاطِقٍ فِيهِمْ

وقول زبان بن سيار الفزارى:

كُلُّ خَطَبَيْبِ مِنْهُمْ مَوْفُ

والمعروف أن كل وفد من الوفود القبلية التي قدمت على النبي في المدينة في العام التاسع للهجرة كان يضم بين أفراده خطباء يتكلمون باسم الوفد ويتبادلون الخطابة مع الرسول عليه السلام ومن حوله من الصحابة، وهذا أيضا من الأدلة التي لا يمكن نقضها مهما سفط الدكور طه. وقد تعرض لذلك د. جواد على في المجلد الرابع من كتابه: "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام" (في الفصل الخاص بـ"النثر"، تحت عنوان "الخطابة")،

إذ قال: "والخطابة عند الجاهليين حقيقة لا يستطيع أحد أن يجادل في وجودها، ودليل ذلك خطب الوفود التي وفدت على الرسول، وهي لا تختلف في أسلوب صياغتها وطريقة إلقائها عن أسلوب الجاهليين في الصياغة وفي طرق الإلقاء. ثم إن خطب الرسول في الوفود وفي الناس وأجوبته للخطباء هي دليل أيضاً على وجود الخطابة بهذا الأسلوب وبهذه الطريقة عند الجاهليين"، وإن كان من رأيه أن هناك خطباً جاهلية منحولة وأن نصوص الخطب الصحيحة لم تصل إلينا كما قيلت، بل دخلها التغيير بفعل الزمن وضعف الذاكرة البشرية، وبخاصة أن الخطب ليست كالشفر، أى ليس فيها وزن وقافية يساعدان على حفظها.

وعلى عكس ما يُهَرِّف به طه حسين هنا على النحو الذي كان معروفاً عنه عند عودته من أوروبا متصوراً أنه قد حاز العلم كلَّه وأن القول ما قال المستشرقون، الذين كان يردد كلام من يشككُون منهم في تاريخ العرب وأمجادهم بعجره وبجره دون أن يترى لحظة واحدة للتثبت مما يقوله هذا الصنف الموقر منهم، على عكس ذلك يؤكد أحمد حسن الزيات أن العرب، بنفوسهم الحساسة ونزعاتهم إلى الحرية والاستقلال وميلهم إلى الفخار وما كانوا يتسمون به من غيرة ومسارعة للنجدة وبلاغة في القول وذلاقيَّة في اللسان وما عرفوه من الوفود والسفارات، كانوا مهيئين للتفوق في ميدان الخطابة، مبيناً أن خطبهم كانت تسم بالقصير والسبع حتى تعلق

بالذهن علُوقاً سهلاً (أحمد حسن الزيات/ تاريخ الأدب العربي /١٩). وبالمثل يقرر د. على الجندي بحق أنه قد "ثبت أن (العرب) كانوا يخطبون في مناسبات شئ: فبالخطابة كانوا يحرضون على القتال استارةً للهم وشحذاً للعزائم، وبها كانوا يمحضون على شن الغارات حباً للغنية أو بثاً للحمية رغبةً في الأخذ بالثار، وبالخطابة كانوا يدعون للسلم حقناً للدماء ومحافظةً على أواصر القربي أو المودة والصلة، ويتحببون في الخير والتصافى والتأخى، ويفغضون في الشر والتباغض والتباذل، وبالخطابة كانوا يقومون بواجب الصلح بين المنافرين أو المتنازعين، ويؤدون مهام السفارات جلباً لمنفعة أو ذرءاً لبلاء أو تهيئة بئنة أو تعزية أو مواساة في مصيبة، فوق ما كانت الخطابة تؤديه في المصاهرات، فتلقي الخطب ربطاً لأواصر الصلة بين العشائر وتحبيب المتصاهرين بعضهم في بعض" (د. على الجندي/ فى تاريخ الأدب الجاهلى /٢٦٤ - ٢٦٥). وعلى هذا الرأى أيضاً نجد د. أحمد الحوفي، الذى يسارع مع هذا إلى الاستدراك بأن العرب، بخلاف ما كان الحال عليه لدى الرومان واليونان، لم يكونوا يعدون خطبهم قبل إلقائها، بل كانوا يعتمدون على الارتجال والبدية، ومن هنا جاءت خطبهم لمعاً بارقةً دون تفصيل أو تحضير (أحمد محمد الحوفي/ فن الخطابة/ مكتبة نهضة مصر / ١٥٠ - ١٥١). أما السابعى يومى فieri أن خطباء العرب كانوا يحفلون بخطبهم أياماً حفول، "فيتخرون لها من المعانى أشرفها، ومن

الآلفاظ أفصحها، لتكون أشدَّ وقعاً على النفوس وأبعد تأثيراً في القلوب وأيقظ للهم وأحدثَ على العمل" (تاريخ الأدب العربي - ج ١ في العصر الجاهلي / مكتبة الأنجلو المصرية ٩٧). ومن قَبْل سَرَدَ ابن وهب الموضوعات التي كانت تدور عليها الخطاب آنذاك قائلاً إن "الخطب تسعمل في إصلاح ذات البين واطفاء ناثرة الحرب (أى نارها وشرها) وحنالة الدماء والتسديد للملك والتأكيد للعهد وفي عقد الإملاك (أى الزواج) وفي الدعاء إلى الله عز وجل وفي الإشادة بالمناقب (الأعمال الجليلة) وكل ما أُريد ذكره ونشره وشهرته بين الناس" (ابن وهب / البرهان في وجوه البيان / تحقيق حفني شرف / مطبعة الرسالة ١٩٦٩ / ١٥٠).

ومن العجيب أن طه حسين قد عاد بعد ذلك فأقر بوجود خطب في الجاهلية، إلا أنها لم يبق لنا منها شيء (انظر كتابه: "خصام وقد" / طه / دار العلم للملائين / ١٩٧٩ / ٢١٢).

أما د. شوقى ضيف فيسلك سبيلاً مخالفة للفريقين جميعاً، إذ بينما نراه يؤكد وجود الخطابة والخطباء في الجاهلية وتتوفر العوامل السياسية والدينية والاجتماعية التي تكفل لها الازدهار، إذ به يشك في كل ما وصلنا تقريراً عن ذلك العصر من خطب. والسبب في هذا الشك لديه هو بعد الشقة الزمنية بين العصر الجاهلي وعصر التدوين أيام العباسين. ومع ذلك نجده يقول إن من زيفوا نصوص الخطب الجاهلية كانوا بلا شك

يعتمدون على نصوص جاهلية صحيحة وضعوها أمامهم واحتذوا بها . وعلى هذا فإذا وجدنا أن كثيرا من الخطب والفالحات والمنافرات التي ثُسِّبَ إليهم بجودة سجوعة مثلاً فمعنى هذا أنهم في الجاهلية كانوا يجودون ويستجعون في خطبهم وفالحاتهم ومنافراتهم فعلاً (د. شوقي ضيف / العصر الجاهلي / ٤١٩ - ٤١٠ ، والفن ومذاهبه في النثر العربي / ط٧ / دار المعارف / ١٩٧٤ / ٣٣ - ٣٨) .

إلا أنها، مع احترامنا للأستاذ الدكتور وقدرنا للفصلين اللذين كسرَهما لهذا الموضوع في كتابيه المشار إليهما وما فيهما من علم وتحليل، لا نستطيع أن نسلم بما يقول على علاته، إذ لا معنى لكلامه هذا إلا أنه قد وصلت فعلاً إلى مخترعى الخطب الجاهلية نصوصاً صحيحة منها قاسوا عليها ما صنعوا ونسبوه إلى الجاهليين، فلماذا رمُّوها خلف ظهورهم وأكْفُوا بما اخترعوه رغم شَيْج الأصل لهم؟ وإذا كانوا لأمر ما غير مفهوم قد أقدموا على هذا الصنْع الآخر فكيف لم يُتَّخْ لهذه النصوص الصحيحة من يعرف لها قدرها ويحفظها من الضياع؟ وقبل ذلك منْ قال إنْ بُعد الزمن ما بين الجاهلية وعهد التدوين كفيل بإنساء العربي تراث آبائه وأجداده؟ لقد عُرِفَ العربي بذَاكرته القوية وحرصه على تاريخه وأدبه واعتزازه بالكلمة الفنية التي ينتجها شرائطها أو شعراً، وقيام حياته الثقافية على الحفظ والرواية والتمثيل المستمر بناتج قرائح الشعراء والمتكلمين

حيث كان من الصعب أشد الصعوبة اتساخ تراثه القولى. فإذا أضفنا أن كثيراً من خطبهم في الجاهلية كان مسجعاً مجنساً مُرائى فيه الموازنة وقصر الجمل، فضلاً عن قصر الخطاب نفسها تبين لنا أن حفظ مثل هذا النساج الأدبي لم يكن بالمهمة الشديدة الصعوبة، بل المسوغة، كما يتخيل البعض مما قياساً على ما يخبرونه من الذاكرة العربية الحالية، وهي ذاكرة لا تسمح بما كانت تسمح به سلفتها الجاهلية من حِدة ودقَّة، متلماً لا يتسع أصحابها بما كان يتمتع به نظراً لهم أو وذاك من اهتمام فائق بالكلمة المشورة والمشورة رغم تصورنا العكس اعتماداً على ظواهر الحال المضللة. ولا ننس أيضاً أن العقل الجاهلي لم يكن ينوه بما نتوء به الآن من مشاغل ومتاعب تصرفنا صرفاً عن الحفظ والاهتمام برواية الأشعار والخطاب على النحو الذي كان عليه الوضع في العصر الجاهلي. وفوق هذا فإن الأُمية التي كانت تسم مجتمعهم بوجه عام قد دفعتهم دفعاً إلى الاستعمال المكثف والمستمر للذاكرة بما يجعلها ناشطة نشاطاً لا نعرفه الآن. وعلى كل حال فقد قال الأستاذ الدكتور أيضاً، كما رأينا، إن الذين اخترعوا الخطاب ونسبوها للجاهليين قد قاسوها على ما وصلهم من خطب جاهلية حقيقة، أي أن بعْد الزمان لم يكن له ذلك التأثير الذي عزاه إليه وعلل به شكه في صحة خطب الجاهلية التي بلغتنا. الواقع أن آخر كلامه يتقصّ أولاً بكل أسف! بيد أن قولنا بقدرة الذاكرة العربية على تأدية

المحفوظ من صوص الخطابة الجاهلية شيء، والزعم بأنها قد أدته على وجهه لم تخرم منه شيئاً، فلم تضف إليه ما ليس منه ولم تنقص منه ما كان فيه ولم تبدل بعض الفاظه وعباراته أو معانيه ومضايقته، هو شيء آخر مختلف، فالذاكرة البشرية، ككل شيء في عالم البشر، عرضة للسهو والكلال والاتباس. ودعنا من النصوص التي زيفت تزييفاً واخترعَت اختراعاً مما ستناوله شيء من التفصيل فيما يلى حينما تقف عند طائفة من النصوص الخطابية التي ليست قمينةً في نظرنا بالقبول والاطمئنان.

ومن هذه الخطاب المنسوبة للجاهلية التي يصعب علينا القول بجاهليتها تلك الخطاب التي يفترض أن أصحابها يتباون فيها بمحىء "محمد" عليه الصلاة والسلام، إذ السؤال هو: من أين لأصحابها هذا العلم بالغيب؟ إن الغيب هو من شأن الله سبحانه وتعالى وحده لا يعلمه أحد سواه. يقول بهذا القرآن والحديث وينطق به العقل والمنطق. ولو أن الذين قالوا هذا كانوا يهوداً أو نصارى لقلنا: ربما قرأوه في كتبهم. لكنهم لم يكونوا هوداً ولا نصارى، فأئن لهم ذلك؟ حتى لو كانوا من أهل الكتاب فإن الذي في القرآن أن عيسى قد بشرَ برسول يأتي من بعده اسمه "أحمد" (الصف / ٦)، على حين أن اسم النبي في هذه الخطاب هو "محمد"! ليس ذلك فحسب، بل هناك أسلمة أخرى لا نستطيع الإجابة عليها لو قبلنا صحة هذه الخطاب، وهي: لو أن ما جاء في تلك الأحاديث صحيح

تاريجياً، فكيف لم يجاجِّ النبى به قومه فيقول لهم مثلاً: لقد سبق أن سمعتم بأن هناك نبياً من قریش سوف يظهر، اسمه محمد، فكيف تكفرون بي بعد أن قال كهانكم أنفسهم ذلك قبل ولادتي؟ لكننا نظر فى كلامه صلى الله عليه وسلم وفي القرآن الكريم فلا يجد أثراً لمثل هذه الحجة التي كان من شأنها أن تعضد موقفه عليه السلام أيها تعضيد! كذلك في بعض هذه الخطب قد تُسَبِّ لکعب بن لؤيًّا جد النبى البعيد، ولو كان هذا صحيحاً فكيف لم يذَّکُر عليه السلام أهل بيته الذين كفروا به كعنه أبي لحب مثلاً أو عمه أبي طالب بما قاله جدهم، ونحن نعرف أن الجاهلين كانوا يتمسكون أشد التمسك بما كان عليه الآباء والأجداد كما تبدئ في رد الأخير فيما يروون عنه عند موته، إذ اعتذر عن الدخول في دعوة محمد على أساس أنه لا يحب المخالفه عن دين آبائه؟ وعلى هذا فإننا نقف مرتاتين أشد الريبة إزاء الخطبة التالية التي ينسبونها لجد النبى ذاك، والتي يقول فيها: "اسمعوا وغوا، وتعلموا تعلموا، وتفهموا تفهموا. ليل صاج، ونهار صاج، والأرض مهاد، والجبال أوتاد، والأولون كالآخرين، كل ذلك إلى بلاء. فصلوا أرحامكم وأصلحوا أحوالكم، فهل رأيتم من هلك رجع، أو ميتاً نُشر؟ الدار أماكم، والظن خلاف ما تقولون. زُبُوا حرمكم وعظموه، وتمسكوا به ولا تفارقوه، فسيأتي له نباً عظيم، وسيخرج منه نبي كريم".

نَهَارٌ وَلَيلٌ وَاخْتِلَافُ حَوَادِثٍ سَوَاءٌ عَلَيْنَا حُلُوها وَمَرِيهَا

يُنوبان بالآحدات حتى تأويا
 وبالنعم الصافي علينا سُورُها
 يُنوبان بالآحدات حتى تأويا
 لها عَقْدٌ ما يستحيل مَرِيرُها
 على غفلة يأتي النبي محمدٌ فَيُخْبِرُ أخباراً صَدُوقاً خَيْرُها

"يا ليتني شاهد فحواه دعوته حين العشيرة تبغى الحق خذلانا"
 وهذه الخطبة، فوق ذلك، تحوى على أشياء أخرى تدفعنا إلى مزيد
 من التشكيك فيها، منها أن العبارة التي يُمْسِي فيها كعب أن يكون حجاً
 عند ظهور محمد تذكّرنا بما قاله في نفس المعنى ورقة بن نوفل، الذي كان
 هناك سبب وجيه لكلامه هذا، ألا وهو أنه كان يخاطب النبي عليه
 السلام، فمن الطبيعي أن يُمْسِي مثل هذه الأمانة، إذ ها هو هذا النبي
 الموعود واقفاً أمامه يحاذه أطراف الحديث حول ما رأه في الغار عند
 ظهور جبريل له، فيجدر من واجبه الإنساني على الأقل أن يصرّه بما ينتظره
 من متابع عند بدء الدعوة الفعلية ويُظْهِر له تعصيده ويرفع من روحه
 المعنية. أما كعب فكانت بينه وبين النبي الذي يتحدث عنه من الزمن ما
 لا معنى معه لما قال. وفضلاً عن ذلك فمِيزَم القرآن الكريم واضح
 وضوهاً كثيراً في خطبته أسلوباً ومعنىً كما في قوله: "والأرض مهاد،
 والجبال أوتاد، والألوان كالآخرين... فسيأتي له نباً عظيم، وسيخرج منه
 نبيٌّ كريم"، وهو ما يذكّرنا بقوله تعالى: "ألم يجعل الأرض مهاداً * والجبال
 أوتاداً *...؟" (النبا / ٧)، "قل: إن الأولين والآخرين * لم يموعدن إلى

مِيقَاتُ يَوْمِ مَعْلُومٍ" (الواقعة/٤٩ - ٥٠)، "قُلْ هُوَ نَبِأٌ عَظِيمٌ" (ص/٦٧)، ""وَلَقَدْ فَتَّا قَبْلَهُمْ قَوْمًا فَرْعَوْنَ وَجَاءُهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ" (الدخان/١٧). ولو كانَ كَعْبَ قَالَ ذَلِكَ فَعْلًا لَكَانَ حُجَّةً لِلْمُشْرِكِينَ يُشَهِّرُونَهَا بِكُلِّ بِسَاطَةٍ وَشَمَائِلَةٍ فِي وِجْهِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَاتِلَيْنَ لَهُ: مَا بِالْكَ تَأْخُذُ كَلَامَ جَدْكَ وَتَدَعُّى أَنَّهُ مِنْ وَحْيِ السَّمَاوَاءِ؟ ثُمَّ مَا مَعْنَى نَصْحَةِ إِبْرَاهِيمَ أَنْ يَتَسَكَّوْا بِالْبَيْتِ الْحَرَامِ وَلَا يَفَارِقُوهُ؟ هَلْ سَمِعَ أَحَدٌ أَنْ قَرِيشًا فَكَرِتَ يَوْمًا فِي شَاءٍ مِنْ هَذَا الْقَبْيلَ، وَهِيَ الَّتِي لَمْ يَكُنْ لَهَا شَرْفٌ فِي الْعَرَبِ إِلَّا شَرْفُ الْقِيَامِ عَلَى أَمْرِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ؟ وَبِالْمُنَاسِبَةِ لِمَاذَا لَمْ يَعْرِجْ كَعْبٌ عَلَى الْأَوْثَانِ الَّتِي كَانَتْ فِي بَيْتِ اللَّهِ فَيَزْجُرُ قَوْمَهُ عَنْ عِبَادَتِهَا وَتَقْدِيسِهَا مَا دَامَ يَتَحَدَّثُ بِهِذَا السُّرُورِ وَالْإِيمَانِ عَنْ نَبْوَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ وَالطَّرِيفُ أَنَّ أَحَدًا مِنْ سَامِعِيهِ لَمْ يَخْتَرْ لَهُ أَنْ يَسْقُسِرَ مِنْهُ عَمَّنْ يَكُونُ مُحَمَّدًا هَذَا، أَوْ يَسْغُربَ ظَهُورَ نَبِيِّ الْعَرَبِ أَصْلًا. بَلْ إِنَّهُ لِمَنْ وَاضَعَ أَنْ كَعْبًا، حَسْبُ الْخُطْبَةِ الَّتِي طَالَعْنَاها لَوْنًا، لَمْ يَكُنْ يَدُورُ فِي بَالِهِ أَنْ مُحَمَّداً هَذَا لَنْ يَكُونُ أَحَدًا آخَرَ غَيْرَ حَفِيدٍ مِنْ أَحْفَادِهِ سَيُولَدْ بَعْدَ عَدَةِ أَجْيَالٍ!

وَعَلَى نَفْسِ الشَاكِلَةِ تَجْرِي الْأَحَادِيثُ التَّالِيَةُ الْمُنْسُوبَةُ إِلَى خُنَافِرِ بْنِ التَّوَمِ الْحِمَيرِيِّ وَشَافِعِ بْنِ كَلْبِ الصَّدِيقِ وَسَطِيعِ الذَّئْبِيِّ وَشِقْ أَنْمَارِ وَعُقَيْرَاءِ الْكَاهِنَةِ عَلَى التَّوَالِي:

١- حديث خنافر بن التوأم الحميري مع رئيه شصار: كان خنافر بن التوأم الحميري كاهنا، وكان قد أُوتى بسطة في الجسم وسعة في المال، وكان عاتيا. فلما وفدت وفود اليمن على النبي وظهر الإسلام أغار على إبل لمراد فاكتسحها، وخرج بأهله وماهه ولحق بالشحر، فخالف جودان بن يحيى الفرضي، وكان سيدا منيعا، ونزل بواط من أودية الشحر مُخصباً كثير الشجر من الأيلك والعربين. قال خنافر: وكان رئيسي في الجاملية لا يكاد يتغيب عنِّي، فلما شاع الإسلام فقدت مدة طويلة، وساعني ذلك. فبينا أنا ليلة بذلك الوادي نائما إذ هوى (النحدر في الجح) هوى العقاب، فقال: خنافر؟ قلت: شصار؟ فقال: اسْمَعْ أَقْلُ. قلت: قُلْ أَسْمَعْ. فقال: عَنْ تَقْنُمْ. لكل مدة نهاية، وكل ذي أمد إلى غاية. قلت: أجل. فقال: كل دولة إلى أجل، ثم ياتح لها حِول. اتسخَت النحل، ورجعت إلى حقائقها الملل. إنك سَجِيرٌ (أي صديق) موصل، والنصح لك مبذول، وإنك آنسَتْ بارض الشام نَفَرًا من آل العذام (يقصد قبيلة من الجن)، حَكَاماً على الحكام، يَذْبَرُونَ (يقرأون) ذا رونق من الكلام، ليس بالشعر المؤلف، ولا السجع المتكلف، فأصغيت فزُجْرُتْ، فعاودتْ فظِلْفَتْ (أي مُنْعَتْ)، قلت: بم تَهِينُونْ؟ والام تَعْرُونْ؟ قالوا: خطاب ثَكَار، جاء من عند الملك الجبار، فاسمع يا شصار، عن أصدق الأخبار، واسلك أوضح الآثار، شَجَّ من أوار النار. قلت: وما هذا الكلام؟ فقالوا: فرقان بين الكفر والإيمان. رسول

من مُضَرٍّ، من أهل المدرَّ، ابْتَعَثَ فظُهُرَ، فجَاءَ بِقَوْنٍ قَدْ بَهَرَ، وَأَوْضَحَ شَهْجَا
قد دَهَرَ، فِيهِ مَوَاعِظُ الْمَنِ اعْتَبَرَ، وَمَعَادٌ لِمَنْ ازْدَجَرَ، الْفَ الْبَالَى الْكَبِيرَ.
قلَتْ: وَمَنْ هَذَا الْمَبْعُوثُ مِنْ مُضَرٍّ؟ قَالَ: أَحْمَدُ خَيْرُ الْبَشَرِ. فَإِنْ آمَنْتَ
أُغْطِيَتِ الشَّبَرَ (أَيِّ الْخَيْرِ)، وَإِنْ خَالَفْتِ أَصْلِيلَتِ سَقَرَ. فَآمَنْتُ يَا حَنَافَرَ،
وَأَقْبَلْتُ إِلَيْكَ أَبَادَرَ، فَجَانِبَ كُلَّ كَافِرٍ، وَشَانِعٌ كُلَّ مُؤْمِنٍ ظَاهِرٍ، وَإِلَّا فَهُوَ
الْفَرَاقُ، لَا عَنْ تَلَاقٍ. قَلَتْ: مَنْ أَيْنَ أَبْغِي هَذَا الدِّينَ؟ قَالَ: مِنْ ذَاتِ
الْإِحْرَارِينَ، وَالْأَنْفَرِ الْيَمَانِينَ، أَهْلَ الْمَاءِ وَالْطَّينِ. قَلَتْ: أَوْضَخْ. قَالَ: الْحَقُّ
يُبَشِّرُ ذَاتَ النَّحْلِ، وَالْحَرَّةَ ذَاتَ النَّعْلِ، فَهُنَاكَ أَهْلُ الطُّولِ وَالْفَضْلِ، وَالْمَوَاسِةُ
وَالْبَذْلُ. ثُمَّ امْتَسَنَ عَنِّي، فَبَتَّ مَذْعُورَا أَرَاعِي الصَّبَاحِ. فَلَمَّا بَرَقَ لِي النُّورُ
امْتَصَبَتِ رَاحْلَتِي وَأَذْنَتِ أَعْبُدِي وَاحْتَلَمَتِ بِأَهْلِي حَتَّى وَرَدَتِ الْجَوْفُ،
فَرَدَدَتِ الْإِبْلُ عَلَى أَرْبَابِهَا بَجْوُلُهَا وَسِقَابِهَا (أَيِّ يَجْعَلُهَا وَنُوقَهَا). جَمْعُ:
"حَائِلٌ" وَ"سَقَبٌ") وَأَقْبَلْتُ أَرِيدَ صَنْعَاءَ، فَأَصْبَتَ بِهَا مَعَادُ بْنُ جَبَلَ أَمِيرَا
لِرَسُولِ اللَّهِ فَبَايَتَهُ عَلَى الإِسْلَامِ، وَعَلَمَنِي سُورَا مِنَ الْقُرْآنِ، فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيَّ
بِالْهُدَى بَعْدِ الضَّلَالَةِ وَالْعِلْمِ بَعْدِ الْجَهَالَةِ".

٢- شَافِعُ بْنُ كَلْبِ الصَّدَفِيِّ يَسْكُنُ بِظَهُورِ النَّبِيِّ: "قَدِيمٌ عَلَى تَبَعٍ
الْآخِرِ مَلِكٌ الْيَمِنِ قَبْلِ خَرْوَجِهِ لِقَالَ الْمَدِينَةُ شَافِعُ بْنُ كَلْبِ الصَّدَفِيِّ، وَكَانَ
كَاهِنًا، فَقَالَ لَهُ تَبَعٌ: هَلْ تَجِدُ لِقَوْمٍ مُلْكًا يَوْازِي مُلْكِي؟ قَالَ: لَا، إِلَّا مُلْكٌ
غَسَانٌ. قَالَ: فَهَلْ تَجِدُ مُلْكًا يَزِيدُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: أَبْجَدُهُ لِبَارِ مَبُورٍ، وَرَائِدٍ

بالظهور، ووصف في الزبور، فضلته أمه في السفور، يفرج الظلم بالنور،
أحمد النبي، طوبى لأمته حين يحيى، أحد بنى لوثي، ثم أحد بنى قصيّ.
فنظرتُ في الزبور، فإذا هو يحد صفة النبي".

٣- سطح الذئب يعبر رقباً ربعة بن نصر اللخمي: "رأي ربعة بن
نصر اللخمي ملك اليمن، وقد ملكَ بعد تبع الآخر، رؤيا هاته فلم يدع
كاهنا ولا ساحراً ولا عانفاً ولا منجحاً من أهل مملكته إلا جمعه إليه، فقال
لهم: إني قد رأيت رؤيا هاتني وفظعت بها، فأخبروني بها وتأولها. قالوا
له: اقصصها علينا خبرك بتاؤيلها. قال: إني إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى
خبركم عن تاؤيلها، فإنه لا يعرف تاؤيلها إلا من عرفها قبل أن أخبره بها.
فقال له رجل منهم: فإن كان الملك يريد هذا فليبعث إلى سطح وشقي،
فإنه ليس أحد أعلمَ منها فيها، يخبرانه بما سأله عنه. فبعث إليهما فقدم
عليه سطح قبل شقي، فقال له: إني قد رأيت رؤيا هاتني وفظعت بها
فأخبرني بها، فإنك إن أصبتها أصبت تاؤيلها. قال: أفعل. رأيت حمّة،
خرجت من ظلمة، فوقيع بأرض تهمة، فأكلت منها كل ذات جمجمة.
فقال له الملك: ما أخطأت منها شيئاً يا سطح، فما عندك في تاؤيلها؟
قال: أحلف بما بين الحرين من حنش، ليهبطن أرضكم الحبس، فليملكون
ما بين أبين إلى جرش. فقال له الملك: وأبيك يا سطح إن هذا لنا لغاظ
موجع، فتسى هو كائن؟ أفي زمانِي هذا أم بعده؟ قال: لا بل بعده بجين،

أكْثَرُ مِنْ سِتِينَ أَوْ سِبْعِينَ يَعْصِيْنَ مِنْ السِّنِينِ. قَالَ: أَفَيَدُومُ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِهِمْ أَمْ يَنْقُطُعُ؟ قَالَ: لَا بَلْ يَنْقُطُعُ لِبَضْعِ وَسِبْعِينَ مِنْ السِّنِينِ ثُمَّ يُقْتَلُونَ بِهَا أَجْمَعِينَ، وَيَخْرُجُونَ مِنْهَا هَارِبِينَ. قَالَ: وَمَنْ يَلِيهِ ذَلِكُ مِنْ قُتْلِهِمْ وَإِخْرَاجِهِمْ؟ قَالَ: يَلِيهِ إِرَمٌ ذِي يَزْنٍ، يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ مِنْ عَدْنَ، فَلَا يَرْكِنُ أَحَدًا مِنْهُمْ بِالْيَمِنِ. قَالَ: أَفَيَدُومُ ذَلِكَ مِنْ سُلْطَانِهِ أَمْ يَنْقُطُعُ؟ قَالَ: بَلْ يَنْقُطُعُ. قَالَ: وَمَنْ يَنْقُطِعُهُ؟ قَالَ: نَبِيٌّ زَكِيٌّ، يَأْتِيهِ الْوَحْيُ مِنْ قَبْلِ الْعَلِيِّ. قَالَ: وَمَنْ هَذَا النَّبِيُّ؟ قَالَ: رَجُلٌ مِنْ وَلَدِ غَالِبٍ بْنِ فَهْرٍ بْنِ مَالِكٍ بْنِ النَّضْرِ، يَكُونُ الْمَلِكُ فِي قَوْمِهِ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ. قَالَ: وَهُلْ لِلَّدَهْرِ مِنْ آخِرٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. يَوْمٌ يُجْمَعُ فِيهِ الْأُولُونَ وَالآخِرُونَ، يُسَعِّدُ فِيهِ الْخَسِنُونَ، وَيُشَقِّي فِيهِ الْمُسِيَّنُونَ. قَالَ: أَحَقُّ مَا تَخْبُرُنَا يَا سَطِيعَ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَالشَّقْعَ وَالغَسْقَ وَالْفَلْقَ إِذَا انشَقَّ، إِنْ مَا أَنْبَأْتُكَ بِهِ لَحْقًاً.

٤- شِيقُ أَنْهَارٍ يَعْبُرُ رَؤْيَا رَبِيعَةَ بْنَ نَصَرَ أَيْضًا: "ثُمَّ قَدِمَ عَلَيْهِ شِيقٌ فَقَالَ لَهُ كَوْلَهُ لِسْطِيعٍ، وَكَمَّهُ مَا قَالَ سَطِيعٌ لِيَنْتَظِرَ أَيْقَنًا أَمْ يَخْتَلِفُانِ". قَالَ: نَعَمْ رَأَيْتَ حُمَّةً، خَرَجَتْ مِنْ ظَلْمَةٍ، فَوَقَعَتْ بَيْنَ رُوْضَةٍ وَأَكْمَةً، فَأَكْتَتْ مِنْهَا كُلَّ ذَاتِ نَسَمَةٍ. فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ ذَلِكَ قَالَ: مَا أَخْطَأْتَ يَا شِيقَ مِنْهَا شَيْئًا، فَمَا عَنْدَكَ فِي تَأْوِيلِهَا؟ قَالَ: أَحْلَفُ بِمَا بَيْنَ الْحَرَتَيْنِ مِنْ إِنْسَانٍ، لَيَنْزَلَنَّ أَرْضَكُمُ السُّودَانَ، فَلَيَغْلِبُنَّ عَلَى كُلِّ طَفْلَةِ الْبَنَانَ، وَلَيَمْلَكُنَّ مَا بَيْنَ أَبَيْنَ إِلَى نَجْرَانَ. فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: وَأَبِيكَ يَا شَقَّ إِنْ هَذَا لَنَا لِغَائِظٍ مَوْجِعٍ، فَمَسَى هُوَ

كان؟ أفي زماني أم بعده؟ قال: لا، بعده بزمان، ثم يستنقذكم منهم عظيم ذو شأن، ويدفعهم أشد الهوان. قال: ومن هذا العظيم الشان؟ قال غلام ليس بدَّيْنِ ولا مُدَّنِ، يخرج عليهم من بيت ذي يَرْنَ، قال: أفيدون سلطانه أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع برسول مرسَل، يأتي بالحق والعدل، بين أهل الدين والفضل، يكون الملك في قومه إلى يوم الفصل. قال: وما يوم الفصل؟ قال: يوم تُجزَى فيه الولاة، يُدعى فيه من النساء بدعوات يسمع منها الأحياء والأموات، ويُجْمَع فيه بين الناس للميقات، يكون فيه لمن اتقى الفوز والخيرات. قال: أحق ما تقول؟ قال: إني ورب السماء والأرض، وما بينهما من رفع وخفض، إن ما أنبأتك به لحق ما فيه أئض، فوقع في نفس ربعة بن نصر ما قالا، فجهَّز بيته وأهل بيته إلى العراق بما يُصلِّحهم، وكتب لهم إلى ملك من ملوك فارس يقال له: سابور، فأسكنهم بالحيرة. فمن بقية ولده النعمان بن المنذر ملك الحيرة، وهو النعمان بن المنذر بن النعمان بن المنذر بن عمرو بن امرئ القيس بن عمرو بن عدي بن ربعة بن نصر".

٥- وفود عبد المسيح بن بُطَيْلَة على سَطِيع: عن ابن عباس رضي الله عنه قال: "لما كان ليلة ولد النبي ارتجَأ يعوان كسرى فسقطت منه أربع عشرة شرفة، فعَظَم ذلك على أهل مملكته، فما كان أَوْشَكَ أنْ كتب إليه صاحب اليمين يخبره أن بحيرة ساوية غاضت تلك الليلة، وكتب إليه صاحب السماوة يخبره أن وادي السماوة انقطع تلك الليلة، وكتب إليه

صاحب طبرية أن الماء لم يجر تلك الليلة في مجيرة طبرية، وكتب إليه صاحب فارس يخبره أن بيوت النيران خمدت تلك الليلة، ولم تخمد قبل ذلك بألف سنة. فلما تواترت الكتب أبرز سريره (أى عرشه) وظهر لأهل مملكته فأخبرهم الخبر، فقال الموبدان: أنها الملك، إني رأيت تلك الليلة رؤيا هاتيني. قال له: وما رأيت؟ قال: رأيت إبلًا صِعَابًا، تقد خيلاً عَرَابَا، قد اقحمت دجلة وانتشرت في بلادنا. قال: رأيت عظيمًا، فما عندك في تأويلها؟ قال: ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء، ولكن أرسل إلى عاملك بالحيرة يوجه إليك رجلاً من علمائهم، فإنهم أصحاب علم بالحدثان. فبعث إليه عبد المسيح بن بُقَيْلَة الغساني، فلما قدم عليه أخبره كسرى الخبر، فقال له: أنها الملك، والله ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء، ولكن جهزني إلى حال لي بالشام يقال له: سطيح. قال: جهزوه. فلما قدم إلى سطيح وجده قد اخْتَضَر، فناداه فلم يجبه، وكلمه فلم يرد عليه، فقال عبد

المسيح:

أصمُّ أم يسمع غِطْرِيفُ اليمَنْ؟	يا فاضل الخطة أغيثْ مَنْ وَمَنْ؟
أناك شيخ الحي من آل سَنَنْ	أبيض فضفاض الرداء والبدنْ
رسول قيل العجم يهوى للسوونْ	لا يرهب الزَّعْد ولا رُبَّ الزَّمنْ
فرفع إليه رأسه وقال: عبد المسيح، على جملٍ مُشَيْحٍ (أى سريع)،	
إلى سطيح، وقد أوفي على الضريح، بعثك مَلِك بني ساسان، لارتجاج	
الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا الموبدان. رأى إبلًا صِعَابًا، تقد خيلاً عَرَابَا،	

قد اقتحمت في الواد، واتشرت في البلاد. يا عبد المسيح، إذا كثرت
السلاوة، ونلهر صاحب الهراء، وفاض وادي السماوة، وغاضت بحيرة
ساوة، وخدمت نار فارس، فليست بابل للفرس مُقاماً، ولا الشام لسطيع
شاماً. يملك منهم ملوك وملكات، عدد سقوط الشرفات، وكل ما هو آت
آت. ثم قال:

فَإِنْ ذَا الدهرَ أَطْوَارًا دَهَارٌ
وَالْمَرْزَانُ وَسَابُورُ وَسَابُورٌ
تَهَابُ صَوْلَهُمُ الْأَسْدُ الْمَهَاصِيرُ
فَمَا يَعْمَلُ لَهُمْ سُرْجٌ وَلَا كُودُرٌ
أَنْ قَدْ أَقْلَى فَحَقُورٌ وَمَهْجُورٌ
فَالْخَيْرُ مَتَّعٌ، وَالشَّرُّ حَذَرٌ
إِنْ كَانَ مَلِكُ بَنِي سَاسَانَ أَفْرَطَهُمْ
مِنْهُمْ بِنُو الصَّرْحِ بَهْرَامٌ وَأَخْوَتَهُ
فَرِبَّاهَا أَصْبَحُوا يَوْمًا بِمَنْزِلَةِ
حَثَّوَا الْمَطَيِّ وَجَدُوا فِي رَخَالِمِهِ
وَالنَّاسُ أَوْلَادُ عَلَلَاتٍ، فَمَنْ عَلِمَهُ
وَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ مَغْرُونَانِ فِي قَرْنَنِ
ثُمَّ أَتَى كَسْرَى فَأَخْبَرَهُ بِمَا قَالَهُ سَطِيعٌ، فَغَمِّهَ ذَلِكَ ثُمَّ تَعَزَّزَ فَقَالَ: إِلَى
أَنْ يَمْلِكَ مَنَا أَرْبَعَةُ عَشَرَ مَلِكًا يَدْوِرُ الزَّمَانَ. فَهَلَكُوا كُلُّهُمْ فِي أَرْبَعِينَ سَنَةً،
وَكَانَ آخِرُ مَنْ هَلَكَ مِنْهُمْ فِي أَوْلَى خَلَافَةِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ".

٦- عَقِيرَاءُ الْكَاهِنَةَ تَعْبُرُ رُؤْيَا مَرْثَدَ بْنَ عَبْدِ كَلَّا لَكَ: "رُؤْيَا أَنْ مَرْثَدَ
بْنَ عَبْدِ كَلَّا قَلَّ مِنْ غَزَّةٍ غَزَّاهَا بِغَنَامٍ عَظِيمَةٍ، فَوَفَدَ عَلَيْهِ زُعمَاءُ الْعَرَبِ
وَشَعَرَاؤُهَا وَخُطَبَاؤُهَا يَهْنُؤُهُ، فَرَفَعَ الْحِجَابَ عَنِ الْوَافَدِينَ وَأَوْسَعَهُمْ عَطَاءَ
وَاشْتَدَ سُرُورُهُ بِهِمْ. فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ نَامَ يَوْمًا فَرَأَى رُؤْيَا فِي الْمَنَامِ أَخْفَافَهُ
وَأَذْعَرَهُ وَهَالَهُ فِي حَالِ مَنَامِهِ، فَلَمَّا اتَّبَعَهُ أَنْسَيَهَا حَتَّى لَمْ يَذْكُرْ مِنْهَا شَيْئًا

وَبَيْتَ ارْتِيَاعِهِ فِي نَفْسِهِ بِهَا، فَانْقَلَبَ سُرُورُهُ حَزَنًا وَاحْجَبَ عَنِ الْوَفُودِ حَتَّى أَسَاءُوا بِهِ الظَّنِّ. ثُمَّ إِنَّهُ حَشَرَ الْكَاهَنَ فَجَعَلَ يَخْلُو بِكَاهَنَ كَاهَنَ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: أَخْبِرْنِي عَمَّا أَرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْهُ، فَيَجِيبُهُ الْكَاهَنُ بِأَنَّ لَا عِلْمَ عَنِي، حَتَّى لَمْ يَدْعُ كَاهَنًا عَلِمَهُ إِلَّا كَانَ إِلَيْهِ مِنْهُ ذَلِكُ، فَتَضَاعَفَ قَلْصُهُ، وَطَالَ أَرْقُهُ. وَكَانَ أَمَهُ قَدْ تَكَبَّتْ، فَقَالَتْ لَهُ: أَبَيْتَ اللَّعْنَ أَيْهَا الْمَلَكُ! إِنَّ الْكَوَاهِنَ أَهْدَى إِلَى مَا تَسْأَلُ عَنْهُ لَأَنَّ أَتَبَاعَ الْكَوَاهِنَ مِنَ الْجَاهَنَ، الْطَّفَ وَأَظْرَفَ مِنَ أَتَبَاعِ الْكَاهَنِ. فَأَمْرَ بِجَسْرِ الْكَوَاهِنِ إِلَيْهِ وَسَأَلَهُنَّ كَمَا سَأَلَ الْكَاهَنَ، فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ عِلْمًا مَا أَرَادَ عِلْمَهُ. وَلَا يَتَسَّ منْ طَلَبِتْهُ سَلاْعِنَهَا. ثُمَّ إِنَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ ذَهَبَ يَتَصَبِّدُ فَأَوْغَلَ فِي طَلْبِ الصِّيدِ وَانْفَرَدَ عَنْ أَصْحَابِهِ فَرُفِقتُ لَهُ أَبْيَاتٌ مِنْ ذَرَّا جَبَلَ (أَيْ فِي ظَلِّ جَبَلِ). وَكَانَ قَدْ لَفَحَهُ الْمَهْجِيرُ فَعَدَلَ إِلَى الْأَبْيَاتِ وَقَصَدَ بَيْتًا مِنْهَا كَانَ مُنْفَرِدًا عَنْهَا، فَبَرَزَتْ إِلَيْهِ مِنْهُ عَجُوزٌ فَقَالَتْ لَهُ: انْزِلْ بِالرُّحْبِ وَالسَّعَةِ، وَالْأَمْنِ وَالدُّعَةِ، وَالْجَفْنَةِ الْمُدَعَّدَةِ (الْمُمْتَلَّةِ عَنِ الْآخِرَهَا)، وَالْعُلْبَةِ الْمُرَعَّةِ. فَنَزَلَ عَنْ جَوَادِهِ وَدَخَلَ الْبَيْتِ. فَلَمَّا احْجَبَ عَنِ الشَّمْسِ وَخَفَقَتْ عَلَيْهِ الْأَرْوَاحُ (أَيْ النَّسَامِ) نَامَ فَلَمْ يَسْتِيقْظِ حَتَّى تَصْرَمَ الْمَهْجِيرُ، فَجَلَسَ يَسْحَبُ عَيْنِيهِ، فَإِذَا هُوَ بَيْنَ يَدِيهِ قَاتَاهُ لَمْ يَرِ مِثْلَهَا قَوَاماً وَلَا جَمَالَاً، فَقَالَتْ: أَبَيْتَ اللَّعْنَ أَيْهَا الْمَلَكُ الْهَمَّ، هَلْ لَكَ فِي الْطَّعَامِ؟ فَاشْتَدَ إِشْفَاقُهُ وَخَافَ عَلَى نَفْسِهِ لَمَّا رَأَى أَنَّهَا عَرْقَتْهُ، وَتَصَمَّأَ عَنْ كَلْمَتَهَا، فَقَالَتْ لَهُ: لَا حَذَرُ، فَدَاكَ لِبَشَرٍ، فَجَدَكَ

(حظك) الأَكْبَر، وحظنا بـالْأَوْفَر. ثم قَرَبَتْ إِلَيْهِ ثَرِيدًا وَقَدِيدًا وَحِيسًا، وَقَامَتْ تَذَبَّبُ عَنْهُ حَتَّى اتَّهَى أَكْلَهُ، ثُمَّ سَقَتْ لَبْنًا صَرِيفًا وَضَرِيفًا، فَشَرَبَ مَا شَاءَ وَجَعَلَ يَأْمُلُهَا مَقْبِلَةً وَمَدِيرَةً، فَعَلَّاتْ عَيْنِيهِ حُسْنًا، وَقَلْبِهِ هَوْيٌ، فَقَالَ لَهَا: مَا اسْمُكِ يا جَارِيَة؟ قَالَتْ: اسْمِي عَفِيرَاء. فَقَالَ لَهَا: يا عَفِيرَاء، مِنَ الَّذِي دَعَوْتَهُ بِالْمَلِكِ الْهَمَام؟ قَالَتْ: مَرِثَدُ الْعَظِيمِ الشَّانِ، حَاشِرُ الْكَوَافِنِ وَالْكَهَانِ، لِعَصْلَيَّةٍ بَعْدَ عَنْهَا الْجَانِ. فَقَالَ: يا عَفِيرَاء، أَتَعْلَمُنِي بِلَكِ الْمُعْضَلَةِ؟ قَالَتْ: أَجَلُ أَنِّي الْمَلَكُ. إِنَّهَا رُؤْبَا مَنَامٌ، لَيْسَ بِأَصْغَاثِ أَحْلَامٍ. قَالَ الْمَلَكُ: أَصَبَّتِي يا عَفِيرَاء، فَمَا تَلِكُ الرُّؤْبَا؟ قَالَتْ: رَأَيْتَ أَعَاصِيرَ زَوَاعِيْ، بَعْضُهَا لِبْسَ تَابِعٍ، فِيهَا طَبَ لَامِعٌ، وَلَهَا دَخَانٌ سَاطِعٌ، يَقْفَوْهَا نَهْرٌ مَسْدَافٌ، وَسَمِعْتَ فِيمَا أَنْتَ سَامِعٌ، دُعَاءً ذِي جَرْسٍ صَادِعًا: هَلَمُوا إِلَى الْمَشَارِعِ، فَرَوَى جَارِيَعٍ، وَغَرَقَ كَارِيَعٍ. فَقَالَ الْمَلَكُ: أَجَلُ، هَذِهِ رُؤْبَايِي، فَمَا تَأْوِيلُهَا يا عَفِيرَاء؟ قَالَتْ: الْأَعَاصِيرُ الْزَوَاعِيْ مَلُوكُ تَابِاعٍ، وَالنَّهَرُ عِلْمٌ وَاسِعٌ، وَالدَّاعِي نَبِيُّ شَافِعٍ، وَالْجَارِعُ وَلِيُّ تَابِعٍ، وَالْكَارِعُ عَدُوُّ مَنَازِعٍ. فَقَالَ الْمَلَكُ: يا عَفِيرَاء، أَسِلْمُ هَذَا النَّبِيَّ أَمْ حَرْبَ؟ فَقَالَتْ: أَقْسِمُ بِرَافِعِ السَّمَاءِ، وَمُنْزِلِ الْمَاءِ، مِنَ الْعَمَاءِ، إِنَّهُ لِمُطْلِلِ الدَّمَاءِ، وَمُنْطِقُ الْعَقَائِلِ نُطُقُ الْإِمَاءِ. فَقَالَ الْمَلَكُ: إِلَمْ يَدْعُو يَا عَفِيرَاء؟ قَالَتْ: إِلَى صَلَةِ وَصِيَامٍ، وَصَلَةِ أَرْحَامٍ، وَكَسْرِ أَصْنَامٍ، وَتَعْطِيلِ أَزْلَامٍ، وَاجْتِنَابِ آثَامٍ. فَقَالَ الْمَلَكُ: يا عَفِيرَاء، إِذَا ذَحَّ قَوْمَهُ فَمَنْ أَعْضَادُهُ؟ قَالَتْ: أَعْضَادُهُ غَطَارِيفُ يَمَانَوْنَ، طَائِرُهُمْ بِهِ

ميمون، يُغزِّيهِمْ فِي غَرْزَوْنَ، وَيُدَمِّثُ بَهُمْ الْحَرُونَ، وَإِلَى نَصْرِهِ يَعْتَزِّوْنَ. فَأَطْرَقَ
الْمَلِكُ يَؤَمِّرُ نَفْسَهُ فِي خِطْبَتِهَا، فَقَالَتْ: أَبَيْتُ اللَّعْنَ أَلِهَا الْمَلِكُ! إِنْ تَابَعِي
غَيْرَهُ، وَلَا مَرِيْ صَبُورَ، وَنَا كَحِيْ مُشْبُورَ، وَالْكَلْفُ بِيْ شُبُورَ. فَنَهَضَ الْمَلِكُ
وَجَاهَ فِي صَهْوَةِ جَوَادِهِ، وَانْطَلَقَ فَبَعَثَ إِلَيْهَا بَمَائِهِ نَاقَةً كَوْمَاءً".

وبنـداً بـحـديث خـنافـر، وفـى هـذا الحـديث نـلاحظ مـا يـلى: أـن رـئـى
خـنافـر قـد تـركـه فـى عـمـاـيـه فـلـم يـعلـمـه بـأنـ نـبـيا جـديـدا ظـهـرـ بـدـعـوـتـه فـى بـلـادـ
الـعـربـ، إـلـى أـن أـصـبـعـ النـاسـ فـى تـلـكـ الـبـلـادـ كـلـهـمـ يـعـلـمـونـ ذـلـكـ، اللـهـمـ إـلـا
خـنافـرـاـ. فـعـنـدـنـذـ، وـعـنـدـنـذـ فـقـطـ، تـذـكـرـ شـصـارـ صـاحـبـ الـكـاهـنـ الـمـسـكـينـ
الـنـاثـمـ عـلـىـ أـذـنـهـ لـاـ يـدـرـىـ خـبـرـ الـإـسـلـامـ رـغـمـ أـنـ نـورـهـ كـانـ قـدـ دـخـلـ الـيـمـ
وـأـضـحـىـ لـدـوـلـهـ فـيـهاـ رـسـوـلـ مـنـ لـدـنـ النـبـيـ الـكـرـيمـ هوـ مـعاـذـ بـنـ جـبـلـ رـضـىـ
الـهـ عـنـهـ. تـرـىـ مـاـ دـوـرـ شـصـارـ إـذـنـ إـذـنـ لـمـ يـكـنـ مـاـ أـنـبـأـ بـهـ خـنافـرـاـ إـلـاـ خـبـرـاـ
يـعـرـفـهـ الـقـاصـىـ وـالـدـانـىـ؟ إـنـ مـعـنـىـ هـذـاـ أـنـ شـيـطـانـ خـنافـرـاـ قـدـ هـجـرـهـ مـجـراـ
غـيرـ جـمـيلـ طـوـالـ ماـ يـقـرـبـ مـنـ عـشـرـيـنـ سـنـةـ، أـمـ مـنـذـ بـدـءـ النـبـوـةـ إـلـىـ وـقـتـ
دـخـولـ الـإـسـلـامـ الـيـمـ فـىـ أـوـاـخـرـ حـيـاتـهـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ، فـكـيفـ كـانـ
خـنافـرـ يـمـارـسـ كـهـاتـهـ إـذـنـ دـوـنـ رـئـىـ مـنـ الجـنـ؟ أـمـ تـرـاهـ تـوقـفـ عـنـ مـارـسـتـهاـ
كـلـ تـلـكـ الـفـتـرـةـ؟ لـكـنـ هـلـ يـكـنـ أـنـ يـكـونـ ذـلـكـ؟ وـهـلـ يـكـنـ أـنـ يـسـتعـيـضـ
كـاهـنـ عـنـ كـهـاتـهـ بـالـسـرـقةـ وـالـإـغـارـةـ عـلـىـ إـبـلـ الـآخـرـينـ، وـبـخـاصـيـةـ أـنـ خـنافـرـاـ لـمـ
يـكـنـ، كـمـ هـوـ بـيـنـ مـنـ الـفـصـةـ، ذـاـ عـزـوـةـ تـمـنـعـهـ مـنـ طـلـبـ الـقـبـائـلـ الـمـعـتـدـيـ عـلـيـهـاـ

و عملها على الثأر منه؟ كذلك ليس هناك سبب مفهوم لحجر شَصَار لصاحبـه كل تلك المدة، وهذه ثُغْرَة في القصة تحتاج إلى ما يملئها. كما أن تهديـدـه له بأنه إذا لم يعـنقـ الإسلام مثلـهـ فلن يـراهـ مـرـةـ أخـرىـ هو تهـديـدـ لا معنىـلـهـ، لأنـ معـنىـ هـذـاـ التـهـديـدـ أـنـ شـصـارـ لـنـ يـسـاعـدـ خـنـافـرـاـ فـىـ كـهـاتـهـ، معـأـنـاـ نـعـرـفـ جـيـداـ أـنـ إـلـاسـلـامـ يـكـفـرـ الـكـهـانـ وـيـحـارـبـهـمـ دونـ هـوـادـةـ، وـهـوـ ما يـعـنـىـ بـكـلـ وـضـوـحـ أـنـ الـلـقـاءـ بـيـنـهـماـ مـنـ الـآنـ فـصـاعـدـاـ سـيـكـونـ لـقـاءـ مـجـرـماـ وـمـحـرـماـ أـشـدـ الـتـجـرـيمـ وـالـتـحـرـيمـ، وـهـذـاـ إـنـ قـبـلـ الـجـنـىـ أـنـ يـقـومـ بـدـورـهـ الـقـدـيمـ الـمـنـاقـضـ لـعـقـيدـتـهـ الـجـدـيـدـةـ الـتـىـ يـدـعـوـ إـلـيـهـاـ خـنـافـرـاـ!ـ فـكـمـاـ تـرـىـ هـذـهـ ثـغـرـةـ أـخـرىـ فـيـ الـقـصـةـ يـصـعـبـ بـلـ يـسـتـحـيلـ سـدـهـاـ.ـ ثـمـ أـلـبـيـسـتـ الـقـصـةـ تـرـيدـ أـنـ تـقـولـ إـنـ شـصـارـ قـدـ أـتـاهـ بـخـبـرـ الـغـيـبـ،ـ فـأـيـ غـيـبـ هـذـاـ الـذـىـ كـانـ يـعـرـفـهـ الـجـمـيعـ فـىـ أـرـجـاءـ الـجـزـيرـةـ الـأـرـبـعـةـ؟ـ بـلـ لـمـ يـعـرـفـ شـصـارـ بـدـورـهـ بـنـبـأـ الـإـلـاسـلـامـ إـلـاـ مـنـ إـخـوانـ لـهـ مـنـ الـجـنـ كـانـواـ قـدـ آمـنـواـ قـبـلـهـ؟ـ وـلـمـاـذـاـ يـاـ تـرـىـ كـانـواـ يـزـجـرـونـهـ عـنـ سـمـاعـ الـقـرـآنـ الـذـىـ كـانـواـ يـتـلوـنـهـ؟ـ أـلـمـ يـأـتـ الـقـرـآنـ هـدـاـيـةـ الـجـنـ وـالـإـنـسـ؟ـ فـهـلـ مـاـ يـنـاسـبـ مـعـ هـذـهـ الغـاـيـةـ أـنـ يـزـجـرـ عـنـهـ مـنـ يـرـيدـ سـمـاعـهـ؟ـ فـكـيـفـ يـعـرـفـ إـذـنـ مـاـ جـاءـ فـيـهـ مـنـ هـدـىـ وـنـورـ؟ـ إـنـ سـوـرـةـ "الـجـنـ"ـ وـالـآـيـاتـ ٢٩ـ -ـ ٣٢ـ مـنـ سـوـرـةـ "الـأـحـقـافـ"ـ تـحـدـثـانـاـ عـنـ سـمـاعـ قـرـمـ مـنـ الـجـنـ لـلـقـرـآنـ مـنـ الرـسـوـلـ عـلـيـهـ السـلـامـ دـوـنـ أـنـ يـزـجـرـهـمـ زـاجـرـ،ـ فـلـمـاـذـاـ جـرـىـ الـأـمـرـ فـيـ قـصـتناـ هـذـهـ عـلـىـ خـلـافـ ذـلـكـ؟ـ وـلـمـاـذـاـ كـانـ هـؤـلـاءـ النـفـرـ مـنـ الـجـنـ مـنـ أـهـلـ الشـامـ لـاـ

من أهل اليمن؟ أترى القصة تزيد أن تقول إن "الشيخ البعيد سره باع"؟ أم تزيد أن تجري على سُنة المثل القائل: "من أين أذنك يا جحا؟"؟ كذلك لم ينص شَصَارُ لخنافر بأن يأتي النبي في المدينة؟ فلماذا أكفى خُنَافِرَنا بقاء معاذ بن جبل بعد كل هذا الكلام المشوق لرؤيه النبي الكريم؟ يا له من كاهن كسول! بل لماذا أراد صناعة من الأصل، ولم يأت لها ذكر في الحوار بينه وبين رئيشه؟

ثم إذا كان الأمر على ما ترويه القصة، فهل كان خبر خنافر ليغيب عن كتب الحديث؟ كذلك لو كان ما قرأناه هنا صحيحًا لقد كان خبر ذلك الكاهن اليمني سلاحاً بيّاراً في الدعاية لهذا الدين، فلماذا لم يستغله المسلمون؟ صحيح أنه إنما أسلم، كما رأينا، بأُخْرَة، لكن لا شك أن خبره كان يمكن أن يكون ذاته جزيل في معركة الدعاية بحيث يسهل إنجاز المهمة الباقية، وهي القضاء على قلول الوثنية في بلاد العرب، تلك الوثنية التي لم تكن قد خمدت تماماً حتى بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام وانفجرت متخذةً شكل ردةً مستطيرة. ثم مصطلح "السجع المتكلف"، هذا المصطلح البلاغي الذي لم يعرفه العرب قبل عصر الإزدهار الثقافي في العصر العباسي، من أين يا ترى للعرب الجاهليين بعرقه؟ بل إن في الخطبة سجعاً متكلفاً لا قبل للجاهليين به كما هو واضح في المثال التالي:

"خطاب كبار، جاء من عند الملك الجبار، فاسمع يا شَصَار، عن أصدق

الأخبار، واسلك أوضح الآثار، تُنْجَحُ من أُوَارِ النَّارِ، علاوة على هذه البهلوانية البلاغية الفنية الجميلة المتمثلة في هاتين الجملتين اللتين تبادلهما الكاهن والجن: "قال: أَسْمَعْ أَقْلُ. قلت: قُلْ أَسْمَعْ" والتي يصعب علىي أن أتصورها من شيء الأدب الجاهلي. ليس ذلك فحسب، فهذا الكلام المنسوب للجن، هل يمكن أن نصدقه؟ إن الجن عالم خفي لا نعرف نحن البشر عنه شيئاً سوى ما جاء في الوحي كما هو الحال فيما أثبأنا به رب العزة من كلامهم عندما استمعت طائفة منهم إلى القرآن الكريم لأول مرة، أما ما عدا هذا فأننا لا نستطيع أن أحضر شيئاً منه كما هو الحال هنا. وبخاصة أنه كلام عربي، فهل الجن يتحدثون العربية، ويصطحبون السجع والجناس وسائر الحسنات البدعية أيضاً؟ وبطبيعة الحال لا يمكن القول بأنهم في سُورَتِي "الأحقاف" و"الجن" قد استخدمو كذلك لسان بنى يعرب، إذ الواقع أن ما ترقوه هناك من كلامهم إنما هو ترجمة لما قالوه بلغتهم التي لا ندرى نحن البشر عنها شيئاً.

على أن القضية لما تنتهي عند هذا الحد، إذ نقرأ قوله: "كَانَ رَئِيْسِيْ في الجاهليَّةِ لَا يَكَادُ يَغِيْبُ عَنِّيْ، فَلَمَّا شَاعَ الإِسْلَامُ فَقَدَتْهُ مَدَّةً طَوِيلَةً، وَسَاءَنِيْ ذَلِكَ. فَبَيْنَا أَبَا لِيلَةَ بِذَلِكَ الْوَادِيِّ نَائِمًا إِذْ هُوَيَّ هُوَيَّ الْعَقَابِ، فَقَالَ: خَنَافِرَ؟ فَقَلَتْ: شَصَارَ؟ فَقَالَ: أَسْمَعْ أَقْلُ. قَلَتْ: قُلْ أَسْمَعْ. فَقَالَ: عِهَّ تَعَمَّ. لَكُلَّ مَدَّةٍ نَهَايَةٌ، وَكُلُّ ذِيْ أَمْدٍ إِلَى غَايَةٍ. قَلَتْ: أَجَلْ.

فقال: كل دولة إلى أجل، ثم ياتح لها حِول. اتسخَت التحل، ورجعت إلى حقائقها الملل. إنك سَيَحِيرُ (أى صديقٍ) موصول، والنصح لك مبذول، وإنِي آنسَتُ بأرض الشام نَفْرًا من آل العُذَام (يقصد أنه قابل قبيلة من الجن)، حُكَاماً على الْحُكَامِ، يَذَبُّونَ ذَا رُوقَ من الْكَلَامِ، ليس بالشَّعْرِ الْمُؤْلَفِ، ولا السجع المتكلف، فأصغَيْتُ فَرْجُرَتُ، فعاوَدْتُ فَظُلْفَتُ (أى مُنْعَثُتُ)، فقلت: بم تَهِينُونَ؟ وإلام تَعْرَوْنَ؟ قالوا: خطابُكَار، جاءَ من عند الملك الجبار، فاسمع يا شَصَار، عن أصدق الأخبار، واسلك أوضَح الآثار، تَبُعُ من أُواَرِ النَّارِ. فقلت: وما هذا الْكَلَامُ؟ فقالوا: فرقانٌ بين الكفر والإيمان. رسول من مُضَرٍّ، من أهل المَدَرِ، أبْعَثَ فَظُهُرَ، فجاءَ بِقُولٍ قد يَهْرُ، وأوْضَحَ نَهْجَانَ قَدْ دَتَّرَ، فيه مواعظُ لِمَنْ اعْتَبرَ، ومعاذ لِمَنْ ازْدَجَرَ، أَلْفَ بِالْأَيِّ الْكَبِيرِ. قلت: ومن هذا المبعوث من مُضَرٍّ؟ قال: أَحْمَدُ خَيْرُ الْبَشَرِ، فَإِنْ آمَنْتَ أُعْطِيَتِ الشَّبَرَ (أى الخير)، وإنْ خَالَفْتَ أَصْلِيلَتَ سَقَرَ.

فآمنتُ يَا خَنَافِرَ، وأقبلتُ إِلَيْكَ أَبَادِرَ، فجَانِبُ كُلِّ كَافِرٍ، وشَائِعُ كُلِّ مُؤْمِنٍ طاهر، وَلَا فَهُوَ الْفَرَاقُ، لَا عَنْ تلاقي. قلت: من أين أبغِي هذا الدين؟ قال: من ذاتِ الْإِحْرَنِ (أى الحجارة السُّودَ)، والنَّفَرُ الْيَمَانِيُّ، أَهْلُ الماءِ والطين". ومعنى هذا الكلام أن خنافرا، كما هو واضح من مفتاح حدثه، كان يعرف بمجيء الإسلام منذ البداية، لكننا نفاجأ، من خلال أسئلته عن

الدين الجديد والرسول الذى جاء به والكتاب الذى نزل عليه، بأنه لم يكن يعرف شيئاً من ذلك بالمرة. فكيف يسوع فى العقل هذا؟

ولقد تصادف، بعد كتابة هذه الملاحظات بأيام، أن كتلت أقرأ ما كتبه الدكتور جواد على عن سجع الكاهن فى كتابه: "المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام"، فوجده يقول عن هذه القصة إنها "خبر يرجع سنته إلى ابن الكلبي". وقد ذكر في "الأخبار المشورة" لابن ذرید أنه (أى خناقراً) أسلم على يد معاذ بن جبل باليمن. لا أدرى كيف حفظه ابن الكلبي رروا، عن والده، الذي صنعه ووضعه، إلا أن يكون والده قد حضر المخاورة فكان يسجلها، وهو ما يُعد من الشهيلات". أى أن في العلماء العرب من لا يطمئنون مثلـى إلى هذه القصة. وإن كان من السهل الجواب على هذا السؤال في حد ذاته بالقول بأن والد ابن الكلبي، وإن لم يحضر واقعة إسلام خناقرا والمحوار الذي دار بينه وبين شحصار قبلها، قد سمعها مع هذا من سمعها بدوره من فم ذلك الكاهن. وعلى هذا فالأفضل هنا اللصوق بالأدلة التي اعتمدت أنا عليها بدلاً من الاتجاه إلى التشكيك في ذمة الرواة.

أما فيما يخص حديث شافع الصدفي فغريب أن يقول ذلك الكاهن إن ملك بنى غسان أعظم من ملك التباعية على الرغم من أن الغساسنة لم يكونوا سوى مملكة صغيرة على حدود الروم لا قيمة لها حقيقة، على حين

أن التابعة كانوا يحكمون دولة كبيرة كاليمن ذات اتساع وتاريخ وحضارة معروفة لم يكن لدولية غسان منها شيء ! ثم غريب أيضاً أن تترك القصة التوراة والإنجيل وتذهب إلى الزبور لتقول إنه قد وردت فيه البشرة ببنينا الكريم، مع أنه لم يأت في القرآن ولا في الحديث أن بشارة مثل هذه موجودة في الزبور ! وبالنسبة لسطح ونبوته لربيعة اللخمى هل يجوز في العقول أن يحرف كاهن سطح على أن يجده الملك ويدخل الفم عليه بقول الحقيقة له كاملة ودون توثيق، مع أنه كان في مندوحة عن هذا، إذ لم تكن النبوة المزعجة لتقع قبل بضعة وسبعين عاماً يكون هو نفسه خلاها أو الملك قد مات، وكان الله يحب الحسينين ؟ وهذا إن جاز لنا أن نصدق أن سطح حما يمكن أن يعرف شيئاً من أمور الغيب المحجوب عن البشر والجن والملائكة جميعاً ؟ ثم أليس غريباً إلا يجد كسرى من بين كهانه في مملكته الطويلة العريضة من يستطيع أن يعبر له رؤياه حتى يرسل فيها لكاهن من كهان العرب ؟ كذلك من غير المعقول أن يحرف كاهن على أن يجده رسول كسرى بهذا التفسير المزعج للرؤيا، ثم يجده هذا به عامله دون محاولة من جانبه لتلطيف وقع الأمر. ودعنا الآن من التحوير في تعبير الرؤيا كما قلنا من قبل عن رؤيا عاهل اليمن، تلك الرؤيا التي قام سطح هو أيضاً بتفسيرها ! ومن الغريب في الأمر أن آيا من كبار رجال فارس، حين بدأ الفتح الإسلامي لبلادهم، لم يتذكر رؤيا عاهمهم هذه، مع أنها ليست من الأشياء

التي يمكن أن تُشكّل بسهولة نظراً لخطورة موضوعها والظروف التي رُبِّتْ وفسِّرتْ فيها كما لاحظنا، والا فكيف وصلنا هذه الرؤيا وتفسيرها إذا كانت قد أمحَّتْ من الذاكرة الفارسية؟ ثم لا ينبغي أن يفوَّت اتباهنا ما جاء في تعبير شِقَّ آثار للرؤيا من عبارات وعقائد قرآنية كقوله: "يُوم الفصل" (الذى ورد في سورة "المرسلات")، وقوله أيضاً: "وربَّ السماء والأرض... إن ما أَنْبَأْتُكَ بِهِ لَحْقٌ؟" (المأْخوذ من سورة "الذاريات")، وقوله: "يُوم المِيقَاتِ" (وهو مقلوب العبارة القرآنية: "مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ" الموجودة في سورة "الواقعة")، بالإضافة إلى دعاء الأموات للقيام من مرقدِهم للحشر والحساب!

كذلك هل يُعقل أن ترفض عَقِيراءَ خطبة الملك لها؟ إن ما قاله في تعليل هذا الرفض لا يدخل العقل طبعاً بحال! ثم متى ذبح النبي قومه؟ وهل الأنصار وحدهم هم الذين نصروه؟ فلأنَّ ذهب الصديق إذن والفاروق وذو التورين وأبو الحسينين والحمزة وجعفر وزيد بن حارثة وأسامة بن زيد وبلال الحبشي وصَهْبَيْ الرُّومِي وسلمان الفارسي وعبد الله بن سلام وخالد وعمرو وأبو سفيان والمغيرة وأبو ذجَانة والتاجة الجعدى وأبو موسى الأشعري وأبو هزيمة وخنافر وعمرو بن مَعْدِيكَربِّ وآلاف بعد آلفٍ مئلهم من غير الأنصار، من قريش ومن خارج قريش، من العرب ومن وراء العرب رضى الله عنهم جميعاً؟ أما ارتجاج الديوان الكِسْرُوي وانطفاء

النيران في معابد زرادشت وجفاف بحيرة ساوة وما إلى ذلك فُتَعَدِّى عنها لأنها لا حقيقة لها في واقع التاريخ، ولذلك لم ت تعرض لها كتب المسلمين الأوائل بشيء، وهو ما يذكرون بأسطورة انشقاق الهيكل عند وقوع الصليب طبقاً لرواية مؤلفي (أو بالأحرى: ملتقى) الأنجليل! ثم لا ينبغي أن تتجاهل الوريرة الواحدة التي تجري عليها كل هذه الأحاديث، إذ يقوم كل منها على السؤال من جانب ثبع، والجواب من جانب الكاهن أو الكاهنة بلا أي تغيير، حذوك النعل بالنعل!

وما لا يطمئن له قلب الباحث في خطب الجاهليين ورود عبارات لا يمكن أن تكون من كلامهم ولا صدرت عنهم، كما في الشاهد التالي، وهو من خطبة عامر بن الظرب العدعواني حين خطبت ابنته عمرة، إذ جاء فيها قوله لقومه: "فهل لكم في العلم العليم؟ قيل: ما هو؟ قد قلت فأصبت، وأخبرت فصدقـتـ . فقال: أموراً شتى وشيئاً شيئاً، حتى يرجع الميت حـيـاً، ويـعـود لـاشـيءـ شـيـئـاًـ" ، إذ من المستبعد تماماً أن يعرف الجاهليون مصطلح الـ"لاـشـيءـ" هذا، فهو لفظ منحوت لا أظنه أبداً قد سـكـ ونزل إلى ساحة الكلام قبل العصر العباسـيـ ! بـيدـ أنـ هـذاـ لاـ يـعـنىـ بالـضـرـورةـ أنـ يـكـونـ النـصـ كـلهـ مشـكـوكـاـ فـيـهـ، فإـنـيـ لاـ أـجـدـ فـيـ تقـسـيـ شـيـئـاـ ذـاـ بـالـمـالـ منـ أنـ تـكـونـ هذهـ الخطـبـةـ، فـيـماـ عـدـاـ الـكـلـمـةـ المـذـكـورـةـ، قدـ قـالـهـ ذـلـكـ الرـجـلـ الجـاهـلـيـ، إـمـاـ كـمـاـ هـىـ أـمـامـاـ الآـنـ أـوـ بـعـدـ أنـ تـكـونـ الذـاـكـرـةـ أـوـ الـأـقـلـامـ قدـ مـسـتـهـ بـعـضـ

المسَّ خلال رحلتها من عصر ما قبل الإسلام إلى عصر التدوين، وبخاصة آنَّ قد رواها لنا أمثال الميداني والجاحظ وابن عبد ربِّه حسبيما ذكرَ أَحْمَد رُكْزَى صفوتوت في ذيلها، فضلاً عنْ أنَّ السجع فيها ليس مَكْلُفًا ولا مَطْرِدًا كما في بعض الخطب الأخرى.

كما أنَّ في بعض تلك الخطب ترفاً ثقافياً وأدبياً لا يقدر عليه الجاهليون، ومن ثمَّ كنا لا نطمئنُ إليها. لذا نأخذ مثلاً النص التالي: "كان قيس بن رفاعة يغدو سَنَةً إلى النعمان الْخَمِيْيَّ بالعراق، وسَنَةً إلى الحارث بن أبي شَمِّير الغساني بالشام، فقال له يوماً وهو عنده: يا ابن رفاعة، بلغني أنك تفضل النعمان علىَّ. قال: وكيف أفضله عليك أَبْيَتَ اللعن؟ فوالله لفَّاكَ أَحْسَنَ مِنْ وَجْهِهِ، وَلَأَمْكَ أَشْرَفَ مِنْ أَبِيهِ، وَلَأَبُوكَ أَشْرَفَ مِنْ جَمِيعِ قَوْمِهِ، وَلَشِمَالِكَ أَجْوَدَ مِنْ يَمِينِهِ، وَلَحِرْمَانِكَ أَنْقَعَ مِنْ نَدَاءِهِ، وَلَقَلِيلِكَ أَكْثَرَ مِنْ كَثِيرِهِ، وَلَشِمَادِكَ (أَيْ قَلِيلِ مَا تَلَكَ) أَغْزَرَ مِنْ غَدِيرِهِ، وَلَكُرْسِيِّكَ أَرْفَعَ مِنْ سَرِيرِهِ، وَلَجَدْوَلِكَ أَغْمَرَ مِنْ بَحْورِهِ، وَلَيَوْمِكَ أَفْضَلَ مِنْ شَهْوَرِهِ، وَلَشَهْرِكَ أَمْدَدَ مِنْ حَوْلِهِ، وَلَحَوْلِكَ خَيْرَ مِنْ حُقُبِهِ (الحُقب: القرن)، وَلَزِندِكَ أَمْرَى (أَسْرَعَ إِلَى الاشتعال) مِنْ زَنْدِهِ، وَلَجَنْدِكَ أَعْزَزَ مِنْ جَنْدِهِ، وَإِنَّكَ لِمَنْ غَسَانَ أَرْبَابِ الْمَلُوكِ، وَإِنَّهُ لِمَنْ لَخْمَ الْكَثِيرِ النُّوكِ (الْكَثِيرُ الْحَمْقِيُّ)، فَكِيفَ أَفْضَلَهُ عَلَيْكَ؟"، فَمَا لا يطمئنُ له القلب في قول قيس بن رفاعة للحارث بن أبي شَمِّير العبارَةُ التالية: "ولَيَوْمِكَ أَفْضَلَ مِنْ شَهْوَرِهِ، وَلَشَهْرِكَ أَمْدَدَ مِنْ حَوْلِهِ،

ولَحَوْلُكَ خَيْرٌ مِنْ حَقْبَهُ، إِذْ إِنْ صِياغَةٌ مِثْلُ تِلْكَ الْعِبَارَةِ تَحْتَاجُ إِلَى مَا لَا يَحْسَنُهُ الْجَاهِلُونَ مِنْ تَنْوِيقٍ وَتَرْفِيهٍ فَكَرِيٍّ وَأَسْلُوبِيٍّ يَمْثُلُ فِي التَّصَاعِدِ بِالْمَعْنَى مِنَ الْيَوْمِ إِلَى الشَّهْرِ إِلَى الْحَوْلِ إِلَى الْحَقْبِ فِي سَلْسِلِ جَذَابٍ تَأْخُذُ كُلَّ حَلْقَةٍ فِيهِ بِيدِ جَارِهَا فِي شَكْلٍ فَتَنِيٍّ لَا نَظِيرٌ لَهُ لِدِي الْجَاهِلِيِّينَ. أَمَا سَائِرُ الْحَطَبَةِ فَلَا أَجِدُ فِيهِ شَيْئًا يَبْعَثُ عَلَى الرِّبَبةِ.

وَإِذَا كَانَ هُنَاكَ مِنَ الْحَطَبِ وَالْأَحَادِيثِ مَا يَرْهَقُهُ السُّجُوعُ وَالْجَنَاسُ وَالْمَوَازِنَةُ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ زَخَارِفِ الْبَدِيعِ مَا لَا نَعْرِفُهُ فِي كَلَامِ الْجَاهِلِيِّينَ وَلَا إِلَسْلَامِيِّينَ، فَإِنْ هُنَاكَ عَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ خَطْبًا وَأَحَادِيثَ تَخْلُو تَمَامًا مِنْ مَثْلِ ذَلِكَ التَّكْلُفِ أَوْ تَكْتُفِي مِنْ تَزَاوِيقِ الْبَدِيعِ بِالْقَلِيلِ الَّذِي يَسْبِغُ عَلَى الْكَلَامِ شَيْئًا مِنَ الرُّوْقَنِ دُونَ إِسْرَافٍ كَمَا فِي الْمَثَالِ التَّالِي مِنَ الْحَوَارِ الَّذِي دَارَ بَيْنَ قَيْسِ بْنِ خُفَافٍ الْبَرْجُمِيِّ وَحَاتِمَ الطَّانِي: "أَتَى أَبُو جَيْبَلَ قَيْسَ بْنَ خُفَافَ الْبَرْجُمِيَّ حَاتِمَ طَيْبَنِي فِي دَمَاءِ حَمَلَهَا عَنْ قَوْمِهِ فَأَسْلَمَهُ فِيهَا وَعَجَزَ عَنْهَا، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا تَيَّبَنَ مِنْ يَحْمِلُهَا عَنِي. وَكَانَ شَرِيفًا شَاعِرًا، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ قَالَ: إِنَّهُ وَقَعَتْ بَيْنَ قَوْمِي دَمَاءَ فَتَوَكَّلُوهَا، وَإِنِّي حَمَلَهَا فِي مَالِي وَأَمْلِي، فَقَدَمَتْ مَالِي، وَكَنْتَ أَمْلِي. فَإِنْ تَحْمِلُهَا فَرُبَّ حَقًّا قَدْ قَضَيْتَهُ، وَهَمَّ قَدْ كَتَيْتَهُ، وَإِنْ حَالَ دُونَ ذَلِكَ حَائِلٌ لَمْ أَذْمُمْ يَوْمَكَ، وَلَمْ أَيَّاسَ مِنْ غُدُكَ. ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

فَجَبَتْكَ لِمَا أَسْلَمْتَنِي الْبَرَاجِمُ فَقَلَتْ لَهُمْ يَكْنَى الْحِمَالَةَ حَاتِمُ	حَمَلْتَ دَمَاءً لِلْبَرَاجِمِ جَمَّةً وَقَالُوا سَفَاهَا: لَمْ حَمَلْتَ دَمَاءَنَا؟
---	---

وأهلاً وسهلاً، أخطأتُك الأشائِنْمُ
زيادةً من حَتَّى إِلَيْهِ الْمَكَارُمُ
فَإِنْ ماتَ قَامَتْ لِلسَّخَاءِ مَاتُمُ
بِجِبِيلٍ لَهُ مَا حَمَ فِي الْجَوْ حَائِنُمُ
فَقَلَتْ لَهُمْ: إِنِّي بِذَلِكَ عَالِيُّمُ
إِذَا جَلَّ الْمَالُ الْحَقُوقُ الْلَّوَازِمُ
لِتُصْغِيرِهِ تَلَكَ الْعَطِيَّةُ جَارِمُ
وَسَعْدٌ وَعَبْدُ اللَّهِ، تَلَكَ الْفَاقِرُمُ
فَقَالَ لَهُ حَاتِمٌ: إِنْ كُنْتُ لَأُحِبَّ أَنْ يَأْتِيَنِي مِثْلُكَ مِنْ قَوْمِكَ. هَذَا
مِرْبُاعِي مِنَ الْغَارَةِ عَلَى بَنِي تَمِيمٍ، فَخَذَهُ وَافِرًا، فَإِنْ وَفِي الْحِمَالَةِ، وَالْأَكْمَلُتُهَا لَكَ.
وَهُوَ مَا تَنَا بِعِيرٍ سَوْيَ بَنِيهَا وَفَضَالَهَا، مَعَ أَنِّي لَا أُحِبُّ أَنْ تُؤْسَرَ
قَوْمِكَ بِأَمْوَالِهِمْ. فَضَحِكَ أَبُو جَبَيلٍ وَقَالَ: لَكُمْ مَا أَخْذَتُمْ مِنَّا، وَلَنَا مَا
أَخْذَنَا مِنْكُمْ. وَأَيِّ بَعِيرٍ دَفَعْتَ إِلَيْيَّ لَيْسَ ذَبَّهُ فِي يَدِ صَاحِبِهِ فَأَنْتَ مِنْهُ
بِرِّيٌّ. فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ وَزَادَهُ مَا تَنَا بِعِيرٍ، فَأَخْذَهَا وَانْصَرَفَ رَاجِعًا إِلَى قَوْمِهِ،
فَقَالَ حَاتِمٌ فِي ذَلِكَ:

لَهُمْ فِي جِمَالَتِهِ طَوِيلٌ
فَإِنِّي لَسْتُ أَرْضِي بِالْقَلِيلِ
عَلَى عِلَانِتِهَا عَلَلَ الْبَخِيلِ
سَوْيَ النَّابِ الرَّذِيَّةِ وَالْفَصِيلِ
رَأَيْتُ الْمَنَّ يُرْزِي بِالْجَزِيلِ
مَتَى آتَاهُ فِيهَا يَقْلِلِيَّ: مَرْجُبَا
فِي حِمَلَهَا عَنِي، وَلَنْ شَتَّ زَادَنِي
يُعِيشَ النَّدِيَّ مَا عَاشَ حَاتِمٌ طَرِيَّ
يَنَادِينِ: ماتَ الْجَوَدُ مَعَكَ فَلَا نَرِي
وَقَالَ رَجَالٌ: أَنْهَبَ الْعَامَ مَا لَيْهِ
وَلَكَهُ يُعْطِي مِنْ أَمْوَالِ طَرِيَّ
فَيُعْطِي الَّتِي فِيهَا الْغَنِيَّ، وَكَانَهُ
بِذَلِكَ أَوْصَاهُ عَسْدِيٌّ وَحَسْرَجٌ
فَقَالَ لَهُ حَاتِمٌ: أَنْ كُنْتُ لَأُحِبَّ أَنْ يَأْتِيَنِي مِثْلُكَ مِنْ قَوْمِكَ.

أَنَّا نِي التَّرْجُمَىُّ أَبُو جَبَيلٍ
فَقَلَتْ لَهُ: خَذِ الْمِرْبَاعَ رَهْرَوا
عَلَى حَالٍ وَلَا عَوْدَتُ نَفْسِي
فَخَذَهَا، إِنَّهَا مَا تَنَا بِعِيرٍ
فَلَا مَنْ عَلِيكَ بِهَا، فَإِنِّي

فَابْ الْبَرْجِمِيُّ، وَمَا عَلَيْهِ
مِنْ أَعْبَاءِ الْحِمَالَةِ مِنْ قِتْلِ
يَحْرَ الذِيلِ يَنْفُضُ مِذْرَوِيَّهِ
خَفِيفُ الظَّهَرِ مِنْ حَمْلِ قِتْلِ
وَهَذَا فَضْلًا عَنِ النَّكْهَةِ الْوَاقِعِيَّةِ الَّتِي تَعْمَ النَّصْ كُلَّهُ مَا يَعْضُدُ
اَقْتَنَاعِي بِأَنَّ تَلْكَ الْحَكَايَةَ بِمَا فِيهَا مِنْ حَوَارٍ وَشِعْرٍ صَحِيقَةَ غَيْرِ مَفْتَلَةَ،
وَمِنْ ثُمَّ أَقْبَلَهَا وَأَنَا مَطْمَئِنٌ إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ.

وَمِنْهُمَا فِي ذَلِكَ النَّصِ التَّالِي، وَهُوَ مِنْ حَوَارٍ دَارَ بَيْنَ قَبِيْصَةَ بْنَ نَعِيمَ
وَأَمْرَى الْقَيْسِ الشَّاعِرِ وَالْمَلِكِ الْمُشْهُورِ فِي مَقْتَلِ وَالِدِ الْآخِرِ: "قَدِمَ عَلَى
أَمْرَى الْقَيْسِ بْنَ حَبْرَ الْكَنْدِيِّ بَعْدَ مَقْتَلِ أَبِيهِ رَجُالٌ مِنْ قَبَائِلِ بَنْيِ أَسَدِ،
وَفِيهِمْ قَبِيْصَةَ بْنَ نَعِيمَ، يَسْأَلُونَهُ الْعَفْوَ عَنِ دَمِ أَبِيهِ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ فِي قَبَاءِ
وَخُفْ وَعَمَامَةٍ سُودَاءَ، وَكَانَتِ الْعَرَبُ لَا تَعْتَمِدُ إِلَّا فِي التِّرَاتِ (أَيْ عَبْدِ
الثَّانِ). فَلَمَّا نَظَرُوا إِلَيْهِ قَامُوا لَهُ وَبَدَرُوا إِلَيْهِ قَبِيْصَةُ فَقَالَ: إِنِّي فِي الْخَلِ
وَالْقَدْرِ وَالْمَعْرِفَةِ بِتَصْرِفِ الدَّهْرِ وَمَا تُحْدِثُهُ أَيَّامَهُ وَشَنَقْلَ بِهِ أَحْوَالَهُ بِحِيثُ لَا
تَحْتَاجُ إِلَى تَذَكِيرٍ مِنْ وَاعِظٍ وَلَا تَبْصِيرٍ مِنْ بَحْرٍ. وَلَكَ مِنْ سُؤُدَّدِ مَنْصِبِكَ
وَشَرْفِ أَعْرَاقِكَ وَكَرْمِ أَصْلِكَ فِي الْعَرَبِ مَحْتَدٌ يَحْتَمِلُ مَا حُمِلَ عَلَيْهِ مِنْ
إِقَالَةِ الْعَثَرَةِ وَرَجْوِعِ عنِ الْهَفْوَةِ. وَلَا تَجَازُ الْهَمُّ إِلَى غَايَةِ إِلَّا رَجَعَتِ إِلَيْكَ
فَوُجِدْتُ عِنْدَكَ مِنْ فَصِيلَةِ الرَّأْيِ وَبَصِيرَةِ الْفَهْمِ وَكَرْمِ الصَّفَحِ مَا يَطُولُ
رَغْبَاتِهَا وَيَسْتَغْرِقُ طَلَبَاتِهَا. وَقَدْ كَانَ الَّذِي كَانَ مِنْ الْخَطْبِ الْجَلِيلِ الَّذِي
عَمَّتْ رَزِّيَّتِهِ نِزَارًا وَالْيَمِنَ، وَلَمْ تُخَصِّصْ بِذَلِكَ كِنْدَةَ دُونَنَا، لِلشَّرْفِ الْبَارِعِ
كَانَ لِحَبْرٍ: الْتَّاجُ وَالْعِمَّةُ فَوْقَ الْجَبَنِ الْكَرِيمِ، وَإِخَاءُ الْحَمْدِ وَطَيْبُ الشَّيْئِمِ.

ولو كان يُفْدَى هالك بالأنفس الباقيَة بعده لما بخلت كرائمنا بها على مثله، ولكله مضى به سبيل لا يرجع أخراه على أولاه، ولا يتحقق أقصاه أدناه. فأشَحَمُ الحالات في ذلك أن تعرف الواجب عليك في إحدى خلalan ثلاثة: إما أن اخترت من بيني أسد أشرفها بيته وأعلاها في بناء المكرمات صوتا، فقد ناه إليك بِسْعَةٍ تذهب مع شفرات حُسَامك باقى قصرته، فنقول: رجل استحق بهالك عزيز فلم يستل سخيته إلا تكينه من الانتقام. أو فداءً بما يروح على بيني أسد من نعمها، فهي ألوف تجاوز الحسبة، فكان ذلك فداء رجعت به القُضُب إلى أجفانها لم يردها تسلط الإحن على البراء. وأما أن وادعتنا إلى أن تضع المحاصل قُسْدَل الأَزْر، وتعتد الخمر فوق الرايات. فبكى أمرؤ القيس ساعة ثم رفع رأسه فقال: لقد علِمت العرب أنه لا كُفَّه لحُجْرٍ في دمٍ وأنني لن أعتاض به جملًا ولا ناقةً فاكتسب به سُبة الأبد، وفتَّ العَصْدُ. وأما النظرة فقد أوجبتها الأجنحة في بطون أمهاهَا، ولن أكون لعَطَبَها سبباً. وستعرفون طلائع كدة من بعد ذلك تحمل في القلوب حَنَقاً، وفوق الأسنة عَلَقاً

إذا جالت الحرب في مازقٍ تصافح فيه المنابع التغوسا
 أتقيمون أم تنصرفون؟ قالوا: بل نصرف بأسوأ الاختيار، وأبلى
 الاجترار، بمكروه وأذية، وحرب وبلية. ثم نهضوا عنه، وقيصصة يتمثل:
 لعلكَ أن تَسْتَوْحِم الورَة إن غَدَتْ كائِنًا في مازق الحرب ثُمَطَرُ

فقال امرؤ القيس: لا والله، ولكن أستعذ به. فرُويَّدًا ينفرجُ لك دُجَاهًا عن فرسان كندة وكاتب حمير. ولقد كان ذِكر غير هذا بي أولى إذ كثُت نازلاً بريعي، ولكنك قلت فأوجبت. فقال قبيصة: ما يُوقَع فوق قدر المعاتبة والإعتاب. فقال امرؤ القيس: هو ذاك".

وكذلك هذه الخطبة التي قالها عبد المطلب بن هاشم جد النبي عليه السلام في حضرة سيف بن ذي يَرْزَن حين ذهب إليه وفد العرب يهنتونه باتصاره على الأحباش وأخراجهم إباهم من بلاده: "لما ظفر سيف بن ذي يَرْزَن بالحبشة أتاه وفود العرب وأشرافها وشعراؤها تهنئه وتمدحه، ومنهم وفد قريش، وفيهم عبد المطلب بن هاشم. فاستأذنه في الكلام، فأذن له، فقال: إن الله تعالى أنهاها الملك أحلك مَحَلًا رفيعاً، صعباً منيعاً، باذخاً شامحاً، وأنبتك منبتاً طابت أَرْوَمَتْهُ، وعزَّتْ جرثومَتْهُ، وثبتَ أصلَه، وبَسَقَ فرعَه، في أَكْرَمِ مَعْدَنِه، وأطَيْبِ مَوْطَنِه. فانت، أَبْيَتَ اللَّعْنَ، رَأْسُ الْعَرَبِ ورَبِيعُهَا الْذِي بِهِ تَخَصِّبُ، وَمِلْكُهَا الْذِي بِهِ تَنْقَادُ، وَعَوْدُهَا الْذِي عَلَيْهِ الْعِمَادُ، وَمَعْقَلُهَا الْذِي إِلَيْهِ يَلْجَأُ الْعِبَادُ. سَلَفُكَ خَيْرُ سَلْفٍ، وَأَنْتَ لَنَا بَعْدَهُمْ خَيْرُ خَلْفٍ، وَلَنْ يَهُلِكْ مَنْ أَنْتَ خَلْفُهُ، وَلَنْ يَحْمُلْ مَنْ أَنْتَ سَلْفُهُ. نَحْنُ، أَهْلُ الْمَلَكِ، أَهْلُ حَرَمِ اللهِ وَذَمَّتِهِ وَسَدَّتِهِ بَيْتَهُ. أَشْخَصَنَا إِلَيْكَ الْذِي أَبْهَجَكَ بِكَشْفِ الْكَرْبِ الْذِي فَدَحْنَا، فَنَحْنُ وَفَدَ التَّهْنَةَ لَا وَفَدَ الْمَرْزَةَ".

ومثلها في ذلك خطبة أبي طالب عم النبي عندما ذهب معه خطبة خديجة بنت خويلد له، وهذا نصها: "خطبَ أبو طالب حين زواج النبي بالسيدة خديجة فقال: الحمد لله الذي جعلنا من زَرْعِ إبراهيم وذرية إسماعيل، وجعل لنا بلدا حراماً وبيتاً محجوباً، وجعلنا الحُكَّام على الناس. ثم إنَّ محمدَ بنَ عبدِ اللهِ ابنَ أخيِّي من لا يُوازنُ به فتىٌ من قريشٍ إلا رَجَحَ عَلَيْهِ بِرًا وَفَضْلًا وَكَرْمًا وَعَقْلًا وَجَدًا وَبَلَّاً. وإنْ كَانَ فِي الْمَالِ قُلْ فَإِنَّا الْمَالَ ظِلٌّ زَائِلٌ، وَعَارِيَّةٌ مُسْتَرْجَعَةٌ، وَلَهُ فِي خديجة بنت خويلد رغبةٌ وَطَهْرٌ فِيهِ مَثْلُ ذَلِكَ . وما أَحَبْتُمْ مِن الصَّدَاقِ فَعَلَّاَ".

وهناك ضرب آخر من الخطب المنسوبة للعصر الجاهلي تثير نوعاً آخر من التساؤلات، وهي الخطب التي يقال إن بعضها من وجوه العرب ورؤسائهم قد أقوها في قصر العاهل الكسرى بالمدائن ومحضر منه ودار الجدال بينه وبينهم حول المقارنة بين فضائل العرب وغيرهم من الأمم بما فيها فارس نفسها، إذ يتساءل الإنسان: هل من المعقول أن يحرر أولئك العرب، الذين لم تكن لهم في ذلك الحين دولة تخيمهم من بطن كسرى إذا فكر في البطش بهم، على أن يفاخروا في وجهه ذلك الفخر المجلجل الذي يرفع العرب فوق كل الأمم؟ ثم إن الرواية تذكر أن وفوداً من الصين والهند والروم كانت موجودة في ذلك الاجتماع تتبادل التفاخر والتباهر بأصولها وأعرافها، فهل كان هناك في تلك الأزمان ما يمكن بساطة، ودون افتات

على حقائق الحوادث لوا صح ما تقوله لنا الروايات، أن نسميه: "حوار القوميات" أو "حوار الحضارات"؟ ولكن فلنقرأ أولاً شيئاً من هذه الخطب وقصتها حتى يكون الكلام عن بيته. تقول الرواية:

"قدم النعمان بن المنذر على كسرى، وعنه وفود الروم والهند والصين، فذكروا من ملوكهم وبلادهم، فاقتصر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الأمم لا يستثنى فارس ولا غيرها . فقال كسرى، وأخذته عزة الملك: يا نعمان، لقد فكرت في أمر العرب وغيرهم من الأمم، ونظرت في حالة من يقدّم على من وفود الأمم فوجدت للروم حظا في اجتماع قفتها وعظم سلطانها وكثرة مدائنها ووثيق بنائها وأن لها دينًا يبين حلالها وحرامها ويرد سفيهها ويقيم جاهلها . ورأيت الهند نحو من ذلك في حكمتها وطبيعتها مع كثرة أنهار بلادها وثارها وعجب صناعتها وطيب أشجارها ودقيق حسابها وكثرة عددها، وكذلك الصين في اجتماعها وكثرة صناعات أيديها وفروسيتها وهمتها في آلة الحرب وصناعة الحديد وأن لها ملكاً يجمعها . والترك والخزر، على ما بهم من سوء الحال في المعاش وقلة الريف والثمار والمحصول وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس، لهم ملوك تضم قواصيمهم وتُدير أمرهم . ولم أر للعرب شيئاً من خصال الخير في أمر دين ولا دنيا ولا حزم ولا قوة . ومع أن مما يدل على مهاتها وذلها وصغر همتها حملتهم التي هم بها مع الوحش النافرة والطير الحائرة . يقتلون أولادهم من

الفاقة، ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة. قد خرجو من مطاعم الدنيا
وملابسها ومشاربها ولهوها ولذاتها، فأفضل طعامٍ ظفر به ناعمُهم لحوم
الإبل التي يعاها كثير من السباع لقلها وسوء طعمها وخوف دانها. وإن
قرَى أحدِم ضيفاً (أي أطعمه) عَدَّها مكرمة، وإن أطعِم أكلة عَدَّها
غنية. تنطق بذلك أشعارهم وتتفاخر بذلك رجاهُم، ما خلا هذه
الثُّوْخِيَّة التي أسس جَدِي اجتماعها وشد ملكتها ومنعها من عدوها
فجري لها ذلك إلى يومنا هذا. وإن لها مع ذلك آثاراً ولَبُوساً وقري
وحصونا وأموراً تشبه بعض أمور الناس، يعني اليمن. ثم لا أراكم
تستكينون على ما بكم من الذلة والقلة والفاقة والبؤس حتى تتفاخروا
وتزبدوا أن تنزلوا فوق مراتب الناس! قال النعمان: أصلح الله الملك. حق
لأمِّةِ الْمَلِكِ منها أن يسمُّوا فضلها ويُعْظِمُ خطبها وتعلو درجتها، إلا أن عندي
جواباً في كل ما نطق به الملك في غير رد عليه ولا تكذيب له. فإنْ أَمْتَنَى
من غضبه نطقْتُ به. قال كسرى: قل، فأنْتَ آمن.

قال النعمان: أما أمتَكُ إليها الملك فليست تُنَازَعَ في الفضل لموضعها
الذي هي به من عقولها وأحلامها وبسطة مخلها وبُحْبُوحة عِزَّها وما أُكْرِهَها
الله به من ولية آبائك وولائك. وأما الأمَّةُ التي ذكرتَ فاني أمَّةُ تقرنها
بالعرب إلا فضلتها؟ قال كسرى: بماذا؟ قال النعمان: بعزمها ومنعها
وحسن وجوهها وبأسها وسخانها وحكمة ألسنتها وشدة عقولها وأنفتها

ووفاها: فاما عزها ومنتها فإنها لم تزل بجاورة لآبائك الذين دخلوا البلاد
وطدوا الملك وقادوا الجناد، لم يطمع فيهم طامع، ولم ينلهم نائل. حصونهم
ظهور خيلهم، ومهادم الأرض، وسقوفهم السماء، وجحّتهم السيف،
وعدّتهم الصبر، إذ غيرها من الأمم إنما عزّها من الحجارة والطين وجزائر
البحور. وأما حُسْن وجهها وألوانها فقد يُعرَف فضلهم في ذلك على
غيرهم من الهند المنحرفة والصين المُتحفَّنة والروم والترك المشوهة المقشرة.
وأما أنسابها وأحسابها فليست أمةً من الأمم إلا وقد جهّلت آباءها
وأصولها وكثيراً من أولها حتى إن أحدهم ليُسأَل عن وراء أبيه دِيَّا (أى
بعده مباشرة) فلا يُنْسَب ولا يعرفه، وليس أحد من العرب إلا يسمى آباء
آبا فَآبا، حاطوا بذلك أحسابهم وحفظوا به أنسابهم، فلا يدخل رجل في
غير قومه، ولا ينسلب إلى غير نسبه، ولا يُدعى إلى غير أبيه. وأما
سخاوهَا فإن أدناهم رجلاً الذي تكون عنده البُكْرَة والناب عليها بلاغُهُ
في حُمُوله وشِيعه وريته قيطرُقه الطارق الذي يكتفي بالفلذة ويحتزى بالشريبة
فيَعِرقها له ويرضى أن يخرج عن دنياه كلها فيما يُكْسِبِه حسن الأحداثة
وطيب الذكر. وأما حكمة السننِ لهم فإن الله تعالى أعطاهم في أشعارهم
وروق كلامهم وحسنه وزنه وقوافيهم مع معرفتهم الأشياء وضربيهم للأمثال
وابلاغهم في الصفات ما ليس لشيء من السنة الأجناس. ثم خيلهم أفضل
الخيل، ونساؤهم أَعْفَ النساء، ولباسهم أَفْضل اللباس، ومعادنهم الذهب

والفضة، وحجارة جبالهم الجَرَعُ، ومطاباهم التي لا يُبلغُ على مثلها سَفَرُ،
ولا يقطعُ بِمِثْلِهَا بَلْدٌ قَرْبُ. وأما دينها وشرعيتها فإنهم متسلكون به حتى يبلغُ
أحدُهم من نُسُكِه بِدِينِه أَنَّ لَهُمْ أَشْهُرًا حُرُمًا وَبِلْدًا حُرُمًا وَبِسَا مَحْجُوحاً
يُتَسْكُونُ فِيهِ مَنَاسِكُهُمْ وَيَذْجُونُ فِيهِ ذَبَابَهُمْ فَيَلْقَى الرَّجُلُ قاتلُ أَبِيهِ أو
أخيه وهو قادر على أخذ ثأره وإدراك رَغْمَه منه فيحجزه كرمه ويعنه
دينه عن تناوله بِأَذْنِي. وأما وفاوها فإن أحدُهم يلحظ اللحظة ويومئذ
الإياءة، فهُيَ وَكَثُ (أَيْ عَهْد) وعقدة لا يحلُّها إِلَّا خروجُ نفسه، وإن
أحدُهم يرفع عوداً من الأرض فيكون رهناً بِدِينِه فلَا يَغْلُقُ رَهْنَهُ وَلَا تُخْفِرُ
ذَمَّةَ، وإن أحدُهم ليبلغه أَنَّ رجلاً استجارَ بِهِ، وعسى أَنْ يكونَ نائماً عن
دارِه، فَيُصَابُ فَلَا يَرْضَى حَتَّى يُغْنِيَ تِلْكَ الْقَبِيلَةَ الَّتِي أَصَابَهُ أَوْ تَفَنَّى قَبْيلَتَهُ
لَمَّا أَخْفَرَ مِنْ جُوَارِهِ، وَإِنَّهُ لِيَلْجُأَ إِلَيْهِمُ الْجُرْمُ الْمُحْدَثُ مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ وَلَا
قِرَابَةٍ فَتَكُونُ أَنْفُسَهُمْ دُونَ نَفْسِهِ، وَأَمْوَالَهُمْ دُونَ مَالِهِ. وأما قولك أيها الملك:
"يَدُونُ أَوْلَادَهُمْ" فَإِنَّمَا يَفْعُلُهُ مِنْ يَفْعُلُهُمْ بِالإِنَاثِ أَنْفَةُ مِنَ الْعَارِ وَغَيْرَهُ مِنَ
الْأَزْوَاجِ. وأما قولك إنَّ أَفْضَلَ طَعَامِهِمْ لَحُومُ الإِبْلِ عَلَى مَا وَصَّفَتْ مِنْهَا فَمَا
تَرَكُوا مَا دُونَهَا إِلَّا احْتَقاراً لَهَا فَعَمِدوا إِلَى أَجْلَهَا وَأَفْضَلُهَا فَكَانَتْ مَرَاكِبُهُمْ
وَطَعَامُهُمْ مَعَ أَنَّهَا أَكْثَرُ الْبَهَائِمِ شَحُوماً وَأَطْبَيْهَا لَحُوماً وَأَرْقَهَا أَبَانَا وَأَقْلَهَا
غَائِلَةً وَأَحْلَاهَا مَضْغَةً، وَإِنَّهُ لَا شَيْءٌ مِنَ الْلَّهُمَانَ يَعْالِجُ مَا يَعْالِجُ بِهِ لَهُمَا إِلَّا
اسْتِبَانَ فَضْلَهَا عَلَيْهِ. وأما تَحَارُّهُمْ وَأَكْلُ بَعْضِهِمْ بَعْضاً وَتَرْكُهُمْ الْاقْتِيادُ

لرجل يُسُوهُم ويجمعهم فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم إذا أنسَتْ من نفسها ضعفاً وتحوّلت نهوضاً عدوها إليها بالزحف، وإنه إنما يكون في الملائكة العظيمة أهل بيت واحد يُعرَف فضلهم على سائر غيرهم فيُلقون إليهم أمورهم وينقادون لهم بأَرْتَهِمْ. وأما العرب فإن ذلك كثير فيهم حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكاً أجمعين مع أنّهم من أداء الخراج والوطث (أى الوطاء) بالعُسُف. وأما اليمن التي وصفها الملك فإنما أنت جَدَّ الملك إليها الذي أتاه عند غلبة الجيش له على مُلْكٍ مُتَسَقٍ وأمر مجتمع فأتاه مسلوباً طريداً مُسْتَصْرِحًا. ولو لا ما وَرَّ به من يليه من العرب لَمَّا إلى بحال ولوَجَدَ من يحيى الطعان ويفضي للأحرار من غلبة العبيد الأشرار. فعجب كسرى لما أُجَابَه النعمان به وقال: إنك لأهل لوضعك من الرياسة في أهل إقليمك. ثم كَسَاه من كُسوته وسَرَّه إلى موضعه من الحيرة.

فَلَمَّا قَدِمَ النَّعْمَانُ الْحِيرَةَ، وَفِي نَفْسِهِ مَا فِيهَا مَا سَمِعَ مِنْ كَسْرَى مِنْ تَنَقُّصِ الْعَرَبِ وَتَهْجِينِ أَمْرِهِمْ، بَعَثَ إِلَى أَكْثَمَ بْنَ صَيْفِي وَحَاجِبَ بْنَ زُرَارَةِ التَّمِيمَيْنِ وَإِلَى الْحَارِثَ بْنَ عَبَادِ وَقَيْسَ بْنَ مُسَعُودِ الْبَكَرَيْنِ وَإِلَى خَالِدَ بْنَ جَعْفَرَ وَعَلْقَمَةَ بْنَ عَلَّاكَةَ وَعَامِرَ بْنَ الطَّقِيلِ الْعَامِرَيْنِ وَإِلَى عُمَرَوْ بْنَ الشَّزِيدِ السَّلَمِيِّ وَعُمَرَوْ بْنَ مَعْدِيكَرِبِ الرَّبِيعِيِّ وَالْحَارِثَ بْنَ ظَالِمِ الْمَرِيِّ. فَلَمَّا قَدِمُوا عَلَيْهِ فِي الْخَوْرَقَ قال لهم: قد عرفتم هذه الأعاجم وَقُرُبَ جوار العرب منها، وقد سمعتُ من كسرى مقالات تخوّفتُ أن يكون لها غُورٌ أو يكون

إِنَّا أَظْهَرْنَا لِأَمْرِ أَرَادَ أَنْ يَتَخَذَ بِهِ الْعَرَبُ حَوْلًا (أَيْ حَذَارًا) كَبْعَض طِطَاطِمَة (الطِطَاطِمَة: الَّذِينَ لَا يَحْسِنُونَ الْكَلَامَ) فِي تَأْدِيَتِهِمُ الْخَرَاجُ إِلَيْهِ كَمَا يَفْعَلُ بِهِلُوكُ الْأَمْمِ الَّذِينَ حَوْلُهُمْ. فَاقْصُصُ عَلَيْهِم مَقَالَاتٍ كَسْرِيٍّ وَمَا رَدَّ عَلَيْهِ، فَقَالُوا: أَيْهَا الْمَلِكُ، وَفَقَكَ اللَّهُ! مَا أَخْسَنَ مَا رَدَّتْ، وَأَلْبَغَ مَا حَجَجْتَ بِهِ! قَمْرُنَا بِأَمْرِكَ وَادْعَنَا إِلَى مَا شَاءَتْ. قَالَ: إِنَّا أَنَا رَجُلُّ مَنْكُمْ، وَإِنَّا مَلَكُّ عَزَّزَتْ بِمَكَانِكُمْ وَمَا يَخْرُقُ مِنْ نَاحِيَتِكُمْ. وَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مَا سَدَّ اللَّهُ بِهِ أَمْرَكَ وَأَصْلَحَ بِهِ شَانِكُمْ وَأَدَمَ بِهِ عَزِّكُمْ. وَالرَّأْيُ أَنْ تَسِيرُوا بِيَمَائِعَكُمْ أَيْهَا الرَّهَطُ وَتَنْطَلِقُوا إِلَى كَسْرِيٍّ، فَإِذَا دَخَلْتُمْ نَطْقَ كُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَا حَضَرَهُ لِيَعْلَمُ أَنَّ الْعَرَبَ عَلَى غَيْرِ مَا ظَنَّ أَوْ حَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ. وَلَا يَنْطُقُ رَجُلٌ مِنْكُمْ بِمَا يَغْضِبُهُ، فَإِنَّهُ مَلِكٌ عَظِيمٌ السُّلْطَانُ كَثِيرُ الْأَعْوَانِ مُتَرْفٌ مُعْجِبٌ بِنَفْسِهِ، وَلَا تَنْخِرُوا لَهُ الْخِزَالُ الْخَاضِعُ الذَّلِيلُ. وَلَيْكُنْ أَمْرٌ بَيْنَ ذَلِكَ تَظَاهِرُ بِهِ وَنَافِعَةً حُلُومَكُمْ وَفَضْلَ مِنْزَلَتِكُمْ وَعَظِيمَ أَخْطَارِكُمْ، وَلَيْكُنْ أَوْلَى مِنْ يَبْدَا مِنْكُمْ بِالْكَلَامِ أَكْثَرُ بَنِ صَيْفِيٍّ، ثُمَّ تَابُوا عَلَى الْأَمْرِ مِنْ مَنَازِلِكُمُ الَّتِي وَضَعَتُمُّ بِهَا، فَإِنَّمَا دَعَانِي إِلَى التَّقْدِيمَ إِلَيْكُمْ عِلْمِي بِعِلْمِ كُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ إِلَى التَّقْدِيمِ قَبْلَ صَاحِبِهِ، فَلَا يَكُونُ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَيَجِدُ فِي آدَابِكُمْ مَطْعَنًا، فَإِنَّهُ مَلِكٌ مُتَرْفٌ وَقَادِرٌ مُسْلِطٌ. ثُمَّ دَعَا لَهُمْ بِمَا فِي خَرَائِنِهِ مِنْ طَرَائِفِ حُلُولِ الْمَلِوكِ، كُلَّ رَجُلٍ مِنْهُمْ حُلَّةٌ، وَعَمَّمَهُ عَمَّامَةٌ، وَخَتَّمَهُ بِيَاقُوتَةٍ، وَأَمْرَ لَكِلَّ رَجُلٍ مِنْهُمْ بِنَجْعِيَّةٍ مَهْرِيَّةٍ وَفِرْسٍ نَجِيَّةٍ، وَكَبَّ مَعْهُمْ كَابَا: أَمَا بَعْدُ، فَإِنَّ

الملِك ألقى إلَيَّ منْ أَمْرِ الْعَرَبِ مَا قَدْ عَلِمَ، وَأَجْبَتْهُ بِمَا قَدْ فَهِمَ مَا أَحْبَبَتْ أَنْ
يَكُونَ مِنْهُ عَلَى عِلْمٍ وَلَا يَنْجُلِجُ فِي نَفْسِهِ أَنْ أَمْةً مِنَ الْأَمْمَاتِ الَّتِي احْجَزَتْ
دُونَهُ بِمَلْكَتِهِ وَحَمَّتْ مَا يَلِيهَا بِفَضْلِ قُوَّتِهِ تِلْغُهَا فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَمْرِ الَّتِي
يَعْزِزُ بِهَا ذُوو الْحَزْمِ وَالْقُوَّةِ وَالْتَّدِيرِ وَالْمَكِيدَةِ. وَقَدْ أَوْفَدَتْ، أَيْهَا الْمَلِكُ،
رِهْطًا مِنَ الْعَرَبِ لَهُمْ فَضْلٌ فِي أَحْسَابِهِمْ وَأَنْسَابِهِمْ وَعَقْوَلَهُمْ وَآدَابِهِمْ؛
فَلِيُسْعِ الْمَلِكَ وَلِيُغَيْضَ عَنْ جَفَاءِ إِنْ ظَهَرَ مِنْ مَنْطَقَهُمْ، وَلِيُكْرِمَنِي بِإِكْرَامِهِمْ
وَتَعْجِيلِ سَرَاحِهِمْ. وَقَدْ نَسَبُهُمْ فِي أَسْفَلِ كَابِي هَذَا إِلَى عَشَائِرِهِمْ. فَخَرَجَ
الْقَوْمُ فِي أَهْبَتِهِمْ حَتَّى وَقَفُوا بِبَابِ كَسْرَى بِالْمَدَائِنِ، فَدَفَعُوا إِلَيْهِ كِتَابَ النَّعْمَانِ
فَقَرَأُهُ أَمْرٌ يَأْنِزُهُمْ إِلَى أَنْ يَجْلِسُوهُمْ لَهُمْ مَجْلِسًا يَسْمَعُونَهُمْ. فَلَمَّا أَنْ كَانَ بَعْدَ
ذَلِكَ بِأَيَّامٍ أَمْرٌ مَرَازِبَهُ وَوِجْهَهُ أَهْلَ مَلْكَتِهِ فَحَضَرُوهُ وَجَلَسُوا عَلَى كَرَاسِيِّ
عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، ثُمَّ دَعَا بِهِمْ عَلَى الْوَلَاءِ وَالْمَرَاتِبِ الَّتِي وَصَفَهُمُ النَّعْمَانُ بِهَا
فِي كَابِي، وَأَقَامَ التَّرْجَمَانَ لِيُؤْدِي إِلَيْهِ كَلَامَهُمْ ثُمَّ أَذْنَ لَهُمْ فِي الْكَلَامِ.

فَقَامَ أَكْمَمُ بْنُ صَيْفِي فَقَالَ: إِنْ أَفْضَلَ الْأَشْيَاءِ أَعْالِيَاهَا، وَأَعْلَى الرِّجَالِ
مُلُوكُهَا، وَأَفْضَلُ الْمُلُوكِ أَعْمَهَا نَفْعًا، وَخَيْرُ الْأَزْمَنَةِ أَخْصَبُهَا، وَأَفْضَلُ الْخَطَبَاءِ
أَصْدَقُهَا. الصَّدْقَ مُنْجَاةٌ، وَالْكَذْبُ مَهْوَا، وَالشَّرُّ لِحَاجَةٍ، وَالْحَزْمُ مَرْكَبٌ
صَعْبٌ، وَالْعَجْزُ مَرْكَبٌ وَطَيْءٌ. آفَةُ الرَّأْيِ الْهُوَى، وَالْعَجْزُ مَفْتَاحُ الْفَقْرِ،
وَخَيْرُ الْأَمْرِ الصَّبْرُ. حَسْنُ الظَّنِّ وَرَطْةٌ، وَسُوءُ الظَّنِّ عَصْمَةٌ. إِصْلَاحُ
فَسَادِ الرُّعْيَةِ خَيْرٌ مِنْ إِصْلَاحِ فَسَادِ الرَّاعِيِ. مِنْ فَسَدَتْ بَطَاطَتِهِ كَانَ

كالغاصن بالماء . شر البلاد بلاد لا أمير بها . شر الملوك من خافه البرىء .
 المرء يعجز لا الحالة . أفضل الأولاد البررة . خير الأعوان من لم يُرأء
 بالنصيحة . أحق الجنود بالنصر من حسنت سريرته . يكفيك من الرزاد ما
 بلغك الحال . حسبك من شر سماعه . الصمت حُكْمٌ وقليل فاعله .
 البلاغة الإيجاز . من شدَّدْ قَرْ، ومن تراخي تألف . فتعجب كسرى من
 أكثم ثم قال: ويحك يا أكثم ! ما أحكمك وأوثق كلامك لولا وضنك
 كلامك في غير موضعه . قال أكثم: الصدق يبني عنك لا الوعيد . قال
 كسرى: لو لم يكن للعرب غيرك لكفى . قال أكثم: رَبَّ قول أَنْذَدْ من صَوْلَ.
 ثم قام حاجب بن زِرَارة التميمي فقال: وَرَى زِنْدَكَ، وَعَلَتْ يَدِكَ،
 وَهِبَ سُلْطَانَكَ . إن العرب أمة قد غلَطْتُ أكبادها واستحصدت مرتها
 ومنعت درتها ، وهي لك وامقة ما تألفتها ، مسترسلة ما لا ينتها ، سامعة ما
 ساحتها ، وهي العلقم مرارة ، والصاب غضاضة ، والعسل حلاوة ، والماء
 الزلال سلاسة . نحن وفودها إليك ، وألسنتها لديك . ذمتنا محفوظة ،
 وأحسابنا منوعة ، وعشائزنا فيما سامعة مطيبة . إن نَوْبَ لك حامدين
 خيرا فلك بذلك عموم مَحْمَدَتنا ، وإن نَذْمَ لم تُخَصْ بالبذم دونها . قال
 كسرى: يا حاجب ، ما أشبه حجر التلال بالوان صخرها ! قال حاجب:
 بل زثير الأسد بصولتها . قال كسرى: وذلك .

ثم قام الحارث بن عباد البكري فقال: دامت لك المملكة باستكمال
جزيل حظها وعلو سنائها . من طال رشاوه كثُرَ مَتْحُمَه ، ومن ذهب ماله قلَ
مَنْحُمَه . تناقل الأقاويل يعرّف اللب ، وهذا مقامٌ سِيُوجِفُ بما ينطق به
الرُّكْبُ وتَعْرَفُ به كُلُّهَا حَالُنَا الْجَمْعُ وَالْعَرْبُ . وَنَحْنُ جِيرَانُكَ الْأَدْنَوْنُ ،
وَأَعْوَانُكَ الْمُعِينُونَ . خَيْولُنَا جَمَّةٌ ، وَجِيُوشُنَا فَخْمَةٌ . إِنْ اسْتَنْجَدْنَا فَغَيْرُ
رِبْضٍ ، وَإِنْ اسْتَطْرَقْنَا فَغَيْرُ جُهْضٍ ، وَإِنْ طَلَبْنَا فَغَيْرُ غُمْضٍ . لَا نَشْتَيْ
لَذْعَرَ ، وَلَا تَنْكِرْ لَدْهَرَ . رَمَاهُنَا طَوَالَ ، وَأَعْمَارُنَا قَصَارٌ . قَالَ كَسْرِيَّ:
أَنْفُسُ عَزِيزَةٍ ، وَأَمَّةٌ ضَعِيفَةٌ . قَالَ الْحَارِثُ: أَيْهَا الْمَلْكُ ، وَأَنِّي يَكُونُ لَضَعِيفٍ
عِزَّةٌ ، أَوْ لَصَغِيرٍ مِرَّةً؟ قَالَ كَسْرِيَّ: لَوْ قَصْرٌ عُمْرُكَ لَمْ تَسْتُولْ عَلَى لِسَانِكَ
نَفْسُكَ . قَالَ الْحَارِثُ: أَيْهَا الْمَلْكُ ، إِنَّ الْفَارِسَ إِذَا حَمَلَ نَفْسَهُ عَلَى الْكَتْبِيَةِ
مَغْرِرًا بِنَفْسِهِ عَلَى الْمَوْتِ فَهِيَ مُنْيَةٌ اسْتَقْبَلَهَا ، وَجَنَانٌ اسْتَدْبَرَهَا . وَالْعَرْبُ
تَعْلَمُ أَنِّي أَبْعَثُ الْحَرْبَ قُدُّمًا ، وَأَحْبَسُهَا وَهِيَ تَصْرَفُ بِهَا ، حَتَّى إِذَا
جَاهَتْ نَارُهَا وَسَعَرَتْ لَظَاهَا وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَهَا جَعَلَتْ مَقَادِهَا رَحْمِيًّا ،
وَبِرْقَهَا سَيْفِيًّا ، وَرَعْدَهَا زَئِيرِيًّا ، وَمِمَّ أَقْصَرَ عَنْ خَوْضِ خَضَّاحَهَا حَتَّى
أَنْفَسَ فِي غَمَرَاتِ لُجَجَهَا ، وَأَكُونَ فُلُكًا لِفَرْسَانِي إِلَى بُحُبُوحَةِ كَبِشَهَا
فَأَسْتَمْطِرُهَا دَمًا ، وَأَتْرَكُ حُمَّاتَهَا جَرَزَ السَّبَاعِ وَكُلَّ نَشْرٍ قَشْعَمَ (أَيْ أَقْتَلَهُمْ
وَأَتَرَكُهُمْ لِلْسَّبَاعِ وَالنَّسُورِ تَنْهَشُ جَثَثَهُمْ) . ثُمَّ قَالَ كَسْرِيَّ لِمَنْ حَضَرَهُ مِنْ

العرب: أَكَذَلَنَا، هُو؟ قَالُوا: فَعَالَهُ أَنْطَقٌ مِنْ لِسَانِهِ. قَالَ كَسْرِي: مَا رَأَيْتَ
كَالِيلَمْ وَفَدَا أَحْشَدَ، وَلَا شَهُودًا أَوْفَدَ.

ثُمَّ قَامَ عُمَرُ بْنُ الشَّرِيدِ السُّلْطَنِيَّ فَقَالَ: أَهِنَ الْمَلْكُ، نَعَمْ بِالْمَلْكِ، وَدَامَ
فِي السِّرُورِ حَالُكِ. إِنَّ عَاقِبَةَ الْكَلَامِ مُتَدَبَّرَةٌ، وَأَشْكَالَ الْأَمْرِ مُعْتَرَّةٌ، وَفِي
كَثِيرٍ ثُقلَةٌ، وَفِي قَلِيلٍ بُلْغَةٌ، وَفِي الْمُلُوكِ سُورَةُ الْعِزَّةِ. وَهَذَا مُنْطَقٌ لِهِ مَا بَعْدُهُ،
شَرْفٌ فِيهِ مَنْ شَرُفَ، وَخَمْلٌ فِيهِ مَنْ خَمَلَ. لَمْ نَأْتِ لِضَيْمِكِ، وَلَمْ تَقْدِ
لِسْخَطِكِ، وَلَمْ تَعْرُضْ لِرُفْدِكِ (أَيِّ عَطَايَكِ). إِنَّ فِي أَمْوَالِنَا مُنْقَدِّدًا، وَعَلَى
عَزَّنَا مُعْتَمِدًا. إِنَّ أَوْرَيْنَا نَارًا أَئْتَنَا، وَإِنَّ أَوْدَ دَهْرَنَا اعْتَدَنَا، إِلَّا أَنَا مَعَ
هَذَا الْجَوَارِكَ حَافِظُونَ، وَلِمَنْ رَأَيْكَ كَافِحُونَ، حَتَّى يُخَمِّدَ الصَّدَرَ،
وَيُسْطَابَ الْخَبْرُ. قَالَ كَسْرِي: مَا يَقُومُ قَصْدُ مُنْطَقِكِ بِإِفْرَاطِكِ، وَلَا مَدْحُكِ
بِذَمْكِ. قَالَ عُمَرُ: كَفَى بِقَلِيلٍ قَصْدِي هَادِيَا، وَبِأَيْسَرِ إِفْرَاطِي مُخْبِرًا. وَلَمْ
يُلْمِمْ مَنْ غَرَبَتْ نَفْسُهُ عَمَّا يَعْلَمُ، وَرَضِيَّ مِنَ الْقَصْدِ بِمَا بَلَغَ. قَالَ كَسْرِي: مَا
كُلَّ مَا يَعْرِفُ الْمَرءُ يَنْطَقُ بِهِ. اجْلَسَ.

ثُمَّ قَامَ خَالِدُ بْنُ جَعْفَرِ الْكَلَابِيَّ فَقَالَ: أَحْضَرَ اللَّهُ الْمَلْكَ إِسْعَادًا،
وَأَرْشَدَهُ إِرْشَادًا. إِنَّ لِكُلِّ مُنْطَقٍ فَرْصَةً، وَلِكُلِّ حَاجَةٍ غُصَّةً، وَعَيْنُ الْمُنْطَقِ
أَشَدُّ مِنْ عَيْنِ السُّكُوتِ، وَعِثَارُ الْقَوْلِ أَنْكَأُّ مِنْ عِثَارِ الْوَعْثَةِ. وَمَا فَرْصَةُ
الْمُنْطَقِ عَنْدَنَا إِلَّا بِمَا نَهَوْيَ، وَغُصَّةُ الْمُنْطَقِ بِمَا لَا نَهَوْيَ غَيْرُ مُسْتَسَاغَةٍ،
وَتَرْكِي مَا أَعْلَمُ مِنْ نَفْسِي وَيَعْلَمُ مَنْ سَمِعْنِي أَنْسَى لِهِ مَطْيِقَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ

تَكْلُفِي مَا أَتَحْوَفُ وَيُتَحْوَفُ مِنِّي . وَقَدْ أَوْفَدَنَا إِلَيْكَ مَلِكُنَا النَّعْمَانَ ، وَهُوَ لَكَ
مِنْ خَيْرِ الْأَعْوَانِ ، وَتَعْمَلُ حَامِلُ الْمَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ . أَنْفَسْنَا بِالطَّاعَةِ لَكَ
بِالْخَعْدَةِ ، وَرَقَابْنَا بِالنَّصِيحَةِ خَاصِّيَّةً ، وَأَيَّدْنَا لَكَ بِالْوَفَاءِ رَهِينَةً . قَالَ لَهُ
كَسْرَى : نَطَقْتَ بِعُقْلِي ، وَسَمَوْتَ بِفَضْلِي ، وَعَلَوْتَ بِثُبْلِي .

ثُمَّ قَامَ عَلْقَمَةُ بْنُ عَلْكَةَ الْعَامِرِيَّ فَقَالَ : هَبَّجْتُ لَكَ سُبُّلَ الرِّشَادِ ،
وَخَضَعْتُ لَكَ رِقَابَ الْعِبَادِ . إِنَّ لِلْأَقْوَى مِنَاهِجَ ، وَلِلْأَرَاءِ مَوَالِيَّ ، وَلِلْعِوْصِ
مَخَارِجَ ، وَخَيْرُ الْقَوْلِ أَصْدَقَهُ ، وَأَفْضَلُ الْطَّلَبِ أَبْخَجَهُ . إِنَّا ، إِنَّا كَانَتِ الْحَبَّةُ
أَحْضَرَتِنَا وَالْوَفَادَةَ قَرَبَنَا ، فَلَيْسَ مَنْ حَضَرَكَ مِنَا بِأَفْضَلِ مَنْ عَزَّبَ عَنْكَ .
بَلْ لَوْقَسْتَ كُلَّ رِجْلٍ مِنْهُمْ وَعَلِمْتَ مِنْهُمْ مَا عَلِمْنَا لَوْجَدْتَ لَهُ فِي آبَائِهِ ذِيَّا
أَنْدَادًا وَأَكْنَاءَ كَلْمَمَ إِلَى الْفَضْلِ مَنْسُوبَ ، وَبِالشَّرْفِ وَالسَّوْدَدِ مَوْصُوفَ ،
وَبِالرَّأْيِ الْفَاضِلِ وَالْأَدْبِ النَّافِذِ مَعْرُوفَ . يَحْمَى حَمَاءُ ، وَيُرْوَى نَدَاماً ،
وَيَذَوَّدُ أَعْدَادُهُ . لَا تَخْمَدُ نَارَهُ ، وَلَا يَحْتَرِزُ مِنْهُ جَارُهُ . أَيْهَا الْمَلِكُ ، مَنْ يَبْلُلُ
الْعَرَبَ يَعْرُفُ فَضْلَهُمْ ، فَاصْطَنِعُ الْعَرَبَ ، فَإِنَّهَا الْجَبَالُ الرَّوَاسِيُّ عِزَّاً ، وَالْبَحْرُ
الْزَّوَاحِرُ طَيْيَا ، وَالنَّجْوَمُ الزَّوَاهِرُ شَرْفَاً ، وَالْحَصْنُ عَدَدًا ، فَإِنْ تَعْرُفَ لَهُمْ
فَضْلَهُمْ يُعَزُّوكَ ، وَإِنْ تَسْتَرْخَهُمْ لَا يَخْذُلُوكَ . قَالَ كَسْرَى ، وَخَشِّيَ أَنْ يَأْتِي
مِنْهُ كَلَامٌ يَحْمِلُهُ عَلَى السُّخْطِ عَلَيْهِ : حَسْبُكَ ! أَبْلَغْتَ وَأَخْسَنْتَ !

ثُمَّ قَامَ قَيْسُ بْنُ مَسْعُودَ الشَّيْبَانِيَّ فَقَالَ : أَطَابَ اللَّهُ بِكَ الْمَرَاسِنَ ،
وَجَبَّكَ الْمَصَابَ ، وَوَقَاكَ مَكْرُوهُ الشَّصَابَ (الشَّدَائِدَ) . مَا أَحْقَنَا ، إِذْ

أَتَيْنَاكَ، بِاسْمَاهُكَ مَا لَا يُحْتَقِنُ صَدْرَكَ، وَلَا يَزْرَعُ لَنَا حَقْدًا فِي قَلْبِكَ! لَمْ
تَقْدِمْ أَيْهَا الْمَلَكُ لِسَامَةَ، وَلَمْ نَتَسَبْ لِمَعَاذَةَ، وَلَكِنْ لِتَعْلَمَ أَنْتَ وَرَعِيْتَكَ وَمِنْ
حَضْرَكَ مِنْ وَفُودِ الْأَمْمَ أَنَا فِي الْمَنْطَقِ غَيْرِ مُحْجَمِينَ، وَفِي النَّاسِ غَيْرِ
مَقْصِرِينَ. إِنْ جُوْرِبِنَا فَغَيْرِ مَسْبُوقِينَ، وَإِنْ سُوْمِبِنَا فَغَيْرِ مَغْلُوبِينَ. قَالَ
كَسْرِيْ: غَيْرِ أَنْكُمْ إِذَا عَاهَدْتُمْ غَيْرَ وَافِينَ (وَهُوَ يُعرَضُ بِهِ فِي تَرْكَهُ الْوَفَاءَ
بِضَعَانِهِ السَّوَادِ). قَالَ قَيْسٌ: أَيْهَا الْمَلَكُ، مَا كَتَتْ فِي ذَلِكَ إِلَّا كَوَافِعَ غُدُرَ
بِهِ، أَوْ كَخَافِرَ أَخْفَرَ بِذَمَتِهِ. قَالَ كَسْرِيْ: مَا يَكُونُ لِضَعِيفٍ ضَمَانٌ، وَلَا
لِذَلِيلٍ خَفَارَة. قَالَ قَيْسٌ: أَيْهَا الْمَلَكُ، مَا أَنَا فِيمَا أَخْفَرَ مِنْ ذَمَتِي أَحْقَ
بِالْإِزَامِيِّ الْعَارِ مِنْكَ فِيمَا قُتِلَ مِنْ رَعِيْتَكَ، وَاتَّهَوكَ مِنْ حُرْمَتَكَ. قَالَ كَسْرِيْ:
ذَلِكَ لِأَنَّ مِنْ أَنْتَمْ الْخَانَةَ (أَيِّ الْخَوْنَةَ)، وَاسْتَجَدَ الْأَثْمَةُ نَالَهُ مِنَ الْخَطَا إِمَّا
نَالَنِي، وَلَيْسَ كُلُّ النَّاسِ سَوَاءً. كَيْفَ رَأَيْتَ حَاجِبَ بْنَ زَرَارَة؟ لَمْ يُحْكِمْ
قُوَّاهُ فِيْبِرِمْ، وَيَعْهَدْ فِيْوَفِيْ، وَيَعْدْ فِيْتَجِزْ؟ قَالَ: وَمَا أَحْقَهُ بِذَلِكَ! وَمَا رَأَيْتُهُ
إِلَّا لِي. قَالَ كَسْرِيْ: الْقَوْمُ بُرْلُ (الْبَازِلُ: النَّاقَةُ الْمَسْتَنَةُ)، فَأَفْضَلُهُمْ أَشَدَّهَا.

ثُمَّ قَامَ عَامِرُ بْنُ الطَّفْلِيِّ الْعَامِرِيَّ فَقَالَ: كَثُرَ فَنُونُ الْمَنْطَقِ، وَلَبِسَ الْقَوْلُ
أَعْمَى مِنْ حِنْدِسِ الظَّلَمَاءِ، وَإِنَّا الْفَخْرَ فِي الْفَعَالِ، وَالْعَجْزَ فِي التَّبْجِدَةِ،
وَالسُّوْدَدَ مَطَاوِعَةَ الْقَدْرَةِ. وَمَا أَعْلَمَكَ بِقَدْرِنَا، وَأَبْصَرَكَ بِفَضْلِنَا. وَبِالْحَرَىِ
إِنَّ أَدَالَتِ الْأَيَّامِ، وَثَابَتِ الْأَحْلَامِ، أَنْ تُحْدِثَ لَنَا أَمْوَالًا هَا أَعْلَامِ. قَالَ
كَسْرِيْ: وَمَا تَلِكَ الْأَعْلَامِ؟ قَالَ: مَجْمَعُ الْأَحْيَاءِ مِنْ رِبِيعَةِ وَمَضْرِ، عَلَى أَمْرِ

يُذَكَّرْ. قال كسرى: وما الأمر الذي يُذَكَّرْ؟ قال: ما لي علم بـأكثـر ما أخبرني به مُخـبر. قال كسرى: متى تـكـاهـنـتـ يا ابن الصـفـيلـ؟ قال: لـسـتـ بـكـاهـنـ، ولـكـنـي بـالـرـمـحـ طـاعـنـ. قال كسرى: فإنـ أـتـاكـ آـتـ منـ جـهـةـ عـيـنـكـ العـورـاءـ، ماـ أـنـتـ صـانـعـ؟ قال: ماـ هـيـبـيـ فـي قـفـايـ بـدـوـنـ هـيـبـيـ فـي وجـهـيـ، وـماـ أـذـهـبـ عـيـنـيـ عـيـثـ، وـلـكـنـ مـطـاوـعـةـ الـعـبـثـ.

ثم قـامـ عمـروـ بـنـ مـعـدـيـكـبـ الرـبـيدـيـ فـقـالـ: إـنـاـ الـرـءـ بـأـصـغـرـهـ: قـلـهـ وـلـسـاـ، فـبـلـاغـ الـمـنـطـقـ الـصـوـابـ، وـمـلـاـكـ التـجـمـعـ الـاـرـتـيـادـ، وـعـفـوـ الرـأـيـ خـيرـ سـنـ اـسـتـكـاهـ الـفـكـرـةـ، وـتـوـقـيفـ الـخـبـرـ خـيرـ (ـمـنـ اـعـسـافـ الـخـيـرـ)، فـاجـبـذـ (ـاجـذـبـ) طـاعـنـا بـلـفـظـكـ، وـاـكـظـمـ بـاـدـرـتـنا بـحـلـمـكـ. وـأـلـلـنـ لـنـا كـفـكـ يـسـلـسـ لـكـ قـيـادـنـاـ، فـإـنـاـ أـنـاسـ لـمـ يـوـقـسـ صـفـاتـنـاـ (ـأـىـ لـمـ يـخـدـشـ صـخـرـتـنـاـ) قـرـأـعـ مـنـاقـيرـ مـنـ أـرـادـ لـنـاـ قـضـمـاـ، وـلـكـنـ مـنـعـنـاـ حـيـانـاـ مـنـ كـلـ مـنـ رـامـ لـنـاـ هـضـمـاـ.

ثم قـامـ الـحـارـثـ بـنـ ظـالـمـ الـمـرـيـ فـقـالـ: إـنـ مـنـ آـفـةـ الـمـنـطـقـ الـكـذـبـ، وـمـنـ لـوـمـ الـأـخـلـاقـ الـمـلـقـ، وـمـنـ خـطـلـ الـرـأـيـ خـفـةـ الـمـلـكـ الـمـسـلـطـ. فـإـنـ أـعـلـمـنـاـكـ أـنـ مـواـجـهـتـنـاـ لـكـ عنـ الـاـتـلـافـ، وـاـقـيـادـنـاـ لـكـ عنـ تـصـافـ، فـمـاـ أـنـتـ لـقـبـولـ ذـلـكـ مـنـاـ بـحـلـيقـ، وـلـاـ لـلـاعـتمـادـ عـلـيـهـ بـحـقـيقـ، وـلـكـ الـوـفـاءـ بـالـعـهـودـ، وـالـحـكـامـ وـلـثـ الـعـقـودـ. وـالـأـمـرـ بـيـنـاـ وـبـيـنـكـ مـعـدـلـ مـاـ لـمـ يـأـتـ مـنـ قـبـلـكـ مـيـلـ أوـ زـلـلـ. قالـ كـسـرـىـ: مـنـ أـنـتـ؟ قالـ: الـحـارـثـ بـنـ ظـالـمـ. قالـ: إـنـ فـي أـسـماءـ آـبـائـكـ لـدـلـيلـاـ عـلـىـ قـلـةـ وـفـائـكـ وـأـنـ تـكـونـ أـوـلـىـ بـالـغـدـرـ، وـأـقـرـبـ مـنـ الـوزـرـ. قالـ الـحـارـثـ: إـنـ

في الحق مغضبة، والسرور التغافل، ولن يستوجب أحداً الحلم إلا مع القدرة، فلتتشبه أفعالك مجلسك. قال كسرى: هذا قوى القوم. ثم قال كسرى: قد فهمت ما نطقت به خطباؤكم، وتفتن فيه منكلمومكم. ولو لا أنني أعلم أن الأدب لم يشق أودكم ولم يحكم أمركم وأنه ليس لكم ملك يجمعكم فتنتطرون عنده منطق الرعية الخاضعة البالغة فننطقهم بما استولى على السننكم وغلب على طباعكم لم أجز لكم كثيراً مما تكلمتم به. وإنني لأكره أن أجدهم وفودي أو أحينق صدورهم، والذي أحبت هو إصلاح مدبركم وتآلف شوادكم والإعذار إلى الله فيما بيني وبينكم. وقد قبلت ما كان في منطقكم من صواب، وصفحت عما كان فيه من خلل، فانصرفوا إلى ملوككم، فأحسينا مؤازرته، والتزموا طاعته، واردعوا سفهاءكم، وأقيموا أودهم، وأحسينا أدبهم، فإن في ذلك صلاح العامة".

وأول شيء يلفت النظر هو: كيف استطاع النعمان أن يجمع هؤلاء الرجال من كل أرجاء بلاد العرب، وهو الذي لم يكن له سلطان إلا على منطقة الحيرة في شمال شرق الجزيرة العربية؟ وكيف ورد في كلامه مصطلحاً "الوزن والقافية" الشعري، وما لفظان لم تكن العرب تعرفهما في ذلك المعنى آنذاك؟ ثم ابن خطبة أثيم بن صيفي ليست في الواقع خطبة، بل مجموعة من الأمثال التي تُنسب إليه وصل بعضها بعض وصلاً متعرضاً، إذ ليس لها محور واحد تدور عليه، بل كلمة من الشرق، وكلمة من الغرب،

وإن كنا لا نقلل من قيمة كل كلمة في حد ذاتها، لكننا نستغرب أن تكون هذه هي الخطبة التي اتى بها النعمان بن المذير أكثر لإلقائها في حضرة كسرى تنبئها له على فضل أمة العرب، على حين لا علاقة بينها وبين هذا الموضوع بتاتاً. كما وردت في الخطبة عبارة لم يعرفها العرب، فيما تصور، إلا عندما تقدمت العلوم عندهم ونشأ علم البلاغة وحاول النقاد تقنين الكلام النبيل، إلا وهي عبارة "البلاغة الإيجاز". كذلك هناك كلمة "شريعة" التي استعملها النعمان للإشارة إلى أحكام الوثنية، والسؤال هو: أكان العرب يستعملون هذه الكلمة فيما أصبحت تُستعمل له بعد الإسلام؟ وهل كان العرب أصلاً يسمون ما هم عليه من تقاليد جاهلية: "شريعة"؟ لقد بحثت في "الموسوعة الشعرية" الضوئية عن شواهد في الشعر الجاهلي لهذه الكلمة فلم أجده إلا بيتاً واحداً لا علاقة له بالبيبة بهذا المعنى. ثم هل تواتي نفس أي عربي في محضر كسرى أن يدعو الفرس بـ"الأعاجم" مثلما فعل الحارث بن عباد البكري، وهي كلمة مسيئة في حقهم كما نعرف، إذ تسوى بينهم وبين العجم؟

وبالمثل هل من السهل قبول ما جاء في القصة من أن عمرو بن الشريد قد جبأه ملك الفرس بهذا الكلام الجاهلي الذي يحمل من التحدى الساطع ما يحمل: "لم نأت لضميك، ولم نقدر لسخطك، ولم نعرض لرقدك. إن في أموالنا منتقداً، وعلى عزنا معتمداً"؟ أو أن يقرع الحارث بن ظالم

المرئي كسرى هذه الكلمات التي تتصحّه بالارتفاع إلى مستوى السلوك اللائق بالملوك: "إن في الحق مُغضبة، والسرورُ التغافل، ولن يستوجب أحدُ إِحْلَم إلا مع القدرة. فلتُشبِّه أفعالك مجلسك"؟ أو أن يهدده عامر بن الطفيلي بما لوح له به من إمكان انتهاض العرب عليه وحرفهم إياه حتى ليغضب كسرى مما قال، بينما هو غير مبال، وكأنه لم يقول شيئاً؟ وإن خفَّ من ذلك تنبيه النعمان للعامل الفارسي منذ البداية إلى خشونة رسالته وتعليق كسرى في النهاية بأنه إنما يصفع عما في كلامهم من جفاء وخشونة لما يعلمه عنهم من قلة خبرتهم بمخاطبة الملك. وبالمقابل فخطب أشراف العرب في قصتنا هذه قد صبَّت في لغةٍ أقرب إلى الترسُّل منها إلى السجع، وهذا هو الأقرب أن يكون في مثل ذلك الموقف وتلك الظروف. وفي نهاية التحليل نقول إنه ليغلب على الظن أن يكون لهذه القصة أصلٌ تاريخي وأنها قد وصلت المدوين في العصر العباسى في خطوطها العامة ثم توسيع فيها الرواية فيما بعد، فأضافوا إليها كثيراً من التفاصيل، وجهدوا أن يردوا، من خلال ما أضافوه، على ما كان الشعوبيون ينتقصون به العرب في العصر العباسى ويقللون من شأنهم لفهم بلادهم وبسطهم سلطانهم عليهم. ولا شك إن إشارة القصة في بدايتها إلى وجود الترجمان في تلك المناسبة تُشكّل لمسة واقعية تزيد من صداقيتها، كما

أن ذكر القصة لمعايير العرب وبعض من اشتركتوا في هذا الموقف من خطباء هو مما يغضد الاقتناع بأنها قد وقعت فعلاً على نحو من الأنحاء.

على أن ثمة نصوصاً أخرى من الخطب والأحاديث يغلب عليها التكليف في هندسة العبارة والاستقصاء في المعنى والتشقيق في التفاصيل بحيث لا يكاد المتكلم يترك شاردة ولا واردة دون أن يذكرها مما يجعلنا لا تشق في جاهليتها، كوصف عصام الكندي لأم إيس بنت عوف بن مخلص الشيباني في النص التالي: "لما بلغ الحارث بن عمرو ملك كندة جمال أم إيس بنت عوف بن مخلص الشيباني وكما لها وقوه عقلها أراد أن يتزوجها، فدعها امرأة من كندة فقال لها: عصام، ذات عقل ولسان وأدب وبيان، وقال لها: اذهبي حتى تعلمي لي علم ابنة عوف. فمضت حتى انتهت إلى أمها أمامة بنت الحارث فأعلمتها ما قدمت له، فأرسلت أمامة إلى ابنتها وقالت: أي بنتي، هذه خالتك أنت إليك لتنظر إلى بعض شأنك، فلا تستري عنها شيئاً أرادت النظر إليه من وجهه وخلق، وناظرها فيما استطعها فيه. فدخلت عصام عليها فنظرت إلى ما لم تر عينها مثله قط بهجة وحسنا وجلا، فإذا هي أكمل الناس عقلاً وأفصحهم لساناً، فخرجت من عندها وهي تقول: ترك الخداع من كشف القناع، فذهبت مثلاً. ثم أقبلت إلى الحارث فقال لها: ما وراءك يا عصام؟ فأرسلتها مثلاً. قالت: صرخ المُخض عن الزبد، فذهبت مثلاً. قال: أخبريني. قالت:

أَخْبِرْكَ صَدِقًا وَحَقًّا . رأَيْتُ جَبَهَةَ كَالْمَرَآةِ الصَّفِيلَةِ يَزِينُهَا شَعْرٌ حَالُكَ
 كَذَنَابِ الْخَيْلِ الْمُضْفُورَةِ، إِنَّ أَرْسَلَتْهُ خَلْتَهُ السَّلاسِلُ، وَإِنْ مَسْطَطَهُ قَلَتْ:
 عَنْقِيدُ كَرْمِ جَلَاهَا الْوَابِلُ، وَحَاجِبَيْنِ كَانُهُمَا حُطَّا بِقَلْمٍ، أَوْ سُودَا بِجَمْمٍ، قَدْ
 تَقَوَّسَا عَلَى عَيْنِي الظَّبِيَّةِ الْعَبَّهَرَةِ (البيضاء الرقيقة البضة)، الَّتِي لَمْ يَرْعُهَا
 قَانِصٌ وَلَمْ يَذْعُرَهَا قَسْوَرَةً (أَيِّ الْأَسْدِ)، بَيْنَهُمَا أَفْكَرَ كَحَدَ السَّيفِ الْمُصْفُولِ،
 لَمْ يَخْتَسِرْ بِهِ قَصْرٌ وَلَمْ يَعْضِنْ بِهِ طَوْلٌ، حَفَّتْ بِهِ وَجْهَتَانِ كَالْأَرْجُوَانِ، فِي بِياضِ
 مَحْضِ كَالْجَمَانِ، شُوقَّ فِيهِ فَمُكَالْخَاتِمِ لِذِيَّ الْمُبَتَسَّمِ، فِيهِ ثَنَيَا غُرْرَ ذَوَاتُ
 أَشَرَّ، وَأَسْنَانٌ تَبَدُّو كَالْدُرَرِ، وَرِيقٌ كَالْخَمْرِ لِهِ نَشْرُ الرُّوضِ بِالسَّحَرِ، يَتَقْلِبُ
 فِيهِ لِسَانٌ، ذُو فَصَاحَةٍ وَبِيَانٍ، يَحْرُكُهُ عَقْلٌ وَافِرٌ، وَجَوَابٌ حَاضِرٌ، تَلْقَيْ
 دُونَهِ شَفَقَانٌ حَمْرَاوَانٌ كَالْوَرْدِ، يَحْلِبَانِ رِيقَا كَالْشَّهَدِ، تَحْتَ ذَلِكَ عَنْقٌ كَابِرِيقِ
 الْفَضْلَةِ، رَكِبٌ فِي صَدْرٍ كَصَدْرِ كَمْثَالِ دَمِيَّةِ، يَتَصَلُّ بِهِ عَضْدَانٌ مُمْلَئَانِ لَحْمًا،
 مَكْتَنِزَانِ شَحْمًا، وَذِرَاعَانِ لَيْسَ فِيهِمَا عَظْلُمٌ يُحَسِّنُ، وَلَا عِرْقٌ يُجَسِّنُ،
 رَكِبَتْ فِيهِمَا كَفَانِ دَقِيقَ قَصْبَهُمَا، لَيْنٌ عَصَبَهُمَا، تَعْقِدُ إِنْ شَتَّ مِنْهُمَا
 الْأَنَامِلُ، وَتُرْكَبُ الْفَصَوْصُونُ فِي حُفَرِ الْمَفَاصِلِ، وَقَدْ تَرَبَّعَ فِي صَدْرِهَا حُقَّانٌ
 كَانُهُمَا رَمَاتَانِ يَحْزَقَانِ عَلَيْهَا ثَيَابَهَا، تَحْتَ ذَلِكَ بَطْنٌ طُوَيٌّ كَطْيَيِ الْقَبَاطِيِّ
 (أَيِّ الْمَلَاسِ الرَّقِيقَةِ الْمَتَحَذَّذَةِ مِنَ الْكَتَانِ) الْمُدَمَّجَةُ، كُسِّيَ عُكَّانِ (الْعُكَّانِ):
 ثَنَيَاتِ الْبَطْنِ) كَالْقَرَاطِيسِ الْمَدْرَجَةِ، تَحْبِطُ تَلْكَ الْعُكَّانَ بِسُرَّةٍ كَثِيدَهُنَّ الْعَاجِ
 الْمَجْلُوِّ، خَلْفَ ذَلِكَ ظَهَرٌ كَالْجَدُولِ يَنْهَى إِلَى خَصْرٍ، نُولًا رَحْمَةُ اللَّهِ لَانْبَتَرَ

تحته كَلْ يُقِعُدُها إِذَا نَهَضَتْ، وَيَهُضُّها إِذَا قَعَدَتْ، كَأَنَّهُ دِعْصُ رَمْلٍ، لَبَدِهِ سَقْوَطُ الْطَّلْ، يَحْمِلُهُ فَخْذَانُ لَفَاؤَانَّ، كَأَنَّهُمَا نَضِيدُ الْجَمَانَ، تَحْتَهُمَا سَاقَانَ خَدْلَاتَانَ، كَالْبَرْدَى وَشَيْئًا بَشَرَ أَسْوَدَ، كَأَنَّهُ حَلْقُ الزَّرَادَ، يَحْمِلُ ذَلِكَ قَدْمَانَ، كَحَذْوِ اللِّسَانَ، فَتَبَارِكَ اللَّهُ مَعَ صَغْرِهِمَا، كَيْفَ تَطْيقَانَ حَمْلَ مَا فَوْقَهُمَا؟ فَأَمَّا مَا سَوْيَ ذَلِكَ فَتَرَكْتُ أَنْ أَصْفُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ أَحْسَنُ مَا وَصَفَهُ وَاصِفٌ بِبَنْظِيمٍ أَوْ شَرِّ. فَأَرْسَلَ الْمَلِكُ إِلَى أَبِيهَا فَخَطَبَهَا فَزَوَّجَهُ إِلَيْهَا".

إن هذا لِبَكَابَةٌ تقرير فني في مسابقات العهر (التي يسمونها زوراً بـ "مسابقات ملكات الجمال") يضع نصب عينيه تقديم وصف تفصيلي لكل ملمع أو عضو من أعضاء الفتاة المشتركة في تلك المسابقات أشبه منه بحديث خاطبٍ إلى ملك من ملوك العرب في تلك العصور، وبخاصة أن الوصف لم يتزه عن تناول أشد مناطق الجسد حساسية مما من شأنه إثارة غيرة الرجل الكريم حتى لو كان المقصود هو البحث له عن زوجة تتعه وتسره! وفضلاً عن ذلك فإني لا أظن أن امرأة عربية في تلك العصور كانت ترضى بأن تتجبرد من ملابسها وتذهب قىستعرض مفاتنها الداخلية على هذا التحو ولا حتى أمام أمها! والطريف أنه، بعد كل ما قاله المرأة الكندية في وصف جمال الفتاة، تعود فتقول: "فَأَمَّا مَا سَوْيَ ذَلِكَ فَتَرَكْتُ أَنْ أَصْفُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ أَحْسَنُ مَا وَصَفَهُ وَاصِفٌ بِبَنْظِيمٍ أَوْ شَرِّ". فهل تراها تركت شيئاً لم تصفه مما يحتاج الرجل معرفته عن المرأة التي يبغى خطيبتها؟

ثم إن مقدمة النص تقول إن "الحارث بن عمرو ملك كندة قد بلغه جمال أم إيس بنت عوف بن مُحَمَّد الشيباني وكمالها وقوتها عقلها" ، أى أنه كان على علم بكمالها وكمالها، فما معنى كل هذا الوصف الدقيق المفصل الذي لا يدل إلا على شيء واحد: أنه لم يكن يعرف عن الفتاة شيئاً؟ وإلى جانب هذا لا ينبغي أن ننسى أن تعبيرات مثل "خلف ذلك ظهر كالمدول ينتهي إلى خصر، لولا رحمة الله لانتبر" ، "فتبارك الله مع صغرهما، كيف تطيفان حمل ما فوقهما؟" لا تصدر غالباً إلا عن مسلم في العصر العباسي فنالاً حين كان الأدباء يستخدمون مثل هذه العبارات الماجنة التي يُوهم ظاهرها بالتدين رغم ذلك، وهو بجون تشف عنه اعبارة التالية بدورها أحسن شفـة: "تحته كـل يـقـعـدـها إـذـاـ نـهـضـتـ، وـيـهـضـها إـذـاـ قـعـدـ" ، فضلاً عما فيها من ترفٍ في تذوق الجمال النسائي لم يكن يعرفه الجاهليون، إلى جانب اللاعب البديع المعقد الذي لم يكن لهم به عهد، إذ فيها موازنة ومقابلة وسجع وتورية وردد للأعجاز على الصدور في وقت معاً . وهناك أيضاً المقابلة بين "النظم والنشر" في الجملة التالية التي وردت قرب نهاية النص: "غير أنه أحسن ما وصفه واصف بنظم أو شر" بما يدل على الشمول مما لم يكن الجاهليون يعرفونه في تعبيراتهم، بل إنـى لا أظـنـهـمـ كانواـ يـسـتـخـدـمـونـ هـاتـيـنـ الـكـلـمـتـيـنـ بـالـعـنـىـ الـاـصـطـلـاحـيـ الذـيـ عـرـفـتـاـ بـهـ فـيـ دـنـيـاـ الـأـدـبـ وـالـقـدـ فيما بعد !

كذلك من حق الباحث أن يتساءل فيما يخص هذه القصة ذاتها في مرحلتها اللاحقة قائلاً: أمن المعقول أن أمّاً من الأمهات حين تريد أن تنصح بيتها في ليلة زفافها تلجأ إلى مثل هذه العبارات المسجوعة الجائزة الموارنة (رغم ما في السجع والجناس والتوازن هنا من بساطة) كما في النص التالي الذي تناطبه فيه أمامة بنت الحارث بيتها أم إياس التي مربينا آنذا وصف عصام الكدية العجيب لها؟: "أيُّ بُنَيَّة، إِنَّ الْوَصِيَّةَ لَوْ تُرَكَتْ لِفَضْلِ أَدْبٍ تُرَكَتْ لِذَلِكَ مِنْكَ، وَلَكِنَّهَا تَذَكِّرَةٌ لِلْغَافِلِ، وَمَعْوِنَةٌ لِلْعَاقِلِ. وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً أَسْغَنَتْ عَنِ الزَّوْجِ لِغَنِيَّ أَبِيهَا وَشَدَّةِ حَاجَتِهَا إِلَيْهَا كَتَبَتْ أَغْنِيَ النَّاسِ عَنْهُ، وَلَكِنَّ النِّسَاءَ لِلرِّجَالِ خُلْقَنِ، وَلَهُنَّ خُلْقَ الرِّجَالِ. أَيُّ بُنَيَّة، إِنَّكَ فَارَقْتِ الْجَوَّ الَّذِي مِنْهُ خَرَجْتِ، وَخَلَفْتِ الْعَشَّ الَّذِي فِيهِ دَرَجْتِ، إِلَى وَكْرٍ لَمْ تَعْرِفِيهِ، وَقَرِينٍ لَمْ تَأْلِفِيهِ، فَأَصْبَحَ بَلْكَهُ عَلَيْكَ رَقِيبًا وَمَلِيكًا، فَكُونِي لَهُ أَمَّةً يَكُنُ لَكَ عَبْدًا وَشَيْكًا. يَا بُنَيَّة، احْمَلِي عَنِي عَشَرَ خَصَالٍ تَكُنُ لَكَ ذَخْرًا وَذَكْرًا: الصَّحْبَةُ بِالْقَنَاعَةِ، وَالْمَاعِشَةُ بِجُنَاحِ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَالْتَّعْهُدُ لِمَوْعِعِ عَيْنِهِ، وَالْتَّفَقْدُ لِمَوْضِعِ أَنْفَهِ، فَلَا تَقْعُ عَيْنِهِ مِنْكَ عَلَى قَبِيحِ، وَلَا يَشْمُ مِنْكَ إِلَّا أَطِيبُ رِيحٍ، وَالْكَحْلُ أَحْسَنُ الْحُسْنِ، وَالْمَاءُ أَطِيبُ الطَّيْبِ الْمُفْقُودِ، وَالْتَّعْهُدُ لِوقْتِ طَعَامِهِ، وَالْمَهْدُوُّ عَنِهِ عِنْدَ مَنَامِهِ، فَإِنَّ حَرَارةَ الْجَوْعِ مَلَهِيَّةٌ، وَتَنْغِيَصُ النَّوْمِ مَغْضَبَةٌ، وَالاحْتِفَاظُ بِبَيْتِهِ وَمَالِهِ، وَالْإِرْعَاءُ عَلَى نَفْسِهِ وَحَشْمِهِ وَعِيَالِهِ، فَإِنَّ الاحْتِفَاظَ بِالْمَالِ حَسْنُ التَّقْدِيرِ، وَالْإِرْعَاءُ عَلَى الْعِيَالِ وَالْحَشَمِ

جميل حسن التدبر. ولا تفشي له سرا، ولا تعصي له أمرا، فإنك إن
 أفشيت سره لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره أو غررت صدره. ثم اتقى مع
 ذلك الفرح إن كان ترحاً، والكتاب عنده إن كان فرحاً، فإن الخصلة الأولى
 من التقصير، والثانية من التكدير. وكوني أشد ما تكونين له إعظاماً، يكن
 أشد ما يكون لك إكراماً، وأشد ما تكونين له موافقة، يكن أطول ما تكونين
 له موافقة. واعلمي أنك لا تصيلين إلى ما تخبين حتى تُؤثري رضاه على
 رضاك، وهواء على هواك، فيما أحببتي وكرهتِ، والله يَخِير لِكِ". لا
 أظن أن الأم، حتى لو كانت أدبية، يمكن أن تنهج في حديثها الشفوي
 المباشر مع ابنتها هذا النهج، بخلاف ما لو قصدت أن تخلف وراءها عملاً
 من الأعمال الأدبية التي تبقى على مدى الزمان، فإنها حينئذ تختشد لذلك
 وتحتجد في كتابة نصيحة محبّرة موشأة لبنتها ولكل بنات العالمين، وكذلك
 للقراء والأدباء أيضاً، على مدار الدهر، لكن هذا شيء آخر غير ما نحن
 بسبيله الآن. أم ترى هناك من يقول معتراضاً: ومن أدرك بأن تلك الأم لم
 ترُد ذلك ولم تفعله، وبخاصة أنها هنا إزاء ملِك وزوجته وحmate لا ناس من
 عرض الطريق؟ على كل حال فإني معجبٌ إعجاباً شديداً بكلام الأم
 وأجدده يرن في سماعي رنين الذهب، ويَهْشَ قلبي إليه هَشَاشَ الأرض
 العطشى لوابل الغيث المُحيى!

والواقع أن انشغالى بمسألة بروز السجع والجناس وما إليه فى كثير من خطب الجاهلين سبب افتقادى لذلك فى نظيراتها من خطب الرسول والخلفاء الراشدين، اللهم إلا ما جاء عفواً بين الحين والحين. فلماذا كان كثير من الخطب التى وردتنا عن عصر ما قبل الإسلام على هذا النحو من الاهتمام بالسجع والجناس والتوازن بخلاف ما عليه الخطب فى صدر الإسلام بوجه عام، فضلاً عن أن السجع والمحسنات البدعية فيها كانت، كما يفهم من الرواية، أمراً ارتجالياً؟ فهل يستطيع الخطباء، وبالذات فى ذلك العصر قبل أن يلتفت العرب إلى هذه التزاويف ويصبح المحرص عليها جزءاً من التركيبة الذهنية الإبداعية عندهم، أن يرتجلوا كلاماً محسناً بالبدع على هذا النحو الذى نراه فى عدد من الخطب الجاهلية؟ هذه هى النقطة التى تحيك فى صدرى بالنسبة لصحة نصوص الخطب الجاهلية، أما ما سوى ذلك من ملاحظات فما أسهل التعامل معها والخروج منها بالنتائج التى يؤدى إليها المنطق كما رأينا فيما مرّ. أىكون المسلمين الأوائل قد نفروا من الجرى خلف السجع بسبب ارتباطه بالكهان؟ أترأهم كانوا يُلْقُون بكل ثقلهم وراء المضمون والوصول به إلى الإقناع وتحويله إلى واقع تطبيقى بدلاً من المتعة الفنية المتمثلة هنا فى البدع فى حد ذاتها، إذ كانوا بصدق تكونى دولة تضم العرب جميعاً لأول مرة فى تاريخهم المعروف، ثم بصدق صراع ضارٍ مع القوى العالمية الكبرى حولهم، صراع حياة أو موت، فلم يكن لديهم

الوقت ولا البال للاهتمام بالسجع والمحسنات البدعية؟ أترى الجاهلين، وهم الأميون، كانوا يعولون على موسيقى السجع والجناس والتوازن لتسهيل حفظ النصوص التثيرة كالمخطب والمنافرات؟ مرة أخرى أجدرني أقول: هذه هي النقطة التي تحيك في صدرى بالنسبة لصحة نصوص الخطاب الجاهلية، أما ما سوى ذلك من ملاحظات فما أسهل التعامل معها والخروج منها بالنتائج التي يؤدي إليها المنطق كما رأينا فيما مرّ. ومع ذلك فيها هوذا الجاحظ يقرر أن العرب في جاهليتهم كانوا يعتمدون السجع في بعض ضروب الخطابة كالمنافرة والمفاخرة، والترسل في بعضها الآخر كما هو الحال في خطب الصلح والمعاهدات (الجاحظ / البيان والتبيين / مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر / ١ / ٢٨٩ - ٢٩٠، و ٢ / ٦)، وهو ما يدل على أنه لا يجد فيها شيئاً مما يحيك في صدرى تجاه هذه المسألة. وأحسب أن موقف الجاحظ أحرى بالقبول من موقفى لأنّه كان أعرف بالأدب العربي قبل الإسلام من واحد مثلّ لقريه من عصر الجاهلية ومعرفته الموسوعية بالثقافة العربية وأدابها كما هو معلوم للجميع، فوق أنه كان أديباً كبيراً، وبلا غيا عجيبة، وناقداً ذوّاقة للكلام، ودارساً ومحلاً للنصوص والأساليب من الطراز الأول، ومتكلماً يصعب أن يوجد له ظييرٌ مُسَاءِتٍ.

هذا، وقد وردتنا عن الجاهلين ضروب من الخطب المختلفة الموضوعات صحيحة كانت أو مصنوعة: فمنها الخطب الوعظية كخطب

قُسْ بن ساعدة الإيادى فى سوق عكاظ، وخطب الصلح بين المتأخسين
 كخطبة مَرْثَدُ الخير فى الإصلاح بين سبيع بن الحارث وميثم بن مثوب.
 ومنها خطب التعزية كتلك التى عرَّتْ بها وفودُ العرب سلامةً ذا فائش فى
 موت ابنه، وكان من بين المتكلمين يومها الملبَّ بن عوف وجعادة بن أفلح،
 وكذلك خطبة أَنْمَى بن صيفى فى تعزية عمرو بن هند فى ابن أخيه. ثم
 خطب النكاح كالخطبة التى ألقاها أبو طالب فى خطبة خديجة لحمد ابن
 أخيه، وتلك التى قالها عامر بن الظرب حين خطبَتْ ابنه. ومنها خطب
 المنافرات كتلك التى تبودلت بين علقة بن علاة وعامر بن الطفيل
 العامريين. ومنها خطب السفارات، كما هو الحال فى مجموعة الخطب التى
 خطبها بعض رؤساء العرب فى حضرة كسرى فى إيوانه. ومنها خطب
 الكهان والكهائن التى يتباؤن فيها بالغيب حسبما كانوا يعتقدون. ومنها
 خطب الوصايا كتلك الخطبة التى ألقاها ذو الإصبع العَدُوانى على ابنه،
 ونظيرتها التى ألقاها قيس بن زهير على بني النمر بن قاسط، وكذلك
 الخطبة الرائعة التى يقال إن أمامة بنت الحارث قد وصَّتْ بها ابنته أم إيمان
 عند زفافها على الحارث بن عمرو مِلْكَ كِنْدَةَ . . . إلخ. وكان العرب
 يخطبون فى الأسواق وال مجالس والقصور الملكية وعند الكعبة وعلى نَشَرٍ
 من الأرض وفي الحرب. كما كانوا يخطبون وقوفاً، وعلى الرواحل، أو
 مستدلين ظهورهم إلى الكعبة . . . وهكذا. وكان من عادتهم فى الخطابة،

كما ألمعنا من قبل، لبس العمامات والإمساك بالعصا، تلك العادة التي عمل الشعوبيون على التناقض منها والإذراء على العرب بسببها، فتصدى لهم الجاحظ مبيناً فضل العصا في صفحات طويلة امثال عليه الكلام فيه اثيالاً في كتابه: "البيان والتبيين". وقد مر بنا أثناء دراستنا لهذا الفن عند الجاهليين طائفة من مشاهير خطبائهم، وهذه أسماء طائفة أخرى منهم: سهيل بن عمرو وعتبة بن ربيعة وقيس بن الشماس وسعد بن الربيع وهانئ بن قبيصة وزهير بن جناب وربيعة بن حذار ولبيد بن ربيعة وهرم بن قطبة الفزارى وعمرو بن كلثوم الغلبى وحنظلة بن ضرار الضبئى.

والآن أترك القارئ مع هذه النصوص الخطابية التي وصلتنا عن ذلك العصر: فمنها خطبة مرثى الخير التي سلفت الإشارة إليها آفأ، وهذا نصها: "إِنَّ التَّخْبِطَ وَامْتِطَاءَ الْهَجَاجَ (أَيُّ الْعَنَادِ وَرَكْوَبِ الرَّأْسِ)، وَاسْتَحْقَابَ الْلَّهَاجَ، سَنِيقَكُمَا عَلَى شَفَاعَةٍ هُوَةٍ فِي تُورُّدِهَا بِوَارِ الأَصْبِلَةِ، وَانْقِطَاعِ الْوَسِيلَةِ، فَتَلَاقَيَا أَمْرَكُمَا قَبْلِ اتِّكَاثِ الْعَهْدِ، وَانْخِلَالِ الْعَهْدِ، وَشَتَّتِ الْأَلْفَةِ، وَتَبَيَّنَ السُّهْمَةُ (أَيُّ الْقِرَابَةِ)، وَأَتَمَا فِي فَسْحَةٍ رَافِهَةٍ، وَقَدِمَ وَاطِدَةً، وَالْمُودَّةَ مُثْرِيَةً، وَالْبَيْقَيَا مُعْرِضَةً. فَقَدْ عَرَقْتُمْ أَنْبَاءَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْعَرَبِ مِنْ عَصَى النَّصِيبَ، وَخَالَفَ الرَّشِيدَ، وَأَصْغَى إِلَى التَّقَاطِعِ، وَرَأَيْتُمْ مَا آتَيْتُمْ عَوَاقِبَ سُوءِ سَعِيهِمْ، وَكَيْفَ كَانَ صَيْوُرُ أَمْوَاهِهِمْ. قَلَافُوا الْقُرْحَةَ قَبْلِ تَفَاقُمِ الثَّأْيِ (أَيُّ قَبْلِ اتِّشارِ الْفَسَادِ) وَاسْتَفْحَالِ الدَّاءِ، وَاعْوَازَ

الدواء . فإنه إذا سُفِّكت الدماء . استحکمت الشحناء ، وإذا استحکمت الشحناء ، تقضيَت عُرَى الإبقاء ، وشَمل البلاء " .

ومنها خطبة قُسْ بن ساعدة الإبادي في سوق عكاظ يلقي أظفار السامعين إلى صروف الدهر وما ينبغي أن يعتبر به العاقل : "أيها الناس ، اسمعوا وَعُوا : من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آتٍ آت . ليل داجٌ ونهار ساجٌ ، وسماء ذات أبراجٍ ، ونجوم تزهَر ، وبجارٌ تزخر ، وجبال مُرساة ، وأرض مُدحَّاة ، وأنهار مُجْرَّاة . إن في السماء لخبرًا ، وإن في الأرض لعِبَرًا . ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ أرضوا فاقاماوا أم تركوا فناماوا ؟ يُقسِّم قُسْ بالله قسماً لا إيم فيه إن الله ديننا هو أرضى له وأفضل من دينكم الذي أتم عليه . إنكم لتأتون من الأمر منكرا " . ويروَى أن قُسَاً أنساً بعد ذلك يقول :

حن من القرون لنا بصائر للموت ليس لها مصادر تضي الأكبَر والأصغر ي ولا من الباقيين غابر لة حيث صار القوم صائم	في الذاهبين الأولى لما رأيت موارداً ورأيت قومي نحوها لا يرجع الماضي إلى أينت أني لاحقاً
---	---

ومنها كذلك خطبة هاشم بن عبد مناف يحيث قريشاً على إكرام حجاج البيت الحرام : "كان هاشم بن عبد مناف يقوم أول نهار اليوم الأول من ذي الحجة فيسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها فيخطب قريشاً

فيقول: يا معاشر قريش، أنتم سادة العرب: أحسنها وجوها، وأعظمها أحلاما، وأوسطها أنسابا، وأقربها أرحاما. يا معاشر قريش، أنتم جيران بيت الله: أكرمكم بولايته، وخصكم بجواره دونبني إسماعيل، وحفظ منكم أحسن ما حفظ جار من جاره. فأكرموا ضيفه وزوار بيته، فإنهم يأتونكم شعثاً غثراً من كل بلد. فورَّبت هذه البنية لو كان لي مال يحمل ذلك لكيتكموه. لا واني مخرج من طيب مالي وحلاته ما لم يقطع فيه رحِّم، ولم يؤخذ بظلم، ولم يدخل فيه حرام، فواضيَّعه. فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعل، وأسألكم بحرمة هذا البيت الا يخرج رجل منكم من ماله لكرامة زوار بيته ومعوتهم إلا طيبا: لم يؤخذ ظلما، ولم يقطع في رحم، ولم يغتصب".

ومنها هذه الكلمة التي تقدَّر فيها تقيُّل بن عبد العزَّى (جدُّ عمر بن الخطاب) عبد المطلب (جدُّ الرسول) على حرب بن أمية: "تنافر عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية إلى النجاشي ملك الحبشة فأنهى أن ينفر بينهما فجعلاه بينهما تقيُّل بن عبد العزَّى بن رياح، فقال لحرب: يا أبا عمرو، أتنافر رجلاً هو أطول منك قامة، وأعظم منك هامة، وأوسع منك وساما، وأقل منك ملامة، وأكثر منك ولدا، وأجزل صَدَّدا (أى أكثر عطاءً)، وأطول منك مِذْوَدا (أقوى لسانا). وإنك لأشقى بهذا، وإنك لبعيد الغضب،

رفع الصوت في العرب، جَلْدُ المريدة، جليل العشيرة، ولكنك نافرت مُنفراً.
غضب حرب وقال: إن من اتكاس الزمان أن جعلت حكماً.

ومنها وصية ذي الإصبع العَدُوانِي لابنه عند إشرافه على الموت:
"يا بُنَيَّ، إن أباك قد فَتَنَّ و هو حسَنٌ، و عاش حسَنٌ سُنُم العيش، واني
مُوصيك بما إن حفظته بلغتَ في قومك ما بلغته، فاحفظ عنى: أَلْنَ جانبيك
لقومك يحبونك، وتواضع لهم يرفعونك، وابسط لهم وجهك يطيعونك، ولا
تسأثِر عليهم بشئ يُسوِّدُوك (أى يجعلوك سيداً عليهم). وأكرم صغارهم
كما تكرم كبارهم، يكرمك كبارهم، ويكبر على مودتك صغارهم. واسمح
بمالك، واحسِّ حرمك، وأعزز جارك، وأعِنْ من استعان بك، وأكرم
ضيفك، وأسع النهضة في الصرخ، فإن لك أَجَلًا لا يَعُدُوك، وصُنْ وجهك
عن مسألة أحد شيئاً، فبذلك يتم سُؤَدُوك".

المجتمع الجاهلي من القرآن

كان عرب الجاهلية في عمومهم يعبدون آلهة متعددة، وكانوا لا يتصورون أن يكون الإله واحداً، وعندما جاءهم الرسول الكريم بالتوحيد لقى منهم التكذيب والعناد الشديد، وأخذ الأمر منه زمناً طويلاً حتى اقتنعوا أخيراً بما جاءهم به. بل إنه، بعد أن أفق في الدعوة بمكة ثلاثة عشرة سنة بذل فيها كل جهد ممكن وغير ممكن وتعب تعباً بالغاً، لم يؤمن به إلا القليلون مما اضطره هو ومن آمن معه من أهل مكة إلى الهجرة ليشرب، وعندئذ تغير وجه المسيرة الدعوية، واتهى الأمر بأن أسلمت الجزيرة العربية كلها لا مكة فحسب. وكانوا في بدأه الأمر يستغربون منه، عليه السلام، أن يهاجم الأوّلاني ويغضبون لذلك أعنف الغضب، بل لقد فكر مشركون مكة في قته أو في حبسه لو لا أن نبيه الله سبحانه وأمره برزك موطنه والتزوج إلى بلد جديد تكون فيه مصير الدعوة الجديدة أكثر توفيقاً: "وَإِذْ يُمْكِرُ يَكُنْ
الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُشْتُوْكُ أَوْ يَقْتُلُوكُ أَوْ يُخْرِجُوكُ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ
الْمَاكِرِينَ" (الأنفال / ٣٠). وما نزل من الوحي في هذا الموضوع قوله تعالى:
"أَجْعَلَ الْإِلَهَةَ إِلَيْهَا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ" * وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ
امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى الْهِبَكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ بِرَادٌ" (ص / ٥ - ٦). وسبب
نزول هاتين الآيتين، على ما ترويه كتب أسباب النزول والتفاسير، أنه لما
أسلم عمر رضي الله عنه شق ذلك على قريش فأتوا أبا طالب وقالوا:

أنت شيخنا وكبيرنا، وقد علمتَ ما فعل هؤلاء السفهاء، وإنما جئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك. فاستحضر أبو طالب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: هؤلاء قومك يسألونك السَّوَاء، فلا تمل كل الميل عليهم. فقال صلى الله عليه وسلم: ماذا يسألونني؟ فقالوا: ارفضنا وارفض ذكر آهتنا (أي اتركنا ولا تتعرض لنا ولا لها)، وندعك وإلهك. فقال: أرأيتم إن أعطيتكم ما سألتم، أمعطِّي أتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم؟ فقالوا: نَعَمْ، وعَشْرًا. فقال: قولوا: لا إله إلا الله. فقاموا وقالوا: "أَجَعَلَ الْإِلَهَةَ إِلَيْهَا وَاحِدًا؟ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ!". وانطلق أشراف قريش من مجلس أبي طالب بعد ما يكتُبُهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلين بعضهم لبعض: اصبروا وابسوا على عبادة آهتكم، فإن مكانته لا تنفعكم. إن هذا الأمر لشيءٌ من ريب الزمان يراد بنا فلا مرد له، أو إن هذا الذي يدعوه من التوحيد أو يقصده من الرئاسة والترفع على العرب والعجم لشيءٍ يريده كل أحد، أو إن دينكم لشيءٍ يطلب ليؤخذ منكم. ما سمعنا بالذي يقوله في الملة التي أدركها عليها آباءنا، أو في ملة عيسى عليه الصلاة والسلام التي هي آخر الملل، فإن النصارى يثبتون. ما هذا إلا كذبٌ أخلاقه محمد. وهناك خبر آخر يبين لنا مدى تمسك الكفار بأوثانهم وكراهيتهم أن يسمعوا فيها شيئاً يخالف اعتقداتهم بشأنها. وخلاصة، كما جاء عند الواعدي في "أسباب النزول"، أن "خمسة نفر":

عبد الله بن أبي أمية المخزومي والوليد بن المغيرة ومكرز بن حفص وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس العامري والعاص بن عامر قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: اثتِ بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى". وجاء أيضاً في ذلك الكتاب ذاته أن "وفد ثقيف أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوا شططاً وقالوا: متعنا باللات سَنَة، وحرّم وادينا كما حرّمت مكة: شجرها وطيرها ووحشها . فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم". وقد تالت الآيات التي تنبئهم إلى سخف هذا اللون من التفكير

والاعتقاد، لكن تشبيتهم بما في رفوسهم كان عنينا، وهذا يفسر التكرار الكبير لدعوة التوحيد في القرآن الكريم والحملة على الشرك: "قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم لا تشركوا به شيئاً" (الأنعام / ١٥١)، "وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هُؤُلَاءِ شُفَاعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَبْيُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنِ الْيُشْرِكُونَ" (يوسوس / ١٨)، "وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزَّاً" (مريم / ٨١)، "وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًا وَلَا نَعْمًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا" (الفرقان / ٣)، "وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ" (الذاريات / ٥١) . . . إلخ . وقد كانوا مع ذلك يؤمنون بأن الله هو الذي خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ونزل من السماء ماء فاحيا به

الأرض بعد موتها: "وَلَئِنْ سَأَلْتُهُم مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَإِنِّي مُؤْفَكُونَ" (العنكبوت/٦١)، "وَلَئِنْ سَأَلْتُهُم مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قَلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بِلَ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ" (العنكبوت/٦٣)، "وَلَئِنْ سَأَلْتُهُم مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ" (الزخرف/٩). ومع ذلك فـ"إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ" * ويقولونَ آثِنَا تارِكُ الْهَنَاءَ لِشَاعِرِ مَجْنُونَ" (الصافات/٣٥)، "وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْبِشِرُونَ" (الزمر/٤٣-٤٥)، إذ كانوا يعتقدون أنهم شفعاؤهم عنده سبحانه وأنهم هم الذين يقربونهم إلى الله زلفى: "وَيَبْعَدُونَ مِنْ دُونَ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَاعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَبْشِرُونَ اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشَرِّكُونَ" (يونس/١٨)، "مَا نَبْعَدُهُمْ إِلَّا يَقْرِبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى" (الزمر/٣).

وكان القرآن الكريم ينبههم دائماً أن أولئك الآلهة المزعومين لا يملكون لهم شيئاً من نفع أو ضر، وأن الشفاعة إنما هي لله وحده، ليس للأوثان منها أى نصيب: "وَلَوْ تَرَى إِذَا الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ يَاسِطُوْأَيْدِيهِمْ أَخْرُجُوهُ أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنِ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ" * ولقد جسمتنا فرادى كما خلقناكم

أَوْلَ مَرَّةً وَرَكِّمْ مَا خَوَلَنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورَكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَ كُمُ الَّذِينَ
زَعَمُوا أَنَّهُمْ فِيکُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقْطَعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُلْتُمْ تَرْعَمُونَ"
(الأنعام / ٩٤ - ٩٣)، "وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ
وَيَقُولُونَ هُؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَتْبَعُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ
وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشَرِّكُونَ" (يونس / ١٨)، "وَاتَّخِذُوا مِنْ
دُونِهِ إِلَهًا لَا يَحْلِقُونَ شَيْئًا وَهُمْ مُخْلَقُونَ وَلَا يَنْلَكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا
وَلَا يَنْلَكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا" (الفرقان / ٣)، "وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ
يُلْسِسُ الْمُجْرِمُونَ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ
(الروم / ١٢ - ١٣)، "أَمْ اتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْلَوْ كَانُوا لَا
يَنْلَكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْتَلُونَ * قُلْ لِلَّهِ الشُّفَعَاءُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" (الزمر / ٤٣).

وَكَانَ مِنْ أَوْثَانِهِمُ الْلَّاتُ وَالْعُزَّى وَمِنَاهُ، وَقَدْ تَهْكِمَ الْقُرْآنُ عَلَى
شُرَكَهُمْ وَعَقْلَيْهِمُ الْمُتَخَلِّفَةِ الَّتِي تَسْوَلُ لَهُمْ أَنْ هَذِهِ الْأَوْثَانُ هِيَ بَنَاتُ اللَّهِ:
"أَفَرَأَيْتُمُ الْلَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمِنَاهُ الْثَالِثَةُ الْأُخْرَى * الْكُمُ الْذَّكْرُ وَلَهُ الْأَشْيَى"
(البيح / ١٩ - ٢١). وَتَنَاهُ الْمُفْسُرُونَ الْلَّاتُ وَالْعُزَّى وَمِنَاهُ فَقَالُوا إِنَّ الْلَّاتَ
كَانَتْ لِتَقْيِيفِ الْطَّافِفِ (وَقِيلَ: بِنَخْلَةٍ) تَعْبُدُهَا قَرِيشٌ، وَأَوْرَدُوا مَا يُقَالُ مِنْ
أَنَّهَا سُمِّيَتْ بِاسْمِ رَجُلٍ كَانَ يَلْتَمِسُ عِنْدَهَا السُّمْنَ بِالسَّوْقِ بِالْطَّافِفِ وَيُطْعِمُهُ
الْحَاجَ، وَكَانُوا يَعْكِفُونَ عَلَى قَبْرِهِ فَجَعَلُوهُ وَثَناً. أَمَّا الْعُزَّى فَكَانَتْ لِنَفْطَفَانَ،

وهي شجرة سمرة، وبعثَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهَا بَعْدَ الفتحِ خالدَ بْنَ الْوَلِيدِ فَقَطَّعُوهَا، فَخَرَجَتْ مِنْهَا، كَمَا تَقُولُ بَعْضُ الرَّوَايَاتِ، شَيْطَانَهَا مِنْ شُورَةِ الشِّعْرِ تَصْبِحُ: يَا وَيْلَاهُ، وَهِيَ وَاضْعَةٌ يَدُهَا عَلَى رَأْسِهَا، فَجَعَلَ يَضْرِبُ بِالسِّيفِ حَتَّى قُتِلَتْ، وَرَجَعَ فَأَخْبَرَ رَسُولَ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: تَلَكَ الْعَزِيزُ، وَلَنْ تُبْعَدْ أَبِدًا. وَأَمَّا مَنَّا: فَصَخْرَةٌ كَانَتْ لُهْذِيلٍ وَخُزَاعَةً، وَعَنْ أَبْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهَا كَانَتْ لِتُقْتَفِيَ.

وَكَانَهَا سُمِّيَّتْ: "مَنَّا" لِأَنَّ دَمَاءَ النِّسَائِكَ كَانَتْ تُسْنَى عَنْهَا، أَيْ تُرَاقُ. وَجَاءَ فِي "أَسْبَابِ النَّزَولِ" لِالْوَاحِدِيِّ أَنَّ "الْأَنْصَارَ كَانُوا يَحْجُّونَ لِمَنَّا، وَكَانَتْ مَنَّا حَذْوَ قُدْيَدَ، وَكَانُوا يَتَرْجَحُونَ أَنْ يَطْوِفُوا بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ".

وَكَانَتْ هُنَاكَ أُوْثَانٌ أُخْرَى ذَكَرَتْ أَسْبَابُ النَّزَولِ اثْنَيْنِ مِنْهَا هُما إِسَافٌ وَنَاثِلَةُ، الَّذِيَانِ تَقُولُ الرَّوَايَاتُ إِنَّهُمَا كَانَا عَلَى الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ عَلَى التَّرَيْبِ. يَقُولُ الْوَاحِدِيُّ: "كَانَ عَلَى الصَّفَا صَنْمٌ عَلَى صُورَةِ رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ: إِسَافٌ، وَعَلَى الْمَرْوَةِ صَنْمٌ عَلَى صُورَةِ امْرَأَةٍ تُدْعَى: نَاثِلَةٌ. فَزُعمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنَّهُمَا زَيْنَاهُمَا فِي الْكَعْبَةِ فَمَسَخُوهُمَا اللَّهُ تَعَالَى حَجَرِينَ وَوَضَعُوهُمَا عَلَى الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ لِيُعْبَرَ بِهِمَا. فَلَمَّا طَالَتِ الْمَدَةُ عَبَدَا مِنْ دُونِ اللهِ تَعَالَى، فَكَانُوا أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا طَافُوا بِهِمَا مَسَحُوا الْوَتَنَّيْنِ". وَكَانُوا أَهْلَ الْمُشَرِّكَةِ يَقُولُونَ إِنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ هُنَّ بَنَاتُ اللهِ، وَكَانُوا يَعْبُدُونَهَا وَيَعْمَلُونَ أَنَّهَا شَفَاعَوْهُمْ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى رَغْمَ قَوْرَهُمْ مِنَ الْبَنَاتِ وَوَادِهِمْ لَهُنْ، فَقَتَلُوهُمْ لَهُمْ

"الْكُمُ الْذَّكْرُ وَلَهُ الْأَشْيَى؟"، إذ كانوا، كما قلنا، يكرهون خلفة الإناث، فأراد الله أن يلقيتهم إلى سخافة تفكيرهم وحُمُق تصرفهم حين ينسبون إليه الإناث اللاتي يكرهونهن بل يقتلوهن أحياناً، ثم يختصون أنفسهم بالذكران!

على أن هذه الأصنام ليست هي وحدها بنات الله وشركاً له، بل هناك الجن والملائكة أيضاً: "وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلْقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَيْنَ وَبَيْنَاتِ بَغْيَرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ" (الأعراف / ١٠٠)، "وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنَ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكَرَّمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَسْقُفُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَضَى وَهُمْ مِنْ خَشِيَّةِ مُشْفِقُونَ" (الأنبياء / ٢٦ - ٢٨)، "وَيَوْمَ يَحْسُرُهُمْ جِمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْوَلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلَيْسَ مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ" (سبأ / ٤٠ - ٤١)، "فَاسْتَقْبَلُوكُمُ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَيْسُونَ * أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُنَّ شَاهِدُونَ * لَا إِنْهُمْ مِنْ إِنْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَادُونَ * أَصْطَفَنَا الْبَنَاتِ عَلَى الْبَيْنَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ * فَأَتُوا بِكَاتِبَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسِيًّا وَلَقَدْ عَلِمْتِ الْجَنَّةَ إِيَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ" (الصافات / ١٤٩ - ١٥٨)، "وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ * أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَيْنَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ

وَجْهُهُ مُسْوِدًا وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوْمَنْ يَنْشَا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ * وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَّا شَهَدُوا خَلْقَهُمْ سَكَبُ شَهَادَتَهُمْ وَيُسَأَلُونَ (الزخرف / ١٥ - ١٩)، وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (الذاريات / ٥١)، أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (الطور / ٣٩)، إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيَسْمَوْنَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنْثَى * (النجم / ٢٧).

وقيل ابن المقصود في آية "الأنعام" ليس الجن بل الملائكة، الذين عبدهم عرب الجاهلية قائلين إنهم بنات الله، وقد سماهم القرآن: "جَنَّا" لاجتنانهم (أى لاختفائهم)، تحيرا لشأنهم. وقيل: بل المقصود بـ"الجن" الشياطين لأنهم أطاعوهم كما يطاع الله تعالى، أو لأنهم كانوا يقولون إن الله خالق الخير وكل ما هو نافع، والشيطان خالق الشر وكل ما هو ضار. وبقرب من هذا فسر ابن الكلبي النص القرآني، إذ قال حسبما نقل الوحدى: "نزلت هذه الآية في الزنادقة، قالوا: إن الله تعالى وإبليس أخوان، والله خالق الناس والدواب، وإبليس خالق الحيات والسبياع والعقارب". وقد حاول الزمخشري، في تفسيره لآيات "الصفات"، أن يسوغ تسمية الملائكة: "جَنَّا" بقوله إن جنس الملائكة والشياطين واحد، وهو جنس الجن، "ولكنَّ مَنْ خَبَثَ مِنَ الْجِنِّ وَمَرَدٌ وَكَانَ شَرًّا كُلَّهُ فَهُوَ شَيْطَانٌ، وَمَنْ

طَهَرَ مِنْهُمْ وَنَسَكَ وَكَانَ خَيْرًا كَمَا فَهُوَ مَلِكٌ . فَذَكَرُهُمْ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ بِاسْمِ جَنْسِهِمْ، وَإِنَّا ذَكَرْنَاهُمْ بِهَذَا الْاسْمِ وَضَعًا مِنْهُمْ وَتَقْصِيرًا بِهِمْ .

أَمَّا أَنَا فَأَرَى أَنَّ الْجِنَّةَ هُنَّا إِنَّا هُمُ الْجِنَّةُ الَّذِينَ نَعْرَفُهُمْ لَا الْمَلَائِكَةَ، وَلَيْسَ هُنَّا كُلُّ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّ الْجِنَّةَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَوْ فِي أَيِّ مَوْضِعٍ أَخْرَى مِنَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ هُمُ الْمَلَائِكَةُ . وَإِنَّ فِي الْقَوْلِ بِذَلِكَ لِخُلُطًا بَيْنَ الْأَنْفَاظِ وَالْمَفَاهِيمِ يُفْسِدُ تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ إِفْسَادًا . ثُمَّ لِمَاذَا يُحَقِّرُ الْقُرْآنُ الْمَلَائِكَةَ، وَهُمْ عِبَادٌ مُّكَرَّمُونَ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمْرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يَؤْمِنُونَ وَلَا يَعْرِفُونَ مَعْنَى الْأَسْتِكْبَارِ حَسْبًا وَصَفْهُمُ اللَّهُ سَبَّاحَهُ فِي الْآيَةِ ٥٠ مِنْ سُورَةِ "الْتَّحْلِيلِ" وَالآيَتَيْنِ ٢٦ - ٢٧ مِنْ سُورَةِ "الْأَنْبِيَاءِ" ، وَلَا ذَنْبٌ لَهُمْ فِي أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا يُشْرِكُونَهُمْ بِاللَّهِ؟ كَمَا أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: "وَيَوْمَ يُحَشِّرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْوَلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ" * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلَيْسَ مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّةَ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ" (سُبَا / ٤١ - ٤٢) هُوَ أَكْبَرُ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّ الْجِنَّةَ شَيْءٌ آخَرُ، فَهَا هُمْ أُولَاءِ الْمَلَائِكَةُ تُنْكِرُ أَنَّ يَكُونُ الْمُشْرِكُونَ قَدْ عَبَدُوهُمْ، وَتَوَكَّدُ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ أَنَّهُمْ إِنَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّةَ، بِمَا يَعْنِي أَنَّ كُلَّاً مِنْهُمَا فَرِيقٌ مُخْتَلِفٌ تَمَامًا عَنِ الْفَرِيقِ الْآخَرِ . وَلَيْسَ بَعْدَ قَوْلِ اللَّهِ قَوْلًا! ثُمَّ إِنَّ الْجِنَّةَ مُكَلَّفُونَ، أَمَّا الْمَلَائِكَةُ فَهُمْ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ فِي شَيْءٍ، بِمَا يَدْلِلُ عَلَى أَنَّهُمْ غَيْرُ دَاخِلِينَ فِي التَّكْلِيفِ، وَالْأَكْلَانُ مِنْهُمْ الْمُطِيعُونَ وَالْعَصَّاءُ، فَضْلًا عَنْ أَنَّ الْجِنَّةَ مُخْلُوقُونَ مِنْ نَارٍ حَسْبًا صَرَحَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ،

والملاكية ليسوا كذلك. ومعنى قوله تعالى: "وَخَرَقُوا لِهِ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ" أنهم افتروا بجهل فاحش زاعمين أن له سبحانه بنين وبنتاً، فقالت اليهود: عَزِيزٌ ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقالت العرب: الملائكة بنات الله. وكان "بنو ملیح يعبدون الملائكة" كما جاء على لسان ابن الزبير في سبب نزول قوله تعالى: "إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبٌ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ". وكان الجن في نظرهم يعلمون الغيب، ولهذا حكى القرآن الكريم قصتهم مع سليمان عليه السلام وكيف أنهم ظلوا يعملون في السخرة تحت إمرته حتى بعد أن مات، إذ كانوا يرون أنه مستينا بذقنه إلى العصا فيحسبون أنه لا يزال حيا، إلى أن أكلت النمل العصا فخرّ عليه السلام. فعندئذ، وعندئذ فقط، عرفوا أنه قد مات. ولو كانوا يعلمون الغيب ما ظلوا يعملون ويقايسون في تلك السخرة العذاب المهيمن: "فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَأْبُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْ سَآتَةَ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنَّ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ" (سبأ/١٤).

ولم يكن جمهور العرب يؤمنون بالآخرة، فلا بعث عندهم ولا حساب، وليس إلا الدنيا، التي إذا ما انتهت فقد انتهى كل شيء بالنسبة للإنسان. وكانوا يزعمون أن مرور الأيام والليالي هو المؤثر في هلاك الأنفس، وينكرون ملك الموت وقبض الأرواح بأمر الله. وكانوا يضيفون كل حادثة

تَحْدُثُ إِلَى اهْرَارِ الزَّمَانِ، فَالدَّهْرُ يُفْنِي وَلَا يُعِيدُ مِنْ يُفْنِيهِ. وَكَانُوا يَحَادُلُونَ النَّبِيَّ فِي ذَلِكَ بِجَادَلَةٍ لَا تَنْهَى، مُحْتَاجِينَ بِأَنَّهُ مِنْ غَيْرِ الْمُمْكِنِ أَنْ يَعُودَ الْإِنْسَانُ إِلَى الْحَيَاةِ كَرْهَةً أُخْرَى بَعْدَ أَنْ يَصْبِحَ عَظَاماً وَرُفَاتَةً، وَلَا فَائِنَ آبَاؤُهُمُ الْأُولَوْنَ؟ وَلِمَاذَا لَمْ يَرْجِعُوا إِلَى الْحَيَاةِ مِنْ قَبْلِ؟ وَإِذَا كَانَتْ هُنَاكَ آخِرَةٌ فَلِمَاذَا لَا تَأْتِي؟ وَإِنَّ كُلَّةَ الْآيَاتِ الَّتِي تَشَابَهُ مِنْ هَذَا الْمَوْضِعِ وَتَعْرِضُ جَدَاهُمْ وَسَخْرَهُمْ بِمَا كَانُوا يَسْمَعُونَ مِنَ الْآيَاتِ الْقَرَآنِيَّةِ الَّتِي تَتَحدَّثُ عَنِ الْبَعْثِ لَدَلِيلٍ عَلَى أَنَّ نَكْرَانَهُمْ كَانَ مِنَ الْقُوَّةِ وَالْحَدَّةِ بِمَكَانٍ: "وَقَالُوا إِنَّا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتَةً أَئْنَا لَمْ يَبْعُثُنَا خَلْقًا جَدِيدًا؟" قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا؟ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِّ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوْلَ مَرَّةً فَسَيَنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَسَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا" (الْإِسْرَاءُ / ٤٩ - ٥١)، "وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِنَّا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيَا" (مُرِيمٌ / ٦٦)، "إِنَّهَا النَّاسُ إِنَّ كُلَّمُ فِي رَبِّ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْعِنَةٍ مُخْلَقَةٍ وَغَيْرُ مُخْلَقَةٍ لِتَبَيَّنَ لَكُمْ وَيَقُولُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمٍّ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفَلًا ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّهُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُوفَى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكِيلًا يَعْلَمُ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّ وَرَتَّ وَأَسْتَدَّ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحِبُّ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ إِذْهَا لَا رَبِّ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ"

(الحج / ٥ - ٧)، "قَالُوا إِنَّا مِسْتَأْ وَكَمَا تُرَابًا وَعِظَامًا إِنَّا لَمْ يَعُوْشُونَ" * لقد وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلِ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ" (النمل / ٨٢ - ٨٣)، "بَلْ كَذَبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْدَدُنَا لِمَنْ كَذَبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا" (الفرقان / ١١)، "وَقَالُوا إِنَّا ضَلَّلْنَا فِي الْأَرْضِ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ يَلْقَاءُونَ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ" (السجدة / ١٠)، "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قَلْ بَلِى وَرَبِّي لَتَأْتِنَّكُمْ عَالَمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزِبُ عَنْهُ مِيقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ" (سبأ / ٣)، "إِنَّا مِسْتَأْ وَكَمَا تُرَابًا وَعِظَامًا إِنَّا لَمْ يَعُوْشُونَ" * أوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ" (الصافات / ١٦ - ١٧)، "إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ" * إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْتَشِرِينَ" فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُلْتُمْ صَادِقِينَ" (الدخان / ٣٤ - ٣٦)، "وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاةُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظْنُونَ" * وَإِذَا تَلَى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّوْا بِآبَائِنَا إِنْ كُلْتُمْ صَادِقِينَ" (الجاثية / ٢٤ - ٢٥)، "إِنَّا مِسْتَأْ وَكَمَا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ" (ق / ٣)، "قُتِلَ الْخَرَاسُونَ" * الَّذِينَ هُمْ فِي غَمَرَةٍ سَاهُونَ * يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ" (الذاريات / ١٠ - ١٢)، "زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ لَنْ يُعَثِّرُوا قُلْ بَلِى وَرَبِّي لَتَبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُبَيِّنُنَّ بِمَا عَمِلُتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ" (التغابن / ٧)، "يَقُولُونَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ" * إِنَّا كُمَا عِظَامًا نَخْرَجُهُ" * قَالُوا تُلْكَ إِذَا كَرَّهَ خَاسِرٌ" (النازعات / ١٠ - ١٢).

وَمَا رُوِيَّ عَنِ الْكَفَارِ فِي هَذَا الْجَهَالَ "أَنَّ أَبِي بْنَ خَلْفَ أَتَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَظِيمٍ بِالِّيْفَتَهِ بِيْدِهِ، وَقَالَ: أَتَرِيَ اللَّهُ يُخْبِي هَذَا بَعْدَمَا رَمَ؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نَعَمْ، وَيَعْثُكْ وَيَدْخُلُكَ النَّارَ". كَمَا رُوِيَّ أَنَّ عُتْبَةَ وَشَيْبَةَ وَأَبَا سَفِيَّانَ وَالنَّضْرَ بْنَ الْحَرْثَ وَأَبَا الْبَخْرِيِّ وَالْوَلِيدَ بْنَ الْمَغِيرَةِ وَأَبَا جَهْلٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أُمِّيَّةَ وَأُمِّيَّةَ بْنَ خَلْفَ وَرَؤْسَاءِ قَرْيَشِ اجْتَمَعُوا عَلَى ظَهَرِ الْكَعْبَةِ فَقَالُوا لِبَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ: ابْشُرُوا إِلَى مُحَمَّدٍ وَكَلِّمُوهُ وَخَاصِّهُ حَتَّى تُعَذِّرُوا بِهِ، فَبَعَثُوا إِلَيْهِ: إِنَّ أَشْرَافَ قَوْمِكَ قَدْ اجْتَمَعُوا لَكَ لِيَكْلُمُوكَ، فَجَاءُهُمْ سَرِيعًا وَهُوَ يَظْنُ أَنَّهُ بَدَأَ فِي أَمْرِهِ بَدَاءً (أَيْ غَيْرُوا مَوْقِفَهُمْ مِنْهُ)، وَكَانُوا عَلَيْهِمْ حَرِيصًا يَحْبُّ رِشْدَهُمْ وَيَعْزِّزُ عَلَيْهِ تَعْنِيَّهُمْ، حَتَّى جَلَسُوا إِلَيْهِمْ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدَ، إِنَّا وَاللَّهُ لَا نَعْلَمُ رَجُلًا مِنَ الْعَرَبِ أَدْخَلَ عَلَى قَوْمِهِ مَا أَدْخَلْتَ عَلَى قَوْمِكَ، لَقَدْ شَتَّمْتَ الْآبَاءَ وَعَبَّتَ الدِّينَ وَسَقَّهَتَ الْأَحْلَامَ وَشَتَّمْتَ الْآلَهَ وَفَرَقْتَ الْجَمَاعَةَ، وَمَا بَقِيَ أَمْرٌ قَبِيْحٌ إِلَّا وَقَدْ جَتَّهُ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ، فَإِنَّ كَتَّ إِنَّمَا جَتَّ بِهِ لِتَطْلُبَ بِهِ مَا لَا جَعَلْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا مَا تَكُونُ بِهِ أَكْثَرُنَا مَالًا، وَإِنَّ كَتَّ إِنَّمَا تَطْلُبُ الشَّرْفَ فِيهَا سَوْدَنَاكَ عَلَيْنَا، وَإِنَّ كَتَّ تَرِيدُ مُلْكًا مُلْكَنَاكَ عَلَيْنَا، وَإِنَّ كَانَ هَذَا الرَّئِيْسُ الَّذِي يَأْتِيَكَ تِرَاهُ قَدْ غَلَبَ عَلَيْكَ (وَكَانُوا يَسْمَوْنَ التَّابِعَ مِنَ الْجِنِّ: الرَّئِيْسَ) بِذَلِّنَا أَمْوَالَنَا فِي طَلْبِ الْطَّبِّ لَكَ حَتَّى تُبَرِّئَنَا مِنْهُ أَوْ تُعَذِّرَ فِيْكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا بَيْ مَا تَقُولُونَ، مَا جَتَّكُمْ بِمَا جَتَّكُمْ بِهِ لِتَطْلُبَ أَمْوَالَكُمْ وَلَا

للشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله عز وجل يعني إليكم رسولًا وأنزل عليَّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالة ربِّي ونصحتُ لكم. فإنْ تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإنْ ترذوه عليَّ أصْبِرْ لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم. قالوا: يا محمد، فإنْ كُنْتَ غير قابلٍ مِّنَّا ما عرضنا فقد علمْتَ أنه ليس من الناس أحدٌ أضيق بلادًا ولا أقلَّ مالًا ولا أشدَّ عيشاً مِّنَّا. سُلْ لِنَا رَبِّكَ الَّذِي بَعَثَكَ بِهَا بعثكَ، فَلَيُسَيِّرْ عَنَّا هَذَا الْجَبَالِ الَّتِي ضَيَقَتْ عَلَيْنَا وَيُسْطِلْ لَنَا بَلَادَنَا وَيُخْرِجْ فِيهَا آنْهَارًا كَأَنَّهَا الشَّامُ وَالْعَرَاقُ، وَأَنْ يُبْعَثْ لَنَا مِنْ مَضِيِّ أَبَانَا، وَلَيُكَنْ مِنْ يُبْعَثْ لَنَا مِنْهُمْ قُصَّيْ بْنُ كَلَابٍ، فَإِنْهُ كَانَ شَيْخًا صَدُوقًا، فَنَسَأْلُهُمْ عَمَّا تَقُولُ: حَقٌّ هُوَ؟ فَإِنْ صَنَعْتَ مَا سَأَلْنَاكَ صَدَقْنَاكَ وَعَرَفْنَا بِهِ مِنْزِلَتَكَ عِنْدَ اللَّهِ، وَأَنْهُ بَعْثَكَ رَسُولًا كَمَا تَقُولُ". وَوَجْهُ الشَّاهِدِ فِي الْخَبَرِ أَنَّهُمْ تَحْدَوْهُ، ضَمِّنْ مَا تَحْدَوْهُ بِهِ، أَنْ يَأْتِي لَهُمْ مِنْ مَاتَ مِنْ أَبَانِهِمْ، وَعَلَى رَأْسِهِمْ جَدَّهُ قُصَّيْ بْنُ كَلَابٍ، إِذَا كَانُوا، كَمَا قَلَّنَا، يَرَوْنَ اسْتِحَالَةَ عُودَةِ الْمَيِّتِ إِلَى الْحَيَاةِ، أَمَا مَنْ يَقُولُ بِغَيْرِ هَذَا فَعَلَيْهِ أَنْ يُثْبِتْ مَا يَقُولُ وَيُعِيدَ الْمَوْتَى إِلَى الدُّنْيَا كَرْهًا!

وَثَةٌ خَبَرَ فِي "أَسْبَابِ النَّزُولِ" لِلْوَاحِدِي يَفْسِرُ سَبِيلَ تَرْزُولِ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَ: "وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهَدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ"، وَبِهِ أَنَّهُ كَانَ لِرَجُلٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ دِينُ فَاتَّاهُ يَتَقاضَاهُ، فَكَانَ فِيمَا

تكلم به: وإنني أرجوه بعد الموت. فقال المشرك: وإنك لترى إنك لتبعث بعد الموت؟ فأقسم بالله لا يبعث الله من يموت. فأنزل الله تعالى هذه الآية". وكانوا ينكرون بما ينزل به القرآن في أوصاف الجنة والنار، كالذى يروى عن أبي جهل من أنه "لما ذكر الله تعالى الرّقُوم خُوف به هذا الحي من قريش، فقال أبو جهل: هل تدرؤون ما هذا الزّقوم الذي يخوكم به محمد...؟ قالوا: لا.. قال: الثَّرِيد بالزِّيد! أمَّا والله لئن أمكننا منها لنَزَقْمَنَّها تَرْقَمَا. فأنزل الله تبارك وتعالى: "والشَّجَرَة الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ وَسُخْوَهُمْ فَمَا يَرِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا...". ومن هذا الوادى أيضاً جاء في بعض الروايات من أن "خَبَابَ بْنَ الْأَرْتَ كَانَ فِتْنَاءَ، وَكَانَ يَعْمَلُ لِلْعَاصِ بْنَ وَائِلَ السَّهْمِيَّ، وَكَانَ الْعَاصِ يَؤْخُرُ حَقَّهُ، فَأَتَاهُ يَقْاضَاهُ، فَقَالَ الْعَاصِ: مَا عَنِي الْيَوْمِ مَا أَقْضِيكُ. فَقَالَ: لَسْتُ بِمُفَارِقَكَ حَتَّى تَقْضِيَنِي. فَقَالَ الْعَاصِ: يَا خَبَابَ، مَالِكٌ؟ مَا كَتَبْتَ هَكَذَا! وَإِنْ كَتَبْتَ لَتُخْسِنَ الْطَّلْبَ. فَقَالَ خَبَابٌ: ذَاكَ أَنِّي كَتَبْتَ عَلَى دِينِكَ، فَأَمَّا الْيَوْمِ فَأَنَا عَلَى الإِسْلَامِ مُفَارِقٌ لِدِينِكَ، قَالَ: أَوْلَاسْتُمْ تَرَعِمُونَ أَنْ فِي الْجَنَّةِ ذَهَبًا وَفَضَةً وَحِرِيرًا؟ قَالَ خَبَابٌ: بَلِي. قَالَ: فَأَخْرُنِي حَتَّى أَقْضِيكُ فِي الْجَنَّةِ، اسْتَهْزَأْ. فَوَاللهِ لَنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًا، إِنِّي لَأَفْضُلُ فِيهَا نَصِيبًا مِنْكَ". وكان هذا الاستهزاء يتكرر كلما نزل شيء من القرآن في تعداد نعم الجنة، ومن ذلك ما ورد في النص التالي لدى الواحدى: "كان المشركون يجتمعون

حول النبي صلى الله عليه وسلم يستمعون كلامه ولا ينتقرون به، بل يكتذبون
به ويستهزئون ويقولون: لن دخل هؤلاء الجنة لندخلنها قبلهم، ولن يكون لنا
فيها أكثر مما لهم. فأنزل الله تعالى هذه الآية: "أَبْطَعَ كُلُّ إِمْرَىءٍ مِّنْهُمْ أَنْ
يُدْخِلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ * كَلَّا"

فإذا انتقلنا إلى العادات الجاهلية وجدنا مثلاً قوله تعالى: "إِنْ تَسْتَقْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَاوْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَبْعُدُوا نَعْدُ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ قِتْكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ" (الأفال / ١٩).
أى أنهم كانوا يتوجهون بالدعاء لله، وقد سلف القول إنهم كانوا يؤمنون
بوجوده سبحانه، وإن عز على عقولهم المغلقة أن تفهم أن الله بطبيعته لا
يمكن أن يكون إلا إله واحداً، بل كانوا يشركون به آلهة أخرى. ومعنى
الاستقاح هو الدعاء إلى الله أن يظهر لهم الحق من الباطل. وقد وردت
أكثر من رواية في ذلك في تفسير الطبرى فقيل: "كان المشركون حين
خرجوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم من مكة (أى في غزوة بدرا)
أخذوا بأستار الكعبة واستنصروا الله وقالوا: اللهم انصر أعز الجنين،
وأكرم الفتىين، وخير القبيلتين. فقال الله: "إِنْ تَسْتَقْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ
الْفَتْحُ" . يقول: نصرت ما قلت، وهو محمد صلى الله عليه وسلم" ، وقيل:
استقبح أبو جهل فقال: اللهم، أتنا (يعني محمداً ونفسه) كان أفجر لك
الله وأقطع للرحم فأحيته (أى أهلكه) اليوم. قال الله: إِنْ تَسْتَقْتِحُوا فَقَدْ

جاءكم الفتح". كما نقرأ في ذات السورة قوله سبحانه: "وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بَعْذَابَ أَلِيمٍ * وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَعْذِبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ" (الأفال / ٣٢ - ٣٣). وقد جاء في تفسير الطبرى: "قال رجل من بنى عبد الدار يقال له: النضر بن كلدة: "اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بَعْذَابَ أَلِيمٍ". فقال الله: "وَقَالُوا رَبُّنَا عَجَلَ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ"، وقال: "وَلَقَدْ جَشَّمُوا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أُولَمَرَةً"، وقال: "سَأَلَ سَائِلٍ بَعْذَابَ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ . . . ". قال عطاء: لقد نزل فيه بعض عشرة آية من كتاب الله". أما في تفسير الآية الثانية فقد أورد فيها، ضمن ما أورد، قول من قال: وما كان الله ليعذب هؤلاء المشركين من قريش بمكة وأنت فيهم يا محمد، حتى أخرجك من بينهم، وما كان الله معدتهم وبهؤلاء المشركين يقولون: يا رب غفرانك، وما أشبه ذلك من معاني الاستغفار بالقول . . . قوله: وما لهم لا يعذبهم الله؟ (أى) في الآخرة". أى أنهم، رغم شركهم، كانوا يدعون الله بما يريدون على غباء فيهم وعناد وانغلاق ذهن وقلب! كما أنهم، رغم شركهم، كانوا يستغفرون الله كما جاء في بعض الأقوال!

ومن عباداتهم كذلك ما ورد في قول رب العزة: "وَمَا كَانَ صَالِحُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءَ وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ" (الأفال /

(٣٥)، وتفسيره ما ورد عند شيخ المفسرين: "كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصغرون ويصفقون، فأنزل الله: "قُلْ مَنْ حَرَمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ"، فامروا بالثياب... . كانت قريش يعارضون النبي صلى الله عليه وسلم في الطواف يستهزئون به، يصغرون به ويصفقون... . كانوا ينفحون في أيديهم". كما أن في القرآن آية تنهى عن السجود للشمس أو القمر، مما يدل على أن هناك من كانوا يسجدون لهما: "وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ لَا سُبُّجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلنَّهَارِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيمَانًا بَعْدُونَ" (فصلت / ٣٧).

ولعل القاريء قد تنبه لما جاء في كلام الطبرى من أن المشركين كانوا يطوفون بالبيت الحرام عراة، وإن كت أتصور أن يكون بعضهم فقط هم الذين يفعلون ذلك لا كلهم. وفي تفسير قوله تعالى: "يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوَاءَكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ" * يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتَنُكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبْوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا إِنَّهُ يَرَأْكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أُولِيَّاً لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ" * وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمْرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَنْقُلُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ" * قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقْتَمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَأَذْعُوهُ مُخْلِصِينَ لِهِ الدِّينَ كَمَا بَدَأْكُمْ تَعْوِدُونَ" * فِرِيقًا هَدَى وَفِرِيقًا حَقَّ

عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ أَنْهَذُوا الشَّيَاطِينَ أُولَئِكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَخْسِبُونَ أَهْمَمَ
مُهَدِّدَوْنَ * يَا يَاهِي آدَمَ حَذُّوْرَ زِيَّتُكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُّوا وَأَشْرُبُوا وَلَا
تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ
وَالظَّبَابَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمُ الْقِيَامَةِ
كَذَلِكَ نَفْصُلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ" (الأعراف / ٣٦ - ٣٢) يقول الطبرى ما
رَبُّدَتْهُ أَنَّهُ، جَلَ ثَنَاؤه، يَبْيَنُ لِلْجَمْهُلَةِ مِنَ الْعَرَبِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْرَوْنَ أَنْ لِبَاسَ
الْقَوْى هُوَ الْحَيَاةِ . وَقَدْ ابْتَدَأَ سَبْحَانَهُ الْخَبَرُ عَنِ إِنْزَالِهِ الْلِّبَاسَ الَّذِي يَوْارِي
سَوَاتِنَا وَرِيَاضَ تَوْبِيَخَا لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَتَجَرَّدُونَ فِي حَالِ طَوَافِهِمْ
بِالْبَيْتِ، وَيَأْمُرُهُمْ بِاَخْذِ ثِيَابِهِمْ وَالْإِسْتَارِ بِهَا فِي كُلِّ حَالٍ مَعَ الإِيمَانِ بِهِ وَاتِّبَاعِ
طَاعَتِهِ، إِذْ كَانُوا يَطْوِفُونَ بِالْبَيْتِ عُرَاءً مَسْجَجِينَ بِقَوْلِهِمْ: "نَطَوْفُ كَمَا وَلَدْنَا
أَمْهَاتِنَا" ، فَتَضَعُ الْمَرْأَةُ عَلَى قَبْلِهَا النِّسْعَةُ أَوِ الشَّيْءِ فَقَوْلُهُ:
الْيَوْمَ يَدُوِّي بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ فَمَا بَدَأَ مِنْهُ فَلَا أَجِلَّهُ

فَعَذِلُوا عَلَى مَا أَتَيُوا مِنْ قَبِيحِ فَعْلِهِمْ وَغَوْتِبُوا عَلَيْهِ، فَكَانَ جَوَابِهِمْ:
وَجَدْنَا عَلَى مِثْلِ مَا نَفْعَلُ أَبَاءُنَا، فَنَحْنُ نَفْعَلُ مِثْلَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ، وَتَقْدِي
بَهْدِيهِمْ وَنَسْتَبْسُطُهُمْ، وَاللَّهُ أَمْرَنَا بِهِ، فَنَحْنُ تَبَعُّ أَمْرِهِ فِيهِ. فَيَقُولُ اللَّهُ جَلَّ
ذَكْرَهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ
بِالْفَحْشَاءِ، أَنِّي لَا يَأْمُرُ خَلْقَهُ بِقَبَائِحِ الْأَفْعَالِ وَمَسَاوِيهَا. أَنْتُوْلُونَ، أَهْمَنَا النَّاسُ،
عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ؟ أَتَرُوْلُونَ عَلَى اللَّهِ أَنَّهُ أَمْرَكُمْ بِالْعَرَى وَالْتَّجَرَدِ مِنِ
الثِّيَابِ وَاللِّبَاسِ لِلْطَّوَافِ، وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ أَنَّهُ أَمْرَكُمْ بِذَلِكَ؟ لَقَدْ كَانُوا

يُطوفون عراة: الرجال بالنهار، والنساء بالليل، فأمرهم الله بالزينة، والزينة: اللباس. وكانت العرب تطوف بالبيت عراة إلا الحُمْس: قريش وأحلافهم. وكانت قريش ومن ولدَتْه قريش، وهم الذين كانوا يسمون في الجاهلية: "الحُمْس"، يقولون: لا نخرج من الحرم. فكانوا لا يشهدون موقف الناس بعرفة معهم، فأمرهم الله بالوقوف معهم والإفاضة من عرَفات، وهي التي كان يُفيض منها سائر الناس غير الحُمْس. وعن عائشة: كانت قريش ومن كان على دينها، وهم الحُمْس، يقفون بالمُزدلفة ويقولون: نحن قطّين الله. ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من ساكيي الحل مثل الذي لهم بولادتهم إباهم، فيجعل لهم ما يجعل لهم، ويحرّم عليهم ما يحرّم عليهم. وكانت كثانة وخزانة قد دخلوا معهم في ذلك، ثم ابتدعوا في ذلك أموراً لم تكن، حتى قالوا: لا ينبغي للحُمْس أن يُقطعوا الأقطع، ولا يسألوا السُّئن وهم حُرُم، ولا يدخلوا بيته من شعر، ولا يستظلوا إن استظلوا إلا في بيوت الجلد طوال إحرابهم. ثم غالوا في ذلك فقالوا: لا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل في الحرم إذا جاءوا بحجاجاً أو عماراً، ولا يطوفوا بالبيت إذا قدِموا أول طوافهم إلا في ثياب الحُمْس، فإن لم يجدوا منها شيئاً طافوا بالبيت عراة. فحملوا العرب على ذلك، وكان من سواهم يقفون بعرفة، فأمرهم الله بالوقوف معهم: "إِنَّمَا أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَأَسْعَفُرُوا اللَّهَ إِنَّ

الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ" (البقرة/١٩٩). وكان القوم في جاهليتهم، بعد فراغهم من حجتهم ومتناسكهم، يجتمعون فيتقاخرون بما ترآت آباءهم، فكأنوا يذكرون آباءهم في الحج: فيقول بعضهم: كان أبي يطعم الطعام، فيقول بعضهم: كان أبي يضرب بالسيف، ويقول بعضهم: كان أبي جَزْ نواصي بني فلان. فأمرهم الله في الإسلام أن يكون ذكرهم بالثناء والشكر والتعظيم لربهم دون غيره، فنزل قوله عز وجل: "فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ أَبْاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا" (البقرة/٢٠٠).

وكان الأنصار في الجاهلية إذا أهل أحدهم بحج أو عمرة لا يدخل دارا من بابها إلا أن يتسرّر حائطاً وأسلموا وهم كذلك. فأنزل الله تعالى ذكره: "وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتِيَ الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتَى الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (البقرة/١٨٩)، ونهام عن صنيعهم ذلك، وأمرهم أن يأتوا البيوت من أبوابها. فلما حج رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع أقبل يمشي ومعه رجل من أولئك، وهو مسلم. فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم باب البيت احتبس الرجل خلفه وأبى أن يدخل قائلا: يا رسول الله، إني أحمس. يقصد أنه مُحرِّم، وكان أولئك الذين يفعلون ذلك سَمَّون: "الْحُمْس". فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وَأَنَا أَيْضًا أَحْمَسُ" (أى أنه عليه السلام من قريش)، فادْخُلْ، فدخل الرجل.

وكان في تعاملات أهل الجاهلية بغي وطاعة للشيطان، فكان الحني مثلاً إذا كان فيهم غدة ومنعة، فقتل عبد قوم آخرين عبداً لهم، قالوا: "لا تقتل به إلا حراً"، تعززاً لفضلهم على غيرهم في أنفسهم، وإذا قتلت امرأة قوم آخرين امرأة لهم، قالوا: لا تقتل بها إلا رجلاً. فأنزل الله هذه الآية يخبرهم أن العبد بالعبد والآتشي بالآتشي، فنهىهم عن البغي: "إِنَّمَا الَّذِينَ آمَنُوا كُبَرَاءُ عَلَيْكُمُ الْفِضَالُ فِي الْقَتْلِ الْحَرُّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالآتشي بِالآتشي فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعُ الْمَعْرُوفِ وَإِذَاءُ إِلَيْهِ بِالْحَسَانِ ذَلِكَ تَحْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اغْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ" (البقرة/١٧٨).

وكان اليتامي يُظلمون ولا يُرحمون وتوكل حقوقهم، وقد نزلت فيهم آيات متعددة: "أَرَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ" * فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ التَّسْتِيمَ * وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ" (الماعون/٣-١)، "فَلَا اقْتَحِمُ الْعَقَبَةَ" * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّرْقَبَةُ * أَوْ إِطْعَامُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْعَبَةٍ * تَبِيَّمَا ذَا مَقْرِبَةُ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَرْبَةٍ" (البلد/١٦-١١)، "لَيْسَ الْبَرُّ أَنْ تَوَلَّوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبَرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حَبَّهِ ذُوي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلَيْنَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَأَتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُ بِعَهْدِهِ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبُلْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبُأْسِ

أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ" (البقرة / ١٧٧)، "كَلَّا بَلْ لَا تَكْرِمُونَ الْيَتَيمَ" ولا تَحَاضُرُونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ" وَتَأْكُلُونَ التِّرَاثَ أَكْلًا لَمَّا" وَتَحْبِبُونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًا" (الفجر / ٢٠)، "وَلَا تَقْرِبُوا مَالَ الْيَتَيمِ إِلَّا مَا تَرَى هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشْدُهُ" (الأنعام / ١٥٢، والإسراء / ٣٤)، "وَاتَّوْا إِلَيْتَمَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالْطَّيْبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُبًّا كَبِيرًا" وَإِنْ خَفْتُمُ الْأَقْسِطُوا فِي إِلَيْتَمَى فَانْكِحُوهُمَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتَّشِينَ وَثُلَاثَ وَرَبَاعَ فَإِنْ خَفْتُمُ الْأَقْسِطُوا فَعَدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذِلِكَ أَدْنَى إِلَّا تَعُولُوا" وَاتَّوْا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نَحْلَةً فِي طِينِ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكَلُوْهُ هِنْيَا مَرِيَا" وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَأَكْسُوْهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا" وَأَبْتَلُوا إِلَيْتَمَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آتَيْتُمُ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوهُ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبَدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيَا فَلَيَسْتَعْفِفَ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلَيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمُ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهُدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا" (النساء / ٦ - ٢)، "إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ إِلَيْتَمَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُوْنَ سَعِيرًا" (النساء / ١٠)، "وَيَسْتَقْوِنَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِنُكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي إِلَيْتَمَى النِّسَاءِ الْأَتَيَ لَا تُؤْتُوهُنَّ مَا كَيْبَ لَهُنَّ وَرَغْبُونَ أَنْ

شِكْحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعِفُينَ مِنَ الْوَلَدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا
مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلَيْمًا" (النساء / ١٢٧).

وبالنسبة للآيات المشار ذكرها في صدر سورة "النساء" يقول ابن عطية في "المحرر الوجيز" إنها في أوصياء الأيتام، والمراد ما كان بعضهم يفعله من تبديل الشاة السمينة من مال اليتيم بالهزيلة من ماله، والدرهم الطيب بالزائف من ماله، وإن أولئك اليتامى كانوا منوعين من الميراث ومحجورين. الآية نص في النهي عن قصد مال اليتيم بالأكل والتモل على جميع وجهه. وقالت عائشة رضي الله عنها: نزلت في أولياء اليتامى الذين يعجبهم جمال ولائهم فيريدون أن يبخسون في المهر لكان ولايهم عليهم، فقيل لهم: أَقْسِطُوا (أى اعدلوا) في مهورهن. فمن خاف ألا يُقْسِطَ فليزوج ما طاب له من الأجنبيةات اللواتي يكابسن في حقوقهن (أى يدافعن عنها ويناضلن دونها). ويقول التعالبي، في تفسيره المسمى: "الجواهر الحسان في تفسير القرآن"، إن النهي في الآية ١٢٧ من سورة "النساء" خاص بـ"ما كانت العرب تفعله من ضم اليتيمة الجميلة بدون ما تستحقه من المهر ومن عَصْل الدمية الغبية حتى توت فيرثها العاصل". وفي "أُكُل التراث" المنهى عنه في سورة "الفجر" يقول إنهم كانوا لا يورثون النساء ولا صغار الأولاد، إنما كان يأخذ المال من يقاتل ويحمي الحوزة. وقد أورد ابن عطية حديثاً للنبي صلى الله عليه وسلم عما رأه ليلة الإسراء جاء فيه:

"رأيت أقواماً لهم مشافر كمشافر الإبل، وقد وكلَّ بهم من يأخذ بمشافرهم ثم يجعل في أفواههم صخراً من نار تخرج من أسافلهم". قلت: يا جبريل، من هؤلاء؟ قال: هم الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً". وأورد الزمخشري ما رُويَ من "أنه يبعث أكل مال اليتيم يوم القيمة، والدُّخان يخرج من قبره ومن فيه وأنفه وأذنيه وعينيه، فيعرف الناس أنه كان يأكل مال اليتيم في الدنيا".

وكان ثمَّ ظلم شنيع يقع على الصغار في ذلك المجتمع الوثنى، وهو ما كانت تمارسه بعض القبائل من وادِّ البناء، تلك العادة الوحشية التي نددَ بها القرآن مراراً ونهى عنها وشدد في النهي تشديداً عظيماً: "وكذلك زين لكثيرٍ من المُشرِّكِين قتل أُولادِهِ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلَيُلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرُوهُمْ وَمَا يَقْرُونَ" (الأنعام / ١٣٧)، "وَلَا تَقْتُلُوا أُولادَكُمْ مِّنْ إِيمَلِاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَاهُمْ" (الأنعام / ١٥١)، "وَلَا تَقْتُلُوا أُولادَكُمْ خَشْيَةً إِيمَلِاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَاهُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْطًا كَبِيرًا" (الإسراء / ٣١)، "وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأَشْيَاءِ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًا وَهُوَ كَظِيمٌ" * يتوارى منَّ الْقَوْمِ مِنْ سُوءٍ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيْمِسِكُهُ عَلَى هُونَ أَمْ يَدُسُّهُ في التراب أَلَا سَاءَ مَا يَجْعَكُونَ" (النحل / ٥٨ - ٥٩)، "أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَحْلُوُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالنِّينَ" * وإذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًا وَهُوَ كَظِيمٌ * أوَمَنْ يَئْشَأُ فِي الْحِلَّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ" (الزخرف / ١٨ - ١٦). وفي هذه العادة المت渥حة يقول البغوى،

عند تفسير الآيات ٥٨ - ٥٩ من سورة "النحل"، إن "مُصَرَّ وَخِرَاعَةَ وَتِيمَةَ" كانوا يدفنون البنات أحياء خوفاً من الفقر عليهم وطَمَعَ غير الأكفاء فيهن. وكان الرجل من العرب إذا ولَدَتْ له بنت وأراد أن يستحييها ألبسها جبةً من صوف أو شعر وتركها ترعى له الإبل والغنم في الباشية، وإذا أراد أن يقتلها تركها حتى إذا صارت سدايسية قال لأمها: "رَتَبَيْهَا حَتَّى أَذْهَبَ بِهَا إِلَى أَحْمَانِهَا"، وقد حفر لها بئراً في الصحراء. فإذا بلغ بها البشر قال لها: "انظري إلى هذه البَرْ" ، فيدفعها من خلفها في البَرْ ثم يهيل على رأسها التراب حتى يستوي البَرْ بالأرض. فذلك قوله عز وجل: "أَيْسَكْهُ عَلَى هُوْنَ أَمْ يَدْسُهُ فِي التَّرَابِ؟". وكان صَعْصَعَةَ عَمُّ الفرزدق (بَلْ جَدَهُ فِي الْوَاقِعِ) إذا أَحْسَ بِشَيْءٍ مِّن ذَلِكَ وَجَهَ إِلَى وَالِدَ الْبَنْتِ إِبْلَكَ، يُحِبِّيهَا بِذَلِكَ.

فقال الفرزدق يفتخر به:

وعَمِيَ الَّذِي مَنَعَ الْوَانِدَا تِفَاحِيَا الْوَيْدَا فَلَمْ تُؤَدِّ
وفي الآية السابعة من سورة "النساء" يطالعنا قوله تعالى: "لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَعْرُوضًا" ، وسبب نزولها أن من العرب من لم يكن يورث النساء ويقول: "لَا يُورَثُ إِلَّا مَنْ طَاعَنَ بِالرَّمْحِ وَقَاتَلَ بِالسِّيفِ" ، فنزلت هذه الآية. ومن ذلك أن أم كحلة مات عنها زوجها أوس بن سعيد وترك لها بنتاً، فذهب عمُّ بنها إلى الْأَرْثَ، فذهبت إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال العَمُّ: "هَيْ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا تَقْاتِلُ وَلَا

تحمل كلًاً ويكسب عليها ولا تكسب". ولا يقف ظلم النساء لدى عرب الجاهلية عند هذا الحد، فقد ذكرت الآيات التالية من نفس السورة ألواناً أخرى من الغبن الذي كُنْ يُعَرَّضُن له على أيدي الرجال: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذَهَّبُوا بَعْضُ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرْهُتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكُرْهُوْا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا * وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ رُزْقَ مَكَانَ رُزْقٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوْهُ مِنْهُ شَيْئًا إِنَّهُنَّ دُونَنَا وَإِنَّمَا مُبِينًا * وَكَيْفَ تَأْخُذُوْهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَنَ مِنْكُمْ مِّيَّاثًا غَلِيظًا" (النساء / ١٩ - ٢١). وقد علق الزمخشري على هذا قائلاً: "كانوا يُبلُّون النساء بضروب من البلايا ويظلمونهن بأنواع من الظلم، فزُجروا عن ذلك: كان الرجل إذا مات له قريب من أب أو أخ أو حميم عن امرأة ألقى ثوبه عليها وقال: أنا أحق بها من كل أحد . فقيل: "لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهًا"، أي أن تأخذوهن على سبيل الإرث كما تحاز المواريث، وهن كارهات لذلك أو مكرهات . وقيل: كان يمسكها حتى الموت، فقيل: لا يحل لكم أن تمسكوهن حتى ترثوا منهن، وهن غير راضيات بامساككم . وكان الرجل إذا تزوج امرأة ولم تكن من حاجته حبسها مع سوء العشرة والقهقر لقتدي منه بما لها وتحتلع . فقيل: ولا تعضلوهن لذهبوا بعض ما آتيموهن . والعضل: الحبس والتضيق . . .

"إلا أن يأتين بفاحشة مبينة"، وهي التشوّز وشكّاسة الْخُلُقِ وايذاء الزوج وأهله بالبَذَاءِ والسلطة، أي إلا أن يكون سوء العشرة من جهنّم، فقد عذرتم في طلب الخلع... فإن فعلت حَلًّا لزوجها أن يسألها الخلع... وكانوا يسيئون معاشرة النساء فقيل لهم: "وعاشروهن بالمعروف"، وهو النَّصْفَةُ في المَبِيتِ والنَّفَقَةِ والإِجْمَالِ فِي القَوْلِ... " وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتِيْتُم إِحْدَاهُنَّ قَنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوهُنَّ مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُوهُنَّ بِهَاتَانَا وَإِنَّمَا مَبِينًا* وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم مِثَاقًا غَلِيظًا؟". وكان الرجل إذا طمَحَت عينه إلى استطراف امرأة بهت التي تحته ورمها بفاحشة حتى يُلْجِنَّها إلى الاقتداء منه بما أعطاها ليصرفه إلى تزوج غيرها. فقيل: "إن أردتم استبدال زوج... ". وكانوا ينكحون رؤَاهُمْ (أي زوجات آبائهم)، وناسٌ منهم يمْقُنُونه من ذوي مروءاتهم، ويستَعُونُهُ بـ"نكاح المُقت". وكان المولود عليه يقال له: المُقْتِي". وفي الطبرى عن ابن عباس: "كان أهل الجاهلية يحرمون ما يحرم إلا امرأة الأب والجمع بين الأخرين". وفي الحديث: "لم يصبنا عيبٌ من عيوب الجاهلية في نكاحها ومَقْتَها".

وبالنسبة لعلاقة الفراش يقول الزمخشري، تعليقاً على قوله تعالى: "وَمَنْ لَوْنَكَ عَنِ الْمَحِيطِ قُلْ هُوَ أَذْيَ فَاغْتَرَلُوا النِّسَاءُ فِي الْمَحِيطِ وَلَا تَقْرِبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرُنَّ فَإِذَا نَطَهَرْنَ مِنْ حَيْثُ أَمْرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

الْتَّوَابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ" (البقرة / ٢٢٢)، إن "أهْل الْجَاهْلِيَّةِ كَانُوا إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةَ لَمْ يَؤْكِلُوهَا وَلَمْ يُشَارِبُوهَا وَلَمْ يَجْالِسُوهَا عَلَى فَرْشٍ وَلَمْ يَسْأَكُوهَا فِي بَيْتٍ كَفَعْلِ الْيَهُودِ وَالْمُجْوَسِ. فَلَمَّا نَزَّلَتْ أَنْذِرَ الْمُسْلِمُونَ بِظَاهِرٍ اعْزَازَهُنَّ فَأَخْرَجُوهُنَّ مِنْ بَيْوَتِهِمْ. فَقَالَ نَاسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْبَرْدُ شَدِيدٌ، وَالثِّيَابُ قَلِيلَةٌ. إِنَّ آثِرَنَا هُنَّ بِالثِّيَابِ هَلْكَ سَائِرُ أَهْلِ الْبَيْتِ، وَإِنْ اسْتَأْتَرْنَا بِهَا هَلَكْتِ الْحَيْضُ. فَقَالَ عَلَيْهِ الْمُصَلَّةُ وَالسَّلَامُ: إِنَّمَا أَمْرُتُمْ أَنْ تَعْزَلُوا مُجَامِعَهُنَّ إِذَا حِضْنُ، وَلَمْ يَأْمُرُكُمْ بِإِخْرَاجِهِنَّ مِنَ الْبَيْوَتِ كَفَعْلِ الْأَعْجَمِ".

وَكَانَ الْجَمْعُ الْجَاهْلِيُّ يَقُومُ، فِيمَا يَتَوَمَّ، عَلَى نَظَامِ الرَّقِيقِ، وَكَانَ الْأَرْقَاءُ يُعَامَّلُونَ بِقَسْوَةٍ، فَأَوْصَى الإِسْلَامُ بِهِمْ خَيْرًا، وَدَعَا إِلَى التَّقْرِبِ إِلَى اللَّهِ وَإِحْرَازِ الْأَجْرِ الْجَزِيلِ بِعَقْبَتِهِمْ. كَمَا وَصَّى بِمُسَاعِدَتِهِمْ مِنْ أَمْوَالِ الزَّكَاةِ وَالْكَفَاراتِ وَالصَّدَقَاتِ فِي الْإِفْتَكَاكِ مِنَ الرِّقِّ إِنْ أَرَادُوا الْمَكَاتِبَ لِإِعْتَاقِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ كَسْبِ يَدِهِمْ، وَكَذَلِكَ مُسَاعِدَتِهِمْ فِي الزَّوْجِ وَالْاسْتَعْفَافِ. وَمِنْ رَحْمَتِهِ سُبْحَانَهُ بِإِلَمَاءِ الْمُسْتَضْعَفَاتِ أَنْ أَنْزَلَ آيَةً تَمْسِحُ عَارَ الْبَغَاءِ وَاثِمَّهُ عَنِ الْأَمَّةِ الْمُكْرَهَةِ عَلَى ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ سَيِّدِهَا الْقَوَادِ. وَكَانَ لَعِبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَأْسِ الْضَّلَالِ وَالنَّفَاقِ أَمَّةً أَمْرَهَا فَرَزَّتْ، فَجَاءَتْ بُرْدٌ، فَقَالَ لَهَا: ارْجِعِي فَارِزْنِي. قَالَتْ: وَاللَّهِ لَا أَفْعُلُ. إِنْ يَكُنْ هَذَا خَيْرًا فَقَدْ اسْتَكْثَرْتُ مِنْهُ، وَإِنْ يَكُنْ شَرًا فَقَدْ آنَ لِي أَنْ أَدْعُهُ". وَقَدْ نَزَّلَ فِي ذَلِكَ كَلْمَةً قَوْلَهُ جَل-

شأنه: "وَأَنْكِحُوا الْأَيَامِيَّ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِمْ * وَلَا يَسْتَعْفِفُ الدِّينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَسْعَونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَمْاَبِكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَأَتُوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي أَتَاهُمْ وَلَا تَكْرُهُوا فِتَّيَاتِكُمْ عَلَى الْبَغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحْصَنَتِا لِتَبَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكَرِّهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ" (النور / ٣٢ - ٣٣).

وكان الجahليون يتعاملون بالربا، بل بالربا الفاحش الذي لا يرحم، ومن هنا نرى القرآن يصور الربا صورة شديدة البشاعة، ويحمل على المرابين حملة شعواء مناديا بالرحمة والتسامح مع الضعفاء والعاجزين الذين لا يقدرون على تسديد الدين، أو على الأقل إنتظارهم والصبر عليهم حتى يكتئبهم السداد: "وَمَا أَثَيْمُ مِنْ رِبَا لَيْرِبُو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا أَثَيْمُ مِنْ زَكَةً تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأَوْلَئِكَ هُمُ الْمُضِعُفُونَ" (الروم / ٣٩)، "الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُولُونَ إِلَّا كَمَا يَقُولُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِدَةً مِنْ رَبِّهِ فَأَسْهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرَهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأَوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَمْحُقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِبِّي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُ كُلَّ كُفَّارَ أَثِيمٍ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا يَقِيَ مِنَ الْرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأَذْنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ شُئْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أُمُوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلِمُونَ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةً فَنَظِرْهُ إِلَى مِيسَرَةٍ وَإِنْ تَصْدِقُوا خَيْرُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (البقرة/٢٨٠ - ٢٧٥)، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (آل عمران/١٣٠). ولم يكن عرب الجاهلية هم وحدهم الذين يرابون، بل هناك أيضاً اليهود أساتذة الriba وشياطينه، وقد هاجمهم القرآن المجيد مبيناً كيف أن الله عاقبهم عقاباً شديداً جرأة ذلك الاستغلال الإجرامي الفاسد في التعامل مع المحتاجين: "فَبَظَلَّمُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمَنَا عَلَيْهِمْ طَيَّبَاتٍ أَحْلَتْ لَهُمْ وَبَصَدَهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا * وَأَخْذَنَاهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هُوَا عَنْهُ وَأَكْلَهُمْ أُمُوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْدَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا" (النساء/١٦١ - ١٦٠).

وحيث حرمة الإسلام للriba لم يتسامح فيما كان لا يزال منه قائماً، بل رفض أن يأخذ المرابون أية فوائد على قروضهم رغم أنه غض البصر عنما سلف منه في الجاهلية قبل مجيهه. وفي تفسير الطبرى: "كانت ثقيف قد صالحت النبي صلى الله عليه وسلم على أن ما لهم من ربا على الناس وما كان للناس عليهم من ربا فهو موضوع (أى ملغى). فلما كان الفتح استعمل عتاب بن أسييد على مكة، وكانت بنو عمرو بن عمير بن عوف يأخذون الriba من بني المغيرة، وكانت بنو المغيرة يربون لهم في الجاهلية،

فجاء الإسلام ولم يعلم عليهم مال كثیر. فأتاهم بنو عمرو بطلبون ربأه، فأنبى بنو المغيرة أن يعطوهم في الإسلام، ورفعوا ذلك إلى عتاب بن أسيد، فكتب عتاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزلت: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ قَوْلُوا اللَّهُ وَذَرُوا مَا يَقْيِي مِنَ الرِّبَا إِنَّ كُنُسْ مُؤْمِنِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَإِذْنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ . . ."، فكتب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عتاب وقال: "إِنْ رَضُوا، وَإِلَّا فَأَذْهِمُ بِحَرْبٍ". وقال رسول الله في خطبته يوم الفتح: "الَا إِنَّ رِبَّا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضِعٌ كُلُّهُ، وَأَوْلَ رِبَّا أَبْدِئُ بِهِ رِبَّا الْعَبَاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ".

وكان الميسير، وهو القمار، من الآفات التي ابتلى بها عرب الجاهلية، وكانت يتقامرون على الأموال حتى ربما بقي المعمور فقيراً فتحدث من ذلك ضغائن وعداوات" كما يقول الشاعري. وقد أورد الطبرى عن ابن عباس: "كان الرجل في الجاهلية يخاطر (أى يقامر) على أهله وماله، فإنهما قصر صاحبه (أى غلبه في القمار) ذهب بأهله وماله". ومن هنا نستطيع أن نفهم تشديد التحريم له في قوله سبحانه: "حُرَمَتْ عَلَيْكُمُ الْيَتَمَةُ وَالدَّمْ ولَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْحَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمَرْدَدَةُ وَالْتَّطِيْجَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبَعُ إِلَّا مَا ذَكَرْتُمْ وَمَا ذَبَحَ عَلَيِ النُّصُبُ وَإِنْ تَسْقِسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ" (المائدة/ ٥)، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخِنْزِيرُ وَالْمِيسِيرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"

(المائدة/٩٠). وفي القمار يقول الطبرى إنهم "كانوا يسارون (أى يتقاترون) على الجَرْزُور (وهو الجمل أو الناقة المعدان للذبح)، وإذا أفلج الرجلُ منهم صاحبَه (أى كَسَبَه) نَحْرَه، ثم اقتسموا أعشاراً على عدد القِدَاح (السهام). وفي ذلك يقول أعشى بنى شلبة:

وجَرَرُ أَيْسَارٍ دَعَوْتُ إِلَى النَّسَدِي وَنِيَاطٍ مُقْرَفَةً أَخَافُ ضَلَالَهَا
ويزيد الزمخشري الأمير تفصيلاً فيقول: "كانت لهم عشرة أقداح، وهي الأزلام والأقلام: الفَذُ والتَّوَأمُ والرَّقِيبُ والجِلسُ والتَّافِسُ والمُسْبِلُ والمُعَلَّى والتَّبِيعُ والتَّفِيقُ والوَعْدُ. لكل واحد منها نصيب معلوم من جرَرُورٍ ينحرُونها ويجزئُونها عشرة أجزاء (وقيل: ثانية وعشرين)، إلا لثلاثة، وهي التَّبِيعُ والتَّفِيقُ والوَعْدُ. ولبعضهم:

لِيَ فِي الدُّنْيَا سَهَامٌ لِيَسْ فِيهِنَ رِبِيعٌ وأَسَامِيهِنَ وَغُدُّ وَسَفِيقٌ وَمَبِينٌ
للفَذِ سهم، وللتَّوَأمِ سهَمان، وللرَّقِيبِ ثلاثة، وللجِلسِ أربعة، للتَّافِسِ خمسة، وللمُسْبِلِ ستة، وللمُعَلَّى سبعة. يجعلونها في الربابة، وهي خريطه، ويضعونها على يَدَيِ عَدْلٍ، ثم يجلجلها (أى يحرّكها) ويدخل يده فُيخرج
باسم رَجُلٍ رَجُلٍ قِدْحًا منها. فمن خرج له قِدْحٌ من ذوات الانصباء أخذ
النصيب الموسوم به ذلك القِدْحُ. ومن خرج له قِدْحٌ ما لا نصيب له لم يأخذ
شيئًا وغَرَمَ ثُنَجَرَزُورَ كله. وكانوا يدفعون تلك الانصباء إلى القراء ولا
يأكلون منها، ويقتخرون بذلك ويذمرون من لم يدخل فيه، ويسمونه: البرَّم".

وفي الآيتين تحريم للأذلام أيضاً، وهي سهام ثلاثة متشابهة كانوا يضعونها في مكانة، ثم يحركونها حتى تختلط ولا يمكن تمييز أحدها عن الآخر، ثم يمد الكاهن يده فيسحب منها واحداً. فإذا كان هذا السهم مكتوباً عليه: "افعل"، فإن الشخص المستقسم يفعل ما كان ينوي أن يفعله، وإن خرج السهم المكتوب عليه: "لا تفعل"، فإنه لا يفعل ما كان يريد، أما إذا كان السهم غير مكتوب عليه شيء أعيد تحريك السهام وبدأت عملية الاستقسام من جديد. وقد استبدل الإسلام بهذه الطريقة الوثنية طريقة أخرى تربط الإنسان بربه، وهي "الاستخاراة". ونترك الإمام الطبرى يشرح الأمر بقلمه كما كتبه عند تأويله للآلية الخامسة من سورة "المائدة": "ذلك أن أهل الجاهلية كان أحدهم إذا أراد سفراً أو غزواً أو نحو ذلك أجال القدح، وهي الأذلام (أى هَزَ الكنانة بما فيها من سهام). وكانت قد أجا مكتوباً على بعضها: نهاني ربى، وعلى بعضها: أمرني ربى. فإن خرج القدح الذي هو مكتوب عليه: "أمرني ربى" مضى لما أراد من سفر أو غزو أو تزويج وغير ذلك. وإن خرج الذي عليه مكتوب: "نهاني ربى" كَفَ عن المضي لذلك وأنسك. فقيل: "وَأَنْ تُسْتَقْسِمُوا بِالْأَذْلَامِ" لأنهم بفعلهم ذلك كانوا كأنهم يسألون أذلامهم أن يقسمن لهم. ومنه قول الشاعر مقتخراً بترك الاستقسام بها: "ولم أقسم فتربيني القسم". وأما "الأذلام" فإن واحدها "زَلْمٌ"، ويقال "زَلْمٌ" وهي القدح التي وصفنا أمرها".

وهذه الأزلام كانت عند الكهنة، وكانوا هم الذين يقومون بعملية الاستقسام حسبما أورد الطبرى عن السدى.

ومن الملاحظ تكثير القرآن النهى عن التطفيف فى الكيل والميزان وتوعده بالعقاب الشديد من يصنع ذلك. وواضح أن العرب كانوا لا يراعون القسطاس المستقيم، وإلا لم يكن القرآن ليتحدث فى ذلك الموضوع ويكرر القول فيه: "وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ" (الأنعام / ١٥٢)، "وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْمُ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا" (الإسراء / ٣٥)، "وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ" (الرحمن / ٩)، "وَيُؤْلِلُ الْمُطَفَّفِينَ" * الذين إذا أكلوا على الناس يستوفون * وإذا كالوهُم أو وزنُوهُم يُخْسِرُونَ" (المطففين / ١ - ٣). وفي الطبرى: "عن عبد الله قال: قال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، إن أهل المدينة ليوفون الكيل. قال: وما يمنعهم من أن يوفوا الكيل، وقد قال الله: "وَيُؤْلِلُ الْمُطَفَّفِينَ" * . . . * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ"؟ . . . وعن ابن عباس قال: لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة كانوا من أخبت الناس كيلاً، فأنزل الله: "وَيُؤْلِلُ الْمُطَفَّفِينَ" ، فَأَحْسَنُوا الْكَيْلَ" .

إلا أننى لا أستطيع أن أفهم كيف تكون الآيات الأخيرة قد نزلت فى أهل المدينة، والsurah كلها، كما يقول الطبرى نفسه فى بداية تفسيره لها، سورة مكية! ثم إن أهل المدينة كانوا مشهورين بد茅ة الطبع ولم تعرف عنهم

شکاسة في الخلق والمعاملات التجارية كالذى كان مشهورا عن مكة وأهلها في الجاهلية، علاوة على أن القرآن إنما كرر النهى عن الفتن في المكاييل والموازين في المرحلة المكية، بخلافه في المرحلة المدينة، التي لم ينزل فيها شيء في ذلك. ولا يتعذر أن نغفل عن أن المكيين كانوا، في المقام الأول، تجارا لا زراغا كالبربيرين. بل إن الحديث عن شيع الغش في المعاملات التجارية في بعض الأسماء القديمة وتلادعها في الكيل والميزان، وهى أمة شعيب عليه السلام، إنما كان في "الأعراف" و"هود" و"الشعراء"، وهي مما نزل في مكة لا المدينة. أفترى القرآن إذن كان يستيقن الحوادث ويهاجم البربيرين قبل الميعاد؟ الذي أراه هو أن المقصودين بالكلام عن الكيل والميزان إنما هم المكيون قبل غيرهم، وإن كفت لا تستبعد سواهم من العرب من هذا الانحراف الخلقي. وبالمقابلة فإن الواحدى والسيوطى مثلا في كتابهما عن "أسباب النزول" يقولان نفس ما قاله الطبرى.

أما الطاهر بن عاشور في "تفسير التحرير والتنوير" فيورد اختلاف العلماء في مكية السورة أو مدinetها، لينتهي إلى أنها مما نزل بين مكة والمدينة. ثم أضاف قائلا: "وعن القرطبي: كان بالمدينة تجار يطفقون الكيل، وكانت بياعاتهم كسبت التمار واللامسة والمناملة والمخاصرة، فأنزل الله تعالى هذه الآية فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى

السوق وقرأها، وكانت عادة فشتُّ فيهم من زمن الشرك فلم يقطن بعض الذين أسلموا من أهل المدينة لما فيه من أكل مال الناس، فاريدَ إيقاظهم لذلك، فكانت مقدمة لإصلاح أحوال المسلمين في المدينة مع تشريع أحوال المشركين بمكة ويرثب بأنهم الذين سنوا التطفيف. وما أنسَبَ هذا المقصود بأن تكون نزلت بين مكة والمدينة لتطهير المدينة من فساد المعاملات التجارية قبل أن يدخل إليها النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِئلا يشهد فيها منكراً عاماً، فإن الكيل والوزن لا يخلو وقت عن التعامل بهما في الأسواق وفي المبادرات". ولكنني، رغم هذا، ما زلت أرى أن "المطففين" سورة مكية لأسلوبها ومواضيعها اللذين يشبهان أسلوب الوجه المكى ومواضيعه، وأقصى ما يمكن أن أفكُر فيه هو أن يكون الرسول قد قرأها على أهل شرب مهاجرَةً إليهم، فقد قلت إنني لا أستبعد أن يكون من العرب من كان يطيف في الكيل والميزان من غير أهل مكة، إلا أن المكين، في نظري، هم المقصودون أولاً وفي الأساس بهذه الآيات. آياً ما يمكن الأمر فقد كان الجاهليون يتلاعبون في مكاييلهم وموازينهم بما يأبه الخلق الشرف والذكاء التجارى الحصيف كما يصنع كثير من التجار في المجتمعات المختلفة مما لا ينحده في نظيراتها المتقدمة رغم أنها ربما لا تدين بدين سماوى، لكنه الحسن التجارى السليم والقانون اليقظ الحريص على سلامة

الحياة وراحة البال حتى ولو لم يكن الحفاظ على القيم الخلقية في حد ذاتها هو المراد !

وبالنسبة للأطعمة كان الجاهليون يحرّمون **البَحِيرَة** والبسائة والحمى، وفي ذات الوقت يأكلون **الميَّة**، سواء ماتت ميّة طبيعية أو كانت منخقة أو موقوذة (وهي المضروبة ضرباً شديداً حتى تموت)، وقد كان أهل الجahلية يفعلون ذلك فيضربون الأنعام بالخشب لآهاتهم حتى تموت ثم يأكلونها)، أو كانت متزدِّية أو منطوحة. وكانوا يقولون عن الميّة إن الله قتلها، فكيف تكون حراماً، ويكون ما قتله (أي ذبحه) البشر حلالاً؟ وكانوا يستغرون أن يعلن الرسول وأصحابه أنهم يتبعون أمر الله ثم يقولوا مع ذلك إن ما ذبحوه حلال، وما ذبحه الله حرام! كذلك كانوا يأكلون الدم وما أهل به لغير الله وما ذبح على النصب. وفي كلامنا عن الأمثال في العصر الجاهلي إشارة إلى أكلهم الدم. وفي الطبرى أنهم "كانوا إذا أراؤوا ذبح ما قربوه لآهتهم سَمُّوا اسم آهتهم التي قربوا ذلك لها وجَهَرُوا بذلك أصواتهم، فجرى ذلك من أمرهم على ذلك حتى قيل لكل ذبح يسمى أو لم يسمى جَهَرَ بالتسمية أو لم يجهَر: "مُهَلْ". فرفعهم أصواتهم بذلك هُوَ الإهلال الذي ذكره الله تعالى". كما يقول القرطبي إن ما أهل به لغير الله هو **ذِبْحَة المَجُوسِيِّ وَالْوَتَنِيِّ وَالْمَعْطَلِ**: فالوطني يذبح للوطن، والمجوسي للنار، والمعطل لا يعتقد شيئاً فيذبح لنفسه. و"النصب" هي الأوثان من

الحجارة، وكانت تجتمع في الموضع من الأرض، فكان المشركون يقربون لها، وليست بأصنام، لأن الصنم يصور ويتش، وهذه حجارة. فكانوا إذا ذبحوا نضحوا الدم على ما أقبل من البيت وشرحوا اللحم وجعلوه على الحجارة.

أما البحيرة والسبابة والوصيلة والحامى فكانت الناقة إذا ولدت أبطنا خمساً أو سبعاً شقعوا أذنها وقالوا: هذه بحيرة، وكان الرجل يأخذ بعض ماله فيقول: هذه سباة، وكانوا إذا ولدت الناقة الذكر أكله الذكور دون الإناث، وإذا ولدت ذكراً وأتى في بطنه قالوا: وصلت أخاهما، فلا يأكلوهما. فإذا مات الذكر أكله الذكور دون الإناث. وكان البعير إذا ولد وولد ولده قالوا: قد قضى هذا الذي عليه، فلم ينتفعوا بظهره وقالوا: هذا حام. وقيل أيضاً: كانوا إذا تجت (أي ولدت) الناقة خمسة أبطن إناثاً بحرث (شققت) أذنها فحرمت، وقيل إن الناقة إذا تجت خمسة أبطن، فإن كان الخامس ذكراً بجروا أذنه فأكله الرجال والنساء، وإن كان الخامس أنثى بجروا أذنها وكانت حراماً على النساء لحمها ولبنها. وقيل: إذا تجت الناقة خمسة أبطن من غير تقيد بالإناث شقعوا أذنها وحرموا ركوبها وذرها. والسبابة: الناقة تسيب، أو البعير تسيب نذراً على الرجل إن سلمه الله من مرض أو بلغه منزله فلا يحبس عن رعي ولا ماء ولا يركبه أحد. وقيل: هي التي تسيب لله فلا قيد عليها ولا راعي لها. وقيل: هي

التي تابعت بين عشر إيات ليس بينهن ذَكْر، فعند ذلك لا يُركب ظهرها ولا يُجَزِّ وَبَرْها ولا يُشَرِّب لبنها إلا ضيف. والوصيلة قيل: هي الناقة إذا ولدَتْ أُشَى بعد أُشَى، وقيل: هي الشاة، كانت إذا ولدَتْ أُشَى فهيا لحم، وإن ولدت ذَكْرًا فهو لآهتم، وإن ولدت ذَكْرًا وأُشَى قالوا: وصلت أخاها فلم يذجوا الذَّكَر لآهتم. وقيل: كانوا إذا ولدت الشاة سبعة أَبْطَن نظروا: فإن كان السابع ذَكْرًا ذَيْع فأكل منه الرجال والنساء، وإن كانت أُشَى تُرَكَتْ في الغنم، وإن كان ذَكْرًا وأُشَى قالوا: وصلت أخاها فلم يُذْبَح لـكَانَها، وكان لـهَا حراماً على النساء، إلا أن يموت فـيأكلها الرجال والنساء. والخامس: الفحل الحامي ظهره عن أن يُركب، وكانوا إذا رُكِبَ ولد الفحل قالوا: حُمِيَ ظهره فلا يُركب، فجاء الإسلام فحرَم هذا كلَّه. ومن الأخبار التي وردت عن ذبحهم لآهتم ما رُوِيَ عن ابن عباس من "أن بلا لاما أسلم ذهب إلى الأصنام فسلَّحَ عليها، وكان عبداً لعبد الله بن جُذُّاعان، فشكَّ إليه المشركون ما فعل، فوهبه لهم ومائة من الإبل يُنحرُونها لآهتم".

وكانت الخمر شائعة بين الجاهليين شيوعاً مستطيراً يعرفه كل من قرأ الشعر الجاهلي، ولقد أخذت هذه المسألة في أول الإسلام بعض الوقت إلى أن كفوا عن تعاطي أم الخباث ممثلين لأمر الله، وذلك بعد أن تدرج بهم القرآن مرحلة بعد مرحلة كما هو معروف من النصوص القرآنية حتى ألقعوا عنها إقلاعاً لم يحدث من قبل ولا من بعد في أي مجتمع أو حضارة بشرية!

والآن مع بعض النصوص القرآنية التي تتحدث في موضوع الطعام والشراب والحلال والحرام منها: "إِنَّمَا حَرَمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَبْحَمِ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ" (البقرة/١٧٣)، "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُرَدَّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَرْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى التُّصُّبِ" (المائدة/٣)، "مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةً وَلَا سَائِيَةً وَلَا وَصِيلَةً وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَسْرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقُلُونَ" (المائدة/١٠٣)، "قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ بَطْعَمَهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فِيهِ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ" (الأنعام/١٤٥)، "إِنَّمَا حَرَمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغِ ولا عَادٍ فِيَّ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ الْسِّنَنُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفَرُّوْنَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفَرُّونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ" (التحليل/١١٥ - ١١٦)، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَرْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (المائدة/٩٠). ولا أدرى أكان من العرب الوثنين من كان يأكل لحم الخنزير أم لا، لكن المؤكد أن النصارى كانوا وما زالوا يأكلونه رغم أنه حرام في شريعة موسى عليه السلام، التي أكد المسيح أنه إنما أتى لتكبيلها لانقضها، إلا أن بولس اليهودي ما إن دخل النصرانية حتى أشع فيها

الاضطراب وألغى كل ما جاءت به تلك الشريعة تقريباً، ومن بين ما ألغاه تحرير الحنizer.

ولأن المجتمع العربي في الجاهلية مجتمع رعوي في الأساس كان اللبن من أغذتهم الرئيسية. وكان من أطعمةهم أيضاً العسل، يحصلون عليه من النحل الذي يعيش في الجبال أو على غصون الأشجار. كما كانوا يطيبون شرابهم بالكافور والزنجبيل والمسك: "إِنَّ الْأَبْرَارَ يَسْرُونَ مِنْ كَأسٍ كَانَ مِزاجُهَا كَافُورًا" (الإنسان / ٥). وقد امتن الله عليهم بهذا كله: "وَلَئِنْ كُمْ فِي الْأَنْعَامِ لِعِبْرَةٍ سُقِّيْكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمْ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ" * ومن شرات التحليل والأعناب تتحذرون منه سكرًا ورزقاً حسناً إنَّ فِي ذَلِكَ لَايَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وأوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنَّ اتَّخِذِي مِنَ الْجَبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الْمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبْلَ رَبِّكِ ذَلِكَ لَايَةً لِقَوْمٍ يَتَغَرَّبُونَ" (النحل / ٦٦ - ٦٩)، "وَأَهْتَارِ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَعْيِرْ طُعْمَهُ وَأَهْتَارِ مِنْ خَمْرٍ لَذِّهٌ لِلشَّارِبِينَ وَأَهْتَارِ مِنْ عَسَلٍ مُصَفَّى" (محمد / ١٥)، "وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزاجُهَا زَنْجِبِيلًا" (الإنسان / ١٧)، "يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَحْتُومٍ" * خِتَامُهُ مِسْكٌ" (المطففين / ٢٥ - ٢٦).

وفي تفسير قوله تعالى على لسان الشيطان متحدثاً عن بنى آدم: "وَلَا ضِلَّنَّهُمْ وَلَا مُبَتَّنَهُمْ وَلَا مَرْئَتَهُمْ فَلَيَتَكُنْ آذانُ الْأَنْعَامِ، وَلَا مَرْئَتَهُمْ فَلَيَغِيَرُنَّ خَلْقَ

الله" (النساء / ١١٩) يقول الزمخشري: "شَيْكُوكُمْ (أي شَيْك عَرَبُ الْجَاهِلِيَّةِ)
الوَثَنِينَ) الْآذَانَ: فَعَلُّهُمْ بِالْبَحَاثَرِ. كَانُوا يَشْفَعُونَ أَذْنَ النَّاقَةِ إِذَا وَلَدَتْ خَمْسَةَ
أَبْطَنَ، وَجَاءَ الْخَامِسَ ذَكَرًا، وَحَرَّمُوا عَلَى أَنفُسِهِمِ الْاِتِّقَاعَ بِهَا. وَتَغْيِيرُهُمْ
خَلْقُ الله: فَقَوْءُ عَيْنِ الْحَامِيِّ وَاعْفَاؤُهُ مِنِ الرَّكُوبِ". وفي قوله سبحانه: "وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَّا مِنَ الْحَرَثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرْزَاعُهُمْ وَهَذَا
لِشَرِكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشَرِكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُّ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُّ إِلَى
شَرِكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ" (الأنعام / ١٣٦) نرى لو نـا آخر من اعتقاداتهم
الوثنية التي كان لها تأثير على أحكام الطعام عندهم، إذ كانوا يجعلون الله
سبحانه مما خلق من حرثهم وتاج دوابهم نصيباً، ولا لهم نصيباً من ذلك
يصرفونه على سدتها والقائمين بخدمتها. فإذا ذهب ما خصصوه لآلهتهم
عوّضوا عنه ما جعلوه لله، وقالوا: الله غني عن ذلك. قوله: "فَمَا كَان
لِشَرِكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُّ إِلَى اللَّهِ"، أي إلى المصارف التي شرع الله الصرف فيها
كالصدقة وصلة الرحم وقرى الضيف. ومعنى عبارة "وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ
يَصِلُّ إِلَى شَرِكَائِهِمْ"، أي يجعلونه لآلهتهم وينفقونه في مصالحها. وفي
"الكشاف" للزمخشري أنهم "كَانُوا يَعْتَنُونَ أَشْيَاءَ مِنْ حَرَثٍ وَتَاجٍ لِلَّهِ،
وَأَشْيَاءَ مِنْهَا لآلهَتِهِمْ، فَإِذَا رَأُوا مَا جَعَلَهُ اللَّهُ زَاكِيَّا يَزِيدُ فِي نِفَسِهِ خِيرًا
رَجَعُوا فَجَعَلُوهُ لآلهَتِهِمْ، وَإِذَا زَكَّا مَا جَعَلَهُ لآلاَصْنَامِ تَرَكُوهُ لَهُ وَاعْتَلُوا بِأَنَّ اللَّهَ
غَنِيٌّ. وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِحَبْهِمْ آلهَتِهِمْ وَإِيَّاهُمْ لَهُ". وفي قوله سبحانه: "فَلَا يَصِلُّ

إلى الله يقول: "أَيُّ لَا يَصْلُ إِلَى الْوِجْهِ الَّتِي كَانُوا يَصْرُفُونَهُ إِلَيْهِ مِنْ قِرَى
الضِيَافَةِ وَالْتَّصْدِقَ عَلَى الْمَسَاكِينِ"، أما قوله: "فَهُوَ يَصْلُ إِلَى شَرِكَائِهِ"
فمعناه أنهم ينفقونه على الأوثان "في ذبح النساء" عندها والإجراء على
سدتها ونحو ذلك". أو كانوا إذا ذبحوا ما جعلوه لله ذكروا عليه اسم
أنصافهم، وإذا ذبحوا ما لا أنصافهم لم يذكروا عليه اسم الله، وهذا معنى
آخر للآية الكريمة.

وفي الآيتين ١٣٨ - ١٣٩ من نفس السورة نقرأ قوله عز شأنه:
"وَقَالُوا هَذِهِ الْأَنْعَامُ وَحَرَثُ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءَ بِرَغْبَتِهِمْ وَأَنْعَامٌ
حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا اقْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيْجِرَتِهِمْ بِمَا
كَانُوا يَفْتَرُونَ*" وَقَالُوا مَا فِي بَطْنِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذِكْرِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى
أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيْجِرَتِهِمْ وَصَفْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ
عَلَيْهِمْ". وـ "الْحِجْرُ" هو التضيق، والمقصود أنهم يقتصرونها على طرف دون
آخر. ذلك أنهم كانوا إذا عينوا أشياء من حرشهم وأنعامهم لأهليهم قالوا: "لا
يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ"، يَعْنُونَ خَدَمَ الأَوْثَانِ وَالرَّجَالِ دون النِّسَاءِ. أما الأنعام
التي حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا فهي البهائم والسوائب والحواميم. ثم هناك الأنعام
التي لا يُذَكَّرُ اسم الله عليها في الذبح، وإنما يذكرون عليها أسماء الأنعام.
وقيل: لا يمحجون عليها ولا يلبسون على ظهورها. أي أنهم قسموا أنعامهم
فقالوا: هذه أنعام حِجْرٌ، وهذه أنعام محرمة الظهور، وهذه أنعام لا يُذَكَّرُ

عليها اسم الله. ليس ذلك فحسب، بل كانوا يقولون أيضاً: "ما في بطون هذه الأئم خالصة لذكروا ومحرم على أزواجاًنا، وإن يكن ميتةً فهم فيه شركاء". أى أن ما ولد من أجنة البهائم والسوابح حياً فهو خالص للذكور لا تأكل منه الإناث، وما ولد منها ميتاً اشترك فيه الذكور الإناث. وفي ذات السياق أيضاً ورد قوله سبحانه: "وَيَعْلَمُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ" (النحل/٥٦)، ومعناه أنهم كانوا يجعلون لأنفسهم التي لا علم لها (لأنها جماد، فهي لا تدرى ماذا يجعلون لها وماذا لا يجعلون) نصيباً مما رزقهم الله من الزروع والأئم يقربون بذلك إليها .

فإذا انتقلنا من موضوع الدين والعقيدة والحلال والحرام من الطعام إلى البيئة وجدنا تكراراً لذكر الجبال في آيات كثيرة من القرآن المجيد، وهذا أمر طبيعي، فالجزيرة العربية مملوقة بالجبال: "وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْعِدٍ كَالْجَبَالِ" (هود/٤٢)، "وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَرْوِلَ مِنْهُ الْجَبَالَ" (إبراهيم/٤٦)، "وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَيَّ التَّحْلُلَ أَنَّ اتَّخِذِي مِنَ الْجَبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ" (النحل/٦٨)، "وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجَبَالِ أَكْنَانًا" (النحل/٨١)، "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجَبَالِ فَقُلْ تَسْبِحُهَا رَبِّي نَسْفًا" (طه/١٠٥)، "وَمِنَ الْجَبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمُرٌ مُخْلِفٌ الْوَابِهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ" (فاطر/٢٧)، "أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجَبَالَ أَوْتَادًا" (النبا/٦-٧)، "وَالْجَبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلَا نَعِيمَكُمْ" (النازعات/

٣٢ - ٣٣). كما أشار القرآن، في آية مشهورة، إلى ظاهرة أخرى من ظواهر البيئة العربية هي ظاهرة السراب: "وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٌ يَقِيعَةٌ يَخْسِبُهُ الظُّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدُهُ شَيْئًا" (النور / ٣٩).

وعلى ذكر السراب فإن الماء شحيح في الجزيرة العربية، ومن هنا فكثيراً ما يعن الله على العرب بإنزاله من السماء ماءً محبي الأرض بعد موتها: "الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ نَبَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الْثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (البقرة / ٢٢)، "وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَنَا بِهِ بَيْتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجَنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبَّا مُرَاجِبًا" (الأعراف / ٩٩)، "وَيَنْزَلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذَهِّبَ عَنْكُمْ رُجُزَ الشَّيْطَانِ وَلِيُرِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُبَيِّنَ بِهِ الْأَقْدَامَ" (الأفال / ١١)، "إِنَّمَا تَرَأَنَ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ بَيْنَ أَيْمَانِكُمْ فِي الْأَرْضِ" (ال Zimmerman / ٢١)، "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَا تُؤْكِمُ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ" (الملك / ٣٠)، "وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمَعْصِرَاتِ مَاءً ثَعَابِيًّا * لِتُخْرِجَ بِهِ حَبَّا وَبَيْتاً * وَجَنَّاتِ الْفَافَا" (النبا / ١٤ - ١٦).

والإبل هي أيضاً من حيوانات الجزيرة العربية، وهي مما ورد ذكره في كتاب الله، بل هي الحيوان الوحيد الذي لفت القرآن نظر العرب إلى عجيبة الخلق فيه: "أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ *

وَإِلَى الْجَبَالِ كَيْنَ نُصِّبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُبْطَحَتْ" (الغاشية / ١٧ - ٢٠)، ومعروف أن الجمل هو سفينة الصحراء.

وبالنسبة للمساكن التي كان يقطنها العرب في الجاهلية فإن القرآن يشير إلى ضربين: البيوت العادية، وهي بيوت أهل الحضر، وكانوا أقل عدداً في بلاد العرب من أهل الصحراء آنذاك، ثم بيوت الوبير والشجر والمجد، وهي الخيم، التي لا يعرف سكان البوادي غيرها نظراً لنقلهم المستمر وراء الغيث والمرعى: "وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بَيْوَاتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُونَهَا يَوْمَ طَعَنْكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتُكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ" (النحل / ٨٠).

أما الحيوانات والطيور والطيور والزواحف والحيشات التي كانت تعيش في بلادهم أو يعرفونها ولو سمعاً فقد ذكر القرآن منها الخيل والبغال والحمير والجمال (أو الإبل) والبقر والماعز والضأن والفيل والسبع والأسد (الذى استخدم له القرآن كلمة "قَسْوَةً") والقردة والكلب والخفير والغراب والمدهد والسلوى والضفادع والحوت والخيبة والثعبان والجوارح والنحل والجراد والبعوضة والعنكبوت والذباب والنمل والقمل: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا يَعُوضَةً فَمَا فُوقَهَا" (البقرة / ٢٦)، "الْمَنْ وَالسَّلَوَى" (البقرة / ٥٧)، "وَالْأَعْرَافُ / ١٦٠، وَطَهُ / ٨٠)، "بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يُكَبِّرُ" (البقرة / ٦٨)، "بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لَوْهَا" (البقرة / ٦٩)، "إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ"

عَلَيْنَا" (البقرة/٧٠)، "وَأَنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ" (البقرة/٢٦٩)، "وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ" (المائدة/٣)، "وَمَا عَلِمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكْلِبِنَ تَعْلَمُوهُنَّ مِمَّا عَلِمْتُكُمُ اللَّهُ فَكَلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ" (المائدة/٤)، "فَبَعْثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيَرِهَ كَيْفَ يُوَارِي سَوَاءً أَخِيهَ قَالَ يَا وَلَّنَا أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابَ فَأَوَارِي سَوَاءً أَخِيَ فَأَصْبِحَ مِنَ التَّاهِدِينَ" (المائدة/٣١)، "قُلْ هَلْ أَبْشِكُمْ بِشَرٍ مِنْ ذَلِكَ مَسْوِيَّةٍ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَغَضِبِهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَافِرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ" (المائدة/٦٠)، "وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرِشَّا كَلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَبْعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ" شَاهِيَّة أَرْوَاجٍ مِنَ الضَّانِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ الذَّكَرُينَ حَرَمَ أَمِ الْأَسْيَئَنِ أَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأَسْيَئَنِ بَسُونِي يَعْلَمُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" وَمِنَ الْإِبْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ الذَّكَرُينَ حَرَمَ أَمِ الْأَسْيَئَنِ أَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأَسْيَئَنِ" (الأنعام/١٤٢ - ١٤٤)، "وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمَنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنِمِ حَرَمَنَا عَلَيْهِمْ شُحُومُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلْتُمْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَایَا أَوِ مَا اخْتَلَطَ بِعَظِيمٍ" (الأنعام/١٤٦)، "فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الْطَوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُملَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَآتِ مُفَضَّلَاتٍ" (الأعراف/١٣٣)، "فَسَيَّلَهُ كَمْثَلُ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهُثْ أَوْ تَرْكِهِ يَلْهُثْ" (الأعراف/١٧٦)، "وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُوهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ"

(الأفال / ٦٠)، "هَذِه نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ أَيَّهَا" (هود / ٦٤)، "يَا أَبَانَا إِنَا ذَهَبْنَا نَسْبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَنَاعِنَا فَأَكْلَكُهُ الذَّئْبُ" (يوسف / ١٧)، "وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُونَ سَبْعَ عَجَافٍ" (يوسف / ٤٣)، "وَالْخَيْلُ وَالْبَغَالُ وَالْحَمِيرُ لَرَبَّكُوهَا وَزَيْنَتُهَا وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ" (النحل / ٨)، "وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَيَّ النَّحْلَ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَرْشُونَ" (النحل / ٦٨)، "وَكَلَّبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ" (الكهف / ١٨)، "فَلَمَّا بَلَغُوا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَّا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذُوا سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرِّاً" (الكهف / ٦١)، "قَالَ هِيَ عَصَايِي أَتَوْكَأُ عَلَيْهَا وَأَهْسَنُ بَهَا عَلَى غَنَمِي وَلَيْ فِيهَا مَارِبٌ أُخْرَى" * قَالَ أَتَهَا يَا مُوسَى * فَالْقَاتَهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى" (طه / ١٨ - ٢٠)، "نَفَشَتْ فِيهِ غَنْمُ الْقَوْمِ" (الأنبياء / ٧٨)، "إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذِبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَلَنْ يَسْلُبُهُمُ الذِّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَقِدُهُ مِنْهُ" (الحج / ٧٣)، "فَالْقَنِي عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ شُبَانٌ مُبِينٌ" (الشعراء / ٣٢)، "حَسَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّهْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَخْطِمْنَكُمْ سُلَيْمَانٌ وَجَنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ" (النمل / ١٨)، "وَنَفَقَدَ الصَّيْرَ قَتَالَ مَا لِي لَا أَرَى الْهَدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ" (النمل / ٢٠)، "مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولَيَاءَ كَمَثَلُ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَلَانَ أَوْهَنَ الْبَيْوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ" (العنكبوت / ٤١)، "إِنْ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتِ الْحَمِيرِ" (لقمان / ١٩)، "فَالْقَمَمُ الْحُوتُ

وَهُوَ مُلِيمٌ" (الصافات/١٤٢)، "قَالَ لَقَدْ ظَلَمْتَنِي سُؤَالٌ نَعْجِنَكَ إِلَى نَعَاجِهِ" (ص/٢٤)، "مَثَلُ الَّذِينَ حَمَلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلُ الْجِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا" (الجمعة/٧)، "كَانُوكُمْ هُمُ الْمُسْتَفْرِهُونَ * فَرَأَتُ مِنْ قُسْوَرَةِ" (المدثر/٥١)، "أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ" (الغاشية/١٧)، "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ" (الفيل/١).

وأما الشمار والفاكه والنباتات والأشجار التي كان يعرفها العرب فقد ذكر القرآن منها التين والزيتون والأعناب والرمان والنخيل والبقل والعدس والبصل والقصاء والفوم (وهو الشوم أو المخططة) والقمح واليقطين (القرع) والخُمُط (الأراك) والأشيل (الطرفاء) والسدر والطلح والريحان والتضب والأب والضرع: "فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا ثَبَتَ الْأَرْضُ مِنْ بَقِيلِهَا وَقَثَائِهَا وَفُوْمِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِيلِهَا" (البقرة/٦١)، "وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَنَا بِهِ بَنَاتٍ كُلُّ شَيْءٍ فَأَخْرَجَنَا مِنْهُ خَضِرًا نَخْرُجُ مِنْهُ حَبًّا مُرَآكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَائِيَةٌ وَجَنَانٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرَّمَانُ مُشَبِّهًا وَغَيْرَ مُشَبِّهٍ اسْتَأْشَى إِنْظَرُوا إِلَى شَمَرٍ إِذَا ائْتَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لَقَوْمٌ يُؤْمِنُونَ" (الأعراف/٩٩)، "وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَانٌ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالرَّزْعَ مُخْلِقًا أَكْلَهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرَّمَانَ مُشَبِّهًا وَغَيْرَ مُشَبِّهٍ" (الأعراف/١٤١)، "وَسَبْعَ سُبْلَاتٍ خُضْرٌ وَأَخْرَى يَاسَاتٍ" (يوسف/٤٣)، "وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لَأَحَدِهِمَا جَنَشِينِ مِنْ أَعْنَابٍ

وَحَفَّتَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا" (الكهف / ٣٢)، "وَهُزِي إِلَيْكِ
بِجُذُعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكِ رُطْبًا جَنِيًّا" (مريم / ٢٥)، "وَلَا صَلَبَنَاكُمْ فِي
جُذُوعِ النَّخْلِ" (طه / ٧١)، "يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةِ مَبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ" (النور / ٣٥)
"وَبَدَّلَاهُمْ بِجَنَيْهِمْ جَنَيْنِ دَوَاتِي أَكْلٌ خَمْطٌ وَأَثْلٌ وَشَيْءٌ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ"
(سبأ / ١٦)، "وَأَبْيَنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِين" (الصافات / ١٤٦)، "وَزَرَّلَنَا
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مَبَارَكًا فَابْتَسَنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ" (ق / ٩)، وَالنَّخْلُ
بِاسْقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَصِيدٌ (١٠)، "فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ * وَالْحَبَّ
ذُو الْعَصْفِ وَالرِّيحَانُ" (الرحمن / ١١ - ١٢)، "فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمانٌ"
(الرحمن / ٦٨)، "فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْعٍ مَنْضُودٍ" (الواقعة / ٢٨ - ٢٩)
، "فَرَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ" (الواقعة / ٨٩)، "مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ
تَرَكْمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أَصْوْلِهَا فَيَا ذَنَّ اللَّهِ" (الحشر / ٥)، "فَلَيَنْظُرُ الْإِنْسَانُ إِلَى
طَعَامِهِ * أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبَبًا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًا * فَابْتَسَنَا فِيهَا
حَبَّا * وَعَنَّبَا وَقَضَبَا * وَزَيْتُونًا وَتَحْلًا * وَحَدَائقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةَ وَآبَا *
مَتَاعًا لَكُمْ وَلَا نَعِيمَكُمْ" (عبس / ٤ - ٣٢)، "لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ"
(الغاشية / ٦)، "وَالْتَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ" (التين / ١).

وتبقى المعادن والجواهر والملابس: "وَالقَنَاطِيرُ الْمُقْنَطَرَةُ مِنَ الذَّهَبِ
وَالْفِضَّةِ" (آل عمران / ١٤)، "فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِرَقْكُمْ (أي الفضة) هَذِهِ إِلَى
الْمَدِينَةِ" (الكهف / ١٩)، "لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ

فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلِبْسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْبِرِقٍ" (الكهف / ٣١)، "يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلَؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرَيرٌ" (الحج / ٢٣، وفاطر / ٣٣)، "وَاللَّهُ الْحَدِيدُ" (سبأ / ١٠)، "وَأَسْلَنَا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ" (سبأ / ١٢)، "وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبِيوْتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فَضْلِهِ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ" (الزخرف / ٣٣)، "فَلَوْلَا أَقِيَ عَلَيْهِ أَسْوَرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ" (الزخرف / ٥٣)، "لِبْسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْبِرِقٍ مُتَقَابِلَيْنَ" (الدخان / ٥٣)، "وَطَوْفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَائِنُوا لَوْلَوْ مَكَوْنُونَ" (الطور / ٢٤)، "يَخْرُجُ مِنْهُمَا الْلَّوْلُوُ وَالْمَرْجَانُ" (الرحمن / ٢٢)، "يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنَحَاسٌ فَلَا تَشَرِّكَانْ" (الرحمن / ٣٥)، "كَائِنَ إِلْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ" (الرحمن / ٥٨)، "وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعٌ لِلنَّاسِ" (الحديد / ٢٥)، "وَجَرَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرَيرًا" (الإنسان / ١٢)، "وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِأَيْمَانِهِ مِنْ فَضْلِهِ وَأَكْوَابٌ كَانَتْ قَوَارِيرَ" (الإنسان / ١٥).

وفي القرآن المجيد أيضاً ذِكر ملكة ويشرب والمدينة ولسان العرب، وقرיש ورحلتها إلى الشام واليمن، والكعبة وإبراهيم أبي العرب وابنه إسماعيل، وسقاية الحجيج وعمارة المسجد الحرام، وسيما وعاد وثود ومدين، وهود وصالح وشعيب، واليهود والنصارى والصابئين والمجوس، والشعراء والكتاب والنفاثات في العقد، والأشهر الحرم، وهي ذو

القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، وكانوا يتوقفون فيها عن القتال والأخذ بالثار ويجعلونها شهر هدنة، وإن كانوا أحياناً ما يستمرون فيه معوضين عنها بشهر آخر يتوقفون فيها عن المعارك، وهو ما يسمونه: "النسبي". كما كان الأخذ بالثار تقليداً جاهلياً راسخاً في أعماق النفس العربية، ولكن بالمقابل كانت مكة بما فيها الكعبة حراماً آمناً لا يجوز الأخذ بالثار فيه مهما كانت الأسباب والمعريات، ولذلك يقال: "البلد الحرام"، و"البيت الحرام"، و"المسجد الحرام". وقد كان هذا كلّه جزءاً من حياة العرب وجغرافيهم وتاريخهم وثقافتهم ودينهم: "ولَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلومًا فَقَدْ جَعَلَنَا لَوْلَيْهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ (بالأخذ بالثار) إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (باقتصاص الدولة من القاتل أو بأخذها الدية منه لأولياء القتيل حسبما يختارون)" (الإسراء / ٣٣)، "إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بِكَةَ (أى مكة) مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ" فيه آياتٌ بيّناتٌ مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً والله على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين" (آل عمران / ٩٦ - ٩٧)، "وَهُوَ الَّذِي كَفَ أَيْدِيهِمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيْكُمْ عَنْهُمْ بَنَطَنَ مَكَةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا" هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَوْكُمْ عَنِ المسجد الحرام والهداية معمورة أن يبلغ محله" (الفتح / ٢٤ - ٢٥)، "إِلَيْلَفِ قَرِيشٍ * إِلَيْلَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصِّيفِ" (قريش / ٢)، "جَعَلَ اللَّهُ

الْكَعْبَةُ الْبَيْتُ الْحَرَامُ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرُ الْحَرَامُ وَالْهَدْيُ وَالْقَلَادَذَ ذَلِكَ
لَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ" (المائدة/٩٧)، "وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ شَرِبٍ لَا مَقَامَ لَكُمْ
فَارْجُعُوهَا" (الأحزاب/١٣)، "وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا
مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصْلَى وَعَهَدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهَرَا بَيْتَيِ
اللَّطَافِيفِ وَالْعَاكِفَيْنِ وَالرُّكُعَ السُّجُودَ" * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّي اجْعَلْ هَذَا لَدَّا
آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الشَّرَاثَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ
فَأَمْتَعْهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرْهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَيَسِّرْ الْمَصِيرَ" * وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ
الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقْبَلْ مِنَاهُ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" * رَبَّنَا
وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمَنْ ذَرَّنَا أَمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرَنَا مَنَاسِكَنَا وَتَبَ عَلَيْنَا
إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ" * رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتَلوُ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ
وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُرَزِّكُهُمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (البقرة/١٢٥ - ١٢٩)
، "وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلْهَأً لِيَكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكمُ
الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ" (الحج/٧٨)، "أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامَ كَمْ أَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ" (التوبه/١٩)،
"وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحْبَاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ يَذْنُوبُكُمْ
بِلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يُغْفِرُ لَمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلَلَّهِ مُلْكُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا يَنْهَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ" (المائدة/١٨)، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمُنُوا لَا تَخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أُولَئِكَ بَعْضٌ وَمَنْ تَوَلَّهُمْ
 مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" (المائدة/ ٥١)، "إِنَّ الَّذِينَ
 آمُنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَآتَيْهِ الْآخِرَ وَعَمِلَ
 صَالِحًا فَلَا خُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" (المائدة/ ٦٩)، "إِنَّ الَّذِينَ آمُنُوا
 وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسُ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ
 بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ" (الحج/ ١٧)، "لَقَدْ كَانَ
 لِسَبَّا فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةً جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمالٍ" (سبأ/ ١٥)، "وَالَّتِي مَدَّنَ
 أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمَ اغْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثُوا فِي
 الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ" * فَكَذَّبُوهُ فَأَخْذَهُمُ الرَّجْفَةُ فَاصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ
 جَاثِمِينَ * وَعَادَا وَمُمْدَدٌ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَرَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ
 أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ" (العنكبوت/ ٣٦ - ٣٨)،
 "قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَّاكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَرْكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي
 أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ" * قَالَ يَا قَوْمَ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى
 بَيْتَهُ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ
 عَنْهُ إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تُوفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكِّلُ
 وَاللَّهُ أَكْبَرُ" * وَيَا قَوْمَ لَا يَجْرِيْنَكُمْ شِفَاقَيِّي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ
 نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِعَيْدٍ" (هود/ ٨٧ -
 ٨٩)، "وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ" (النَّحْل/ ١٠٣)، "وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ

الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * يُلْسَان
 عَرَبِيًّا مُبِينٌ" (الشعراء / ١٩٥ - ١٩٢)، "وَهَذَا كِتابٌ مُصَدَّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا"
 (الأحقاف / ١٢)، "وَمَا عَلِمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَتَبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ
 مُبِينٌ" (يس / ٦٩)، "وَالشِّعْرَاءُ يَتَبَعَّهُمُ الْغَاوُونَ" (الشعراء / ٢٢٤)، "فَذَكَرَ
 فَمَا أَنْتَ بِنَعْمَةِ رَبِّكِ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَرَصُّدُ بِهِ رَبُّ
 الْمَوْنَ" (الطور / ٢٩ - ٣٠)، "إِنَّهُ لَقُولُ رَسُولٌ كَرِيمٌ * وَمَا هُوَ بِقُولٍ شَاعِرٍ
 قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * شَرِيلٌ مِنْ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ" (الحاقة / ٤٣ - ٤٠)، "وَمَنْ شَرَّ النَّفَاثَاتِ فِي الْعُقَدِ" (الفلق / ٤)،
 "إِنَّ عِدَّةَ الشَّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ
 السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيْمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ
 أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ
 السُّقِينَ * إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيادةً فِي الْكُفُرِ يُضْلِلُ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِحُلُونَهُ عَامًا
 وَيَحْرُمُونَهُ عَامًا لِيُواطِلُوا عِدَّةً مَا حَرَمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءٌ
 أَعْمَالَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ" (التوبه / ٣٦ - ٣٧)، "إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنَّ
 أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنَّ أَكُونَ مِنَ
 الْمُسْلِمِينَ" (النَّمَل / ٩١)، "أَوَلَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا إِمَّا يُجْنِسَ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ
 شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا" (القصص / ٥٧)، "أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَا جَعَلْنَا حَرَمًا إِمَّا
 وَيُنْخَطِفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَيَنْعِمُهُمُ اللَّهُ يَكْفُرُونَ"

(العنكبوت/٦٧)، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرُ الْحَرَامُ وَلَا الْهُدُىٰ وَلَا الْقَلْبَادَةَ وَلَا أَمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامَ يَسْتَغْوِنُ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرَضُوا نَّا وَإِذَا حَلَّتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنٌ قَوْمٌ أَنْ صَدَوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا" (المائدة/٢)، "سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعِبَادِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكَاهُ حَوْلَهُ" (الإسراء/١).

كما أبرز القرآن في أكثر من موضع نسُك العرب الجاهليين بما تركه لهم الأجداد والآباء من عادات وتقالييد تمسكاً حديثاً: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ تَبَعُّ مَا قَاتَلَنَا عَلَيْهِ أَبَاءَنَا أَوْلُوكَانَ آباؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْدُونَ" (البقرة/١٧٠)، "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ أَبَاءَنَا أَوْلُوكَانَ آباؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْدُونَ" (المائدة/١٠٤)، "بَلْ قَالُوا إِنَا وَجَدْنَا أَبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ أُمَّارِهِمْ مُهَدُّدُونَ" (الزخرف/٢٢).

وبالإضافة إلى الكلام عن الوثنين نجد القرآن الكريم يتحدث عن عقائد اليهود والنصارى مبيناً أن كلاً من الطائفتين كانوا يرددون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن اليهود كانوا يقولون إنهم لن يعذبو يوم القيمة إلا أياماً معدودات، وأن منهم من كان يجعل عزيزاً ابن الله مثلما كان النصارى يقولون إن المسيح هو ابن الله، وإن كان الآخرون يثبتون الألوهية، ومنهم من كان يعبد مريم والمسيح مع الله. بل لقد اخذوا من أخبارهم ورهبانهم

أربابا من دون الله يتبعون ما أدخلوه لهم في الدين من عقائد وعبادات وشائع ما أنزل الله بها من سلطان. كما ذكر القرآن تحريف الفريقين لكتبهما، ونص على الأطعمة المحرمة على اليهود وما أضافوه إليها مما لم يحرمه سبحانه عليهم، وهو لحم الإبل، وأشار إلى عقيدتهم في النبوة وأنها مخصوصة طبقاً لدعواهم في بني إسرائيل، وزعمهم أن الله قد عهد إليهم لا يؤمنوا بأبي رسول إلا إذا أتاهم بقريان تنزل عليه من السماء نار تلتهمه، وأنه سبحانه لم يجعل عليهم في غير اليهود سبيلاً، ومن ثم كان من حقهم أن يسرقوهم ويختذلوا أماناتهم معهم دون خوف من عقاب الله، وادعائهم أنهم قتلوا المسيح وصلبوه: "وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قُلْ فَلِمَ يَعْذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّنْ خَلْقٍ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلَلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا يَنْهَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ" (المائدة/١٨)، "قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنَّ زَعْمَتُمْ أَنَّكُمْ أُولَئِكَ اللَّهُ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُلُّمَا صَادِقِينَ" (الجمعة/٦)، "ذَلِكَ بِآثَمِهِمْ (أي بني إسرائيل) قَالُوا لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَنَّا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ" (آل عمران/٢٤)، "وَقَالَتِي اليهودُ عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى إِنَّمَا يَسْمِيُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِهُونَ قَوْلَ الدِّينِ كَفَرُوا مِنْ قَبْلِ قَاتَلُهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحِ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أَمْرُوا إِلَّا يَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ

"عَمَّا يُشْرِكُونَ" (التوبه/ ٣٠ - ٣١)، "لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ السَّيْحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَآتَهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلَلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بِنَهَا يَخْلُقُ مَا شَاءَ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (المائدة/ ١٧)، "لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُو اللَّهَ رَبِّي وَرَبِّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَاوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ" * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لِيَمْسَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (المائدة/ ٧٢ - ٧٣)، "وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ أَتَخِذُونِي وَأَمِيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُلْتَ قَلْتَهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلُمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَامُ الْغُيُوبِ" (المائدة/ ١١٦)، "وَكَانَ مِنْهُمْ (أى من اليهود) لَفْرِيقًا يَلُوْنَ أَسْنَنَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسِبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ" * فَوْيِلُ الَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْرُوْبُوا بِهِ ثَمَّا قَلِيلًا فَوْيِلُ لَهُمْ مِمَّا كَبَتَ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلُ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ" (البقرة/ ٧٨ - ٧٩)، "مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكِلَمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ" (النساء/ ٤٦)، "فِيمَا يَقْضِيهِمْ (أى بنى إسرائيل) مِيثَاقُهُمْ لَعَنَاهُمْ وَجَعَلْنَا

قُلُوبُهُمْ قَاسِيَةٌ يَحْرَفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَتَسُوا حَظًا مِمَّا ذَكَرُوا بِهِ وَلَا
 تَرَالَ تَطْلُعُ عَلَى خَائِشَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قِيلَّا مِنْهُمْ فَاغْفُ عَنْهُمْ وَاصْفُحْ إِنَّ اللَّهَ
 يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَمَنِ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخْدَنَا مِيشَافَهُمْ فَنَسُوا حَظًا
 مِمَّا ذَكَرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُبَثِّهِمْ
 اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (المائدة/١٣ - ١٤)، "وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمَنَا كُلَّ
 ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقْرِ وَالْغَنَمِ حَرَمَنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلتُ ظُهُورُهُمَا
 أَوِ الْحُوَابِيَا أَوِ مَا اخْتَلَطَ بِعَظِيمِ ذَلِكَ جَزِئِنَا هُمْ بَعِيهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ" (الأتعام/
 ١٤٦)، "كُلُّ الطَّعَامَ كَانَ حَلَّا لِنِبِيِّ إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ
 مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التُّورَاهُ قَلْ فَاتَوْا بِالْتُّورَاهِ فَاتَّلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (آل
 عمران/٩٣)، "الَّذِينَ قَالُوا (أَنِّي الْيَهُودُ) إِنَّ اللَّهَ عَهْدُ إِلَيْنَا أَلَا نُؤْمِنُ لِرَسُولِ
 حَسَنِي يَا إِنِّي نَقْرِبُ إِنْ تَأْكِلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قِبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالذِّي
 قَلَّمْ فِلَمْ قَلَّمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (آل عمران/١٨٣)، "وَقَالَتْ طَافِهَةُ
 مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ (مِنْ يَهُودِ الْمَدِينَةِ) أَمِنُوا بِالَّذِي أَنْزَلَ عَلَى الَّذِينَ أَمِنُوا وَجْهَهُ
 النَّهَارَ وَأَكْفُرُوا أَخْرَهُ لِعَلَمِهِ يَرْجِعُونَ * وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ
 الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتِيَ أَحَدًا مِثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجِجُوكُمْ عِنْدَ رِبِّكُمْ قُلْ إِنَّ
 الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِ * يَحْصُسُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ
 وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ * وَمَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ يَقْتَنِطُ إِلَيْكَ
 وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَكَ لَا يُؤْدِي إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ

قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمَّيْنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ" (آل عمران / ٧٢ - ٧٥)، "وَقَوْلُهُمْ (أى اليهود) إِنَّا قَتَلْنَا مَسِيحًا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شَهَدَ لَهُمْ وَكَانَ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعُ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا* بَلْ رَفَعَ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا" (النساء / ١٥٧ - ١٥٨). ويقى المحسوس، وهناك آية قرآنية تتحدث عن التشبيه في الألوهية هذا نصها: "وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَحِذِّدُوا إِلَهَيْنِ أَنْتُمْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فِيَّا يَفِيَّا فَارْهَبُونِ" (النحل / ٥١)، وأقرب ما يمكن أن يفدي إلى الذهن هنا ثنوية فارس، إذ كانوا يعبدون إلهين: واحدا للنور، والآخر للظلمة. وأغلب الظن أنه كان هناك عرب يؤمنون بها تأثرا بالفرس.

الأنساب والأحلاف والديانات والمعارف والفنون والأيام والنيران والأسواق

أنساب العرب: اتفق علماء العرب القدماء على تقسيم العرب إلى نوعين: عربية ومستعربة، قائلين إن العاربة هم العرب الأوائل الذين فهموا الله اللغة العربية ابتداءً فتكلموا بها، فقيل لهم: عاربة، إما بمعنى الراسخة فيعروبية، وأما بمعنى المبدعة لها. وقد يقال لهم: العرب العرباء. وأما المستعربة فهم الذين دخلوا فيعروبية من بعد العجمة. ثم اختلف في من هم العرب العاربة ومن هم العرب المستعربة، فذهب بعضهم إلى أن العاربة هم عاد وثود وطسم وجديس وأيميس وعييل والعمالقة وعبد صنم وجروحهم وحضرموت وحضروراء وبني ثابر والسلف ومن في معناهم. والمستعربة هم بنو قحطان بن عابر وبنو إسماعيل عليه السلام لأن لغة عابر وإسماعيل عليه السلام كانت عجمية، فتعلم بنو قحطان العبرية من العاربة من كان في زمانهم، وتعلم بنو إسماعيل العبرية من جروحهم ومن بني قحطان حين نزلوا عليه وعلى أمه بمكة. وذهب آخرون إلى أن بني قحطان هم العاربة، وأن المستعربة هم بنو إسماعيل فقط. كذلك قسم المؤرخون أيضاً العرب إلى بائدة وغيرها: فالبائدة هم الذين بادروا ودرست آثارهم كعاد وثود وطسم وجديس وجروحهم الأولى. ويلحق بهم مدين، فإنهم من ورد القرآن بهلاكهم. وغير البائدة هم الباقيون في القرون المتأخرة بعد ذلك كجروحهم

الثانية وسيأيا وبني عدنان. ثم منهم من باد بعد ذلك كجُرْهُم، ومنهم من تأخر حتى الآن كبقايا سَيَا وبني عدنان.

وينقسم العرب إلى قبائل، والقبيلة هي عماد الحياة في البايدية، بها يختفي الأعرابي في الدفاع عن نفسه وعن ماله. والرابط الذي يربط شمال القبيلة ويجمع شأتها هو "النسب"، ويفسّر ذلك ارتباط أبناء القبيلة كلها بنسب واحد ودم واحد. ويرجع أهل الأنساب نسب كل قبيلة إلى جد أعلى، ثم يرجعون أجداد القبائل إلى أجدادٍ أقدم... وهكذا، حتى يصلوا إلى الجَدِين الآخرين: قحطان وعدنان. وقد حفظت الكتابات العربية الجنوبيّة أسماءً عدّد كبير من القبائل لم يُعرف أسماءً أكثرها أهل الأخبار، وهي تفيدنا فائدة كبيرة في الوقوف على تلك القبائل التي كانت قد هلكت أو اخللت واختلطت بالقبائل الأخرى. وتتألف القبيلة من بيوت يختلف عددها باختلاف حجم القبيلة واختلاف الموسم. والقبيلة هي الحكومة الوحيدة التي يفهمها الأعرابي، وما تقرره هذه الحكومة يطاع وينفذ، وبها يستطيع أن يأخذ حقه من المعدي عليه. وقد أطلق أهل الأنساب لفظة "القبيلة" على الحضر أيضاً: فقرיש قبيلة، والأوس قبيلة، والخرزج قبيلة، وثقيف قبيلة. ووطن القبيلة هو المضارب التي تنزلها والأماكن التي يمتد نفوذها إليها، فهو يتقلص ويتسع حسب نفوذ القبيلة. وتتألف القبيلة من عمارٍ، كما تتألف العمار من أقسامٍ أقل. ويقول علماء العرب إن هناك

تجمعات أكبر حجمًا من القبيلة أطلقوا عليها: "الشعوب"، ومثاها بنو قحطان وبنو عدنان، فكل منها شعب، وما دونهما قبائل. ولفظة "الشعب" من الألفاظ الواردة في نصوص الخط المسند، وهي فيها بمعنى "قبيلة"، وتُكتب: "شَعْنَ"، أي "الشعب"، لأن حرف النون في أواخر الأسماء أداة للتعريف في اللغات العربية الجنوبية. ويلي الشعب في اصطلاح أهل النسب: القبيلة، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ، ثم الفصيلة. فالشعب هو النسب الأبعد مثل عدنان وقحطان، والقبيلة مثل ربيعة ومضر، والعمارة مثل قريش وكناة، والبطن مثل بني عبد مناف وبني مخزوم، ومثل بني هاشم وبني أمية، والفصيلة مثل بني أبي طالب وبني العباس. وجعل "ابن الكلبي" مرتبة بين الفخذ والفصيلة هي مرتبة العشيرة، وهي رُهْط الرجل.

وتقسم النويري النظم القبلي عند العرب إلى عشر طبقات مبدئًا بـ"الجذم"، أي الأصل، وهو قحطان وعدنان، وهذه هي الطبقة الأولى. ثم الجماهير، وهي الطبقة الثانية. ثم الشعوب، وهي الطبقة الثالثة. ثم الطبقة الرابعة: القبيلة، وهي التي دون الشعب، وتجمع العماائر. ثم الطبقة الخامسة: العماائر، وهي التي دون القبائل، وتجمع البطون. ثم الطبقة السادسة: البطون، وهي التي تجمع الأفخاذ. ثم الطبقة السابعة: الأفخاذ، وهي أصغر من البطون، والفخذ تجمع العشاائر. ثم الطبقة الثامنة: العشاائر،

واحدها عشيرة، وهم الذين يتعاقلون إلى أربعة آباء . ثم الطبقة التاسعة: الفصائل، واحدتها فصيلة، وهم أهل بيت الرجل وخاصة . ثم الطبقة العاشرة: الرهط، وهم الرجل وأسرته . وأصغر وحدة من وحدات القبيلة هي الأسرة، أي "البيت" ، فهي نواة القبيلة، ومنها نبت شجرتها التي يختلف حجمها وعدد أغصانها وفروعها باختلاف منبئتها والظروف والعوامل التي أثرت في تكوينها . وقد اصطلاح علماء النسب على أن للعرب بعد قحطان وعدنان أربعة أركان: ربيعة ومضر وين وقضاوة . ولا يمكن أن يخرج نسب عربي أصيل عن أصل من هذه الأصول .

وأسماء القبائل عند العرب على خمسة أصناف: أولها أن يطلق على القبيلة لفظة "الأب" كعاد وثمود ومدين ومن شاكليهم . وبذلك ورد القرآن كقوله تعالى: "والى عاد" ، "والى ثمود" ، "والى مدين" ، يريد بنى عاد وبني ثمود . وأكثر ما يكون ذلك في الشعوب والقبائل العظام، لا سيما في الأزمان المقدمة، بخلاف البطون والأفخاذ ونحوهما . وثانيهما أن يطلق على القبيلة لفظ "بنو فلان" ، وأكثر ما يكون ذلك في البطون والأفخاذ والقبائل الصغار، وبخاصة في الأزمان المتأخرة . وثالثها أن ترد القبيلة بلفظ الجمع مع الألف واللام كالطالبيين والمعافرة ونحوهما، وأكثر ما يكون ذلك في المتأخرین دون غيرهم . ورابعها أن يعبر عنها بـ "آل فلان" كآل ربيعة وآل فضل وآل علي وما أشبه، وأكثر ما يكون ذلك في الأزمنة المتأخرة لا سيما

في عرب الشام في زماننا، والمراد بـ"الآل" الأهل. وخامسها أن يعبر عنها بـ"أولاد فلان"، ولا يوجد ذلك إلا في المتأخرین في أخذ العرب على قلة. وغالب أسماء العرب منقولة مما يخالفطونه ويحاورونه من الحيوان كـ"أسد ونمر"، أو من النبات كـ"نبت وحنظلة"، أو من الحشرات كـ"حية وحنش"، أو من أجزاء الأرض كـ"فهار وصخر" ونحوه. والغالب على العرب تسمية أبنائهم بمكروه الأسماء كـ"كلب وحنظلة وضرار وحرب"، وتسمية عبيدهم بمحبوب الأسماء كـ"فلاح ونجاح". ويحكى أنه قيل لواحد منهم: لم تسمون أبناءكم بـ"الاسماء نحو كلب وذئب"، وعبيدهم بأحسن الأسماء نحو "مزوق ورياح"؟ فكان جوابه: إنما نسمي أبناءنا لأعدائنا، وعبيدهنا لأنفسنا. يريد أن الأبناء معدة للأعداء فاختاروا لهم شر الأسماء، والعبيد معدة لأنفسهم فاختاروا لهم خير الأسماء. وكان العرب يعززون باتسابهم إلى اليمن، فكان من ينقلب على نفسه يتخذ لنفسه نسبة يماشا لأجل أن الملوك كانت في اليمن، مثل آل التعمان بن المنذر من لخم، وأل سليح من قضاة، وأل حرق، وأل العرنج، وهو جميراً الأكبر.

وكان هناك، إلى جانب النسب، نوع ارتباط آخر بين القبائل العربية هو الأحلاف، التي كانت حاجة الأعراب إليها أكثر وأشد من حاجة الحضر، إذ الغزو في البايدية ضرورة من ضرورات الحياة لفقرها وشحها ولبساط أرضها وعدم وجود حواجز طبيعية تعوق الغزو وتحمي المغزو.

منه، فاضطررت القبائل إلى اصطناع حماية طبيعية لها هي الأحلاف. وغاية الأحلاف حماية المال والنفس وكبح جماح المعتدين، وهذه هي الأحلاف الدفاعية. أما الأحلاف الهجومية التي تُعقد لتحقيق أغراض هجومية، مثل غزو حلفٍ حلفاً آخر، أو قبيلةٍ ضخمةٍ قبيلةٍ ضخمةٍ أخرى، فإنها لا تعمَّر طويلاً كما تعمَّر الأحلاف الدفاعية لأن أسباب انعقادها تزول بتنفيذ ما اتفق عليه. وقد يتحطم الحلف بسبب ظهور اختلاف في المصالح أو طروء مصالح لم تكن في حساب المتحالفين يوم عقدوا حلفهم، فيتصدع بنيان الحلف ويتهدم ليظهر محله حلف آخر .

أما الحضُّر، فإن لهم من حماية أرضهم ومن طبيعة الحياة التي يحيونها ما يخفف من حاجتهم إلى الحلف القبلي ويجعل أحلافهم طرازاً آخر، فقد منحتهم الطبيعة حجراً صلداً بناؤاً به أبراجاً وحصوناً ومعاقل حمئاً بها مساكنهم من طمع الطامعين، ولا سيما الأعراب الذين لا يسهل عليهم اقتحام الحصون ولا تهديها لعدم وجود أسلحة لديهم تؤثر فيها. كما أمدتهم بماء بناء مكنتهم من إنشاء الحيطان والأسوار حولها. وغاية ما فعله الحضُّر من الأحلاف هو تحالفهم مع من أحاط بهم من الأعراب لضمان عدم تحرشهم بهم أو لمنع الأعراب الآخرين من مثل هذا التحرش، وكذلك عقد معاهدات مع القبائل لمرور تجاراتهم من أرضها بأمن وسلم مقابل

هداياً أو أرباحاً أو أموال تدفع إلى ساداتها تأليفاً لقلوبهم وضماناً لعدم احتكاك أحد منهم بهم.

ومن أهم القبائل القحطانية التي كان لها شأن يذكر عند ظهور الإسلام حمير وكهلان. ومن مجموعة حمير: قضاعة في رأي من جعل قضاعة من اليمن. ومن قضاعة: كلب وأسد، ومن أسد: توش. وأما مجموعة كهلان فتتألف من الأزد وهمدان ومذحج وطئ، ومن الأزد: غسان والأوس والخزرج وربيعة من القبائل العربية الكبيرة المدد. وقد عُرِفت "ربيعة" بـ"ربيعة الفرس". وإنما قيل له: "ربيعة الفرس" لأنه (كما جاء عند القدماء) أُعطيَ من ميراث أبيه الخيل، وأُعطيَ أخوه مضر الذهب فسمى: "مضر الحمراء". وأُعطيَ أنمار أخوها الفنم فسمى: "أنمار الشاة". وذكر أيضاً أن نزاراً لما حضرته الوفاة آثر إيماداً بولاية الكعبة، وأعطى مضر ناقة حمراء، فسمى: "مضر الحمراء"، وأعطى ربيعة فرسه، فسموا: "ربيعة الفرس"، وأعطى أنمار جارية له تسمى: "بيحيلة" فحضرت بنيه، فسمى: "بيحيلة أنمار". ومن أشهر قبائل مضر: قرش، حتى إن الناس كانوا إذا قالوا: "مضري" انصرف ذهنهم إلى معنى "قرشي" لاشتهر قرش بالمضدية.

ولقد أطلق على بعض القبائل ألقاب فقيل: كندة الملوك، ومذحج الطعان، وهمدان أحلاس الخيل، والأزد أسد البأس. وبعض هذه الألقاب

القاب حسنة جميلة، وبعضاها ألقاب تشير إلى قوة وشدة، وبعضاها لا غضاضة فيه. وهي ألقاب كانت القبائل المسنّة بها تتخذها مفخراً وسبيلاً إلى المباهاة، أو على الأقل لا ترى بها بأساً. غير أن هناك ألقاباً أخرى تشير إلى استصغر شأن القبيلة التي نُعت بها، مثل "القين" والأجرب" و"الأقارع" و"قراد" وما شاكل ذلك، ولم تر الأجيال التالية عاراً في مثل تلك الألقاب. واشتهرت حتى بالجود لموقع حاتم وأوس بن حارثة منها. وعرفت باهلهة باللؤم، حتى ضرب بها المثل فقيل: "لؤم باهلهة". واشتهر بنو ثعل بالرمي. واكتسبت مدح شهرة واسعة في القيافة، إذ اختصت بها من بين سائر العرب. وبرز بنو لهب في العيافة، فهم أزجر العرب وأغيفهم. وعرفت إياد بخطبائها، وملوك غسان بثردهم فقيل: "ثريدة غسان". وعرفت كندة بغلاء مهور بنائهم. وعرفت "خزانة" بالجوع والأحاديث، أي أنهم يجمعون بين الفقر والدعوى المفargaة.

وفي كتب التراث تقرأ كلاماً كثيراً في هذا الموضوع: ففي "الاشتقاق" مثلاً ابن دُرِيدَ أن بنى لهب أَغَيْفَ العرب وأَزْجَرُهم للطير. وفي "عيون الأخبار" لابن قَيْمَة أن كثيرون عزّة الشاعر الأموي المعروف احتاج ذات مرة أن يستعين بأحد من العادة فدلّ على بنى لهب، وكانت عيافتهم له دقيقة حسبما ورد في الخبر، فقال في ذلك:

تَيَسَّرَتْ لَهُمَا أَبْغَى الْعِلْمَ عِنْدَهُمْ وَقَدْ رُدَّ عِلْمُ الْعَائِنِينَ إِلَى لَهَبِ

ومن الشواهد المبداولة في باب "المبدأ والخبر" من كتب النحو
البيت التالي، وينسب لرجل من طنطورة:

خبير بقوله بِهِ فلأتكَ مُلْعِيَا مقالة لِهِيَ إذا الطيرُ مَرَّتِ
وفي "البيان والتبيين" يقول الماحظ في التقدم لبيت شعر يمدح فيه
صاحب خطيباً إياهياً من الخوارج الأزارقة: "وقد ذكر الشاعر زيد بن
جندب الإيادي الخطيب الأزرقي في مرضه لأبي دواد بن حريز الإيادي
حيث ذكره بالخطابة وضرب المثل بخطباء إياد فقال:

كَسِ إِيادٌ أَوْ لَقِيطٌ بْنُ مَعْبُدٍ وَغُذْرَةٌ وَالْمُطَبِّقُ زَيْدُ بْنُ جَنْدَبٍ
وفي "البيان والتبيين" أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا
تعالوا بالنساء فإنما هن سُقِيَا اللَّهُ . . . (وعن) مُجَاهِدٌ عن الشعبي: قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم أذهب ملك غسان، وضع مهور
كِنْدَةً". وفي كتاب "البخلاء" يتعجب بطل إحدى القصص من براعة قوم
في الاستدلال على الحقائق الغائبة من بعض الشواهد التي لا تلفت نظر
الآخرين فيقول: "هذه والله القيافة، ولا قيافة بني مُدليج". وفيه أيضاً:
"قيل لرجل من العرب: قد نزلت بجميع القبائل، فكيف رأيت خزانة؟
قال: جوع وأحاديث". وفي "العقد الفريد": "ومن بني شعل عمرو بن
المُسْبِطِ . كان أرمي العرب، وإنما يعني أمرؤ القيس يقوله:
رَبَّ رَامَ مَنْ بَنَى شَعْلَ خَرَجَ كَبِهَ مِنْ قَرْبِهِ

وأدرك النبي عليه الصلاة والسلام وهو ابن خمس ومائة سنة فَاسْلَمْ". ويقول المرادي صاحب "سِلْكُ الدُّرْرِ" في أعيان القرن الثاني عشر "إن بني شعل قبيلة من العرب رماة يُضرب بهم المثل لجودة رميهم". وفي "الوافي بالوفيات" للصفدي: "وكانت العرب تستنكف من الاتساب

إلى باهله حتى قال الشاعر:

إذا كانت النفس من باهله
وما ينفع الأصل مبن هاشم
وقال الآخر:

ولو قيل للكلب: يا باهله عَوَى الكلب من لقم هذا النسب
وقيل لأبي عبيدة: يقال إن الأصمي دُعِيَ في النسب إلى باهله.
قال: هذا ما يمكن. فقيل: ولم؟ قال: لأن الناس إذا كانوا من باهله تبرؤا
منها، فكيف يجيء من لا هو منها فينسب إليها؟". وفي "ثار القلوب
في المضاف والمنسوب" لأبي منصور الثعالبي وتحت عنوان "لقم باهله"
قرأ: "ولم تزل العرب تصف باهله باللقم في الجاهلية والإسلام، ثم خفِيت
مِنْهُمْ تلك الصفة، وشَرَفَتْ بقُتيبة بن مُسْلِمٍ وبنيه حتى قال القائل:

إذا ما قريش خلامُكُمَا فَبَانَ الْخِلَافَةَ فِي باهله
وَمَا يُحَكِّي مِنْ لقم باهله أنه قيل لأعرابي: أيسرك أن لك مئة ألف
درهم وأنت باهلي؟ قال: لا والله. فقيل: أفيسرك أن لك حمرَ البعم
وأنك منها؟ قال: اللهم لا. قيل: أفيسرك أنك في الجنة وأنت باهلي؟ قال:
نعم، ولكن بشريطة لا يعلم أهلها أنني منها". وتحت عنوان "فيما يضاف

وينسب إلى القبائل" من ذات الكتاب نجد قائمة الألقاب القبلية التالية: "إيلاف قريش، تيه بني مخزوم، جود طيء، لؤم باهلة، رُمَّة بني شعل، قيافة بني مدح، عيافة بني طب، خطباء إيداد، ثريدة غسان، مهور كندة، حرة بني سليم". وفي "العقد الفريد" لابن عبد ربه: "سأل زِيَاد دَغْفَلًا (النسابة) عن العرب، فقال: الجاهلية لليمن، والإسلام لمُضْر، والقبيحة بينهما لربيعة. قال: فأخبرني عن مُضْر. قال: فاخر بكتانة، وكاثر بميم، وحارب بقيس، فيها الفرسان والأنجاد، وأما أسد فيها دل وكبير. وسأل معاوية بن أبي سفيان دَغْفَلًا فقال له: ما تقول في بني عامر بن صعصعة؟ قال: أغناق طباء، وأعجاز نساء. قال: فما تقول في بني أسد؟ قال: عافة قافلة، فصحاء كافة، قال: فما تقول في بني تميم؟ قال: حجر أخشى إن صادفته آذاك، وإن تركته أعفاك. قال: فما تقول في خزانة؟ قال: جمع وأحاديث؟ قال: فما تقول في اليمن؟ قال: شدة وإباء". ويقول ابن حدون صاحب "الذكرة الحمدونية": "كان ملوك غسان يوصفون بالترفة والنعمـة، فيقال: ثريدة غسان، كما يقال: فالوذ ابن جدعـان، ومضـيرة أبي سفيان" . . . الخ.

ولكل قبيلة جد تسمى إليه وتباهي به. وقد يكون هذا الجد جداً حقيقياً، أي إنساناً عاش ومات وساد القبيلة وترك أثراً كبيراً فيها حتى نسبت القبيلة إليه. وقد يكون الجد اسم حلف تكون وتائف من قبائل

عديدة حتى عُرِفتْ به وصار كأنه اسم جدها . ومن هذا القبيل اسم "شوش" على حد زعم أهل الأخبار، فقد رَوَوا أن تتوخ قبائل عديدة اجتمعت وتحالفت وأقامت في مواضعها . وقد يكون الجدّ اسم موضع أقامت القبيلة به فشُيّبت إليه كما يقول أهل الأخبار عن اسم "غسان" . وقد يكون اسم إله نِسِيب عباده إليه مثل "بنو سعد العشيرة" ، و"تالب ريام" جد قبيلة "همدان" . وقد يكون اسم حيوان أو نبات أو ما إلى ذلك مما يدخل في دراسة أصول الأسماء ومصادرها واصنافاتها .

ولا تقىيم المصالح السياسية للقبائل وزناً للأخوة والنسب، فإذا اختلفت المصلحة لم تجده القبائل عندئذ أية غضاضة في الانفصال عن قبيلة مواخيبة لها لتحالف مع قبيلة أخرى ضدها . فـ"عَبَّس" مثلاً تحالفت مع "بني عامر" في حرب البسوس على "ذبيان" ، وهي أختها . وتحالفت "ذبيان" مع "تميم" على "عَبَّس" مع ما بين "تميم" وبين "عَبَّس" و"ذبيان" من عداء قديم . ووقعت حروب بين "تعلب" و"بكر" مع صلة الرحم والقرابة القوية التي كانت تربط بين القبيلتين الأخرين . ولكل قبيلة أرض تعيش عليها وتنزل بها وتعدها ملكاً لها تنشر بها بطنونها وعشائرها، ولا تسمح لغريب بالنزول فيها والمرور بها إلا بموافقتها ورضاهما . وقد اختص كل بطن منها بناحيته فانفرد بها وعددها أرضه . وتمتد أرض القبيلة إلى الموضع التي تصل بيوتها إليها، وتعين الحدود بـ"تل" أو وادٍ أو ما شاكل ذلك . ونظراً إلى

عدم تثبيت القبائل أحياناً لحدودها على الأرض برسم معالم بارزة لها صارت الحدود سبباً من أسباب النزاع المستمر والقتال الدائم بينها.

وتعُد مواقع الماء في أرض القبيلة بمثابة قِبْلَة لِأَبْنَائِهَا، يسكنون منها ما يحتاجون إليه من "إكسير الحياة". ولكل قبيلة حق حماية أرضها، شأنها في ذلك شأن الدول. وإذا أراد غريب اجتياز أرضها فلا بد أن يكون في حماية أحد أفرادها. وإذا كان المجتاز جماعة، كأن يكون قافلة أو قبيلة أو حيّا يريد التنقل إلى أرض أخرى عبر تلك الأرض، فعليهأخذ إذن من القبيلة يخوله المرور بها، وإلا تعرض للمنع والقتال. لذا كان لا بد للتجار من ترضية شيوخ القبائل للسماح لهم بالمرور بدفع إتاوات تعارف القبائل آذاك على أخذها من العابرين.

وسيد القبيلة بالنسبة للقبيلة مثل الملك بالنسبة لملكته، فهو الرئيس والمراجع والمسؤول عن أتباعه في السلم وال الحرب، يقصده ذوو الحاجات من أبناء القبيلة إن احتاجوا إلى حاجة. وقد يجمع هذا الرئيس شمل جملة قبائل، وقد ينصب نفسه ملكاً عليها، كالذي فعله ملوك كندة من بني آكل المُرَّار وغيرهم من الملوك. وربما لا نخطئ إذا ما قلنا إن أكثر مؤسسي الأسر المالكة في بلاد العرب كانوا سادات قبائل في الأصل، استغلوا مواهبيهم وأمكانيات قبائلهم وسخرواها في سبيل الحصول على الملك فنانوه. وعلى من يسود قومه أن يتحلى بخلال حميدة وسجحايا طيبة تجعل الناس يعترفون

بسيادته عليهم: كأن يتحمل أذى قومه، وأن يكون شريفاً في أفعاله حليماً كريماً يتجاهل السفهاء فلا يغضب ولا يثور، وأن يكظم غيظه ومحترم الآخرين مهما تكن منازلهم، وأن يؤلف بينهم ويكتسب محبتهم، وأن يكون ملادهم في أوقات الحاجة، وأن يفتح بيته وقلبه للجميع فنكرم كل من يفد إليه من كبير أو صغير. وعلى الرئيس أيضاً أن يكون في مقدمة القوم في الحروب والغزو، وأن يكون شجاعاً لا يهاب الموت، وأن يكون واضح خطط الحرب. والرئيس هو روح القبيلة وشعارها، فإذا أصيب بمكروه أو جُنِّ في القتال أو خرَّ صریعاً في المعركة هربت قبيلته وتراجعت الفهري، إلا إذا وُجد في القبيلة من ينوجج فيها نار الحماسة ويُثْ فيها العزيمة للوقوف والصمود.

ومن واجب الرئيس الإشراف على توزيع الغنائم، ومن حقه المِرْبَاع إن كان من ذوي المِرْبَاع. وعليه أن ينفق من جيشه على الضيف، وأن يفتح بيته للقادمين إليه ويستقبلهم بوجه فرح بشوش، وأن يرعى شؤون قبيلته ويسأل عن أبنائها، وأن يسعى لفك من يقع من أبناء عشيرته أسيراً في أيدي قبيلة أخرى، وأن يشارك قومه في تحمل الدييات حين يعجز رجال القبيلة عن حملها، وأن يعين أتباعه في كل جنائية يجنونها. ومن هنا جاء قوله: "سَيِّدُ مَعْمَمٍ"، يريدون أن كل جنائية يجنونها أحد من عشيرته معصوبة برأسه. ومن أعراف الحكم عند القبائل أن يشاور سيد القبيلة أشراف قبيلته ووجوهاً

في الأمور الهامة ليس تير برأيه. ومن شأن هذه المشورة أن تساعد سادات القبائل مساعدة كبيرة في التمكّن من إدارة أمور القبيلة إدارة حسنة ترضي الغالبية، وقد توصل الرئيس إلى النجاح والنصر في الغزو فيرتفع اسمه ويلو نجمه. ورأى أشراف القبيلة هو مجرد مشورة لا تلزم سيد القبيلة العمل بمحبّتها، فقد يتبذل ويغسل برأيه، لا سيما إذا كان متجرّاً عنيداً. وقد يكون النجاح حليفه فتزداد هيبيته بين أتباعه، وقد يُمنى بخسارة فادحة فتفضي عليه وعلى رئاسته، وربما قبضت على حياته أيضاً. والنظام القبلي هو نظام استشاري، الرأي فيه لأصحاب الرأي فقط، أما الأفراد العاديون فلا رأي لهم في تسيير الأمور، إلا إذا برع أحدهم وظهر في قبيلته بمواهب يُعرَف بها كالحكمة والشرف، فعنده قد يدخل في عداد أولي الرأي.

والنسبة عند العربي هو جرثومة العصبية وأساسها، ولهذا كان يحرص على حفظ شجرة نسبه ويرفعها إلى جملة طويلة من الأجداد. وقد وجد السائحون أعراباً سبّدوا لهم نسبهم سرداً من غير كتاب مكتوب إلى عشرات من الأجداد، وتأكدوا بعد فحوص واختبارات أن ما سرد عليهم كان صحيحاً في الغالب. ونفس الشيء مع أهل المدر، فهم يحرصون أيضاً على حفظ نسبهم، وإن لم يكن كحرص أهل الوير. وقد عثر الآثاريون على نقوش جاهلية ذكرت أسماء جملة أجداد لكتابتها، وهو ما يثبت عنابة العرب في الجاهلية بتدوين أنسابهم وحفظها. وقد يستلحق إنسان شخصاً

ما، أى يُلحقه بنسبه ويجعله في حمایته وعصبيته. وقد يكون الشخص المستلحق صریحاً معروض النسب، وقد يكون أسيراً أو مولى أو عبداً، فيسميه المستلحق: "مولاه" وينسبه إلى نفسه. ويقال للمستلحق: "الدَّعِيَّ"، ومثله المتبَّنى، وهو الذي تبناءه رجل ودعاه: "ابنه". وحكم الدعي عند الجاهليين هو حكم النسب الصحيح والبنوة الشرعية. لذلك كان الجاهليون يورثونه كما يورثون الأبناء.

ولا "الجوار" صلة كبيرة بالنسب والعصبية عند العرب، فقد يتوثق الجوار وتقوى أواصره فيصير نسباً، وعندئذ يدخل نسب "المستجير" في نسب "الجحير" ويصيران نسباً واحداً هو نسب هذا الأخير. وقد اندمجت بـ"الجوار" أنساب كثيرة من القبائل الصغيرة أو القبائل التي تشعر بخوف من قبيلة أخرى أكبر منها فتضطر إلى طلب "جوار" قبيلة أكبر منها تدافع عنها وتحمي حياتها وما لها. فإذا استجار شخص بأخر أو استجارت قبيلة بأخرى اكتسب هذا الجواز صبغة قانونية، ووجب على الجحير الحافظة على حق الجوار، وإلا نزلت المسبة به وازدراء الناس.

أحلافهم: وكان للأحلاف شأن خطير في حياة الجاهليين، وتلخص في أن يتحالف كل طرف للآخر على العاوض والاتفاق، وكانوا ينظرون إليها على أن لها قداسة خاصة وحرمة، ويعاملون الحانث بمعينه بأشد أنواع التحقيق والازدراء. وتكون بين المتحالفين مواثيق على الوفاء بالالتزامات

التي نُصَّ عليها، ويتم إعلان الحلف ليكون معلوماً بين الناس. وقد تُعقد الأحلاف لأغراض معينة فتكون لها آجال محددة، كأن تسعى قبيلة لعقد حلف مع قبيلة أخرى لمساعدتها في صد غزو أو في غزو قبيلة أخرى أو في الأخذ بثأرها منها. ومثل هذه الأحلاف لا تعمَّر طويلاً، إذ ينتهي أجلها باتهاء الغاية التي من أجلها عُقد الحلف. ولم يكن تفكير العرب ليتجاوز، عند عقدهم هذه الأحلاف، مصالح العشائر أو القبائل الخاصة، ولم تكن موجهة للدفاع عن بلاد العرب جميعاً أمام عدو خارجي.

وتعقد الأحلاف على النار، وهذه النار تسمى: "نار التحالف".
 ذلك أنهم كانوا إذا عقدوا حلفاً أوقدوا ناراً ودعوا بالحرمان من خيرها على من ينقض العهد. وقد أشار إلى هذه النار "أوس بن حجر"، إذ قال:
 إذا استقبله الشمس صدْ بوجهه كما صدَّ عن نار المهول حافٌ
 كما أشار إليها الكمي:

هُمو خوفني بالعمر هُوة الردى كما شب نار الحالفين المهوَّل
 ولا تُعرف صيغة واحدة معينة للقسم الذي يُقسِّم به المحالفون:
 فمنهم من كانوا يقفون عند الأصنام التي يعبدونها ويقسمون بها. ومنهم،
 وهم أغلب أهل مكة، من كانوا يحلفون عند ركن الكعبة فيضع المحالفون
 أيديهم عليه فيحلفون. ومنهم من كان يقسم بالأباء والاجداد لما لهم من
 مكانة في نفوسهم. ومنهم من كان يحلف عند المشاهد العظيمة أو عند
 قبور سادات القبائل، فيحلفون بصاحب القبر ويدركون اسمه على ما

يتحالفون عليه. وفي كتب أهل الأخبار والأدب أسماء قبائل يظهر أنها كانت أسماء أحلاف عقدت في مراسيم خاصة، مثل الرباب والخاش وما شاكل ذلك من أسماء. وكان من عادتهم أن يُحضرُوا في جفنة طيباً أو دماً أو رماداً، فيدخلون فيه أيديهم عند التحالف ليتم عقدهم عليه باشتراكهم في شيء واحد، وقد يختلفون بالملحق وبالماء.

وتدعى الأحلاف أحياناً لتوكيدها ثم تحفظ عند المعاقدين، وقد تُدعى في المعابد كالذي ورد من تحالف ذبيان وعبس وتدوينهم ما تحالفوا عليه في كتاب أقسموا على اتباع ما كتب فيه. وفي شعر زهير بن أبي سلمى يطالعنا قوله:

الْأَيْلَنْجُ الْأَحْلَافُ عَنِ الرِّسَالَةِ وَذِيَّانٌ: هَلْ أَقْسَمُوكُلَّ مُقْسِمٍ؟
 كَمَا نَقْرَأُ فِي شِعْرِ الْحَارِثِ بْنِ حِلْزَةِ الْيَشْكُرِيِّ الْبَيْتَيْنِ التَّالِيَيْنِ:
 وَذَكَرُوا حَلْفَ ذِي الْمَحَازِ وَمَا قَدَّمَ فِيهِ الْمَهْوُدُ وَالْكَفَّلَاءُ
 حَذَرَ الْجُورُ وَالْعَدَى، وَهَلْ لَيْهُمْ قَضَى مَا فِي الْمَهَارَقِ الْأَهْمَاءُ؟
 إِشَارَةً إِلَى الْمَهْوُدِ وَالرَّهَائِنِ الَّتِي أَخِذَتْ مِنْ بَنِي تَغلِبٍ وَبَنِي بَكْرٍ لِلْوَفَاءِ
 بِمَا تَعاهدوْا عَلَيْهِ وَدَوْتُوهُمْ مِنْ شُرُوطٍ عَلَى "الْمَهَارَقِ"، أَيِّ الْقِرَاطِيسِ. وَكَانَ
 الْمَلِكُ عُمَرُ بْنُ هَنْدَ قَدْ أَصْلَحَ بَيْنَ الْطَّرَفَيْنِ بِحَلْفٍ سُمِّيَّ: "حَلْفُ ذِي
 الْمَحَازِ" وَأَخِذَ عَلَيْهِمِ الْمَوَاثِيقِ وَالرَّهَائِنِ. وَيَسْتَوْقِنُ الْمَهْوُدُ وَالْأَحْلَافُ
 وَالْمَوَاثِيقُ بِتَوْقِيعِ الْمُتَحَالفِينَ وَطَبَعَ خَوَاتِيمُهُمْ فِي أَسْفَلِهَا. وَشَهَادَاتُ الشَّهُودِ
 عَلَى صَحَّةِ الْعُقُودِ وَالْأَوْامِرِ الْمُلْكِيَّةِ مُعْرُوفَةٌ عِنْدَ أَهْلِ الْيَمَنِ، وَكَذَلِكَ عِنْدَ

أهل مكة، وهم قوم تجارة وأصحاب صالح، ولهم عقود ومواثيق ومعاهدات مع غيرهم من أهل القرى وسادات القبائل. ولما كانت مراسيم الأحلاف من الأمور المهمة والأحداث الخطيرة اقتربت من أجل ذلك بتقديم الطعام للمتحالفين، فيجلس المتحالفون من جميع الفرقاء على طعام واحد كالذي حدث من تقديم عبد الله بن جدعان الطعام للمتحالفين في "حلف الفضول". وقد تكون الوليمة نفسها مظهراً من مظاهر مراسيم عقد الأحلاف لما للخبز والملح من أثر عند العرب. فعلى من يأكل خبز رجل وملحه أن يوفى له. وهذا يعني الغادر ويؤيّن لعدم مراعاته حرمة الخبز والملح، وهي حرمة تكاد تصل إلى حرمة الدم والرَّحْم.

دُنَانَاتِهِمْ: جاء في "نهاية الأرب" للتويري أن العرب لم يكونوا كلامهم على دين واحد، بل عدة أديان: فصِنْفٌ منهم أنكروا الخالق والبعث وقالوا بالطبع المُحْيِي والدهر المُفْتَنِي، وصنف اعترفوا بالخالق وأنكروا البعث، وصنف عبدوا أصنام قوم نوح، إما بعينها وإما بأسمائها: فكان لكلب وَدْ، ولهذيل سُوَاع، ولقسم من اليمن يغوث، ولذي كلاب نسر، ولمدان يعوق، ولثقيف اللات، ولقرיש وبني كهانة العَزَى، وللأوس والخزرج مناة. وكان هَبَل على ظهر الكعبة، وهو أعظم أصنامهم، واساف ونائلة على الصفا والمروة. وكان منهم من يميل إلى الصابة ويعتقد في أنواع المنازل اعتقاد النجمين في الكواكب السبعة السيارة، ويعتقدون أنها فعالة بأنفسها،

ويقولون: مُطِرُّنا بَنْوَةُ الْكَوَافِكَ . وكان منهم من يعبد الملائكة أو يعبد الجن. ليس ذلك فقط، بل كانت لهم أحكام يديرون بها: فكانوا يبحرون البيت ويعمرون ويُحرِّمون ويطوفون ويَسْعُون ويقفون المواقف ويرمون الجمار ويغسلون من الجنابة ويدعون المضمة والاستنشاق وفرق الرأس والسوالك والاستجاء وتقليم الأظفار وتف الإبط، ولا ينكحون الأمهات ولا البنات، فجاء الإسلام بابقاء ذلك على وجه مخصوص. وكانوا يعيشون المزروع بأمرأة أبيه ويسمونه: "الضيئن"، ويقطعون يد السارق اليمنى. وكانوا يجمعون بين الآخرين، فجاءت الشريعة بمنع هذا الجمع. وكانوا يُعدّون الظهار طلاقاً، وتعتَّد المرأة عن الوفاة بمحول. وكانوا إذا لبس عليهم أمر رداء إلى كهنتهم، الذين يدعون أن لهم أتباعاً من الجن. وكانوا يقولون على عيافة الطير وزجره في حركاتهم ومقاصدهم: تارة بالاعتماد على اسم الطائر، وتارة بطيرانه يميناً أو شمالاً، وتارة بصوته ومقدار ذلك الصوت، وتارة بمسقطه الذي يسقط فيه، فجاءت الشريعة بابطال ذلك.

علومهم ومعارفهم: كان العرب يتلذّلون العزائم لأصنامهم ويرقصون مرضاهم لإخراج الشياطين من أجسادهم، وكان اعتقادهم أن تقليد نهيق الحمير ينبع انتشار الوباء، وأن شرب دماء الملوك يشفى من الخبل. كما كانوا يعالجون بالعقاقير النباتية والأشربة، وخصوصاً العسل، الذي كان أساس العلاج في أمراض البطن. وتحجيء الحمامات والكُنْى على رأس قائمة

الدواء عندهم، ومن هنا جاء المثل المشهور: "آخر الدواء الكي". وكثيراً ما كانوا يعالجون بالبتر، مع وقف تزيف الدم بالنار باستخدام شفرة محمّاة لقطع العضو المراد بتره. ومن طرقوهم في العلاج أيضاً أنهم كانوا يأمرون الأحول بإدامة النظر إلى رَحْى دائرة. كذلك كانوا يعتقدون أن المخروح إذا شرب ماءً مات، وأن شرب الماء الحار يُذْهِب الرُّوعَ عن المرأة، وأن شرب دم السادة يشفى من داء الكلب، وأن عظام الميت تبرئ من الجنون. وفيتهم مما تُعْجِب به العربية من الفاظ العلل والعقاقير أن العرب عرفوا كثيراً من الأمراض وعلاجاتها. ويرى جرجى زيدان فى كتابه: "تاريخ آداب اللغة العربية" أن معرفة العرب الجاهليين لأسماء أعضاء الجسم على التحوى الملاحظ فى لغتهم يدل على أنهم كانوا مهرة فى تشريح الجسد، وهو ما اتفق به الأطباء العرب فى عصور النهضة العربية بعد الإسلام. ومن أطبائهم فى الجahلية الحارث بن كلدة والنضر بن الحارث، اللذان أفادا معارفهم ومارساتهم الطبية من رحلاتهما إلى بلاد فارس واحتكاكهما بأطبائهما. أما فى ميدان البيطرة فقد كانت لهم معرفة جيدة بشؤون الخيل وأمراضها وطرق علاجها، وبنع منهن عدد من البياطرة كالعاصر بن وائل. وقد وضع العلماء فى العصر العباسى عدداً من الكتب عن الخيل اعتمدوا فى تأليفها على ما جمعوه من المعارف العربية فى هذا السبيل.

ومن المعارف الطبيعية عندهم مقدرتُهم على تخمين وجود الماء في مكان ما من تشمُّم تربته أو نباتاته، وتفوقُهم المذهل في اققاء الآثار والاستدلال منها على كثير من السمات الشخصية لمن يقتلون أثره، حتى ليُستطعُون التفرقة بين قدم المرأة وقدم الرجل، وبين قدم الْبَكْرِ وقدم التَّيْبِ، وبين قدم العاقل وقدم الأحمق، وبين قدم الأعمى وقدم المبصر مثلاً. وبالمثل كانت لهم بصيرة راسخة في ميدان الفراسة، وهي الاستدلال بهيئة الشخص على طباعه وأخلاقه، فضلاً عن براعتهم في توقي نزول الغيث من ألوان الغيوم وأشكالها، وتفوقهم في ميدان النجوم والاهتداء بها في باديئهم المتناوحة الأطراف. وكانوا ينسبون المطر والريح والبرد والحر إلى تلك النجوم. كما عرفوا موقع الكواكب والنجوم وأبراجها، ومنازل الشمس والقمر. وكانت لهم أساطير وخرافات تتصل بالأجرام السماوية، فكانوا يتحدثون عنها كما لو كانت بشرًا تحارب فيما بينها وتزاوج، بل ألهوها في بعض الأحيان. ومن تشخيصهم لها قوله إن الدَّبَران أراد أن ينخطب الثَّرَيَا وتتوسَّط القمر له عندها، إلا أنها رفضته قائلة: ماذا أفعل بهذا السُّبُرُوت الذي لا مال له؟ فجمع الدَّبَران قلاصه كي يقدمها مهرا لها وظل يبعها بها حتى ترضاه زوجا، ولا يزال يفعل ذلك حتى اليوم. وهذه المعارف والعلوم هي وليدة الخبرة والتجربة

والأوهام جمِيعاً، إلى جانب ما أخذوه عن الأسم المجاورة كالفرس والروم والكلدان.

فنونهم: لم يكن العرب في الجاهلية يجهلون التصوير على الجدران، إذ كانت على حواطط الكعبة الشريفة آنذاك عدد من الصور منها صور إبراهيم وعيسى وأمه عليهم السلام. وثمَّ تقوش ثُودية وصفوية ونبطية عشر عليها في العصر الحديث محفورة في الحجر تمثيل الله وبشراً وحيوانات. وذكر الهمданى في كتابه: "الإكليل" أنه كان هناك جدار أمام أحد القصور الملكية القديمة في اليمن عليه صورة الشمس والمحلل، كما تحدث عن قصر آخر قدِيم بدماء مملوءة جدرانه بالصور. كذلك عشر المنقبون الغربيون في اليمن على تقوش جدارية تصور ناساً من تلك البلاد بعضهم راجل، وبعضهم راكب فرسه، وبعضهم يقدم قرباناً للأوثان.

وبالإضافة إلى ما تقدم كان كثير من ثياب العرب في الجاهلية منقوشاً بأنواع التصاوير المختلفة كتصاوير الزحال، وهي صور الإبل بما يوضع على ظهرها من أكوار. ويسمى الثوب المنقوش بهذه الطريقة: "المرحَّل". ومن الشواهد على ذلك البيتُ التالي لامرئ القيس، الذي يتحدث فيه عن خروجه مع صاحبه ليلاً يتسبّب بها في هدوء كيلاً يشعر بهما أحد، وقد أرخت ذيل مِرْطَلها "المرحَّل" للتعفية على آثارهما: خَرَجْتُ بِهَا نَشِي بَحْرَ وَرَاعَنَا عَلَى أَثْرِنَا ذِيلَ مِرْطَلِ مُرْحَّلِ

كما عرف الجاهليون "الثياب المضدة"، وهي الثياب المقوش عليها صور الأعضاد، أو التي عليها صورة العلم في موضع العضد منها. ومن ذلك قول زهير بن أبي سلمى في وصف بقرة وحشية:

فجالت على وحشيتها وكأنها مُرَبَّلةٌ مِنْ رَازقِيْ مَعْضَدِيْ
وَثُمَّ بَيْتٌ لَأَمْرِيْ الْقَيْسِ يَذْكُرُ فِيهِ عَقُودًا مَفْرَةً تَزَينُ بِهَا بَعْضَ
صَوَاحِبِهِ مِنَ الْفَتَيَاتِ الْمَرْفَاتِ، وَهِيَ عَقُودٌ مَكْوَنَةٌ مِنْ قَطْعٍ ذَهْبِيَّةٍ عَلَى

شكل فرات الجراد:

غَرَانِرٌ فِي كِنْ وَصَوْنِ وَعَصْمَةٍ يُحَلِّيْنَ يَاقُوتًا وَشَذَّرًا مُنْقَرًا
وَفِي الْبَيْتَيْنِ التَّالِيَيْنِ لِعَبْدَةَ بْنَ الطَّبِيبِ وَصَفْ لِفِرَاشِ كَانَ يَجْلِسُ عَلَيْهِ
هُوَ وَنَدَامَاهُ فِي إِجْدِي الْخَانَاتِ، وَكَانَ مَرْسُومًا عَلَيْهِ صُورَ دِجَاجٍ وَأَسْوَدٍ
حَتَّى اتَّكَانَا عَلَى فُرْشٍ بَزَّيْنَاهَا مِنْ جَيْدِ الرَّقْمِ أَزْوَاجٌ تَهَاوِيلٌ
فِيهَا الدِّجَاجُ، وَفِيهَا الْأَسْدُ مُخْدَرٌ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ تُرَى فِيهَا نَمَائِيلٌ
كَذَلِكَ كَانَ لِلْعَرَبِ نَمَائِيلٌ يُشَرِّكُونَهَا مَعَ اللَّهِ فِي الْعِبَادَةِ، وَكَانَ فِي فَنَاءِ
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ عَشْرَاتِ الْأَصْنَامِ: مِنْهَا هُبَّلُ، الَّذِي كَانَ مَصْنُوعًا مِنْ عَقِيقٍ
أَحْمَرٍ عَلَى صُورَةِ إِنْسَانٍ لَهُ يَدٌ مِنْ ذَهَبٍ. وَمِنْهَا وَدٌّ، وَكَانَ عَلَى هِيَنَةِ رَجُلٍ
كَأَعْظَمِ مَا يَكُونُ الرِّجَالُ، وَعَلَيْهِ رِداءً وَإِزارٌ، وَقَدْ تَقْلِدَ سِيفًا وَشَنَبَّ
قَوْسًا. وَوَرَدَ فِي "مَرْوِجَ الْذَّهَبِ" أَنَّهُ كَانَ عَلَى كُلِّ مِنْ يَمِينِ قَبْرِ حَاتِمِ الطَّاغِيَّ
وَيَسَارِهِ نَمَائِيلٌ مِنْ حَجَرٍ أَبْيَضٍ لِأَرْبِيعِ نَسْوَةٍ فِي غَايَةِ الْجَمَالِ نَاسِرَاتٍ
شَعُورٌ هُنَّ كَأَنَّهُنْ يَنْحُنُ عَلَيْهِ. وَيَقُصُّ السَّهِيلِيُّ فِي كِتَابِهِ: "الرَّوْضَ الْأَلْفَ" أَنَّهُ

كان يوجد بقليس صناعات مثلاً: أحد هما مثال رجل طوله سبعون ذراعاً، والآخر لزوجته. كما جاء في "معجم البلدان" لياقوت الحموي أنه كان فوق قصر غمدان باليمين مجلس أقيم على كل ركك من أركانه مثال أسد مصنوع من شبهه أو مثال نسر طائر. وأكثُر في بعض المغارور اليمنية في العصر الحديث تماثيل رجال ونساء وأبقار مكتوب عليها بالحميرية. كما كانت بنات العرب يلبسن تماثيل صغار يسمينها: "الجواري" و"البنات". وفي الشعر العربي القديم كثيراً ما يشبه الشعراء حبائِهم بالدمية والتمثال، ومنه قول النابغة في وصف امرأة فاتنة:

كالشمس يوم طلوعها بالأسعد بهيج متى يرها يهل ويسبح بنيت باجر شاد وقرميد	قامَتْ تَرَاهِيَ بَيْنَ سَجْفَسِيَّ كَلْيَةَ أَوْ دُرَّةَ صَدَقَيَّةَ عَوَاصِهَا أَوْ دُنْيَةَ مِنْ مَرْتَمِرِ مَرْفَوْعَةَ
--	---

وقول امرئ القيس:

وَيَا رَبَّ يَمِّنْ قَدْ لَهَوْتُ وَلَيْلَةَ بِإِنْسَانَةِ كَانَهَا خَطُّ تَشَالِ
أَنَّا مِنْهُمْ: وأيام العرب في الجاهلية أكثر من أن تُحصى، وسوف نكتفى هنا ببعض الواقع المشهورة: فمنها يوم البسوس، وهو من أعظم حروب العرب، وكان بين بكر بن وائل وتغلب بن وائل، وكان للبسوس خاله جستاس ناقة فرأها كليب بن ربعة تكسر بيض حمام موجوداً في حمام، فرمى ضرعها بسهم، فوثب جستاس على كليب فقتله، فهاجت الحرب بسبب ذلك، ودامَت بين الفريقين أربعين سنة. ويوم داحس، وكان عبد

القيس على فزارة، ودام سنين طوالاً هلك فيها الكثير، وكان سببه مسابقة
 بين الحيل. ويوم ذي قار، وهو أيضاً من أعظم أيام العرب، وكان كسرى
 إبرويز قد أغرى بنى شيبان جيشاً فظفر به الشيبانيون، وهو أول يوم
 انتصرت فيه العرب على العجم، وقد خلد الأعشى ذلك النصر المؤزر في
 قصيدة رائعة له. ويوم السمار بين بكر وتغلب، وقد حلّ في أحد الفريقين
 رؤوسهم لتكون علامه لهم. ويوم بعاث بين بني الأوس والخزرج، وله ذكر في
 صحيح البخاري. ويوم الدرك بين الأوس والخزرج أيضاً. ويوم نجران، وكان
 لبني تميم على بني الحارث بن كعب. ويوم ذي الابل، وكان تغلب على لخم
 وعمرو بن هند. ويوم الذنائب، وهو لغستان على لخم ونجران. ويوم
 القصيبة، ويقال: القصيبة، وكان لعمرو بن هند على تميم. ويوم النصيح،
 وهو لقيس على أهل اليمن، وقيل: يوم المصيح. ويوم الصفقة، وسمى
 كذلك لأن كسرى أصفع الباب على بني تميم في حصن المشقر، ويسمى
 أيضاً: يوم المشقر، والمشقر حصن بالبحرين. ويوم البردان، وهو من أيام
 التحطانيين فيما بينهم. وقد وقع لحجر أكل المرار من كندة (وهو أبو امرئ
 القيس كبير شعراء الجاهلية) على زيد بن الهبولة من قضاعة. ويوم عين
 أبياغ، وعين أبياغ وارد الأنبار على طريق الفرات إلى الشام، وقد وقع
 للحارث الأعرج بن جبلة ملك العرب بالشام على المنذر بن ماء السماء
 ملك العرب بالحيرة. ويوم حليمة، وحليمة هي بنت الحارث، وبهذا اليوم

ضرِبَ المثل فقيل: "ما يوم حليمة بَسِرٌ"، وهو أيضًا للحارث الأعرج الحيري على المنذر بن ماء السماء الغساني. ويوم خزان، لمَعْدُ على مَذْحِجٍ، وخزان جبل ما بين البصرة إلى مكّة، وهو من أعظم أيام العرب في الجاهلية، وكانت مَعْدٌ لا تستنصف من اليمن، ولم تزل اليمن قاهرة لها حتى هذا اليوم فانتصرت معد، ولم تزل لها المنعة حتى جاء الإسلام. ويوم حُجْرٌ، وهو لبني أسد على حُجْرٍ (والد امرئ القيس)، وحجر ملك من ملوك كندة. ويوم الأياد لبني يربوع على بكر، وأياد موضع بالحزن لبني يربوع بين الكوفة وفيدي، ويسمى أيضًا: "يوم العظالة، ويوم الإفاقفة، ويوم مليحة، ويوم أعشاش". وإنما سمي: "يوم العظالة" لأنَّه قد تماطل على الرياسة فيه بسطام وهانى بن قبيصة ومغروف بن عمرو. ويوم اللوى لغطovan على هوزان، واللوى وادٌ من أودية بني سليم، وسببه أنَّ عبد الله بن الصمة، ومعه بنو جشم وبنو نصر أبناء معاوية بن بكر ابن هوزان، غرَا غطovan فظفر بهم وساق أموالهم ومضى بها. وحروب الفجَار بين كنانة وقيس، وسميت: "الفجَار" لأنَّها كانت في الأشهر الحرم، وهي الشهور التي يحرّمونها ففجَروا فيها، وهي فجَاران: الفجَار الأول ثلاثة أيام، والفجَار الثاني خمسة أيام في أربع سنين. وقد حضر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الفجَار مع أعمامه، وكان يتناولهم النَّبْل، واتَّهَتْ سنة ٥٨٩ م. ويوم بزاحة لضبة على إياد، وبزاحة ماء، وسببه أنَّ محرقاً الغساني وأخاه إياداً وطواقوف من العرب من تغلب وغيرهم

أغاروا على بني ضبة بن أذب بزاحة فاستاقوا النعم، فأتى الصريحُ بني ضبة فركبوا فأدركهم واقتلو قتالاً شديداً. ثم إن زيد الفوارس حمل على محرق فاعتنقه وأسره، وأسروا أخاه حبيش بن دلف السيدي، فقتلهما بنو ضبة، وهزم القوم، وأصيب منهم ناسٌ كثير، فقال في ذلك ابن القاف أخو بني شلبة:

نعم الفوارس يوم جيش محرقٍ لحقوا بهم يدعون: يا لضرار!
نيرانهم: كان للنار في حياة العرب دور كبير، إذ اتصلت بكثير من جوانب حياتهم من خرافات وأساطير وعادات وتقاليد وقيم وأوضاع اجتماعية وشعائر دينية، وهو ما يتضح من الكلام التالي الذي جمعناه من بعض الكتب عن النيران عند العرب وعددتها ووظائفها. ونبداً ببعض أنواعها: فال الأولى نار المزدلفة، وهي نار تقد بالمزدلفة من مشاعر الحج ليراها المنطلقون من عرفة، وأول من أوقدها قصي بن كلاب. الثانية نار الإستمار، إذ كانوا في الجاهلية إذا احتبس المطر جمعوا البقر وعقدوا في أدناها وعراقيبها السُّلْعُ والعُشَرُ ويصعدون بها في الجبل الوعر ويشعرون فيها النار، ويزعمون أن ذلك يؤدي إلى سقوط المطر. قال الشاعر:
أدعُ أنت بقوراً مسلمةً وسيلةً منك بين الله والمطر؟
الثالثة نار الحِلْف، وكانت إذا أرادوا عقد حلف أوددوا النار وعقدوا الحِلْف عندها فيذكرون خيرها ويدعون بالحرمان على من تقض العهد. وكانوا يطرحون فيها الملح والكربـيت، فإذا استشاطت قابـلـوا

للحالف: هذه النار تهدتك. يخوّفونه بها حتى يحافظ على العهد ولا يخلف كذبًا. فإن كان الحالف مبطلاً نكل، وإن كان بريئاً حلف. ولهذا سموها أيضاً: "نار المهوّل" و"الهولة". وذكر أنهم كانوا لا يقدون حلفاً إلا عليها.

الرابعة نار الطرد، وكانوا يقدونها خلف من يمضي ولا يحبون رجوعه (وهي تذكرنا بما يقوله المصريون من أنهم سيكسرن وراء من لا يريدون أن يروا وجهه كرة أخرى قلة ماء). الخامسة نار الحرب، إذ كانوا إذا أرادوا حرباً أو توّقعوا جيّساً أو قدوا ناراً على جبلهم ليبلغ الخبر أصحابهم، وهو نوع من أنواع اللغة، بيد أنها لغة بصرية لا صوتية. وقد يكون في قوله تعالى عن اليهود ومؤامراتهم على الإسلام والمسلمين ومحاولاتهم الدائبة لتأريث الحروب بينهم وبين الأسم الأخرى: "كُلُّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَاهَا اللَّهُ" إشارة إلى هذا. السادسة نار الحرّتين، وكانت في بلاد عبس، فإذا كان الليل أضاءت نار تسقط، أما بالنهار فيرى دخان مرتفع، وربما بدر منها عنق فأحرق من مربها، وقد يكون ظهرها، إن صحّ، راجعاً إلى أن الأرض التي تظهر فيها متشبعة بالنفط. السابعة نار السعالي، وتظهر للمتقرّ (أى المنقطع في الفقر) فيتبعها قتهوي به الغول على زعمهم. واضح أن الأمر هنا لا يعود أن يكون خرافات من خرافاتهم. الثامنة نار الصيد، وهي نار تُقدّ للظباء تغشاها إذا نظرت إليها. التاسعة

نار الأسد، وهي نار تقد إذا خافوا الأسد لينفر عنهم، فإن من شأنه النفار عن النار. وفي الريف المصري كما، ونحن صغار، نسمع من الفلاحين أن الذئب يخشي النار خشية شديدة. ولهذا كان إذا تأخر أحدهم في الحقل ليلاً أشعل ناراً وبقي يحوارها حتى لا يعود عليه الذئب فيفترسه. العاشرة نار القرى، وهي نار تقد ليلاً ليراهما الأضياف فيهدوا إليها.

الحادية عشرة نار السليم، وهو المنسوع، وكانوا يوقدونها للملسوع إذا لدغ، وكذلك المجروح إذا نزف دمه والمضروب بالسياط ومن عشه الكلب، ويصادرونها بها كي لا يناموا فيشتد الأمر بهم فيؤديهم إلى التهلكة. وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فعل القراء لم ينسوا ما حدث منذ سنوات حين استطاع أحد اليهود في العاصمة الأردنية حقن خالد مشعل أحد أبطال حماس بحقنة سم في أذنه، فاتصل الملك حسين على الفور بالمسؤولين الإسرائيليين كي يمدوه بالتربيق الذي يبطل مفعول هذه الحقنة. وأذكر أن الأطباء المعالجين شددوا في نصح مشعل بأن يغالب النوم بكل ما عنده من إرادة كيلا تغفل عينه أبداً مهما تكون الظروف إلى أن يصل التربيق ويسم حقنه به، ولا مات. الثانية عشرة نار الفداء، ويقال في تفسيرها إن ملوكهم كانوا إذا أسرروا نساء قبيلة من القبائل خرجت إليهم السادة للفداء أو الاستيهاب، فيكرهون أن يعرضوا النساء نهاراً فيقتضحن أو في الظلمة فيخفى قدر ما يحبسونه لأنفسهم من الصفي فيوقدون النار لعرضهن.

الثالثة عشرة نار الوَسْم، وهي النار التي يسم بها الرجل العربي إبله.
 الرابعة عشرة نار الْحَبَّاجِب، وهي كل نار لا أصل لها، مثل الشرار الذي
 ينقدح من نعال الدواب... الخ.

أسواقهم: هي تجمعات تجارية واجتماعية وثقافية كانت تُعقد في أماكن مختلفة من شبه الجزيرة بطريقة دورية، ويأتيها العرب من كل الأرجاء فيتاجرون ويسمعون الموعظ والخطب ويتنافرون ويتنازرون ويستعون في ذلك أسرارهم عند القبائل الأخرى. كما كانوا يتناشدون الشعر ويتحاكمون مبدعوه إلى كبارهم كالنابغة الذبياني، الذي كانت تُضرب له قبة حمراء من أدم فيحكم بين الشعراء وتكون كلمته هي الفاصلة. وكانت القصائد التي تحوز إعجاب هؤلاء الحكماء تطير في أرجاء الجزيرة ويتناشدوها العرب في كل مكان. كما كان للعرب حكام يرجعون إليهم في أمورهم الأخرى ويتحاكمون أمامهم في منافراتهم ومواريثهم وبياهم ودماهم لأنهم لم يكن لهم دين يرجعون إلى شرائعه، فكانوا يحكمون أهل الشرف والصدق والأمانة والرئاسة والسن والمجده والتجربة، ومنهم أكثم بن صيفي وحاجب بن زراة والأقرع بن حابس وعامر بن الظرب وعبد المطلب وأبو طالب وصفوان بن أمية وغيرهم. وكان في نساء العرب أيام الجاهلية أيضا حاكمات اشتهرن بإصابة الحكم وفصل الخصومات وحسن الرأي، منهان صُخْر بنت لقمان، وابنة الحسن، وجمعة بنت حابس الإيادي، وخصيلة بنت عامر بن الظرب

العَدْوَانِي، وَحَذَّامُ بْنُ الريان. وَكَانَ امْتِنَاعُ النَّاسِ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمُ عَنِ
إِيَّاهُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا يُسَاوِدُ إِلَى حَدٍ مَا فِي الإِقْبَالِ عَلَى هَذِهِ الْأَسْوَاقِ.
وَالْمَقْصُودُ هُنَا الْأَسْوَاقُ الْكَبِيرِ، أَمَّا الْأَسْوَاقُ الْمُخْلِيَّةُ الصَّغِيرِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ
تُعْقَدُ أَسْبُوعِيًّا فَكَثِيرَةً جَدًا، وَلَيْسَ مِنْ اهْتِمَامِنَا فِي هَذَا السِّيَاقِ. وَقَدْ
عَرَفَتِ الْجَزِيرَةُ الْعَرَبِيَّةُ عِدَّاً غَيْرَ قَلِيلًا مِنْ تُلُوكَ الْأَسْوَاقِ الْمُوْسَمِيَّةِ، إِذَا بَلَغَتْ
أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِينَ سُوقًا: مِنْ أَهْمَهَا سُوقُ دُوْمَةِ الْجَنْدُلِ، وَكَانَتْ تَقَعُ عِنْدَ
الْقَاءِ عَدْدٍ مِنِ الْطَّرُقِ الْمُهِمَّةِ بَيْنِ الْعَرَاقِ وَالشَّامِ وَجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَمُوسِمُهَا
شَهْرُ رَبِيعِ الْأَوَّلِ إِلَى نَصْفِهِ، وَمَوْقِعُهَا مِدِينَةُ الْجَوْفِ الْحَالِيَّةِ. وَكَانَ يُعْشَرُ مِنْ
يَحْضُورِهَا (أَيْ يَأْخُذُ مِنْهُمْ قِيمَةَ الْعُشْرِ مِنْ رَبِيعِ تَجَارِتِهِمْ) رُؤْسَاءُ الْآلِ بَدْرِيَّةِ
دُوْمَةِ الْجَنْدُلِ، وَرِبِّيَا غَلَبَ عَلَى السُّوقِ بَنُوكَلْبٍ فَيُعْشَرُهُمْ بَعْضُ رُؤْسَاءِ
كَلْبٍ. وَكَانَ الْعُشْرُ يُؤْخَذُ عَيْنًا أَوْ نَقْدًا بِحَسْبِ الشُّنْ، وَلَا كَانَ النَّقْدُ قَلِيلًا
إِذَا ذَاكَ كَانَ الدُّفُعُ عَيْنًا هُوَ الْعَالِبُ فِي أَدَاءِ هَذِهِ الْفِضْرَيَّةِ. ثُمَّ سُوقُ الْمُشَقَّرِ،
وَالْمُشَقَّرُ حَصْنٌ بِالْبَحْرَيْنِ قَرْبَ مِدِينَةِ هَبْرَ، وَتُعْقَدُ سُوقُهُ فِي جُمَادَى
الْآخِرَةِ. ثُمَّ سُوقُ هَبْرَ مِنْ أَرْضِ الْبَحْرَيْنِ، وَهِيَ سُوقُ التَّمَرِ الَّذِي يُضَرَّبُ
بِهِ الْمَثَلُ فِيَقَالُ: "كَجَالِبِ التَّمَرِ إِلَى هَبْرَ"، وَهُوَ يَسَاوِي الْمَثَلَ الْمَصْرِيِّ: "يَبِعُ
الْمَاءَ فِي حَارَةِ السَّقَائِنِ"، وَكَانَتْ تُعْقَدُ فِي رَبِيعِ الْآخِرِ، وَكَانَ يُعْشَرُ مِرْتَادِهَا
الْمَنْذُرُ بْنُ سَاوَى أَحَدُ بْنِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دَارِمٍ. ثُمَّ سُوقُ عُمَانَ، وَكَانَتْ
تَقَصِّدُهَا الْعَرَبُ بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنْ هَبْرَ، وَيَقْيِمُونَ بِهَا حَتَّى آخرِ جُمَادَى

الأولى، وتحتاج فيها تجارة الهند وفارس والحبشة والعرب. ثم سوق حُباشة، وهي سوق تهامة القديمة، وكانت تقام في رجب، وقد ورد أن الرسول دخل إليها بتجارة السيدة خديجة رضي الله عنها ذات مرأة هو وغلامها ميسرة أيام أن كان يشغل عندها قبل البعثة فرجحا رجحا حسنا. ثم سوق صُحَار، وهي مدينة عمانية تقع على البحر، وكانت سوقها تعقد في رجب. ثم سوق الشِّحْر على الساحل الجنوبي بين عدن وعمان، وكانت سوقاً لتجارة البحر والبر، وتعقد في منتصف شعبان. ثم سوق عَدَن، وينتقل إليها العرب بعد انتهاءهم من سوق الشِّحْر، وتُقام في الأيام العشر الأوائل من رمضان. ثم سوق صنعاء، وتستمر من منتصف رمضان إلى آخره. ثم سوق حضرموت، وكان انعقادها في منتصف ذي القعدة، وربما أقيمت هي وعُكاظ في يوم واحد، فيتوجه بعضهم إلى هذه، وبعضهم إلى تلك.

أما أشهر هذه الأسواق على الإطلاق فأربعة هي سوق عكاظ وكان مكانها بين مكة والطائف، وإن كانت إلى الطائف أقرب، وكانت تستمر عشرين يوماً من أول ذي القعدة إلى العشرين منه، وهي أشهر أسواق العرب وأعظمها شأناً. ولم تكن عكاظ سوقاً تجارية فحسب، بل كانت أيضاً سوقاً أدبية يجتمع فيها الشعراء من كل صُفْع، ولهم حُكْمُون كالنابغة الذبياني تضرب لهم القباب، وقولهم في الشعر والأدب لا يُرَد. كما كانت

كذلك مكاناً لأصحاب الدعوات الإصلاحية مثل قُسْ بن ساعدة الإيادي، الذي كان يخطب في الناس ويدركهم بعظمة الحال. وورد أنَّ الرَّسُول رأى قُسَاً في تلك السوق على جمل أحمر. ومن خطبائها المشهورين أيضاً سَحْبَانَ وَائِلَ، الذي ضُربَ به المثل فقيل: "أخطب من سَحْبَانَ". ويقال إنه إذا خطب سَيْلَ عرَقاً ولا يعيدَ كلامَة ولا يتوقف ولا يقعد حتى ينتهي من كلامه. وكان الخطباء يخطبون وعليهم العمامات، وبأيديهم المخابر، ويعتمدون على الأرض بالقصى ويشيرون بالعصا والقنا راكبين أو واقفين على مرتفع من الأرض. وكانت شؤون هذه السوق لقيس بن عَيْلان وشيف، وهي سوق عامة ليس فيها عشار، وكانت تحضرها قريش وخزاعة وهوارن وغطفان والأحابيش وطوائف من أحياء العرب يؤمنونها من العراق والبحرين واليماة وعمان واليمن وغيرها. ثم هناك سوق مَجَنة، وتعقد بأسفل مكة بَرَ الظهران. وكان الناس يتبلون إليها بعد عكاظ ويقيمون بها الليليات العشر أو العشرين المتبقية من ذي القعدة حتى يَرُوا هلال ذي الحجة فينقلوا إلى ذي الحجاز للحج. وهي، وإن كانت أقل شأنًا من عكاظ وذى الحجاز، تساويهما في نظر المُحرِّمين من العرب وتتمتع باحترامهما جميua حتى كانت قريش وغيرها من العرب تقول: "لا تُحضروا سوق عكاظ ومجنة وذى الحجاز إلا مُحرِّمين بالحج". ثم سوق ذي الحجاز، وهي على مسافة ثلاثة أميال من عرفات بناحية جبل كنكب، أو كانت

تعقد بيني وبين مكة وعرفات، على خلاف في ذلك، وكانت تعتقد في ديار هذيل حين يهل ذو الحجة فينصرف الناس من سوق مجنة إليها، ويقيمون بها حتى اليوم الثامن من ذلك الشهر، وهو يوم التروية. وهذه السوق تتلو عكاظ في الأهمية، وكانت تؤمها وفود الحجاج من سائر العرب ممن شهد الأسواق الأخرى أو لم يشهدها. ويحرى فيها ما يحرى في غيرها من البيع والشراء وتناشد الأشعار والمفاخرة والمفادة. وروي أنَّ الرسول عليه السلام كان يؤمها لبث دعوته إلى الإسلام. وكان للأسواق دور كبير في التقارب بين قبائل العرب لغةً وأدبًا، فضلاً عما كانت تحدثه من اتعاش اقتصادي بينهم.

ولعل من المستحسن أن ترث قليلاً عند عكاظ، أهم أسواق العرب كلها، لتقديم صورة لها مفصلة بعض الشيء: لقد كانت تقع في الجنوب الشرقي من مكة، وعلى بعد عشرة أميال من الطائف ونحو ثلاثة أميالاً من مكة في وادٍ فسيح فيه نخيل وأعشاب وماء. وتكون أهميتها في وقوع الحج بعدها مباشرةً وفي قربها كذلك من مكة. فمن أراد الحج من العرب سهل عليه أن يجمع بين الغرض التجاري والاجتماعي بغضشهانه سوق عكاظ وبين الغرض الديني بالحج. كما كانت تعتقد في شهر من الأشهر الحرم لا تُترع الأسنة فيه حتى ليلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه فلا يزعجه تعظيمًا له. وفي انعقاد السوق في الشهر الحرام مزنة واضحة، وهي أن يأمن

التجار فيه على أرواحهم وأموالهم. وكان يأتي إلى عكاظ قبائل قريش وهوازن وغطفان والأحابيش وطوائف من أبناء العرب فتنزل كل قبيلة في مكان خاص بها . وفي التاريخ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب مع العباس بن عبد المطلب إلى عكاظ ليرى منازل القبائل فيها، ويروى كذلك أنه عليه السلام جاء كدمة حيث ينزلون بعكاظ. كما كان يشترك فيها أهل اليمن والخيرة. ويقول الأزرقي: كانت في عكاظ أشياء ليست في أسواق العرب، إذ كان الملك من ملوك اليمن يبعث بالسيف الجيد والخلة الحسنة والمركب الفاره، فيقف بها وينادي عليه ليأخذه أعز العرب، يراد بذلك معرفة الشرف والسيد، فیأمره بالوفادة عليه ويحسن صلته وجائزته. ويروي ابن الأثير أن النعمان بن المنذر لما ملكه كسرى إبرويز على الحيرة كان يجهز كل عام لطيمة، وهي القافلة من التجارة، لتابع عكاظ. فترى من هذا أن بلاد العرب جميعها كانت تشارك في هذه السوق.

إذا كان الحج خرج الناس إلى عكاظ فيصيرون به يوم هلال ذي القعدة فيقيمون به عشرين ليلة تتعقد فيها أسواقهم ويقوم على كل قبيلة أشرافها وقادتها، ويدخل بعضهم في بعض للبيع والشراء . فإذا مضت أيام السوق انصرفوا إلى مجنة فأقاموا بها عَشْرًا يتاجرون، فإذا رأوا هلال ذي الحجة انصرفوا إلى ذي الحجاز ثم إلى عرفة . وكانت قريش وغيرها من

العرب يقول: لا تحضرروا سوق عكاظ والجنة وذا الحجاز إلا مُحرّمين بالحج، وكانوا يستعظمون أن يرتكبوا شيئاً من المحارم أو يعتدى بعضهم على بعض في الأشهر الحرم. وكانت لسوق عكاظ عدة وظائف: فهي متجر تُعرض فيه السلع على اختلاف أنواعها من السيوف والأدَم والحرير والوكاء والحداء والبرُود من العصْب والوشْي والسمن، إلى جانب الرقيق وغيره. ولم تكن السلع التي تُعرض في تلك السوق مقصورة على منتجات جزيرة العرب وحدها، بل تباع فيها كذلك حاصلات الحيرة وفارس ومصر والشام والعراق. ويروون أنه قبل ابْعَث بخمسين سنة حضر السوق من نزار واليمن ما لم يرُوا أنه حضر مثله في سائر السنين، فباع الناس ما كان معهم من إبل وبقر وقد وابتاعوا أممَة مصر والشام والعراق.

وكانت للسوق، إلى جانب ذلك، وظائف اجتماعية مختلفة: فمن كانت له خصومة عظيمة انتظر موسم عكاظ. وكانوا إذا غدر الرجل أو جنى جنائية عظيمة انطلق أحدهم حتى يرفع له راية غدر هناك فيقوم الرجل فيخطب قائلاً: ألا إن فلان بن فلان غدر فاعرفوا وجهه، ولا تصاهروه ولا تحالفسوه، ولا تسمعوا منه قولاً. فإن أُغْتِب، والإأقام شاصاً يشبهه على رمح منصوب فلعنده الناس ورجموه. ومن كان له دُين على آخر أُفْتَرَه إلى عكاظ. ومن كان له حاجة استصرخ القبائل بعكاظ، ومن ذلك ما ذكره الأصفهانى من أن رجالاً من هوازن أُسِرْ فاستغاث أخوه

يقوم فلم يغشوه، فركب إلى موسم عكاظ وأتى منازل قبيلة مذحج يستصرخهم. وكثيراً ما تُخَذِّل السوق وسيلة للخطبة والزواج، فيروي صاحب "الأغاني" أنه اجتمع يزيد بن عبد المدان وعامر بن الطفيلي بموسم عكاظ، وقدم أمية بن الأسكن الكناني وتبعته ابنته له من أجمل أهل زمانها خطبها يزيد وعامر، فتردد أبوها ففخر كل منها بقومه وعدد فعاليه شِعراً. ومن كان صعلوكاً فاجروا خلعة قبيلته في سوق عكاظ وتبرأت منه ومن تصرفاته، متلماً فعلت خزانة حين خلعت قيس بن منقذ بسوق عكاظ وأشهدت الناس على ذلك معلنةً أنها لا تطالب بأية جريمة يرتكبها ضد أي إنسان. ومن كان داعياً إلى إصلاح اجتماعي أو ديني وجده فرصته في عكاظ حيث تجتمع القبائل من أنحاء الجزيرة كلها. وكثيراً ما وقف قيس بن ساعدة بسوق عكاظ يعظ ويخطب على جملٍ له، فيرغّب ويرهّب ويحذر وينذر. وعندما يُبعث النبي صلى الله عليه وسلم اتجه إلى دعوة الناس بعكاظ لأنها مجتمع القبائل، إذ كانت قبائل العرب على اختلافها من قحطانيين وعدنانيين تنزل بها، ويبعث ملك الحيرة تجارتة إليها، ويأتي التجار من مصر والشام والعراق. وكان ذلك الاجتماع أيضاً وسيلة من وسائل تفاهم القبائل وتقريب اللهجات وأخذ العرب بعضهم من بعض ما يرون أنه أليق بهم وأنسب لهم. كما كان التجار من البلدان المتعددة كالشام ومصر والعراق يُطلعون العرب على أشياء من أحوال تلك الأمم

الاجتماعية. وفوق هذا كانت عكاظ معرضاً للبلاغة ومدرسة يُلقى فيها الشعر والخطب، إذ كانت بها منابر يقوم عليها الخطيب فيعدد ما ثرث وأيام قومه من عام إلى عام. وكانت كل قبيلة تنزل في مكان خاص بها، ثم تلقي أفراد القبائل عند البيع والشراء أو في الحلقات المختلفة أو عند شجرة أو حول خطيب يخطب على منبر أو في قباب من أدم تقام هنا وهناك. وكان أشراف القبائل يتوافقون بالأسواق مع التجار لأن الملوك كانوا يخضون كل شريف بهم من الأرباح، فكان شريف كل بلد يحضر سوق بلده، إلا عكاظ فإنهم يتواافقون بها من كل أوب.



نبذة عن المؤلف

- إبراهيم عوض
- من مواليد قرية كامة الغابة - غربة في ٦ / ١ / ١٩٤٨
- تخرج من آداب القاهرة عام ١٩٧٠
- حصل على الدكتوراة من جامعة أوكسفورد عام ١٩٨٢
- أستاذ النقد الأدبي بجامعة عين شمس

- البريد الضوئي: Ibrahim_awad9@yahoo.com
- المؤلفات:

معركة الشعر الجاهلي بين الرافعي وطه حسين
المتنبي - دراسة جديدة لحياته وشخصيته
لغة المتنبي - دراسة تحليلية
المتنبي ب فإزاء القرن الإماماعيلي في تاريخ الإسلام (مترجم عن
الفرنسية مع تعليقات ودراسة)
المستشرقون والقرآن

ماذا بعد إعلان سلمان رشدي توبته؟ دراسة فنية و موضوعية
للآيات الشيطانية

الترجمة من الإنجليزية - منهج جديد
عنترة بن شداد - قضايا إنسانية وفنية
التابعة الجعدي وشعره
من ذخائر المكتبة العربية
السجع في القرآن (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)

جمال الدين الأفغاني - مراسلات ووثائق لم تنشر من قبل (مترجم عن الفرنسية)

فصل من النقد القصصي
سورة طه - دراسة لغوية وأسلوبية مقارنة
أصول الشعر العربي (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)
افتراءات الكاتبة البنجلاديشية تسليمة نسرين على الإسلام
والمسلمين - دراسة نقدية لرواية "العار"
مصدر القرآن - دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحي
المحمي

نقد القصة في مصر من بداياته حتى ١٩٨٠
د. محمد حسين هيكل أديباً وناقداً ومتفكراً إسلامياً
ثورة الإسلام - أستاذ جامعي يزعم أن حمداماً لم يكن إلا تاجراً
(ترجمة وتقدير)

مع الماحظ في رسالة "الرد على النصارى"
كاتب من جيل العملاقة: محمد لطفي جمعة - قراءة في فكره
الإسلامي

إبطال القبلة النبوية الملقة على السيرة النبوية - خطاب مفتوح إلى
الدكتور محمود على مراد في الدفاع عن سيرة ابن إسحاق
سورة يوسف - دراسة أسلوبية فنية مقارنة
سورة المائدة - دراسة أسلوبية فقهية مقارنة

المرايا المشوهة - دراسة حول الشعر العربي في ضوء الاتجاهات
النقدية الجديدة

القصاص محمود طاهر لاشين - حياته وفنه
في الشعر الجاهلي - تحليل وتذوق
في الشعر الإسلامي والأموي - تحليل وتذوق
في الشعر العباسي - تحليل وتذوق
في الشعر العربي الحديث - تحليل وتذوق
موقف القرآن الكريم والكتاب المقدس من العلم
أدباء سعوديون

شعر عبد الله الفيصل - دراسة فنية تحليلية
دراسات في المسرح

دراسات دينية مترجمة عن الإنجليزية

د. محمد مندور بين أوهام الادعاء العريضة وحقائق الواقع الصلبة
دائرة المعارف الإسلامية الاستشرافية - أضاليل وأباطيل
شعراء عباسيون

من الطبرى إلى سيد قطب - دراسات في مناهج التفسير ومذاهبه
القرآن والحديث - مقارنة أسلوبية
اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة
محمد لطفي جمعة وجيمس جويس
"وليمة لأعشاب البحر" بين قيم الإسلام وحرية الإبداع - قراءة نقدية
لكن حمدًا لا بوأكي له - الرسول يهان في مصر ونحن نائمون

مناهج النقد العربي الحديث
دفاع عن النحو والفصحي - الدعوة إلى العامية نطل برأسها من

جديد

عصمة القرآن الكريم وجهات المبشرين
الفرقان الحق: فضيحة العصر
لتحيا اللغة العربية يعيش سيبويه
التذوق الأدبي
الروض البهيج في دراسة "لامية الخليج"
سهل بن هارون وقصة التمر والثعلب - فصول مترجمة ومؤلفة
في الأدب المقارن - مباحث واجهادات
مختارات إنجليزية استشرافية عن الإسلام
نظرة على فن الكتابة عند العرب في القرن الثالث الهجري (مترجم
عن الفرنسية)

فصول في ثقافة العرب قبل الإسلام
بعد الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ - ماذا يقولون عن الإسلام؟
(نصوص وردود)

دراسات في النثر العربي الحديث
"مدخل إلى الأدب العربي" لـ هاملتون جب - قراءة نقدية (مع النص
الإنجليزي)
مسير التفسير - الضوابط والمناهج والاتجاهات

"الأدب العربي - نظرة عامة" لبير كاكا: عرض ومناقشة (مع النص الإنجليزي)

بشار بن بُرْد - الشخصية والفن
الحضارة الإسلامية - نصوص من القرآن والحديث ومحات من التاريخ
في التصوف وأدب المتصوفة
النساء في الإسلام - نسخ التفسير البطرياريكي للقرآن (النص الإنجليزي مع دراسة موازية)

الإسلام الديمقراطي المدني - الشركاء والموارد والاستراتيجيات
(ترجمة تقرير مؤسسة راند الأمريكية لعام ٢٠٠٣ عن الإسلام والمسلمين في أرجاء العالم)

من قضايا الدراسة الأدبية المقارنة
ست روايات مصرية مثيرة للجدل
هوامش على "تاريخ العرب" لفيليب حتى
أفكار مارقة: قراءة في كتابات بعض العلمانيين العرب
موسم الهجوم على الإسلام والمسلمين - مع "قسوة الغرماء" ليوسف
التعيد و"تيس عزازيل في مكة" ليوتا
"القرآن والمرأة" لأمينة ودود - النص الإنجليزي مع ست دراسات
عن النسوية الإسلامية

ثروت عكاشه بين الفكر والفن
علاوة على مثل هذا العدد من الدراسات والكتب المنشورة في
الموقع المشابكية المختلفة، وعلى رأسها موقعه الشخصي.

الفهرست

٥	كلمة الافتتاح:
١٣٠	- الشعر:
٧٩	- القصص:
١٢٥	- الأمثال:
١٧٣	- سجع الكهان:
١٩٩	- الخطيب:
٢٦٩	- المجتمع الجاهلي من القرآن:
- الأنساب والأحلاف والديانات والمعارف والفنون	
٣٣١	والأيام والتيران والأسواق:
٣٧٦	- نبذة عن المؤلف ..